التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير

سورة يونس سورة هود

سورة يوسف سورة الرعد

سورة إبراهيم

الدكتور محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد السابع



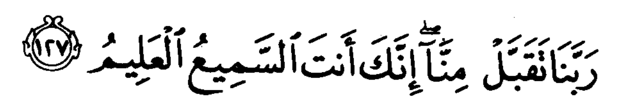
دار المعارف

مراجعة

د . عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم



صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « يونس » - عليه السلام - حاولت فيه أن أكشف عن بعض ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية وآداب عالية ، وهدايات جامعة ، وإرشادات حكيمة ، وحجج باهرة ، تقذف حقها على باطل الضالين فتدمغه فإذا هو زاهق ..

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ فى تفسيرها أن أسوق كلمة بين يديها ، تكون بمثابة التعريف بها ، وبمقاصدها الإجمالية .

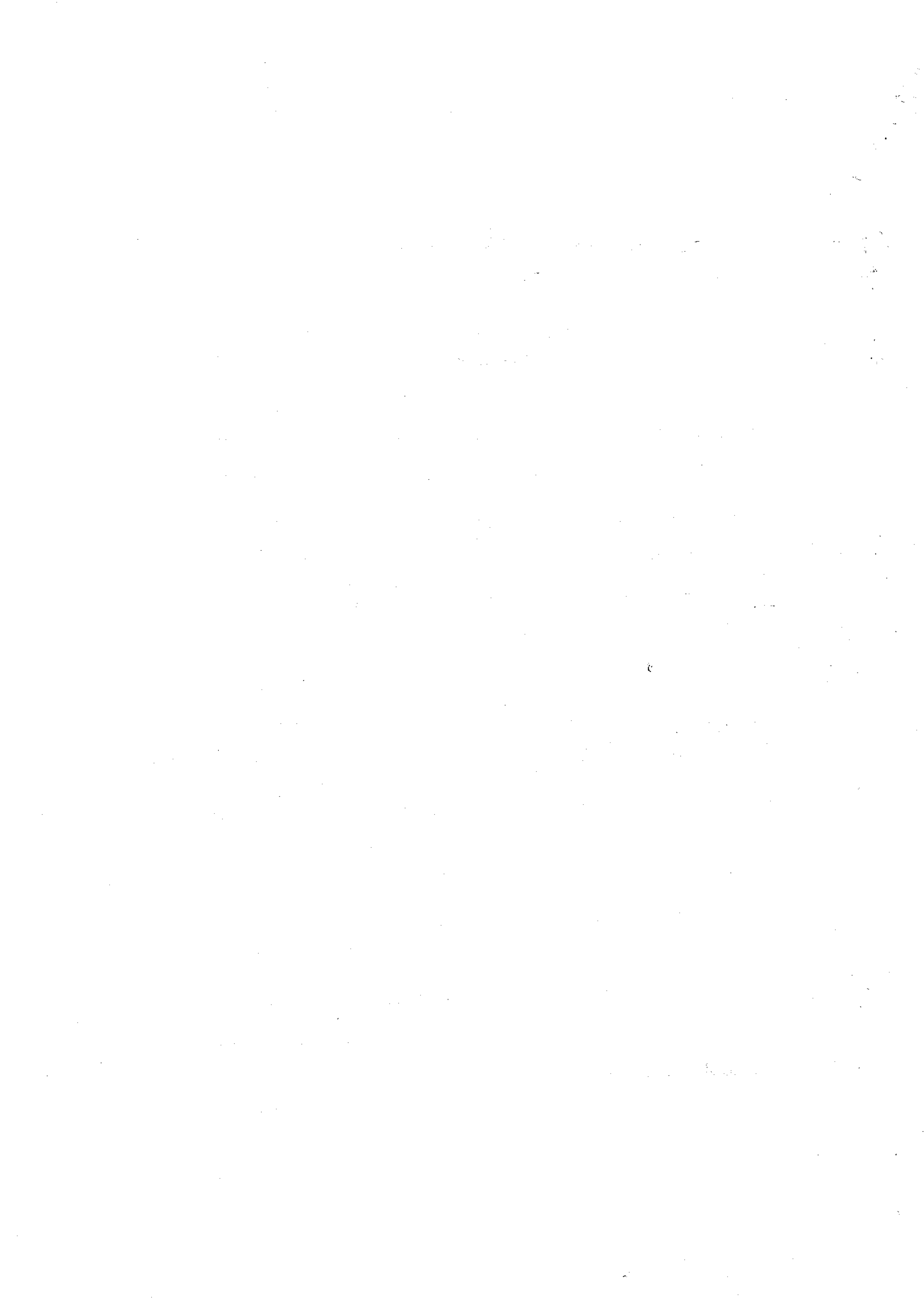
وأحمد الله - تعالى - أجزل الحمد وأوفاه ، أن وفقنى قبل ذلك لتفسير سور : الفاتحة ، البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة » ...

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، إنه أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تحريرا فى ١٧ من المحرم سنة ١٤٠٠ هـ
الموافق ٧ من ديسمبر سنة ١٩٧٩ م

المؤلف د . محمد سيد طنطاوى



تمهيد بين يدى السورة

١ - سورة يونس - عليه السلام - هى السورة العاشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سور : « الفاتحة ، البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة » .

٢ - وكان نزولها بعد سورة « الإسراء » .

٣ - وعدد آياتها : تسع ومائة آية عند الجمهور . وفى المصحف الشامى مائة وعشر آيات .

٤- وسميت بهذا الاسم تكريما ليونس - عليه السلام - ولقومه الذين آمنوا به واتبعوه قبل أن ينزل بهم العذاب ، وفى ذلك تقول السورة الكريمة : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾[1] .

٥ - وسورة يونس من السور المكية ، وعلى هذا سار المحققون من العلماء .

وقيل إنها مكية سوى الآية الأربعين منها وهى قوله - تعالى - ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴾ والآيتين الرابعة والتسعين ، والخامسة والتسعين وهما قوله - تعالى - : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ .

قال صاحب المنار : وقال السيوطى فى الإتقان : استثنى منها الآيات ٤٠ ، ٩٤، ٩٥ ، فقيل إنها مدنية نزلت فى اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين آية مكى ، والباقى مدنى ، حكاه ابن الفرس والسخاوى فى جمال القراء .

ثم قال صاحب المنار : وأقول إن موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية ، وهو مما لم تثبت به رواية ، وكون المراد بالذين يقرأون الكتاب فى الآية (٩٤) اليهود لا يقتضى أن تكون نزلت بالمدينة ، وبيان ذلك من وجهين :

أحدهما : أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ، ولذلك قال الرسول

---

(١) الآية ٩٨ .

- ﷺ - : « لا أشك ولا أسأل » ، وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس ،وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى .

وثانيهما : أن هذا المعنى نزل فى سورة مكية أخرى، كقوله - تعالى - فى سورة الإسراء : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - فى سورة الأنبياء : ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[2] .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن سورة يونس جميعها مكية ، كما قال المحققون من العلماء ، لأن الذين قالوا بوجود آية أو آيات مدنية فيها لم يأتوا برواية صحيحة تصلح مستندا لهم، ولأن السورة الكريمة من مطلعها إلى نهايتها تشاهد فيها سمات القرآن المكى واضحة جلية ، فهى تهتم بإثبات وحدانية الله ، وبإثبات صدق النبى - ﷺ - وبإثبات أن هذا القرآن من عند الله ، وأن البعث حق ، وأن ما أورده المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية ، قد تولت السورة الكريمة دحضه بأسلوب منطقى رصين ..

والذى يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وخشوع ، يراها فى مطلعها تتحدث عن سمو القرآن الكريم فى هدايته وإحكامه ، وعن موقف المشركين من النبى - ﷺ - ودعوته ، وعن الأدلة على وحدانية الله وقدرته .

قال - تعالى - : ﴿ الر . تلك آيات الكتاب الحكيم.أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ، أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

ثم نراها فى الربع الثانى منهاتصور بأسلوب حكيم طبيعة الإنسان فتقول ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ الآية ١٢ .

ثم تحكى مصارع الظالمين ، وأقوالهم الفاسدة ، ورد القرآن عليهم فتقول : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين.ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ .

وبعد أن تمضى السورة الكريمة فى دحض أقوال المشركين ، وفى بيان الطبائع البشرية ، نراها فى مطلع الربع الثالث . تصور لنا حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة الضالين ، فتقول :

---

(١) الآية ١٠١ .

(٢) الآية ٧ تفسير المنار جـ ١١ ص ١٤١ الطبعة الرابعة - مكتبة القاهرة .

﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ثم تأمر السورة الكريمة النبى - ﷺ - أن يسأل المشركين بأسلوب توبيخى عمن يرزقهم فى السموات والأرض ، وعمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، وعمن يهدى إلى الحق ، فتقول : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ .

وبعد أن تتحدى السورة الكريمة المشركين أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم . وتعلن عن عجزهم على رءوس الأشهاد ، تأخذ فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى تصوير جانب من أحوالهم فى حياتهم وبعد مماتهم فتقول :

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين . وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ..﴾ .

ثم نراها فى الربع الرابع توجه نداء إلى الناس كافة تدعوهم فيه إلى الإقبال على ما جاء به الرسول - ﷺ - من مواعظ فيها الشفاء لما فى الصدور ، وفيها الهداية لما فى النفوس فتقول :

﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ .

ثم تسوق جانبا من مظاهر قدرة الله النافذة ، وعلمه المحيط بكل شىء ، فتقول : ﴿ وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ .

وفى مطلع الربع الخامس منها تحكى لنا جانبا من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أنه نصحهم ، وذكرهم بآيات الله ، ولكنهم لم يستمعوا إليه ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان قال - تعالى - :

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ .

ثم تحكى لنا جانبا من قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون ، ومن المحاورات، والمجادلات التى دارت بينهما، ومن الدعوات المستجابة التى توجه بها موسى إلى خالقه، فتقول : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .

ثم نراها فى الربع السادس والأخير منها ، تحكى لنا ما قاله فرعون عندما أدركه الغرق ، كما تخبرنا عن النهاية الطيبة التى لقوم يونس – عليه السلام – بسبب إيمانهم ، ثم تسوق ألوانا من مظاهر قدرة الله ، ومن حكمه العادل بين عباده ، ومن رعايته لأوليائه ورسله فتقول : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ .

ثم تختم السورة الكريمة بتوجيه نداء إلى الناس تبين لهم فيه أن من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، وأن من ضل فإنما يضل عليها فتقول : ﴿ قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل.واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ .

* * *

تلك أهم المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنها نرى بوضوح أن السورة الكريمة قد عنيت عناية بارزة بإثبات وحدانية الله وقدرته النافذة ، وعلمه المحيط بكل شىء ، تارة عن طريق مخلوقاته التى يشاهدونها كما فى قوله – تعالى – : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ... ﴾ .

وتارة عن طريق اعترافهم بأن الله وحده هو خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم كما فى قوله – تعالى – : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ .

وتارة عن طريق لجوئهم إليه وحده لاسيما عند الشدائد والمحن ، كما حدث من فرعون عندما أدركه الغرق .

كذلك نرى السورة الكريمة قد عنيت بدعوة الناس إلى التدبر والتفكر وإلى الاعتبار بمصارع الظالمين ، وإلى عدم التعلق بزخرف الحياة الدنيا ..

﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون . إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

كذلك نرى السورة الكريمة قد اهتمت بالرد على الشبهات التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم ، وحول البعث وما فيه من ثواب وعقاب ...

فأثبتت أن هذا القرآن من عند الله ، وتحدتهم أن يأتوا بسورة من مثله فقالت : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

كما اثبتت أن يوم القيامة حق ، وأنهم لن ينجيهم من عذاب الله فى ذلك اليوم ندمهم أو ما يقدمونه من فداء فقالت : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

هذا ، والسورة الكريمة بعد كل ذلك تمتاز بأنها قد عرضت ما عرضت من هدايات وتوجيهات بأسلوب بليغ مؤثر ، تقشعر منه الجلود ، وتلين منه القلوب ، وتخشع له النفوس .. مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله.ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

سورة يونس من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى .

وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين ، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

فالسور التى افتتحت بحرف واحد ثلاثة ، وهى سورة : ص ، ق ، ن .

والسور التى افتتحت بحرفين تسعة ، وهى : طه ، طس ، يس ، وحم فى ست سور ، هى : غافر ، فصلت ، الزخرف . الدخان ، الجاثية ، الأحقاف .

والسور التى بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة ، وهى : ألم فى ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، والر فى خمس سور هى : يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر ، وطسم فى سورتين هما : الشعراء ، القصص .

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الأعراف ، الرعد . وسورتان بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم ، والشورى .

فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة .

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبى ، وسفيان الثورى ، وغيرهم من العلماء . فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور .

ويروى عن ابن عباس انه قال : عجزت العلماء عن إدراكها . وعن على - رضى الله عنه - قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك ، بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس ، فالرسول - ﷺ - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى - ﷺ - « من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح» . وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها ، كسورة « ص » وسورة « يس » .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ – وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة ، وابتداء أخرى .

٣ – وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله – تعالى – وبعضها من صفاته فمثلا « ألم » أصلها أنا الله أعلم .

٤ – وقيل : إنها اسم الله الأعظم ، الى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال . والتى أوصلها السيوطى فى كتابه « الإتقان » إلى أكثر من عشرين قولا .

٥ – ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلا عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم ، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيترتب على ذلك أن يسمعوا حكما ، وهدايات قد تكون سببا فى إيمانهم . ولعل مما يشهد بصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة ، تتحدث عن القرآن وعن كونه معجزة للرسول – ﷺ – فى أغلب المواضع .

ومن ذلك قوله – تعالى – : فى أول سورة البقرة ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾. وقوله سبحانه فى أول سورة هود : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ وقوله – سبحانه – فى أول سورة إبراهيم : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

وهكذا نرى أن كثيرا من السور التى افتتحت بالحروف المقطعة ، قد أعقبت هذا الافتتاح بالحديث الصريح أو الضمنى عن القرآن الكريم ، وأن هذه السور إذا تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الاساسية إثبات وحدانية الله ، وإثبات صحة الرسالة المحمدية ، وإثبات أن هذا القرآن الذى هو معجزة الرسول الخالدة – منزل من عند الله – تعالى – .

هذه خلاصة لآراء العلماء فى المراد بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع – مثلا – إلى كتاب « الإتقان » للسيوطى ، وإلى كتاب « البرهان » . للزركشى ، وإلى تفسير الآلوسى .

ثم قال - تعالى - : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ .

﴿ تلك ﴾ اسم إشارة والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم . ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب ، وأصل الكتب : ضم أديم إلى أديم بالخياطة ، واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط والمراد به القرآن الكريم على الصحيح .

قال الآلوسى : « وأما حمل الكتاب على الكتب التى خلت قبل القرآن من التوراة والانجيل وغيرهما ، كما أخرجه ابن أبى حاتم عن قتادة فهو فى غاية البعد[1] » .

والحكيم - بزنة فعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع . تقول حكمت الفرس أى وضعت الحكمة فى فمها لمنعها من الجموح والنفور .

والمقصود أن هذا الكتاب ممتنع عن الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « وفى وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة - فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر - ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم والإحكام معناه المنع من الفساد ، فيكون المراد منه أنه لا تغيره الدهور أو المراد منه براءته من الكذب والتناقض[2] ».

والمعنى : تلك الآيات السامية ، والمنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب المحفوظ من كل تحريف أو تبديل الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله : - تعالى - : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من دعوته فقال : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ ..

روى الضحاك عن ابن عباس قال : لما بعث الله - تعالى - رسوله محمدا - ﷺ -

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٥٨ الطبعة المنيرية .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٥ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٧ م .

أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ أكان للناس عجبا ... الآية ﴾[1] .

والهمزة فى قوله « أكان » لإنكار تعجبهم ، ولتعجب السامعين منه لوقوعه فى غير موضعه .

وقوله ﴿ للناس ﴾ جار ومجرور حالا من قوله ﴿ عجبا ﴾ والمراد بهم مشركو مكة ومن لف لفهم فى إنكار ما جاء به النبى - ﷺ - .

وقوله : ﴿ عجباً ﴾ خبر كان ، والعجب والتعجيب - استعظام أمر خفى سببه .

وقوله : ﴿ أن أوحينا ﴾ فى تأويل مصدر أى : إيحاؤنا ، وهو اسم كان . والوحى : الإعلام فى خفاء ، والمقصود به ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - من قرآن وغيره .

وقوله : ﴿ إلى رجل منهم ﴾ أى إلى بشر من جنسهم يعرفهم ويعرفونه .

وقوله : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ الإنذار إخبار معه تخويف فى مدة تتسع التحفظ من المخوف منه ، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار ، وأكثر ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله - تعالى - :

والمراد بالناس هنا : جميع الذين يمكنه - ﷺ - أن يبلغهم دعوته .

وقوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ البشارة : إخبار معه ما يسر فهو أخص من الخبر ، سمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة التى هى ظاهر الجلد .

وقوله : ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ أى أن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم .

وأصل القدم العضو المخصوص . وأطلقت على السبق ، لكونها سببه وآلته ، فسمى المسبب باسم السبب من باب المجاز المرسل ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد .

وأصل الصدق أن يكون فى الأقوال ، ويستعمل أحيانا فى الأفعال فيقال : فلان صدق فى القتال ، إذا وفاه حقه ، فيعبر بصفة الصدق عن كل فعل فاضل .

وإضافة القدم إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم : مسجد الجامع ، والأصل قدم صدق . أى محققة مقررة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق . ثم جعل الصدق كأنه صاحبها .

ويجوز أن تكون إضافة القدم إلى الصدق من باب إضافة المسبب إلى السبب ، وفى ذلك

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٦ طبعة عيسى الحلبى .

تنبيه إلى أن ما نالوه من منازل رفيعة عند ربهم . إنما هو بسبب صدقهم فى أقوالهم وأفعالهم ونياتهم .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : واختلف أهل التأويل فى معنى قوله : ﴿ قدم صدق ﴾ فقال بعضهم معناه : أن لهم أجرا حسنا بسبب ما قدموه من عمل صالح ..

وقال آخرون معناه : أن لهم سابق صدق فى اللوح المحفوظ من السعادة .

وقال آخرون : معنى ذلك أن محمدا - ﷺ - شفيع لهم .

ثم قال : وأولى هذه الاقوال عندى بالصواب قول من قال معناه : أن لهم أعمالا صالحة عند الله يستحقون بها منه الثواب ، وذلك أنه محكى عن العرب قولهم : هؤلاء أهل القدم فى الإسلام . أى هؤلاء الذين قدموا فيه خيرا ، فكان لهم فيه تقديم .

ويقال : لفلان عندى قدم صدق وقدم سوء ، وذلك بسبب ما قدم إليه من خير أو شر ، ومنه قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا ... لأولنا فى طاعة الله تابع[1]

ومعنى الآية الكريمة : أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركى مكة ومن على شاكلتهم ، أن كان إيحاؤنا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه لكى يبلغهم الدين الحق ، أمرا عجبا ، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه - ﷺ - حتى لكأن النبوة فى زعمهم تتنافى مع البشرية .

إن الذى يدعو الى العجب حقا هو ما تعجبوا منه ، لأن الله - تعالى - اقتضت حكمته أن يجعل رسله الى الناس من البشر ، لأن كل جنس يأنس لجنسه ، وينفر من غيره ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فما معنى اللام فى قوله ﴿ أكان للناس عجبا ﴾ وما الفرق بينه وبين قولك : كان عند الناس عجبا ؟

قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها . ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم . وليس فى « عند الناس » هذ المعنى .

والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر . وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم . فقد كانوا يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب . وأن يذكر لهم البعث . وينذر بالنار ويبشر بالجنة . وكل واحد من هذه الأمور ليس

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ٥٨ . طبعة دار المعرفة بيروت .

بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرا مثلهم .

وقال الله - تعالى - : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[١] .

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضا - لأن الله - تعالى - إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة . والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من تلك الأسباب فى شىء قال - تعالى - : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾[٢] .

والبعث للجزاء على الخير والشر . هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبا إنما العجب والمنكر فى العقول ، تعطيل الجزاء[٣] .

وقدم - سبحانه - خبر كان وهو ﴿ عجبا ﴾ على اسمها وهو ﴿ أن أوحينا ﴾ . لأن المقصود بالإنكار فى الآية إنما هو تعجبهم ودهشتهم من أن يكون الرسول بشراً .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ، لأن التخلية مقدمة على التحلية،وإزالة مالا ينبغى مقدم فى الرتبة على فعل ما ينبغى .

ولم يذكر المنذر به ، لتهويله وتعميمه حتى يزداد خوفهم وإقبالهم على الدين الحق ، الذى يؤدى اتباعه إلى النجاة من العذاب .

وخص التبشير بالمؤمنين لأنهم وحدهم المستحقون له، بخلاف الإنذار فإنه يشمل المؤمن والكافر . ولذا قال - سبحانه - ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أى جميع الناس .

وذكر - سبحانه - فى جانب التبشير المبشر به - وهو حصولهم على المنزلة الرفيعة عند ربهم - لكى تقوى رغبتهم فى طاعته . ومحبتهم لعبادته ، وبذلك ينالون ما بشرهم به .

ثم وضح - سبحانه - ما قاله الكافرون عند مجىء الرسول - ﷺ - بدعوته فقال : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

أى : قال الكافرون المتعجبون من أن يكون - ﷺ - رسولا إليهم ، إن هذا الإنسان الذى يدعى النبوة لساحر بيّن السحر واضحه . حيث إنه استطاع بقوة تأثيره فى النفوس أن يفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

(٢) سورة « سبأ » الآية ٣٧ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٤ . طبعة مصطفى الحلبى .

وعلى هذه القراءة التى وردت عن ابن كثير والكوفيين تكون الإشارة إلى الرسول - ﷺ - .

وقرأ الباقون : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ أى : إن هذا القرآن لسحر واضح ، لأنه خارق للعادة فى جذبه النفوس إلى الايمان بما جاء به محمد - ﷺ - .

قال ابو حيان ما ملخصه : « ولما كان قولهم فيها لا يمكن أن يكون سحرا ظاهر الفساد ، لم يحتج إلى جواب ، لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكة ، وخلطتهم له ، - وأنه لا علم له بالسحر - وقد أتاهم بعد بعثته بكتاب إلهى مشتمل على مصالح الدنيا والآخرة مع الفصاحة والبلاغة التى أعجزتهم ..

وقولهم هذا؛هو دين الكفرة مع أنبيائهم . فقد قال فرعون وقومه فى موسى - عليه السلام - ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ وقال قوم عيسى فيه عندما جاءهم بالبينات ﴿ هذا سحر مبين ﴾ ودعوى السحر إنما هى على سبيل العناد والجحد »[1] .

وقال الآلوسى « وفى قولهم هذا اعتراف منهم بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر ، نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ، ولكنهم يسمونه سحرا تماديا فى العناد ، كما هو شنشنة المكابر اللجوج ، وشنشنة المفحم المحجوج »[2] .

وجاءت الجملة الكريمة بدون حرف عطف ، لكونها استئنافا مبنيا على سؤال مقدر ، فكأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا التعجب ؟ فكان الجواب : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

ويرى الامام ابن جرير أن الآية فيها كلام محذوف ، فقد قال : - رحمه الله - : « وفى الكلام حذف استغنى بدلالة ما ذكر عما ترك ذكره ، وتأويل الكلام : أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، فلما أتاهم بوحى الله وتلاه عليهم وبشرهم وأنذرهم قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله إن هذا الذى جاءنا به محمد - ﷺ - لسحر مبين »[3] .

وقد اشتملت جملة ﴿ إن هذا لساحر مبين ﴾ على جملة من المؤكدات ، للإشارة إلى رسوخهم فى الكفر ، وإلى أنهم مع وضوح الأدلة على صدق الرسول - ﷺ - لم يزدادوا إلا جحودا وعنادا ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ١٢٣ - طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٣٨ هـ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٣ . (٣) تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ٦٠ طبعة بولاق سنة ١٣٢٧ هـ .

ثم ساق - سبحانه - من مظاهر قدرته ، ما يبطل تعجبهم فقال - تعالى - :

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحى والبعثة والرسالة ثم إنه - تعالى - أزال ذلك التعجب بأنه لايبعد ألبتة فى أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم وينذرهم .. كان هذا الجواب إنما يتم بإثبات أمرين :

أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلها قاهرا قادرا ، نافذ الحكم بالأمر والنهى .

والثانى : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولها .

فلا جرم أنه - سبحانه - ذكر فى هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين .

أما الأول : وهو إثبات الألوهية فبقوله - تعالى - : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ... ﴾ .

وأما الثانى : فهو إثبات المعاد والحشر والنشر بقوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعا ... ﴾ .

فثبت أن هذا الترتيب فى غاية الحسن ، ونهاية الكمال »[1] .

والمعنى : إن ربكم ومالك أمركم - الذى عجبتم من أن يرسل إليكم رسولا منكم هو الله الذى خلق السموات والأرض فى مقدار ستة أيام أى أوقات .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٨ .

فالمراد من اليوم معناه اللغوى وهو مطلق الوقت .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن تلك الايام من أيام الآخرة التى يوم منها كألف سنة مما تعدون .

قال الآلوسى : « وقيل هى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وهو الأنسب بالمقام ، لما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة فى مثل تلك المدة اليسيرة ، ولأنه تعريف لنا بما نعرفه »[١] .

وقال بعض العلماء : « ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة ، فهى لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها ، وإنما ذكرت لبيان حكمة التدبير والتقدير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية .

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر ، فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه ، والمقصود بذكرها هو الإشارة الى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذى يسير مع الكون من بدئه إلى منتهاه »[٢] .

وقال سعيد بن جبير : كان الله قادرا على أن يخلق السموات والأرض فى لمحة ولحظة . ولكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ، لكى يعلم عباده التثبت والتأنى فى الأمور .

وقوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ معطوف على ما قبله ، لتأكيد مزيد قدرته وعظمته - سبحانه - .

والاستواء من معانيه اللغوية الاستقرار ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ واستوت على الجودى ﴾ .

أى : استقرت ، ومن معانيه - أيضا - الاستيلاء والقهر والسلطان ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق أى : استولى عليه

وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك - لا محمولا »[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٤ .
(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ١١ ص ١٧٦٢ - طبعة دار الشروق .
(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٢٩ .

وقد ذكر العرش فى القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية ، وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة الى أنه صفة الله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولو جوب تنزيهه عما لا يليق به فيجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إلى الله - تعالى - .

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت فى تفسير قوله - تعالى - ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ : الكيف غير معقول ، والاستواء مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الإمام الرازى : « إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه » .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرف هذه الصفة وأمثالها عن الظاهر لاستحالة حملها على ما يفيده ظاهر اللفظ ، لأنه - سبحانه - مخالف للحوادث ، ووجوب حملها على ما يليق به - سبحانه - .

وعليه فإن الاستواء هنا : كناية عن القهر والعظمة والغلبة والسلطان وقوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ استئناف مسوق لتقرير عظمته - سبحانه - ولبيان حكمة استوائه على العرش .

والتدبير معناه : النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود .

والمراد به هنا : التقدير الجارى على وفق الحكمة التى اقتضتها إرادة الله ومشيئته .

والمراد بالأمر : ما يتعلق بأمور المخلوقات كلها من إنس وجن وغير ذلك من مخلوقاته التى لا تعد ولا تحصى .

أى أنه سبحانه يدبر أمر مخلوقاته تدبيرا حكيما ، حسبما تقتضيه إرادته وعبر بالمضارع فى قوله : ﴿ يدبر ﴾ للإشارة الى تجدد التدبير واستمراره ، إذ أنه - سبحانه - لا يهمل شئون خلقه .

وقوله : ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ استئناف آخر مسوق لبيان تفرده فى تدبيره وأحكامه .

والشفيع مأخوذ من الشفع وهو ضم الشىء إلى مثله ، وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو

أعلى منزلة إلى من هو أدنى منه لإعانته على ما يريده .

والاستثناء هنا مفرغ من أعم الأوقات والأحوال . أى : ما من شفيع يستطيع أن يشفع لغيره فى جميع الأوقات والأحوال إلا بعد إذنه - سبحانه - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾[1] .

وقوله - سبحانه -: ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[2] .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ يعود إلى ذات الله - تعالى - الموصوفة بتلك الصفات الجليلة .

أى : ذلكم الموصوف بالخلق والتدبير والتصرف فى شئون خلقه وفق مشيئته ، هو الله ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ولا تشركوا معه أحدا فى ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بالتذكر فقال : ﴿أفلا تذكرون ﴾ أى : أتعلمون أن الله - تعالى - هو خالقكم وهو القادر على كل شىء ، ومع ذلك تستبعدون أن يكون الرسول بشرا ، فهلا تذكرتم قدرة الله وحكمته حتى تثوبوا إلى رشدكم ، وتتبعوا الحق الذى جاءكم به نبيكم - ﷺ - : وإيثار ﴿ تذكرون ﴾ على تفكرون للإيذان بظهور الأمر وأنه كالمعلوم الذى لا يفتقر الى عمق فى التفكير والبحث والتأمل . إذا أن مظاهر قدرة الله وعظمته نراها واضحة جلية فى الأنفس والآفاق .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقت ألوانا من مظاهر قدرة الله - تعالى - وبالغ حكمته ، ونفاذ أحكامه حتى يخلص له الناس العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع العباد جميعا إليه ، وأنه سيجازى كل إنسان بما يستحق . فقال - تعالى - ﴿ إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا ﴾ .

أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجعكم جميعا بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم ، وقد وعد الله بذلك وعدا صدقا ، ولن يخلف الله وعده .

قال أبو حيان : وانتصب ﴿ وعد الله ﴾ و ﴿ حقا ﴾ على أنهما مصدران مؤكدان لمضمون الجملة ، والتقدير وعد الله وعدًا ، فلما حذف الناصب أضاف المصدر الى الفاعل ، وذلك كقوله

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٦ .

« صبغة الله » و« صنع الله » والتقدير فى ﴿ حقا ﴾ : حق ذلك حقا »[1] .

وقوله : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ كالتعليل لما أفاده قوله - سبحانه - ﴿ إليه مرجعكم ﴾ فإن غاية البدء والإعادة هو الجزاء المناسب على الأعمال الدنيوية .

أى : إن شأنه - سبحانه - أن يبدأ الخلق عند تكوينه ثم يعيده الى الحياة مرة أخرى بعد موته وفنائه .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من الإعادة بعد الموت فقال : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ .

والقسط - كما يقول الراغب - النصيب بالعدل . يقال : قسط الرجل إذا جار وظلم . ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ ويقال أقسط فلان إذا عدل ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ .

والحميم : الماء الذى بلغ أقصى درجات الحرارة ، قال - تعالى - ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ أى : فعل ما فعل سبحانه من بدء الخلق وإعادتهم ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله الجزاء الطيب الذى أعده لهم ، وأما الذين كفروا فيجزيهم - أيضا - بعدله ما يستحقونه من شراب حميم يقطع أمعاءهم ، ومن عذاب مؤلم لابدانهم ، وذلك بسبب كفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .

وقوله : ﴿ بالقسط ﴾ حال من فاعل ﴿ ليجزى ﴾ ليجزيهم ملتبسا بالقسط .

ويصح أن يكون المعنى : فعل ما فعل ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن بسبب عدلهم وتمسكهم بتكاليف دينهم ، وأما الذين كفروا فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم .

قال الجمل ما ملخصه : وقال - سبحانه - ﴿ والذين كفروا لهم شراب .... ﴾ بتغيير فى الأسلوب للمبالغة فى استحقاقهم للعقاب . وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة ، والعذاب وقع بالعرض . وأنه - تعالى - يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ، ولذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته فى خلق السموات والأرض ، أتبع ذلك

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ١٢٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٤ طبعة حجازى بالقاهرة .

بذكر مظاهر أخرى لقدرته ، تتمثل فى خلق الشمس والقمر والليل والنهار فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

ففى هاتين الآيتين - كما يقول الآلوسى - تنبيه على الاستدلال على وجوده - تعالى - ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته . بآثار صنيعه فى النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر ، وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير إليه إشارة إجمالية ، وإرشاد إلى أنه - سبحانه - حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع ، فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب أولى وأحرى[1] » .

وقوله ﴿ جعل ﴾ يجوز أن يكون بمعنى أنشأ وأبدع ، فيكون لفظ ﴿ ضياء ﴾ حال من المفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى صير فيكون اللفظ المذكور مفعولا ثانيا .

وقوله ﴿ ضياء ﴾ جمع ضوء كسوط وسياط ، وحوض وحياض ، وقيل هو مصدر ضاء يضوء ضياء كقام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، وعلى كلا الوجهين فالكلام على حذف مضاف .

والمعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لكى تنتفعوا بهما فى مختلف شئونكم .

قال الجمل : « وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر »[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٤ .

هذا دليل . ومما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر فى نورهما قوله - تعالى - : ﴿ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾[١] وقوله - سبحانه - : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ وقدره منازل ﴾ معطوف على ما قبله .

والتقدير : جعل الشىء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الزمان أو المكان أو غيرهما قال - تعالى - : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ .

المنازل : جمع منزل ، وهى أماكن النزول ، وهى - كما يقول بعضهم - ثمانية وعشرون منزلا ، وتنقسم إلى اثنى عشر برجا وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، لكل برج منها منزلان وثلث منزل ، وينزل القمر فى كل ليلة منزلا منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين .

ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ، ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعة وعشرين يوما[٣] .

والضمير فى قوله : ﴿قدرناه﴾ يعود الى القمر ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

أى : الله - تعالى - هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدر للقمر منازل ينزل فيها فى كل ليلة على هيئة خاصة ، وطريقة بديعة تدل على قدرة الله وحكمته .

قالوا : وكانت عودة الضمير إلى القمر وحده ، لسرعة سيره بالنسبة إلى الشمس : ولأن منازله معلومة محسوسة ، ولأنه العمدة فى تواريخ العرب ، ولأن أحكام الشرع منوطة به فى الأغلب[٤] .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير للشمس والقمر معا ، أى : وقدر لهما منازل ، أو قدر لسيرهما منازل لا يجاوزانها فى السير ، ولا يتعدى أحدهما على الآخر كما قال - تعالى - : ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾[٥] .

وإنما وحد الضمير للإيجاز كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ بيان للحكمة من الخلق والتقدير .

---

(١) سورة نوح الآية ١٦ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٦١ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٤ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٩ .
(٥) سورة يس الآية ٤٠ .
(٦) سورة التوبة الآية ٦٢ .

أى : جعل - سبحانه - الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين التى يفيدكم علمها فى مصالحكم الدينية والدنيوية ولتعلموا الحساب بالأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو القمر يكون صغيرا ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام »

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ يعود إلى المذكور من جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل .

أى : ما خلق الله ذلك الذى ذكره لكم إلا خلقا ملتبسا بالحق ، ومقترنا بالحكمة البالغة التى تقتضيها مصالحكم .

وقوله : ﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ استئناف مسوق لبيان المنتفعين بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده .

أى : يفصل - سبحانه - ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيبون له ، ويكثرون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان قدرته ورحمته فقال : ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار ﴾ طولا وقصرا ، وحرا وبردا، وتعاقبا دقيقا لا يسبق أحدهما معه الآخر ﴿ وما خلق الله فى السموات والأرض ﴾ من أنواع الانس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التى لا تعد ولا تحصى ..

إن فى كل ذلك الذى خلقه ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ أى : لدلائل عظيمة كثيرة دالة على قدرة الله ورحمته ووحدانيته ، لقوم يتقون الله - تعالى - فيحذرون عقابه ، ويرجون رحمته .

وخص - سبحانه - المتقين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بنتائج التدبر فى هذه الدلائل .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد سلك أنجع الوسائل فى مخاطبة الفطرة البشرية ، حيث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٨ .

لفت الأنظار إلى ما اشتمل عليه هذا الكون من مخلوقات شاهدة محسوسة ، تدل على وحدانية الله ، وقدرته النافذة ، ورحمته السابغة بعباده .

* * *

ثم بينت السورة الكريمة ما أعده الله من عذاب للكافرين ، وما أعده من ثواب للطائعين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما أقام الدلائل على صحة القول بإثبات الإله القادر الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع بعده فى شرح أحوال من يكفر بها وفى شرح أحوال من يؤمن بها »[1] .

والمراد بلقائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . والمعنى : إن الذين لا يرجون ولا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم فى الدنيا ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ رضاء جعلهم لا يفكرون إلا فى التشبع من زينتها ومتعها ، وأطمأنوا بها ، اطمئنانا صيرهم يفرحون بها ويسكنون إليها ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ غافلون ﴾ بحيث لا يخطر على بالهم شىء مما يدل عليه هذه الآيات من عبر وعظات .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٣٨ .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة .

وصفهم - أولا - بعدم الرجاء فى لقاء الله - تعالى - بأن صاروا لا يطمعون فى ثواب ، ولا يخافون من عقاب ، لإنكار الدار الآخرة .

ووصفهم - ثانيا - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن أصبح همهم محصورا فيها ، وفى لذائذها وشهواتها .

قال الإمام الرازى : واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن اللذات الروحانية ، وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية ، وأما هذه الصفة الثانية فهى إشارة إلى من استغرقه الله فى طلب اللذات الجسمانية واكتفائه بها ، واستغراقه فى طلبها »[1] .

ووصفهم - ثالثا - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة ، اطمئنان الشخص إلى الشىء الذى لا ملاذ له سواه ، فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا .

ووصفهم - رابعا - بالغفلة عن آيات الله التى توقظ القلب ، وتهدى العقل ، وتحفز النفس إلى التفكير والتدبير .

وبالجملة فهذه الصفات الأربعة تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء قد آثروا دنياهم على أخراهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .

فإذا كان مصيرهم كما بينه - سبحانه - فى قوله : ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الخسيسة ، مقرهم وملجأهم الذى يلجأون إليه النار وبئس القرار ، بسبب ما اجترحوه من سيئات وما اقترفوه من منكرات .

هذه هى صفات هؤلاء الأشقياء ، وذلك هو جزاؤهم العادل ، أما السعداء فقد بين الله - تعالى - بعد ذلك صفاتهم وثوابهم فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

أى : آمنوا بما يجب الإيمان به ، وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحة التى ترفع درجاتهم عند ربهم .

﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أى يرشدهم ربهم ويوصلهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح الى غايتهم وهى الجنة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٣٩ .

وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس إليها ، بعد أن عرف أن مأوى الكافرين النار وبئس القرار ..

قال الإمام ابن كثير : يحتمل أن تكون الباء فى قوله ﴿ بإيمانهم ﴾ للسببية ، فيكون التقدير بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة إلى الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ : أى : يكون إيمانهم لهم نورا يمشون به وقال ابن جريج فى الآية : يمثل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله - تعالى - ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ . والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة . وريح منتنة فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار .. »[1] .

وقوله : ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ﴾ أى : تجرى من تحت منازلهم أو مقاعدهم الأنهار ، وهم آمنون مطمئنون فى الجنات ، يتنعمون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ أى : دعاؤهم فى هذه الجنات يكون بقولهم : سبحانك اللهم . فالدعوى هاهنا بمعنى الدعاء . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى . كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى .

ولفظ سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يذكر معه .

ولفظ اللهم أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء الذى هو « يا » جعلت هذه الميم المشددة فى آخره عوضا عن حرف النداء .

قال الإمام الرازى : « ومما يقوى أن المراد من الدعوى هنا الدعاء ، أنهم قالوا : اللهم . وهذا نداء الله - تعالى - ومعنى قولهم : سبحانك اللهم . إنا نسبحك . كقول القانت فى دعاء القنوت « اللهم إياك نعبد » .

ثم قال : ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أى : وما تعبدون ، فيكون معنى الآية : أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٨ .

الابتهاج بذكر الله - تعالى - »[1] .

وقوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ معطوف على ما قبله . والتحية : التكرمة بالحال الجليلة ، وأصلها أحياك الله حياة طيبة . والسلام : بمعنى السلامة من كل مكروه .

أى : دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وتحيتهم التى يحيون بها هى السلامة من كل مكروه .

وهذه التحية تكون من الله - تعالى - لهم كما فى قوله - سبحانه - ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[2] .

وتكون من الملائكة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[3] .

وتكون منهم فيما بينهم كما يتبادر من قوله - تعالى - ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما .. ﴾[4] .

وقوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ أى : وختام دعائهم يكون بقولهم : الحمد لله رب العالمين .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : « ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التهليل والتسبيح والحمد قد يسمى دعاء ».

روى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، ورب العرش الكريم » . قال الطبرى : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب .

والذى يقطع النزاع ويثبت أن هذا يسمى دعاء ، وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شىء ، وإنما هو تعظيم لله - تعالى - وثناء عليه ، ما رواه النسائى عن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله - ﷺ - : « دعوة ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لن يدعو بها مسلم فى شىء إلا استجيب له » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٤٣ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .
(٣) سورة الرعد الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة مريم الآية ٦١ .

ويستحب للداعى أن يقول فى آخر دعائه كما قال الله - تعالى - حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[1].

* * *

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه ورحمته بالناس ، وما جبلوا عليه من صفات وطبائع فقال - تعالى - :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

قال صاحب المنار : « هاتان الآيتان فى بيان شأن من شئون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم فى حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم بالحاجة إلى الله - تعالى - واللجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها ، واستعجالهم الأمور قبل أوانها وهو تعريض بالمشركين ، وحجة على ما يأتون من شرك وما ينكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ، ولذلك عطف عليه »[2] .

وقوله : ﴿ يعجل ﴾ من التعجيل بمعنى طلب الشىء قبل وقته المحدد له والاستعجال : طلب التعجيل بالشىء .

والأجل : الوقت المحدد لانقضاء المدة . وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاء عمره .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣١٣ .
(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ٣١١ .

والمراد بالناس هنا - عند عدد من المفسرين - : المشركون الذى وصفهم الله - تعالى - قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها .

ولقد حكى القرآن فى كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول - ﷺ - فى نزول العذاب ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[1] ، وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[2] .

والمعنى : ولو يعجل الله - تعالى - لهؤلاء المشركين العقوبة التى طلبوها ، تعجيلا مثل استعجالهم الحصول على الخير ﴿ لقضى إليهم أجلهم ﴾ أى : لأميتوا وأهلكوا جميعاً ، ولكن الله - تعالى - الرحيم بخلقه ، الحكيم فى أفعاله ، لا يعجل لهم العقوبة التى طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها ؛ فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل فى الإسلام ، ويتبع الرسول - ﷺ - .

قال الإمام الرازى : « فقد بين - سبحانه - فى هذه الآية : أنهم لا مصلحة لهم فى تعجيل إيصال الشر إليهم ، لأنه - تعالى - لو أوصل ذلك العقاب إليهم لماتوا وهلكوا ، ولا صلاح فى إماتتهم ، فربما آمنوا بعد ذلك ، وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضى أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر »[3] .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية الكريمة تحكى لونا من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم .

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه فى تفسيرهم الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يخبر - تعالى - عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم ، أو أموالهم أو أولادهم بالشر فى حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والسخاء ، ولهذا قال : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم .. ﴾ أى لو استجاب لهم جميع ما دعوه به فى ذلك لأهلكهم .

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٤٨ طبعة عبد الرحمن محمد .

ثم قال : ولكن لا ينبغى الإكثار من ذلك ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة فى ذلك كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم [1] .

أما الإمام الآلوسى فقد حكى هذين الوجهين ، ورجح الأول منهما فقال : « قوله : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ... ﴾ وهم الذين لا يرجون لقاء الله - تعالى - المذكورون فى قوله : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ... ﴾ والمراد لو يعجل الله لهم الشر الذى كانوا يستعجلون به تكذيبا واستهزاء ... » ، وأخرج ابن جرير عن قتادة : أنه قال : « هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له ، وفيه حمل الناس على العموم ، والمختار الأول ، ويؤيده ما قيل : من أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث حين قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »[2] .

والذى يبدو لنا أن كون لفظ الناس للجنس أولى ، ويدخل فيه المشركون دخولا أوليا ، لأنه لا توجد قرينة تمنع من إرادة ذلك ، وحتى لو صح ما قيل من أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ منصوب على المصدرية ، والأصل : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجالهم بالخير ، فحذف تعجيلا وصفته المضافة ، وأقيم المضاف إليه مقامها .

ثم بين - سبحانه - ما يشير إلى الحكمة فى عدم تعجيل العقوبة فقال : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

والطغيان : مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه طغى الماء إذا ارتفع وتجاوز حده .

ويعمهون : من العمه ، يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها ، إذا تحير وتردد فهو عمه وعامه .

أى : لا نعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون لقاءنا إلى يوم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٩ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٧٩ .

القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج فى الدنيا فى طغيانهم يتحيرون ويترددون ، بحيث تلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر .

ثم صور – سبحانه – طبيعة الإنسان فى حالتى العسر واليسر فقال : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه .. ﴾.

والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة .

والضر : ما يصيب الإنسان من سوء الحال فى نفسه أو بدنه أو غيرهما مما يحبه ويشتهيه .

والمعنى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ عن طريق المرض أو الفقر أو غيرها ﴿ دعانا ﴾ بإلحاح وتضرع لكى نكشفه عنه ، فهو تارة يدعونا وهو مضطجع على جنبه ، وتارة يدعونا وهو قاعد ، وتارة يدعونا وهو قائم على قدميه .

﴿ فلما كشفنا عنه ضره ﴾ وما أصابه من سوء ﴿ مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ أى : مضى واستمر فى غفلته الأولى حتى لكأنه لم تنزل به كروب ، ولم يسبق له أن دعانا بالحاح لكشفها .

وخص – سبحانه – هذه الأحوال بالذكر ، لعدم خلو الإنسان عنها فى العادة .

وقيل : يصح أن يراد بهذه الأحوال تعميم أصناف المضار ، لأنها قد تكون خفيفة فيدعو الله وهو قائم ، وقد تكون متوسطة فيدعوه وهو قاعد ، وقد تكون ثقيلة فيدعوه وهو نائم .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : « فإن قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلت : معناه أن المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا فى حالاته كلها ، سواء أكان منبطحا عاجزاً عن النهوض ، أم كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أم كان قائما لا يطيق المشى .

ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالا وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف ، وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأن الإنسان للجنس .. » [١] .

وفى التعبير بالمس إشارة إلى أن ما أصابه من ضر حتى ولو كان يسيراً فإنه لا يترك الدعاء والابتهال إلى الله بأن يكشفه عنه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٢ .

وقوله ﴿ لجنبه ﴾ فى موضع الحال من فاعل ﴿ دعانا ﴾ و ﴿ أو ﴾ لتنويع الأحوال ، أو لأصناف المضار .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ مر ﴾ يمثل أدق تصوير لطبيعة الإنسان الذى يدعو الله عند البلاء ، وينساه عند الرخاء ، فهو فى حالة البلاء يدعو الله فى كل الأحوال ، فإذا ما انكشف عنه البلاء مر واندفع فى تيار الحياة . بدون كابح ، ولا زاجر ، ولا مبالاة ، وبدون توقف ليتدبر أو ليعتبر ..

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ أى : كما زين لهذا الإنسان الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ، زين لهؤلاء المسرفين المتجاوزين لحدود الله ، ما كانوا يعملونه من إعراض عن ذكره ، ومن غفلة عن حكمته وعن سننه فى كونه .

قال الآلوسى : « وفى الآية ذم لمن يترك الدعاء فى الرخاء ، ويهرع إليه فى الشدة ، واللائق بحال العاقل التضرع إلى مولاه فى السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة . ففى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال : ادع الله يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك .

وفى حديث للترمذى عن أبى هريرة ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد « من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكروب ، فليكثر من الدعاء عند الرخاء »[1] .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « وقد ذم الله - تعالى - من هذه طريقته وصفته فى الدعاء . أما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك ، - لأنه يدعو الله فى الشدة والرخاء - ، وفى الحديث الشريف: «عجبا لأمر المؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من شأنه مع الناس ومن شأنهم معه . أتبع ذلك ببيان مصير الأمم الظالمة ليكون فى ذلك عبرة وعظة فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٩ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

والخطاب فى قوله : ﴿ ولقد أهلكنا .. ﴾ لأهل مكة الذين كانوا معاصرين للنبى - ﷺ - ومناوئين لدعوته ، ويدخل فيه غيرهم ممن يصلح للخطاب على سبيل التبع .

والقرون جمع قرن . والقرن - كما يقول القرطبى - الأمة من الناس ، قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذى كنت فيهم   وخلفت فى قرن فأنت غريب

فالقرن كل عالم فى عصره ، مأخوذ من الاقتران ، أى : عالم مقترن بعضهم إلى بعض .

وفى الحديث الشريف : « خير القرون قرنى - يعنى أصحابى - ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

فالقرن على هذا مدة من الزمان . قيل : ستون عاما ، وقيل سبعون ، وقيل ثمانون ، وقيل : مائة سنة ، وعليه أكثر أصحاب الحديث ، أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبى - ﷺ - قال لعبد الله بن بسر : « تعيش قرنا » فعاش مائة سنة[1] .

و ﴿ لما ﴾ ظرف بمعنى حين ، وهو متعلق بقوله ﴿ أهلكنا ﴾ .

والمعنى : ولقد أهلكنا أهل القرون السابقة عليكم يا أهل مكة . حين استمروا فى ظلمهم وعنادهم ، وحين أصروا على كفرهم بعد أن جاءتهم رسلهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى صدقهم فيها يبلغونه عن ربهم ، فعليكم - أيها الغافلون - أن تثوبوا إلى رشدكم ، وأن تتبعوا الحق الذى جاءكم به نبيكم كى لا يصيبكم ما أصاب الظالمين من قبلكم .

وقوله : ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ يدل على إفراط أولئك المهلكين فى الظلم ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٢٩٤ .

وبلوغهم فيه أقصى الغايات ، لأنهم مع وضوح الشواهد على صدق الرسل ، استمروا فى جحودهم وظلمهم .

وقوله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ معطوف على ﴿ ظلموا ﴾ . أى : أهلكنا أهل القرون السابقين عليكم حين استمروا على ظلمهم ، وحين علم الله - تعالى - منهم الإصرار على الكفر ، فإهلاكهم كان بسبب مجموع هذين الأمرين .

وقوله : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : مثل ذلك الجزاء الأليم وهو إهلاك الظالمين ، نجزى القوم المجرمين فى كل زمان ومكان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ معطوف على قوله ﴿ أهلكنا ﴾ .

والخلائف جمع خليفة . وهو كل من يخلف غيره ويأتى من بعده .

أى : ثم جعلناكم أيها المكلفون باتباع النبى - ﷺ - خلفاء فى الأرض من بعد أولئك الأقوام المهلكين لنرى ونشاهد ونعلم أى عمل تعملون فى خلافتكم فنجازيكم على ذلك بالجزاء المناسب الذى تقتضيه حكمتنا وإرادتنا ، و ﴿ كيف ﴾ مفعول مطلق لـ﴿تعملون﴾ لا ﴿ لننظر ﴾ لأن الاستفهام له الصدارة ، فلا يعمل فيه ما قبله .

قال الآلوسى : واستعمال النظر بمعنى العلم مجاز ، حيث شبه بنظر الناظر . وعيان المعاين فى تحققه . والمراد نعاملكم معاملة من يطلب العلم بأعمالكم ليجازيكم بحسبها ، كقوله - تعالى - ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[1] .

قال قتادة : صدق الله ربنا ، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا ، بالليل والنهار .

ثم حكى - سبحانه - بعض المقترحات الفاسدة التى اقترحها المشركون على النبى - ﷺ - ورد عليها بما يبطلها فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٨٣ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : « عن مقاتل قال : إن الآية ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا .. ﴾ نزلت فى جماعة من قريش قالوا للنبى - ﷺ - إن كنت تريد أن نؤمن لك ، فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى وليس فيه ما يعيبها . وإن لم ينزل الله - تعالى - عليك ذلك فقل أنت هذا من نفسك ، أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان حرام حلالا ، ومكان حلال حراما ،[1] .

والمعنى : وإذا تتلى على أولئك المشركين آياتنا الواضحة المنزلة عليك - يا محمد - قالوا على سبيل العناد والحسد : ائت بقرآن آخر سوى هذا القرآن الذى تتلوه علينا ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية التى فيها سب لآلهتنا ، آية أخرى فيها مدح لها .

وفى الآية الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إظهاراً للإعراض عنهم ، حتى لكأنهم غير حاضرين ، وغير أهل لتوجيه الخطاب إليهم .

والمراد بالآيات : الآيات القرآنية الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وأضافها - سبحانه - إليه على سبيل التشريف

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٨٥ .

والتعظيم ، وأسند التلاوة إلى الآيات بصيغة المبنى للمفعول ، للإشارة إلى أن هذه الآيات لوضوحها ، ولمعرفتهم التامة لتاليها ، صارت بغير حاجة إلى تعيين تاليها - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فماذا كان غرضهم - وهم أدهى الناس وأمكرهم - فى هذا الاقتراح ؟

قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ولاختبار الحال ، وأنه إذا وجد منه تبديل ، فإما أن يهلكه الله فينجوا هم منه أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحا لافترائه على الله »[1] .

وقوله : ﴿ قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ هذا القول أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يزهق باطلهم .

وكلمة ﴿ تلقاء ﴾ مصدر من اللقاء كتبيان من البيان ، وكسر التاء فيها سماعى ، والقياس فى هذا المصدر فتحها كالتكرار والتطواف والتجوال .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ : لا يصح لى بحال من الأحوال ، أن أبدل هذا القرآن من عند نفسى ومن جهتها ؛ وإنما أنا أبلغكم ما أنزل الله على منه ، بدون زيادة أو نقصان ، أو تغيير أو تبديل .

وقوله : ﴿ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ تعليل لمضمون ما قبله من امتناع الإتيان بغيره أو تبديله ، والاقتصار على اتباع الوحى .

أى : إنى أخاف إن عصيت ربى أية معصية ، عذاب يوم عظيم الهول ، وإذا كان شأنى أن أخشاه - سبحانه - من أية معصية ولو كانت صغيرة ، فكيف لا أخشاه إن عصيت بتبديل كلامه استجابة لأهوائكم ؟

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - رداً آخر عليهم ، زيادة فى تسفيه أفكارهم فقال - تعالى - : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ وقوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ بمعنى ولا أعلمكم وأخبركم به ، أى : بهذا القرآن . يقال : دريت الشىء وأدرانى الله به ، أى أعلمنى وأخبرنى به .

وأدرى فعل ماض ، وفاعله مستتر يعود على الله - عز وجل - والكاف مفعول به .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٩ .

والمعنى : قل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - لو شاء الله - تعالى - أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لفعل ، ولو شاء أن يجعلكم لا تدرون منه شيئا ، لفعل - أيضا - ، فإن مرد الأمور كلها إليه ، ولكنه - سبحانه - شاء وأراد أن أتلوه عليكم ، وأن يعلمكم به بواسطتى ، فأنا رسول مبلغ ما أمرنى الله بتبليغه .

قال القرطبى : « وقرأ ابن كثير : ﴿ ولأدراكم به ﴾ بغير ألف بين اللام والهمزة . والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل » [1] .

وجاءت الآية الكريمة بدون عطف على ما قبلها ، إظهارا لكمال شأن المأمور به . وإيذاناً باستقلاله ، فإن ما سبق كان للرد على اقتراحهم تبديل القرآن . وهذه الآية للرد على اقتراحهم الإتيان بغيره .

ومفعول المشيئة محذوف . لأن جزاء الشرط ينبىء عنه ، أى : لو شاء الله عدم تلاوته ما تلوته عليكم :

وقوله : ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ تعليل للملازمة المستلزمة لكون عدم التلاوة وعدم العلم منوط بمشيئة الله - تعالى - وقوله : ﴿ عمراً ﴾ منصوب على الظرفية وهو كناية عن المدة الطويلة . أى : فأنتم تعلمون أنى قد مكثت فيما بينكم ، مدة طويلة من الزمان ، قبل أن أبلغكم هذا القرآن ، حفظتم خلالها أحوالى ، وأحطتم خبرا بأقوالى وأفعالى ، وعرفتم أنى لم أقرأ عليكم من آية أو سورة مما يشهد أن هذا القرآن إنما هو من عند الله - تعالى - .

والهمزة فى قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ داخلة على محذوف . وهى للاستفهام التوبيخى . والتقدير : أجهلتم هذا الأمر الجلى الواضح ، فصرتم لا تعقلون أن أمثال هذه الاقتراحات المتعنتة التى اقترحتموها لا يملك تنفيذها أحد إلا الله - تعالى - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما جاء فى هذه الآية وتقريره : أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله - ﷺ - من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله . وأنه ما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه ، جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٣٠ .

لا يحصل إلا بالوحى والإلهام من الله - تعالى - [1].

ثم ختم - سبحانه - الرد على هؤلاء الذين لا يرجون لقاءه ، بالحكم عليهم بعدم الفلاح فقال - تعالى - ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون ﴾ والاستفهام فى قوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لا أحد أشد ظلما عند الله ، وأجدر بعقابه وغضبه ، ممن افترى عليه الكذب ، بأن نسب إليه - سبحانه - ما هو برىء منه ، أو كذب بآياته وحججه التى أنزلها لتأييد رسله .

وقوله : ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : إن حال وشأن هؤلاء المجرمين ، أنهم لا يفلحون . ولا يصلون إلى ما يبغون ويريدون .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الشواهد الدالة على صدق النبى - ﷺ - فيما بلغه عن ربه فقال عند تفسيره لهذه الآية : « لا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا ، وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك .. ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء . فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا . فلابد أن الله ينصب من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس . فإن الفرق بين محمد - ﷺ - وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل فى حندس الظلماء . فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد - ﷺ - وكذب مسيلمة .. » [1] .

ثم حكى - سبحانه - أقبح رذائلهم ، وهى عبادتهم لغير الله ، ودعواهم أن أصنامهم ستشفع لهم فقال - تعالى - :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١ .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا .. ﴾ عطف القصة على القصة .

والعبادة : الطاعة البالغة حد النهاية فى الخضوع والتعظيم .

أى : وهؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا ، ويطلبون قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله ، بلغ من جهلهم وسفههم أنهم يعبدون من دون الله أصناما لا تضرهم ولا تنفعهم ، لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك .

والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع : بطلان عبادتها ، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع ، وأن يكون مثيبا على الطاعة و معاقبا على المعصية .

وقوله : ﴿ من دون الله ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ يعبدون ﴾ أى : يعبدونها متجاوزين الله وتاركين طاعته .

و ﴿ ما ﴾ موصولة أو نكرة موصوفة . والمراد بها الأصنام التى عبدوها من دون الله .

قال الجمل : « ونفى الضر والنفع هنا عن الأصنام باعتبار الذات ، وإثباتها لها فى سورة الحج فى قوله ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ باعتبار السبب ، فلا يرد كيف نفى عن الأصنام الضر والنفع ، وأثبتها لها فى سورة الحج »[1] .

وقوله : ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ حكاية لأقوالهم السخيفة عندما يُدعَوْن إلى عبادة الله وحده .

والشفعاء : جمع شفيع ، وهو من يشفع لغيره فى دفع ضر أو جلب نفع .

أى : أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها ، ولا تنفعهم إن عبدوها ، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده قالوا : إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعة لنا عند الله فى دنيانا ، بأن نتوسل إليه بها فى إصلاح معاشنا ، وفى آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فيقول : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون ولا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون شفاعته . فهل تعلمون أنتم مالا يعلمه ، وهل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٧ .

تخبرونه بما لا يعلم له وجوداً فى السموات ولا فى الأرض ؟!!

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة التهكم بهم ، والسخرية بعقولهم وأفكارهم ، ونفى أن تكون الأوثان شفعاء عند الله بأبلغ وجه .

والعائد فى قوله ﴿ بما لا يعلم ﴾ محذوف . والتقدير بما لا يعلمه .

وقوله ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ حال من العائد المحذوف ، وهو مؤكد للنفى ، لأن مالا يوجد فيهما فهو منتف عادة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت كيف : أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل . فكأنهم يخبرونه بشىء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بمالا يعلمه .

وقوله ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ تأكيد لنفيه ، لأن مالم يوجد فيهما فهو منتف معدوم »[1] .

وقوله : ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ عن كل شريك ، وعما قاله هؤلاء الجاهلون من أن الأصنام شفعاء عنده .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وبخت المشركين على عبادتهم لغير الله وعلى جهالاتهم وتقولهم على الله بغير علم .

ثم بين - سبحانه - أن عبادة الناس لغيره - تعالى - إنما حدثت بعد أن اختلفوا واتبعوا الهوى . فقال :

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

والمراد بالناس : الجنس البشرى كله فى جملته ، فإنهم كانوا أمة واحدة . ثم كثروا وتفرقوا وصاروا شعوبا وقبائل .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣١ .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا : العرب خاصة ، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم ، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحى الذى ابتدع لهم عبادة الأصنام .

قال الآلوسى : « قوله ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ أى : وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف ، وروى هذا عن ابن عباس والسدى ومجاهد .. وذلك من عهد آدم - عليه السلام - إلى أن قتل قابيل هابيل . وقيل إلى زمن إدريس - عليه السلام - وقيل إلى زمن نوح . وقيل كانوا كذلك فى زمنه - عليه السلام - بعد أن لم يبق على الأرض من الكافرين ديار إلى أن ظهر بينهم الكفر .

وقيل : من لدن إبراهيم - عليه السلام - إلى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة الأصنام ، وهو المروى عن عطاء . وعليه فالمراد من الناس العرب خاصة . وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثر حكاية ما حكى عنهم من رذائل ، وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك »[1] .

وقوله : ﴿ فاختلفوا ﴾ أى ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم رسله ، ليبشروا المهتدين بجزيل الثواب ، ولينذروا الضالين بسوء العقاب .

والفاء للتعقيب ، وهى لا تنافى امتداد زمان اتفاقهم على الحق ، لأن المراد بيان أن وقوع الاختلاف بينهم إنما حدث عقيب انتهاء مدة الاتفاق ، لا عقيب حدوثه .

والمراد بالكلمة فى قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... ﴾ ما قضاه الله - تعالى - وأراده من تأخير الحكم بين المؤمنين وغيرهم إلى يوم القيامة .

أى : ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير القضاء بين الطائعين والعاصين إلى يوم القيامة ، لقضى بينهم - سبحانه - فى هذه الدنيا . فيما كانوا يختلفون فيه وذلك بأن يعجل للكافرين والعصاة العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه - سبحانه - اقتضت حكمته عدم تعجيل العقوبة فى الدنيا ، وأن يجعل الدار الآخرة هى دار الجزاء والثواب والعقاب .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الوعيد الشديد على الاختلاف المؤدى إلى التفرقة فى الدين ، وإلى الشقاق والنزاع ، كما تضمنت تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه : فكأنه - سبحانه - يقول إن الاختلاف من طبيعة البشر ، فلا تنتظر من الناس جميعا أن يكونوا مؤمنين . ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان تعنت المشركين وجهالاتهم فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٩٠ .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

ومرادهم بالآية التى طلبوها : آية كونية سوى القرآن الكريم ، بأن تكون معه - ﷺ - ناقة كناقة صالح - عليه السلام - أو تكون معه عصا كعصا موسى - عليه السلام - وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى ، ومعجزة عظمى على صدقه - ﷺ - .

ومرادهم بإنزالها عليه : ظهورها على يديه - ﷺ - حتى يروا ذلك بأعينهم .

أى : ويقول هؤلاء المشركون لنبيهم - ﷺ - هلا أنزل الله عليك آية أخرى سوى القرآن الكريم تكون شاهدة لك بالنبوة ، كأن تعيد إلى الحياة آباءنا ، وكأن تحول جبال مكة إلى بساتين » .

ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والتثبت ، قال - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله .. ﴾[1] .

وقوله : ﴿ فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يفحمهم .

أى : قل لهم فى الجواب على هذه المطالب المتعنتة : إن هذه المطالب التى طلبتموها هى من علم الغيب الذى استأثر الله به ، فقد يجيبكم إليها - سبحانه - وقد لا يجيبكم ، فانتظروا فيما يقضيه الله فى أمر تعنتكم فى مطالبكم ، إنى معكم من المنتظرين لقضائه وقدره ، ولما يفعله بى وبكم .

فالجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم ، وتهوينهم من شأن القرآن الكريم ، مع أنه أصدق معجزة للرسول - ﷺ - وأعظمها .

ولقد حكى القرآن - فى آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التى طلبها المشركون من النبى - ﷺ - والتى تدل على عنادهم وجحودهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[١] .

كما حكى أيضاً - سبحانه - أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا ، لأنهم معاندون جاحدون فقال - تعالى - ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون.ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[٣] .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة جانبا من أقوال الذين لا يرجون لقاء الله ومن مقترحاتهم الباطلة ومن معتقداتهم الفاسدة ، أتبعت ذلك بتصوير بعض الطبائع البشرية تصويرا صادقا يكشف عن أحوال النفوس فى حالتى السراء والضراء فقال - تعالى - :

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣ .

(٢) سورة يونس الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٧ .

وقوله ﴿ أذقنا ﴾ من الذوق وحقيقته إدراك الطعام ونحوه بالذوق باللسان واستعمل هنا على سبيل المجاز فى إدراك مايسر وما يؤلم من المعنويات كالرحمة والضراء .

قال الآلوسى « والمراد بالناس كفار مكة على ما قيل ، لما روى من أن الله - تعالى - سلط عليهم القحط سبع سنين ، حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه أن يدعو لهم بالخصب ، ووعدوه بالإيمان ، فلما دعا لهم ورحمهم الله - تعالى - بالمطر ، طفقوا يطعنون فى آياته - تعالى - ويعاندون نبيه - ﷺ - .

وقيل : إن الناس عام لجميع الكفار »[1] .

والضراء من الضر ، وهو ما يصيب الإنسان فى نفسه من أمراض وأسقام .

والمكر : هو التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى مالا يتوقعه من مضرة وكيد .

والمعنى : وإذا أذقنا الناس منا رحمة كأن منحناهم الصحة والسعادة والغنى من بعد ضراء أصابتهم فى أنفسهم أو فيمن يحبون ، ما كان منهم إلا المبادرة إلى الطعن فى آياتنا الدالة على قدرتنا ، والاستهزاء بها والتهوين من شأنها .

وأسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة ، وأسند المساس إلى الضراء ، رعاية للأدب مع الله - تعالى - ، لأنه وإن كان كل شىء من عنده ، إلا أن الأدب معه - سبحانه - يقتضى إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وفى الحديث : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك » .

وإذا الأولى شرطية ، والثانية فجائية والجملة بعدها جواب الشرط .

وجاء التعبير بإذا الفجائية فى الجواب ، للإشارة إلى توغلهم فى الجحود والكنود فهم بمجرد أن حلت النعمة بهم محل النقمة ، عادوا إلى عنادهم وجهلهم ، ونسبوا كل خير إلى غيره - تعالى - .

قال الرازى : « واعلم أنه - تعالى - ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة فى قوله - تعالى - ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه .. ﴾ إلا أنه - تعالى - زاد فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها فى تلك الآية ، وتلك الدقيقة هى أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٩٣ .

وفى الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر [١] .

وقوله : ﴿ قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يبطل مكرهم .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين الذين يسرعون بالمكر فى مقام الشكر ، إن الله - تعالى - أسرع مكراً منكم ؛ لأنه لا يخفى عليه شىء من مكركم ، ولأن الحفظة من الملائكة يسجلون عليكم أقوالكم وأفعالكم ، التى ستحاسبون عليها فى يوم القيامة حساباً عسيراً ، وسترون أن مكركم السىء لا يحيق إلا بكم .

وقوله : ﴿ أسرع ﴾ أفعل تفضيل من الفعل الثلاثى سرع - كضخم وحسن - ، أو من الفعل الرباعى « أسرع » عند من يرى ذلك .

والجملة الكريمة تحقيق للانتقام منهم . وتنبيه على أن مكرهم الخفى غير خاف على الحفظة من الملائكة فضلا عن الخالق - عز وجل - الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وسمى - سبحانه - إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكراً ، لأنهم كانوا كثيراً ما يتجمعون سراً ، ليتشاوروا فى المؤامرات التى يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية ، وفى الشبهات التى يوجهونها إلى النبى - ﷺ - .

ثم ساق - سبحانه - مشهدا حياً . تراه العيون ، وتهتز له القلوب ، ويجعل المشاعر تتجه إلى الله وحده بالدعاء فقال - تعالى - ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر .. ﴾ .

والسير معناه : الانتقال من مكان إلى آخر . والتسيير معناه : جعل الإنسان أو الحيوان أو غيرهما يسير بذاته ، أو بواسطة دابة أو سفينة أو غيرهما ، مما سخره الله - تعالى - له بقدرته ورحمته .

أى : هو - سبحانه - الذى يسيركم بقدرته ورحمته فى البر والبحر ، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير ، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرهما مما تستعملونه فى سفركم ، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم .

ثم قال - تعالى - ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ... ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٦٥ .

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل هذا اللفظ عند كثير من العلماء للواحد والجمع . والظاهر أن المراد به هنا الجمع ، بدليل قوله ﴿ وجرين ﴾ أى : السفن .

والمراد بالريح الطيبة : الريح المناسبة لسير السفن ، والموافقة لا تجاهها .

أى : هو - سبحانه - وحده الذى ينقلكم من مكان إلى آخر فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى مرات تسييركم راكبين فى السفن التى سخرها لكم ، وجرت هذه السفن بمن فيها بسبب الريح الطيبة إلى المكان الذى تقصدونه ، وأنتم فى حالة فرح غامر ، وسرور شامل .. ﴿ جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ... ﴾ .

والريح العاصف : هى الريح الشديدة القوية . يقال : عصفت الريح واعصفت فهى عاصف إذا اشتدت فى سرعتها وهيجانها .

والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد الراجح ، وقوله : ﴿ أحيط بهم ﴾ ، أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية . يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به . وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه جعله على حافة الهلاك .

أى بعد أن جرت السفن بهؤلاء القوم فى البحر وهم فى فرح وحبور ، جاءت إليهم ريح عاصفة شديدة السرعة والتقلب ، وارتفع إليها الموج من كل مكان ، واعتقد ركابها - الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين - أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .

وقوله : ﴿ بهم ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن يقال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم . لكن جاء الكلام على أسلوب الالتفات للمبالغة فى تقبيح أحوالهم ، وسوء صنيعهم .

قال صاحب الكشاف « فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت : المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح »[1] .

وقوله : ﴿دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة ، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت .

أى فى تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة ، توجهوا إلى الله وحده قائلين : نقسم لك ياربنا ، ويامن لا يعجزك شيء ، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التى نحن فيها ، لنكونن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣١ .

من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك .

وهنا ، وبعد هذا الدعاء العريض ، هدأت العاصفة . وانخفضت الأمواج ، وسكنت النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطىء الأمان فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق .. ﴾ .

أى : فحين أنجاهم الله - تعالى - بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذى كانوا فيه ، إذا هم يسعون فى الأرض فساداً . ويرتكبون البغى الفاضح الذى لا يخفى قبحه على أحد .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ البغى معناه : تجاوز الحق ، يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده فى الفساد .

فقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ تأكيد لما يفيده البغى من التعدى والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه . فإنه يسمى بغيا فى الجملة ، لكنه بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغى لا يسمى بغيا وإنما يسمى إنصافا من الظالم ، ولذا قال القرآن الكريم : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[1] .

وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية ، للإشعار بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر الأمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد فى الأرض ، دون أن يردعهم رادع ، أو يصدهم ترغيب أو ترهيب .

والتعبير بقوله ﴿ فى الأرض ﴾ للإشارة إلى أن بغيهم قد شمل أقطارها ، ولم يقتصر على جانب من جوانبها .

وقوله - سبحانه - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ خطاب منه - سبحانه - لأولئك البغاة فى كل زمان ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .

أى : يأيها الناس الذين تضرعوا إلينا فى ساعات الشدة ، وهرولوا إلى البغى بعد زوال تلك الشدة ، اعلموا أن بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم فأنتم وحدكم الذين ستتحملون سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤١ .

واعلموا أن هذا البغى إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التى لا بقاء لها ، وإنما هى إلى زوال وفناء .

واعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفانى . فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذى تستحقونه .

وقوله : ﴿ إنما بغيكم ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ على أنفسكم ﴾ أى هو عليكم فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم .

وقوله : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ : قرأ حفص عن عاصم ﴿ متاع ﴾ بفتح العين على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر . أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية .

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة الدنيا . وقوله : ﴿ ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تذييل قصد به تهديدهم على بغيهم ، ووعيدهم عليه بسوء المصير حتى يرتدعوا وينزجروا .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - أن من الواجب على العاقل أن يكثر من ذكر الله فى حالتى الشدة والرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر وينسونه عند العافية . ففى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

٢ - ان الناس جبلوا على الرجوع إل الله وحده عند المصائب والمحن ، وفى ذلك يقول الآلوسى : « روى أبو داود والنسائى وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا . فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ، ما ينجينى فى البر غيره . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفوا كريما . قال : فجاء فأسلم .

وفى رواية ابن سعد عن أبى مليكه : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله - تعالى - ويوحدونه فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله - تعالى - . قال : « فهذا ما يدعونا إليه محمد - ﷺ - فارجعوا بنا » . فرجع وأسلم ... » [١] .

وقال الفخر الرازى : « يحكى أن واحدا قال لجعفر الصادق : اذكر لى دليلا على إثبات

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٩٧ .

الصانع ؟ فقال له : أخبرنى عن حرفتك : فقال : أنا رجل أتجر فى البحر . فقال له : صف لى كيفية حالك . فقال : ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة . فقال جعفر : هل وجدت فى قلبك تضرعا ودعاء . فقال : نعم . فقال جعفر : فإلهك هو الذى تضرعت إليه فى ذلك الوقت »[1] .

وقد ساق صاحب المنار قصة ملخصها « أن رجلا إنجليزيا قرأ ترجمة قوله - تعالى - ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر . ﴾ فراعته بلاغة وصفها لطغيان البحر .. وكان يعمل قائدا لإحدى السفن .. فسأل بعض المسلمين : أتعلمون أن نبيكم - ﷺ - قد سافر فى البحار ؟ فقالوا له : لا .. فأسلم الرجل لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام البشر وإنما هو كلام الله - تعالى ... »[2] .

٣ - دل قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ... ﴾ على أن البغى يجازى أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة .

فأما فى الآخرة فهو مادل عليه إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيجازيهم عليه أسوأ الجزاء .

وأما فى الدنيا فبدليل قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ويؤيده مارواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة سوى البغى وقطيعة الرحم »[3] .

قال الآلوسى . وفى الآية من الزجر عن البغى مالا يخفى « فقد أخرج أبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال رسول الله - ﷺ - : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى » ثم تلا - ﷺ - قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ . وقوله - تعالى - ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله - ﷺ - : « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٧ .
(٢) راجع تفسير النار جـ ١١ ص ٣٤٤ .
(٣) راجع تفسير المنار جـ ١١ ص ٣٤٣ .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه :

يا صاحب البغى إن البغى مصرعه فارجع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله [1]

ثم ساق - سبحانه - مثلا لمتاع الحياة الدنيا الزائل ، ولزخرفها الفانى ، فقال - تعالى - :

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ إنما مثل ... ﴾ المَثَل بمعنى المِثْل ، والمِثْل : النظير والشبيه ، ثم اطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده الذى ورد فيه أولا ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية وأشباهها .

والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : إنما صفة الحياة الدنيا وحالها فى سرعة زوالها ، وانصرام نعيمها بعد إقباله . كحال ماء ﴿ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أى : فكثر بسببه نبات الأرض حتى التف وتشابك بعضه ببعض لازدهاره وتجاوزه ونمائه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٠٠ .

وشبه - سبحانه - الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص - بخلاف ماء الأرض - فكان تشبيه الحياة به أنسب .

وقوله : ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ معناه : وهذا النبات الذى نما وازدهر بسبب نزول المطر من السماء ، بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه . وبعضه مما تأكله الأنعام كالحشائش والأعشاب المختلفة .

وجملة ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ حال من النبات .

وقوله : ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت .. ﴾ تصوير بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أنبتت من كل زوج بهيج .

ولفظ ﴿ حتى ﴾ غاية لمحذوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض وربت وأنبتت النبات الذى ما زال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها .

والزخرف : الذهب وكمال حسن الشيء . ومن القول أحسنه ، ومن الأرض ألوان نباتها .

أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها ، وازينت بمختلف أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشاف : « وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها وزينتها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها ، وتزينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت تزينت »[1] .

وقوله : ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ أى : وظن أهل تلك الأرض الزاخرة بالنباتات النافعة . أنهم قادرون على قطف ثمارها ، ومتمكنون من التمتع بخيراتها ، ومن الانتفاع بغلاتها .

وقوله : ﴿ أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا .. ﴾ تصوير معجز لما أصاب زرعها من هلاك بعد نضرته واستوائه و ﴿ أو ﴾ للتنويع أى : تارة يأتى ليلا وتارة يأتى نهارا .

والجملة الكريمة جواب إذا فى قوله ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها .. ﴾ .

أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع زروعها ، أتاها قضاؤنا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٣ .

النافذ ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها نائمون ، أو بالنهار وهم لا هون ، فجعلناها بما عليها كالأرض المحصودة ، التي استؤصل زرعها .

وقوله : ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ تأكيد لهلاكها واستئصال ما عليها من نبات بصورة سريعة حاسمة .

أي : جعلناها كالأرض المحصودة التي قطع زرعها ، حتى لكأنها لم يكن بها منذ وقت قريب : الزرع النضير ، والنبات البهيج ، والنخل الباسق ، والطلع النضيد .

قال القرطبي قوله : ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أي : لم تكن عامرة . من غنى بالمكان إذا أقام فيه وعمره ، والمغاني في اللغة : المنازل التي يعمرها الناس »[1] .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾ أي كأنها ما كانت حينا قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، ولهذا جاء في الحديث الشريف : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس عذابا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط فيقول لا »[2] .

والمراد بالأمس هنا : الوقت الماضي القريب : لا خصوص اليوم الذي قبل يومك .

وقوله : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ تذييل قصد به الحض على التفكير والاعتبار .

أي : كهذا المثل في وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها نفصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يحسنون التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض .

قال الجمل ما ملخصه : « وهذه الآية مثل ضربه الله - تعالى - للمتشبث في الدنيا الراغب في زهرتها وحسنها .. ووجه التمثيل أن غاية هذه الدنيا التي ينتفع بها المرء ، كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به ، وقع اليأس منه ، ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها »[3] .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٨ ص ٣٢٨ .
(٢) تفسير أبن كثير جـ ٢ ص ٤١٣ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٤٢ .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعا إلى العمل الصالح الذى يوصلهم إلى الجنة فقال - تعالى - :

وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

والمقصود بدار السلام : الجنة التى أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، وسميت بذلك ، لأنها الدار التى سلم أهلها من كل ألم وآفة . أو لأن تحيتهم فيها سلام ، أو لأن السلام من أسماء الله - تعالى - فأضيفت إليه تعظيما لشأنها ، وتشريفا لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .

وقوله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ... ﴾ معطوف على محذوف يدل عليه السياق .

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إيثار متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله - تعالى - يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذى يوصلهم إلى دار كرامته .

وقوله : ﴿ ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وهو المؤدى بصاحبه إلى رضوان الله ومغفرته .

والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذى شرعه الله لعباده . وبلغه لهم عن طريق نبيه محمد - ﷺ - .

وقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... ﴾ بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .

أى : للمؤمنين الصادقين الذين قدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزلة الحسنى ، والمثوبة الحسنى وهى الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله - تعالى - عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم - رضى الله عنهم .

ومستندهم فى ذلك الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن والتى منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن صهيب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - : تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .. ﴾ .

وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا . يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم »[1] .

وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : « مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر أو مغفرته - سبحانه - ما فرط منهم فى الدنيا ، ورضوانه عليهم فى الآخرة » .

والحق ان التفسير الوارد عن الصحابة . والمؤيد بما جاء فى الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه . ولا مانع من أن يمن الله عليهم بما يمن من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .

ولذا قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ وزيادة ﴾ هى تضعيف ثواب الأعمال .. وأفضل من ذلك النظر إلى وجهه الكريم . فإنه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن جمع من السلف والخلف ، وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبى - ﷺ - فى ذلك ، ومنها ما رواه ابن جرير عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى يا أهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن » . عز وجل .

وعن أبى بن كعب أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن قول الله - تعالى - ﴿ للذين

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى .

أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله – تعالى – »[1] .

والمقصود بقوله : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو ، إثر بيان ما أعطاهم من رضوان .

وقوله : ﴿ يرهق ﴾ من الرهق بمعنى الغشيان والتغطية . يقال : رهقه يرهقه رهقا – من باب طرب – أى غشيه وغطاه بسرعة .

والقتر والقترة : الغبار والدخان الذى فيه سواد والذلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان يذل ذلة وذلا ، إذا أصابه الصغار والحقارة .

أى : ولا يغطى وجوههم يوم القيامة شىء مما يغطى وجوه الكفار ، من السواد والهوان والصغار .

وهذه الجملة بما اشتملت عليه من المعانى ، توحى بأن فى يوم القيامة من الزحام والأهوال والكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشاعر ، فهناك وجوه ﴿ عليها غبرة . ترهقها قترة ﴾ وهناك وجوه ﴿ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ .

وقوله : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ تذييل قصد به تأكيد مدحهم ومسرتهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم أصحاب دار السلام ، وهم خالدون فيها خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

ثم بين – سبحانه – مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة فقال – تعالى – : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما ﴾.

أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين اجترحوا السيئات ، واقترفوا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التى ارتكبوها كما قال – تعالى – ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾.

والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله – تعالى – يجازيهم عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سيئ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٤ .

وقوله : ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أى : وتغشاهم وتغطيهم ذلة عظيمة ومهانة شديدة ، وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيذان بأنها محيطة بهم من كل جانب .

وقوله : ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ أى : ليس لهم أحد يعصمهم أو يجيرهم أو يشفع لهم ، بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ﴾ تصوير بديع للظلام الحسى والمعنوى الذى يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين .

أى : كأنما ألبست وجوههم قطعا من الليل المظلم ، والسواد الحالك ، حتى سارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة .

وقوله : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ بيان لسوء عاقبتهم ، وتعاسة أحوالهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا أبديا لا نهاية له .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة تصويرا بديعا لما عليه المؤمنون الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى فى رفع درجاتهم ، وفى رضا الله - تعالى - عنهم : كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال الخارجين عن طاعته ؛ ووصفا للمصير المؤلم ، الذى ينتظرهم يوم القيامة ، ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من الأقوال التى تدور بين المشركين وبين شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

وقوله : ﴿ نحشرهم ﴾ أى نجمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .

ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجمع الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ أى : ثم نقول للمشركين منهم فى هذا اليوم العصيب ، الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاءه فيكم ، فقوله : ﴿ مكانكم ﴾ ظرف مكان منصوب بفعل مقدر ، وقوله ﴿ وشركاؤكم ﴾ معطوف على ضمير الفعل المقدر ، وقوله ﴿ أنتم ﴾ تأكيد له . أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم .

وجاء العطف بثم ، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم ، مواقف أخرى فيها من الأهوال ما فيها ، فثم هنا للتراخى النسبى .

وقال - سبحانه - ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ مع أن المشركين كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء الله - من باب التهكم بهم . وللإشارة إلى أن ما عبدوهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله ، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذبا .

وجاء وصفهم بالشرك فى حيز الصلة ، للإيذان بأنه أكبر جناياتهم ؛ وأن شركهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم .

وقوله : ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أى : ففرقنا بينهم ، وقطعنا ما بينهم من صلات ، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة .

وزيلنا : من التزييل بمعنى التمييز والتفريق ، يقال : زيلت الشىء أزيله إذا نحيته وأبعدته ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ﴾[1] أى : لو تميزوا وتفرقوا .

وعبر بالفاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز ؛ قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التذييل سيكون فى الآخرة ، للإيذان بتحقيق الوقوع ، وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم .

وقوله : ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ معطوف على ما قبله .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

والمراد بالشركاء ؛ كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك .

أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : إنكم أيها المشركون لم تكونوا لنا عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم ؛ فانقدتم له بدون تدبر أو تعقل .

والمقصود بقولهم هذا - التبرى من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة .

وقوله : ﴿ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ تأكيد لهذا التبرى والإنكار ، ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .

و ﴿ إن ﴾ فى قوله ﴿ إن كنا ﴾ مخففة من الثقيلة .. أى : فكفى أن يكون الله - تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضينا بها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة : ما سلف منها من أعمال ، فترى ما كان نافعاً أو ضاراً من هذه الأعمال ، وترى الجزاء المناسب عن كل عمل بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقضى بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن المشركين فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .

وهكذا ترى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويرا بليغا مؤثرا ، يتجلى فيه موقف الشركاء من عابديهم ، وموقف كل إنسان من عمله الذى أسلفه فى الدنيا .

وبعد هذا الحديث المعجز عن يوم الحشر وأهواله ، ساقت السورة الكريمة بضع آيات فيها الأدلة المقنعة على وحدانية الله وقدرته ، ولكن بأسلوب السؤال والجواب ، فقال - تعالى :

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ

فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها ، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار ، وغير ذلك مما تخرجه الأرض .

وقوله : ﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ أى : بل قل لهم - أيضا - من الذى يملك ما تتمتعون به من سمع وبصر ، ومن الذى يستطيع خلقهما وتسويتهما بالطريقة التى أوجدها - سبحانه .

وخص هاتين الحاستين بالذكر ، لأن لهما أعظم الأثر فى حياة الإنسان ، ولأنهما قد اشتملتا فى تركيبهما على ما بهر العقول ، ويشهد بقدرته - تعالى - وعجيب صنعه فى خلقه .

و ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل ، وهى هنا للإضراب الانتقالى لا الإبطالى ، وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام فى الدلالة على المقصود ، وهو إثبات قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .

وقوله : ﴿ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ دليل ثالث على قدرة الله ووحدانيته .

أى : وقل لهم كذلك من سوى الله - تعالى - يملك إخراج النبات وهو كائن حى من الأرض الميتة ، وإخراج الإنسان وهو كائن حى من النطفة وبالعكس ، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس .

وقوله : ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أى : وقل لهم - أيضاً - من الذى يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وأماتة ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ونجوم ...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص ، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها .

وقوله : ﴿ فسيقولون الله ﴾ حكاية للجواب الذى لا يستطيعون إنكاره ، لأنهم مقرون معترفون بأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم ، وهو الذى يدبر أمرهم ، وإنما كانوا يتخذون

الشركاء للزلفى ، كما حكى القرآن عنهم فى قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله .. ﴾ وفى قوله – سبحانه – حكاية عنهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .. ﴾ .

ولفظ الجلالة مبتدأ ، والخبر محذوف والتقدير : فسيقولون الله وحده هو الذى فعل كل ذلك .

وقوله : ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أمر من الله – تعالى – لرسوله – ﷺ – بأن يرد عليهم بهذا الرد .

والهمزة لإنكار واقعهم الذميم ، وهى داخلة على كلام مقدر ، ومفعول تتقون محذوف .

أى : أتعلمون وتعترفون بأن الله – تعالى – هو الخالق لكل ما سبق ، ومع ذلك تشركون معه آلهة فى العبادة ، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة ؟ .

إن مسلكك هذا إنما يدل على ضعف فى التفكير ، وانطماس فى العقول ، وجهالة ليس بعدها جهالة .

ثم أرشدهم – سبحانه – إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ... ﴾ .

أى : فذلكم الذى فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم ، هو الله المربى لكم بنعمه ، وهو الذى لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده .

إذا كان الأمر كذلك ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أى لا يوجد غير الحق شىء يتبع سوى الضلال ، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده ، فقد وقع فى الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى .

قال القرطبى : « ثبت عن عائشة – رضى الله عنها – أن النبى – ﷺ – كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : « اللهم لك الحمد » الحديث ، وفيه : أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ... » .

فقوله : أنت الحق ، أى الواجب الوجود ، وأصله من حق الشىء إذا ثبت ووجب – وهذا الوصف لله – تعالى – بالحقيقة ، إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ، ويجوز عليه لحاق العدم ، ووجوده من موجده لا من نفسه .

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما فى هذه الآية .. والضلال حقيقته الذهاب عن

الحق مأخوذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سمته ، يقال : ضل الطريق وأضل الشىء إذا أضاعه .. »[١] .

وقوله : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أى : فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الضلال ، بعد اعترافكم وإقراركم بأن خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم هو الله - تعالى - وحده .

فأنى هنا بمعنى كيف ، والاستفهام لإنكار واقعهم المخزى واستبعاده والتعجب منه .

ومن الأحكام التى تؤخذ من هذه الآية الكريمة : أن الحق والباطل ، والهدى والضلال ، نقيضان لا يجتمعان ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فى وقت واحد بل متى ثبت أن أحدهما هو الحق ، وجب أن يكون الآخر هو الباطل .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل ، فقال - تعالى - :

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ .

والكاف للتشبيه بمعنى مثل . وحقت بمعنى وجبت وثبتت .

والمراد بالكلمة هنا : حكمه وقضاؤه - سبحانه - .

والمعنى : مثل ما ثبت أن الله - تعالى - هو الرب الحق ، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال ، ثبت - أيضا - الحكم والقضاء منه - سبحانه - على الذين فسقوا عن أمره ، وعموا وصموا عن الحق ، أنهم لا يؤمنون به ، لأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .

فالمراد بالفسق هنا : التمرد فى الكفر ، والسير فيه إلى أقصى حدوده .

ثم ساق - سبحانه - أنواعا أخرى من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . فقال :

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٣٦ .

يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين عن الحق : هل من شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، أو أشركتموهم مع الله ، من له القدرة على أن يبدأ خلق الإنسان من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ... ثم ينشئه خلقا آخر ، ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد موته ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، أما شركاؤكم فهم أعجز من أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ...

وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ والإفك الصرف والقلب عن الشىء . يقال : أفكه عن الشىء يأفكه أفكا ، إذا قلبه عنه وصرفه .

أى فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق ، إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ؟ ! .

وجاءت جملة ﴿ قل هل من شركائكم .. ﴾ بدون حرف العطف على ما قبلها للإيذان باستقلالها فى حصول المطلوب ، وإثبات المقصود .

وساق - سبحانه - الأدلة بأسلوب السؤال والاستفهام ، لأن الكلام إذا كان واضحا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المسئول كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب .

وجعل - سبحانه - إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم فى التدليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها ، للإيذان بسطوع أدلتها ، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال - تعالى - ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه .. ﴾[1] .

فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة ، نزل إنكارهم لها منزلة العدم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : كيف قيل لهم هل من

---

(١) سورة الروم الآية ٢٧ .

شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهم غير معترفين بالإعادة ؟ .

قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابرا رادا الظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه ، ودلالة على أنهم فى إنكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء . وقال لنبيه - ﷺ - : ﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ فأمره بأن ينوب عنهم فى الجواب . يعنى أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلم أنت عنهم .. »[1] .

وقوله : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق ﴾ . حجة أخرى تدمغ جهلهم ، جىء بها لتكون دليلا على قدرة الله على الهداية والإضلال ، عقب إقامة الأدلة على قدرته - سبحانه - على بدء الخلق وإعادتهم .

أى : قل لهم يا محمد - أيضا - على سبيل التهكم من أفكارهم : هل من شركائكم من يستطيع أن يهدى غيره إلى الدين الحق ، فينزل كتاباً ، أو يرسل رسولا ، أو يشرع شريعة ، أو يضع نظاما دقيقا لهذا الكون . أو يحث العقول على التدبر والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ... ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يفعل كل ذلك ، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من ذلك أو من غيره .

وقوله : ﴿ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى .. ﴾ توبيخ آخر لهم على جهالاتهم وغفلتهم عن إدراك الأمور الواضحة .

أى : قل لهم يا محمد : أفمن يهدى غيره إلى الحق وهو الله - تعالى - . أحق أن يتبع فيما يأمر به وينهى عنه ، أم من لا يستطيع أت يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره أحق بالاتباع ؟ لاشك أن الذى يهدى غيره إلى الحق أحق بالاتباع من الذى هو فى حاجة إلى أن يهديه غيره .

وقوله : ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ استفهام قصد به التعجيب من أحوالهم التى تدعو إلى الدهشة والغرابة .

أى : ما الذى وقع لكم ، وما الذى أصابكم فى عقولكم حتى صرتم تشركون فى العبادة مع الله الخالق الهادى ، مخلوقات لا تهدى بنفسها وإنما هى فى حاجة إلى من يخلقها ويهديها .

قال الإمام الرازى : « واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا ثم بالهداية

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٦ .

ثانيا ، عادة مطردة فى القرآن ، فقد حكى - سبحانه - عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ وعن موسى أنه قال : ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ وأمر محمدا - ﷺ - بذلك فقال: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى. الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾ .وهو فى الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وله روح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية ، فها هنا أيضا لما ذكر دليل الخلق فى الآية الأولى وهو قوله : ﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية[1] .

وقوله : ﴿ أم من لا يهدى ﴾ ورد فيه ست قراءات ، منها قراءة يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ، ومنها قراءة حمزة والكسائى بالتخفيف كيرمى ، ومنها قراءة ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع « يهدى » فتح الياء والهاء وتشديد الدال ..[2] .

والاستثناء فى قوله : ﴿ أم من لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ مفرغ من أعم الأحوال .

والتقدير : أفمن يهدى إلى الحق أحق بالاتباع ، أم من لا يستطيع الهداية إلا أن يهديه إليها غيره أحق بالاتباع ؟

وجاء قوله - سبحانه - ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ باستفهامين متواليين ، زيادة فى توبيخهم وتقريعهم ، ولفت أنظارهم إلى الحق الواضح الذى لا يخفى على كل ذى عقل سليم .

وقوله : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ... ﴾ توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون ، وتسلية للرسول - ﷺ -عما أصابه منهم من إساءات .

أى : إن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، لا يتبعون فى عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون والأوهام التى ورثها الأبناء عن الآباء .

وخص أكثرهم بالذكر ، لأن هناك قلة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لا يتبعونه عنادا وجحودا وحسدا ، كما قال - تعالى - ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[3] .

ويجوز أن يكون - سبحانه - خص أكثرهم بالذكر ، للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق ، وستتبعه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٩٠ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٤١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٣٣ .

والتنكير فى قوله ﴿ ظنا ﴾ للتنويع . أى لا يتبع أكثرهم إلا نوعا من الظن الواهى الذى لا يستند إلى دليل أو برهان .

وقوله : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ استئناف مسوق لبيان شأن الظن وبطلانه .

والمراد بالظن هنا : ما يخالف العلم واليقين ، والمراد بالحق : العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع .

أى : إن الظن الفاسد المبنى على الأوهام لا يغنى صاحبه شيئا من الإغناء ، عن الحق الثابت الذى لا ريب فى ثبوته وصحته .

وقوله ﴿ شيئا ﴾ مفعول مطلق أى : لا يغنى شيئا من الإغناء ، ويجوز أن يكون مفعولا به على جعل يغنى بمعنى يدفع .

وقوله : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : إن الله - تعالى - عليم بأقوالهم وأفعالهم ، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة ، وسينالون ما يستحقونه من عقاب بسبب أقوالهم الباطلة . وأفعالهم الفاسدة .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقينى واجب فى الاعتقاديات ، ويدخل فى الاعتقاديات الإيمان بأركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية ، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك ...

أما مادون العلم اليقينى مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال ، كاجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الأمر فى الإدارة والسياسة ، مع التقيد بالشورى وتحرى العدل .. »[1] .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فتحدت أعداءه أن يأتوا بسورة مثله ، ووصفتهم بالجهالة وسفاهة الرأى ، وصورت أحوالهم ومواقفهم من دعوة الحق تصويرا بليغا . استمع إلى السورة الكريمة وهى تتحدث عن كل ذلك فتقول :

---

(١) تفسير المنار جـ ١١ ص ٣٦٤ .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

قال الإمام ابن كثير « هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعانى الغزيرة النافعة فى الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله – تعالى – الذى لا يشبهه شىء فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ولا فى أقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال – تعالى – : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٧ .

والنفى هنا للشأن الذى هو أبلغ فى النفى ، وأعمق فى الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله ، من نفى الشىء فى ذاته مباشرة .

أى : وليس من شأن هذا القرآن المعجز ، أن يخترعه أو يختلقه أحد من الإنس أو الجن أو غيرهما ؛ لأن ما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ، وهدايات جامعة ... يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر .

وقوله : ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب ﴾ بيان لكمال هداية القرآن الكريم ، وهيمنته على الكتب السماوية السابقة .

والمراد بالذى بين يديه : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل والزبور .

وقوله ﴿ بين يديه ﴾ فيه نوع مجاز ؛ لأن ما بين يدى الشىء يكون أمامه ، فوصف - سبحانه - ما مضى من الكتب بأنها بين يدى القرآن لشدة ظهورها واشتهارها ، ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة : تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية الله - تعالى - ، ومن أمر باتباع الرسول - ﷺ - عند ظهوره .

وأل فى ﴿ الكتاب ﴾ للجنس ، فالمراد به جنس الكتب السماوية التى أنزلها - سبحانه - على بعض أنبيائه .

والمعنى : ليس من شأن هذا الكتاب فى إعجازه وهدايته أن يكون من عند غير الله ، لأن غيره - سبحانه - لا يقدر على ذلك ، ولكن من شأنه أن يكون مؤيداً للكتب السماوية السابقة فيما دعت إليه من إخلاص العبودية لله - تعالى - ومن اتباع لرسله ، وأن يكون مفصلا وموضحا لما اشتملت عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام .

وقوله ﴿ تصديق ﴾ منصوب على أنه معطوف على خبر كان ، أو على أنه خبر لكان المقدرة أى : ولكن كان تصديق .

وقوله ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ بيان لمصدره .

أى : هذا الكتاب لا ريب ولاشك فى كونه منزلا على رسوله محمد - ﷺ - من الله - تعالى - رب العالمين .

وفصلت جملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ عما قبلها لأنها مؤكدة له ، ومقررة لمضمونه .

ونفى - سبحانه - عن القرآن الريب على سبيل الاستغراق : مع وقوع الريب فيه من المشركين ، حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ، لأنه لروعة بيانه ، وسطوع حجته ، ووضوح دلائله ، لا يرتاب ذو عقل متدبر فى كونه وحياً سماوياً ، ومصدر هداية وإصلاح .

فجملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ تنفى الريب فى القرآن عمن شأنهم أن يتدبروه ، ويقبلوا على النظر فيه بروية ومن ارتاب فيه فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية ، أو بصيرة نافذة أو قلب سليم .

وقوله - سبحانه ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ انتقال من بيان كون القرآن من عند الله ، إلى بيان مزاعمهم فيه .

وأم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة للاستفهام ، أى : بل أيقولون إن محمداً - ﷺ - هو الذى أتى بهذا القرآن من عند نفسه لا من عند الله .

وقوله ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ . أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم .

أى : قل لهم : يا محمد على سبيل التبكيت والتحدى : إن كان الأمر كما زعمتم من أنى أنا الذى اختلقت هذا القرآن ، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بسورة مثل سوره فى البلاغة والهداية وقوة التأثير ، وقد أبحت لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم ومساعدتكم فى بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله - تعالى - وجاءت كلمة « سورة » منكرة ، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة ، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن ، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه .

والضمير فى ﴿ مثله ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، والمراد بمثله هنا : ما يشابهه فى حسن النظم ، وجمال الأسلوب ، وسداد المعنى ، وقوة التأثير .

وقوله : ﴿ وادعوا ﴾ من الدعاء ، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى نادوهم .

وكلمة ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من استطعتم ﴾ تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة .

وكلمة ﴿ دون ﴾ هنا بمعنى غير أى : ادعوا لمساعدتكم كل من تستطيعون دعوته غير الله - تعالى - فإنه وحده القادر على أن يأتى بمثله .

وقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ جملة شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام السابق عليه ، أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم أنى افتريت هذا القرآن ، فهاتوا سورة مثله مفتراة ، فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد تحدتهم وأثارت حماستهم ، وأرخت لهم الحبل ، وعرضت بعدم صدقهم ، حتى تتوافر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

قال الآلوسى : « هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن ، لأنه - ﷺ - تحدى مصاقع العرب بسورة ما منه ، فلم يأتوا بذلك ، وإلا فلو أتوا بذلك لنقل إلينا ، لتوفر الدواعى على نقله »[١] .

هذا وقد عقد صاحب الظلال فصلا طويلا للحديث عن إعجاز القرآن فقال : « وقد ثبت هذا التحدى ، وثبت العجز عنه ، ومايزال ثابتاً ولن يزال ، والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان ، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الحاجة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة من العقول فى جيل واحد أو فى جميع الأجيال ، ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والتشريعات والتقسيمات وما إليها ... »[٢] .

ثم انتقلت السورة الكريمة من توبيخهم على كذبهم وجحودهم ، إلى توبيخهم على جهلهم وغباوتهم فقال - تعالى - : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ... ﴾ .

أى : أن هؤلاء الأشقياء لم يكتفوا بما قالوه فى شأن القرآن الكريم من أقاويل فاسدة ، بل هرولوا إلى تكذيب ما فيه من هدايات سامية ، وآداب عالية ، وأخبار صادقة ، بدون فهم أو تدبر ، وبدون انتظار لتفسير معانيه وأخباره التى لم يهتدوا إلى معرفتها بعد .

قال صاحب الكشاف قوله ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ أى : بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها فى أول وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحسن إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١١٩ .

(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ١١ ص ١٧٨٥ وما بعدها طبعة دار الشروق .

فإن قلت : فما معنى التوقع فى قوله : ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ، تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمردا ، وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم .

ويجوز أن يكون معنى ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا فى نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه »[١] .

وقال الآلوسى : وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ دون أن يقال . بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحوه للإيذان بكمال جهلهم به ، وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به ، وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ، لما أن تعليق الحكم بالموصول مشعر بعلية ما فى حيز الصلة له ، وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علما ، إلا أنه عدل منه إلى ما فى النظم الكريم لأنه أبلغ .

ونفى إتيان التأويل بكلمة ﴿ لما ﴾ الدالة على توقع منفيها بعد نفى الإحاطة بعلمه بكلمة « لم » ؛ لتأكيد الذم ، وتشديد التشنيع ، فإن الشناعة فى تكذيب الشىء ، قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل علمه مطلقا »[٢] .

وقوله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ تهديد لهم ووعيد على التمادى فى العناد .

أى : كما كذب المشركون نبيهم محمدا - ﷺ - عن جهل وجحود : كذب الذين من قبلهم أنبياءهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٣] .

ثم فصل - سبحانه - أحوالهم ومواقفهم من القرآن الكريم فقال : ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٢٠ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

أى : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به أبدا لاستحبابه العمى على الهدى .

وعليه يكون المراد بمن يؤمن به ، أولئك الذين وفقهم الله لا تباع الحق عن يقين وإذعان .

وقيل إن المعنى : ومن قومك يا محمد أناس يؤمنون فى قرارة نفوسهم بأن هذا القرآن من عند الله ، ولكنهم يكذبونك جحودا وعنادا ومنهم من لا يؤمن به أصلا لا نطماس بصيرته ، وإيثاره الغى على الرشد .

وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به : أولئك الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم وبين اتباعه .

وقوله : ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أى : وربك أعلم بالمفسدين فى الأرض بالشرك والظلم والفجور ، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حسابا عسيرا ، ويذيقهم العذاب الذى يستحقونه ، فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب والعقاب .

وقوله : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - - إذا ما لج أعداؤه فى طغيانهم .

أى : وإن تمادى هؤلاء الأشرار فى طغيانهم وفى تكذيبهم لك يا محمد ، فقل لهم : أنا مسئول عن عملى أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه - سبحانه - وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذونى عليه ، وأنا برئ كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذنى الله عليها .

فالآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه . وإعلام له بأن وظيفته البلاغ ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله - تعالى - .

ثم صور - سبحانه - ما عليه أولئك الجاحدون من جهالات مطبقة ، وغباء مستحكم فقال - تعالى - : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ .

أى : ومن هؤلاء المشركين - يا محمد - من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم القرآن وترشدهم إلى ما ينفعهم ، ولكنهم يستمعون بلا تدبر أوفهم ، فهل أنت - يا محمد - فى إمكانك أن تسمع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم ، لأن الأصم العاقل - كما يقول صاحب الكشاف - ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر .

ومنهم - أيضاً - من ينظر إليك ، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ، فإن وجهك ليس بوجه كذاب ، ولكنه لا يتبع دعوتك جحودا وعنادا ، فهل أنت فى إمكانك أن تهدى العمى ولو

انضم إلى فقدان بصرهم فقدان بصيرتهم فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد نعتا على المشركين جهالاتهم ، وانطماس بصيرتهم ، بحيث صاروا لا ينتفعون بنعم الله التى أنعم بها عليهم .

فقد وصمهم - سبحانه - بفقدان السمع والبصر والعقل ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ويعقلون ، لأنهم لما لم يستعملوا نعم الله فيما خلقت له ، صارت هى والعدم سواء .

والاستفهام فى الآيتين للإنكار والاستبعاد .

وجواب ﴿ لو ﴾ فى الآيتين محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها . أى : أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، على معنى أفأنت تستطيع إسماعهم فى الحالتين ؟ كلا لا تستطيع ذلك وإنما القادر على ذلك هو الله وحده .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سننه فى خلقه ، أن لا يظلمهم شيئاً ، كأن يعذبهم - مثلا - مع إيمانهم وطاعتهم له ، أو كأن ينقصهم شيئا من الأسباب التى يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم .. ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، بإيرادها موارد المهالك عن طريق اجتراح السيئات ، واقتراف الموبقات ، الموجبة للعقوبات فى الدنيا والآخرة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد نفت تصور أن يكون هذا القرآن من عند غير الله ، وتحدت المشركين أن يأتوا بسورة مثله ، ووصمتهم بالتسرع فى الحكم على شىء لم يحيطوا بعلمه ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يثبت على دعوة الحق ، سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا ، وأن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته ألا يعذب الناس إلا إذا فعلوا ما يوجب العقوبة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما ﴾ .

وبعد أن بينت السورة الكريمة أحوال أولئك المشركين فى الدنيا ، ومواقفهم من الدعوة الإسلامية ، أتبعت ذلك بالحديث عن أحوالهم يوم الحشر ، ومن استعجالهم للعذاب ، وعن رد الرسول - ﷺ - عليهم ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ

وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ بيان لأحوالهم السيئة عند جمعهم لحساب يوم القيامة .

إذ الحشر - كما يقول الراغب - إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها »[1] .

والمراد به هنا : إخراج الناس من قبورهم وجمعهم فى الموقف لحسابهم على أعمالهم الدنيوية .

دالمقصود بالساعة هنا : المدة القليلة من الزمان ، فقد جرت العادة أن يضرب بها المثل فى الوقت القصير .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم ، وذكر هؤلاء المشركين الذين عموا وصموا عن الحق ، يوم يجمعهم الله - فى الآخرة للحساب والعقاب ، فيشتد كربهم ، وينسون تلك الملذات والشهوات .. التى استمتعوا بها فى الدنيا ، حتى لكأنهم لم يلبثوا فيها وفى قبورهم ، إلا ساعة من النهار أى : إلا مدة قصيرة من النهار ، يتعارفون بينهم ، أى : لا تتسع تلك المدة إلا للتعارف فيما بينهم .

وقوله : ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ جملة حالية من ضمير الجمع فى يحشرهم .

وخصت الساعة بكونها من النهار ، لأنها أعرف لهم من ساعات الليل .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١١٩ .

والمقصود بالتشبيه : بيان أن هذه السنوات الطويلة التى قضاها هؤلاء المشركون فى الدنيا يتمتعون بلهوها ولعبها، ويستبعدون معها أن هناك بعثا وحسابا .. قد زالت عن ذاكرتهم فى يوم القيامة ، حتى لكأنهم لم يمكثوا فيها سوى وقت قصير لا يتسع لأكثر من التعارف القليل مع الأقارب والجيران والأصدقاء ، حتى لكأن ذلك النعيم الذى تقلبوا فيه دهراً طويلا لم يروه من قبل ...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأحقاف : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾[١] وقوله - سبحانه ، فى سورة الروم ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ﴾[٢] .

فإن قيل : إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عندما يسألون يحسبون بأنهم لبثوا فى الدنيا يوما أو بعض يوم ، أو عشية أو ضحاها كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾[٣] . وكما فى قوله - تعالى - ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[٤] فكيف نجمع بين هذه الآيات التى اختلفت إجابتهم فيها ؟ .

فالجواب : أن أهل الموقف يختلفون فى تقدير الزمن الذى لبثوه فى الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ، وعلى حسب أهوال كل موقف ، فإن فى يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض .

وقوله ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ جملة حالية أيضا من ضمير الجمع فى يحشرهم .

قال القرطبى : « وهذا التعارف توبيخ وافتضاح ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى وحملتنى على الكفر ، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف ... والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف التوبيخى عند مشاهدة أهوال القيامة ، لقوله - تعالى - ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ ...

فأما قوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ وأشباهه فمعناه : لا يسأله سؤال رحمة وشفقة .. »[٥] .

وقوله : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان

---

(١) الآية ٣٥ .
(٢) الآية ٥٥ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .
(٤) سورة النازعات الآية الأخيرة .
(٥) تفسير القرطبى - بتصرف وتلخيص - جـ ٨ ص ٣٤٨ .

حكم الله عليهم فى آخرتهم بعد أن ضيعوا دنياهم .

والمراد بلقاء الله : مطلق الحساب والجزاء الكائن فى يوم القيامة .

أى : أن هؤلاء الأشقياء الذين أعرضوا عن الحق وأنكروا الحشر ، قد خسروا سعادتهم الأبدية ، وحق عليهم العذاب المهين ، بسبب كفرهم وطغيانهم ، وعدم اهتدائهم إلى طريق النجاة .

وقوله : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ تأكيد لخسرانهم ، ولوقوع العذاب بهم ، وتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم و « إن » شرطية . و « ما » مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، وجملة ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ جواب للشرط وما عطف عليه .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين الذين ناصبوك العداوة أيها الرسول الكريم لا يخفى علينا أمرهم ونحن إما نرينك ببصرك بعض الذى نعدهم به من العذاب الدنيوى ، وإما نتوفينك ، قبل ذلك ، وفى كلتا الحالتين فإن مرجعهم إلينا وحدنا فى الآخرة ، فنعاقبهم العقوبة التى يستحقونها .

وقال - سبحانه - ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ للإشارة إلى أن ما سينزل بهم من عذاب دنيوى ، هو جزء من العذاب المدخر لهم فى الآخرة .

وقد أنجز الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - فسلط عليهم القحط والمجاعة ، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخانا . ونصر المسلمين عليهم فى غزوتى بدر والفتح ، وكل ذلك حدث فى حياة النبى - ﷺ .

وقال - سبحانه - ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ ولم يقل بعض الذى وعدناهم ، لاستحضار صورة العذاب ، والدلالة على تجدده واستمراره .

أى : نعدهم وعدا متجددا على حسب ما تقتضيه حكمتنا ومشيئتنا ، من إنذار عقب إنذار ، ومن وعيد بعد وعيد .

والمراد من الشهادة فى قول ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ لازمها وهو المعاقبة والمجازاة ، فكأنه - سبحانه - يقول : ثم الله - تعالى - بعد ذلك معاقب لهم على ما فعلوه من سيئات ، وما يرتكبونه من منكرات .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : الله شهيد على ما يفعلون فى الدارين فما معنى ثم ؟

قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، فكأنه قال : ثم الله معاقبهم على ما يفعلون . ويجوز أن يراد أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق

جلودهم وألسنتهم وأيديهم فتكون شاهدة عليهم »[١] .

هذا ، وفى معنى هذه الآية وردت آ يات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[٢] وقوله - تعالى - ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ، فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون[٣] ﴾

ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر رحمته بعباده ، أن جعل لكل أمة رسولا يهديها إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

أى : أنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته أن يجعل لكل جماعة من الناس ، رسولا يبلغهم ما أمره الله بتبليغه ، ويشهد عليهم بذلك يوم القيامة ، فإذا جاء رسولهم وشهد بأنه قد بلغهم ما أمره الله به ، قضى - سبحانه - بينه وبينهم بالعدل ، فحكم بنجاة المؤمن وبعقوبة الكافر ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية « فكل أمة تعرض على الله - تعالى - بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق ، فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين »[٤] .

وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم .

أى : أن هؤلاء لم يكتفوا بالإعراض عن دعوة الحق ، بل قالوا لرسولهم - ﷺ - الذى حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم : متى يقع علينا هذا العذاب الأليم الذى تهددنا ؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين فى دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا .

وهذا القول منهم يدل على توغلهم فى الكفر والجحود ، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول - ﷺ - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤٠ .

(٣) سورة غافر الآية ٧٧ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٩ .

ولذا أمر الله تعالى : رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم فقال : ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا إلا ما شاء الله ... ﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين المتعجلين للعذاب : إننى لا أملك لنفسى - فضلا عن غيرها - شيئا من الضر فأدفعه عنها ، ولا شيئا من النفع فأجلبه لها ، لكن الذى يملك ذلك هو الله وحده ، فهو - سبحانه - الذى يملك أن ينزل العذاب بكم فى أى وقت يشاء ، فلماذا تطلبون منى ما ليس فى قدرتى . وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعا .

ويجوز أن يكون متصلا فيكون المعنى : قل لهم يا محمد إننى لا أملك لنفسى شيئا من الضر أو النفع ، إلا ما شاء الله - تعالى - أن يجعلنى قادرا عليه منهما ، فإننى أملكه بمشيئته وإرادته .

وقدم - سبحانه - الضر على النفع هنا ، لأن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين تعجلوا نزول العذاب الذى هو نوع من الضر .

أما الآية التى فى سورة الأعراف ، وهى قوله - تعالى - ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .. ﴾ فقد قدم فيها النفع على الضر ، لأنها مسوقة لبيان الحقيقة فى ذاتها . وهى أن الرسول - ﷺ - لا يملك لنفسه شيئا من التصرف فى هذا الكون ، وللإشعار بأن النفع هو المقصود بالذات من تصرفات الإنسان .

وقوله : ﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ تأكيد لما قبله ، وتقرير لقدرة الله - تعالى - النافذة .

أى : لكل أمة من الأمم أجل قدره الله - تعالى - لانتهاء حياتها ، فإذا حان وقت هذا الأجل هلكت فى الحال دون أن تتقدم على الوقت المحدد لموتها ساعة أو تتأخر أخرى .

* * *

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا أخرى من الأجوبة التى لقنها الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - لكى يرد بها على المشركين الذين تعجلوا العذاب كما صورت أحوالهم عندما يرون العذاب ، فقال - تعالى - :

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

وقوله «أرأيتم» بمعنى أخبرونى . وكلمة أرأيت تستعمل فى القرآن للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للتنبيه مؤداه : أرأيت كذا أو عرفته ؟ إن لم تكن أبصرته أو عرفته فانظره وتأمله وأخبرنى عنه .

ولما كانت الرؤية للشىء سببا لمعرفته وللإخبار عنه ، أطلق السبب وأريد المسبب فهو مجاز مرسل علاقته السببية والمسببية .

وقوله : بياتا أى : ليلا ، ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا .

والمعنى : أخبرونى أيها الجاهلون الحمقى : أى دافع جعلكم تستعجلون نزول العذاب ؟ إن وقوع العذاب سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه ، ولا يمكن أن يتعجله عاقل ، لأنه - كما يقول صاحب الكشاف - : كل مكروه ، مر المذاق ، موجب للنفار منه ، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شىء فيه هلاككم ومضرتكم ؟ ! !

وقال - سبحانه - ﴿ بياتا ﴾ ولم يقل ليلا ، للإشعار بمجىء العذاب فى وقت غفلتهم ونومهم بحيث لا يشعرون به ، فهم قد يقضون جانبا من الليل فى اللهو واللعب ، ثم ينامون فيأتيهم العذاب فى هذا الوقت الذى هجعوا فيه .

فالآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شىء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه .

ولذا قال القرطبى : « قوله : ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ استفهام معناه التهويل

والتعظيم . أي : ما أعظم ما يستعجلون به . كما يقال لمن يطلب أمرا تستوخم عاقبته : ماذا تجنى على نفسك »[١] .

وجواب الشرط لقوله : ﴿ إن أتاكم ... ﴾ محذوف والتقدير : إن أتاكم عذابه فى أحد هذين الوقتين أفزعكم وأهلككم فلماذا تستعجلون وقوع شيء هذه نتائجه ؟

وقد ذكر صاحب الكشاف وجها آخر بعد أن ذكر هذاالوجه فقال : فإن قلت : فهلا قيل ماذا يستعجلون منه ؟ قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأن من شأن المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعا من مجيئه وإن أبطأ - فضلا عن أن يستعجله - ويجوز أن يكون ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ جوابا للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تطعمنى[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ... ﴾ زيادة فى تجهيلهم وتأنيبهم والهمزة داخلة على محذوف ، و ﴿ ثم ﴾ حرف عطف يدل على الترتيب والتراخى وجيء به هنا للدلالة على زيادة الاستبعاد .

والمعنى : إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فيما تطلبون ، لأنكم قبل وقوع العذاب تتعجلون وقوعه ، فإذا ما وقع وشاهدتم أهواله . وذقتم مرارته .. آمنتم بأنه حق ، وتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر .

وقوله : ﴿ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ قصد به زيادة إيلامهم وحسرتهم ولفظ ﴿ آلآن ﴾ ظرف زمان يدل على الحال الحاضرة ، وهو فى محل نصب على أنه ظرف لفعل مقدر .

أى : قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم بأنه حق ؟ مع أنكم قبل ذلك كنتم به تستهزئون ، وتقولون للرسول - ﷺ - ولأتباعه : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ ألا فلتعلموا : أن إيمانكم فى هذا الوقت غير مقبول ، لأنه جاء فى غير أوانه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥٠ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٠ .
(٣) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

تأكيد لتوبيخهم وتأنيبهم بعد أن نزل بهم العذاب ، وهو معطوف على لفظ « قيل » المقدر قبل لفظ ﴿ آلآن ﴾ .

أى : قيل لهم : آلآن آمنتم بأن العذاب حقيقة بعد أن كنتم به تستعجلون؟ ثم قيل لهؤلاء الظالمين الذين أصروا على الكفر واقتراف المنكرات : ذوقوا عذاب الخلد أى العذاب الباقى الدائم ، إذ الخلد والخلود مصدر خلد الشىء إذا بقى على حالة واحدة لا يتغير .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ للنفى والإنكار . أى لا تجزون إلا بالجزاء المناسب لما كنتم تكسبونه فى الدنيا من كفر بالحق ، وإيذاء للدعاة إليه ، وتكذيب بوحى الله - تعالى - .

ثم قال - سبحانه - ﴿ ويستنبئونك أحق هو ﴾ النبأ : كما يقول الراغب . خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن[1] .

والاستنباء : طلب الأخبار الهامة .

أى : إن هؤلاء الضالين يطلبون منك - أيها الرسول الكريم - على سبيل التهكم والاستهزاء ، أن تخبرهم عن هذا العذاب الذى توعدتهم به ، أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة ، أم هو غير واقع ولكنك تحدثهم عنه على سبيل الإرهاب والتهديد ؟

وقوله : ﴿ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إلى الجواب الذى يرد به عليهم .

ولفظ ﴿ إى ﴾ بكسر الهمزة وسكون الياء - حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، إلا أنه لا يستعمل إلا مع القسم .

أى : قل لهم يا محمد : نعم وحق ربى إن العذاب الذى أخبرتكم به لا محيص لكم عنه وما أنتم بمعجزى الله - تعالى - إذا أراد أن ينزله بكم فى أى وقت يريده ، بل أنتم فى قبضته وتحت سلطانه وملكه ، فاتقوا الله ، بأن تخلصوا له العبادة ، وتتبعوا رسوله - ﷺ - فيما جاءكم به من عنده - سبحانه - .

وقد أكد سبحانه - الجواب عليهم بأتم وجوه التأكيد ، لأنهم كانوا قوما ينكرون أشد الإنكار أن يكون هناك عذاب وحساب وبعث وجنة ونار .

قال ابن كثير : « وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله - تعالى - رسوله فيهما أن يقسم به على من أنكر المعاد ، أما الآية الأولى فهى قوله

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٨١ .

- تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم .. ﴾[١] وأما الآية الثانية فهى قوله - تعالى - : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن .. ﴾[٢] .

وجملة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ إما معطوفة على جواب القسم ، أو مستأنفة سبقت لبيان عجزهم عن الخلاص ، وتأكيد وقوع العذاب عليهم .

ثم بين - سبحانه - أنهم لن يستطيعوا افتداء أنفسهم من العذاب عند وقوعه فقال - تعالى - : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به ﴾ .

أى : ولو أن لكل نفس تلبست بالظلم بسبب شركها وفسوقها ، جميع ما فى الأرض من مال ومتاع ، وأمكنها أن تقدمه كفداء لها من العذاب يوم القيامة ، لقدمته سريعا دون أن تبقى منه شيئا حتى تفتدى ذاتها من العذاب المهين .

ومفعول ﴿ افتدت ﴾ محذوف . أى لافتدت نفسها به .

ولو هنا امتناعية ، أى : امتنع افتداء كل نفس ظالمة ، لامتناع ملكها لما تفدى به ذاتها وهو جميع ما فى الأرض من أموال ، ولامتناع قبول ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفرض .

وقوله ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ بيان لما انتابهم من حسرات عند مشاهدتهم لأهوال العذاب المعد لهم .

و﴿أسروا﴾ من الإسرار بمعنى الإخفاء والكتمان . يقال : أسر فلان الحديث . أى : خفض صوته به ، ويقابله الإعلان والجهر ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

والندامة والندم : ما يجده الإنسان فى نفسه من آلام وحسرات على أقوال أو أفعال سيئة ، فات أوان تداركها .

أى : وأخفى هؤلاء الظالمون الندامة حين رأوا بأبصارهم مقدمات العذاب ، وحين أيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، ولا مصرف لهم عنه .

قال صاحب الكشاف : « قوله - سبحانه - ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ، ولم يخطر ببالهم ، وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ، ما سلبهم قواهم ، وبهرهم ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع ، سوى إسرار الندم

---

(١) سورة سبأ الآية ٣ .

(٢) سورة التغابن الآية ٧ .

والحسرة فى القلوب ، كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب ويغلب ، حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا .

وقيل : أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم ، حياء منهم وخوفا من توبيخهم ..

وقيل أسروا الندامة : أظهروها من قولهم أسر الشىء إذا أظهره وليس هناك تجلد »[1] .

وقوله : ﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ بيان لعدالة الله فى أحكامه بين عباده .

أى : وقضى الله - تعالى - بين هؤلاء الظالمين وبين غيرهم بالعدل دون أن يظلم أحدا .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته ، وعلى أنه وحده الذى يملك التحليل والتحريم ، ويعلم السر وأخفى فقال - تعالى - :

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤١ .

وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

أى : ألا إن لله وحده لا لغيره ، ملك ما فى السموات ومافى الارض من مخلوقات ، وهو - سبحانه - يتصرف فيها وفق إرادته ومشيئته كما يتصرف المالك فيما يملكه ، فهو يعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ويتوب على من يشاء ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

وقوله : ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ أى : ألا إن كل ما وعد الله به الناس من ثواب وعقاب وغيرهما ، ثابت ثبوتا لا ريب فيه ، وواقع وقوعا لا محيص عنه .

وصدرت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ الدالة على التنبيه ، لحض الغافلين عن هذه الحقيقة على التذكر والاعتبار والعودة إلى طريق الحق .

وأعيد حرف التنبيه فى جملة ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ لتمييزها بهذا التنبيه عن سابقتها ، لأنها مقصودة بذاتها : إذ أن المشركين كانوا يظنون أن ما وعدهم به الرسول - ﷺ - هو من باب الترغيب والترهيب وليس من باب الحقائق الثابتة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى ولكن أكثر هؤلاء الناس الذين بعثت إليهم يا محمد ، لا يعلمون ما جئت به علما نافعا لسوء استعدادهم ، وضعف عقولهم ، وخبث نفوسهم .

وقال ﴿ أكثرهم ﴾: إنصافا للقلة المؤمنة التى علمت الحق فاتبعته وصدقته ، ووقفت إلى جانب الرسول - ﷺ - تؤيده وتفتدى دعوته بالنفس والمال .

وقوله : ﴿ هو يحيى ويميت وإليه ترجعون ﴾ بيان لكمال قدرته ، إثر بيان عظم ملكوته ، ونفاذ وعده .

أى : هو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ويميت من يريد إماتته وإليه وحده ترجعون جميعا ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بالانتفاع بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، من خيرات وبركات فقال - تعالى - : ﴿ يـأيها الناس قد جاءتكم موعظة من

ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ .

والموعظة معناها : التذكير بالتزام الحق والخير ، واجتناب الباطل والشر ، بأسلوب يلين القلوب ، ويرقق النفوس .

والشفاء : هو الدواء الشافى من كل ما يؤذى ، ويجمع على أشفيه .

والهدى : هو الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل الى المقصد والبغية ، والرحمة معناها الإحسان ، أو إرادة الإحسان .

والمعنى : يـأيهـا الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه من موعظة حسنة ترق لها القلوب ، وتخشع لها النفوس . وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض صدوركم . ومن هداية لكم إلى طريق الحق والخير ، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم الى أعلى الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات .

وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء ، استمالة لهم إلى الحق بألطف أسلوب ، وأكمل بيان ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويتنبهوا من غفلتهم .

ووصفت الموعظة بأنها من ربكم . لتذكيرهم بما يزيدها تعظيما وقبولا ، لأنها لم تصدر عن مخلوق تحتمل توجيهاته الخطأ والصواب ، وإنما هى صادرة من خالق النفوس ومربيها ، العليم بما يصلحها ويشفيها .

وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين ، لأنهم هم المستحقون لها ، بسبب إيمانهم وتقواهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية ، فقد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال إنى اشتكى صدرى ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « اقرأ القرآن ، يقول الله - تعالى - شفاء لما فى الصدور » .

وأخرج البيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبى - ﷺ - وجع حلقه ، فقال له : « عليك بقراءة القرآن » .

وأنت تعلم أن الاستدلال بهذه الآية على ذلك مما لا يكاد يسلم ، والخبر الثانى لا يدل عليه ، إذ ليس فيه أكثر من أمره - ﷺ - الشاكى بقراءة القرآن إرشادا له إلى ما ينفعه ويزول به وجعه .

ونحن لا ننكر أن لقراءة القرآن بركة ، قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع ، وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك .

والخبر الأول وإن كان ظاهرا فى المقصود ، لكن ينبغى تأويله ، كأن يقال : لعله - ﷺ - اطلع على أن فى صدر الرجل مرضا معنويا قلبيا ، قد صار سببا للمرض الحسى البدنى ، فأمره - ﷺ - بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثانى .

والحسن البصرى ينكر كون القرآن شفاء للأمراض ، فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال : إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم ، والحق ما ذكرنا »[1] .

وقوله : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ﴾ حض للناس على اغتنام ما فى تعاليم الإسلام من خيرات ، وإيثارها على ما فى الدنيا من شهوات .

أى : قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة : اجعلوا فرحكم الأكبر ، وسروركم الأعظم ، بفضل الله الذى شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد - ﷺ - ، وبرحمته التى وسعت كل شىء وهى بالمؤمنين أوسع ، لا بما تجمعون فى هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية .

وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن ، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن ، ورحمته بالإسلام . ومنهم من فسرهما بالجنة والنجاة من النار .

ولعل تفسيرهما بما يشمل كل ذلك أولى : لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق - ﷺ - يحدد المراد منهما ، وما دام الأمر كذلك فحملهما على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ أى : بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذاهبة لا محالة .

فعن أيفع بن عبد الكلاعى قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضى الله عنه - خرج عمر ومولى له ، فجعل يعد الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله - تعالى - ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته . فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذى يقول الله - تعالى - ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٤٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢١ .

أى : ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله - تعالى - من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين .

ودخلت الباء على كل من الفضل والرحمة ، للإشعار باستقلال كل منهما بالفرح به .

والجار والمجرور فى كل منهما متعلق بمحذوف ، وأصل الكلام : قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص ، وأدخلت الفاء لإفادة السببية ، فكأنه قيل : إن فرحوا بشىء فليكن بسبب ما أعطاهم الله - تعالى - من فضل ورحمة ، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا .

قال القرطبى : « والفرح لذة فى القلب بإدراك المحبوب . وقد ذم الله الفرح فى مواضع ، كقوله - سبحانه - ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ وكقوله ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرح لم يكن ذما ، لقوله - تعالى - ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكقوله - سبحانه - هنا ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا ... »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله لهم بذلك فقال : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ أى : قل لهم يا محمد - أيضا - أخبرونى أيها المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم : إن الله - تعالى - قد أفاض عليكم ألوانا من الرزق الحلال فجئتم أنتم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال ، فجعلتم منه حلالا وجعلتم منه حراما .

وقد حكى الله - تعالى - فعلهم هذا فى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾[2] .

قال الإمام ابن كثير : « قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ... الآيات ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق ، سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله - ﷺ - وأنا رث الهيئة فقال : هل لك مال ؟ قلت : نعم . قال : من أى المال ؟ قال : قلت : من كل

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية ص ١٣٩ .

المال . من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال : إذا آتاك الله مالا فلير عليك ثم قال : هل تنتج إبلك صحاحا آذانها ، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول : هذه بحر . وتشق جلودها وتقول ؛ هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك . قال : نعم . قال : فإن ما آتاك الله لك حل . ساعد الله أشد من ساعدك . وموسى الله أحد من موساك »[1] .

وقوله : ﴿ قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ استفهام قصد به التوبيخ والزجر أى : قل لهم يامحمد على سبيل التوبيخ والزجر : إن الله وحده هو الذى يملك التحليل والتحريم ، فهل هو - سبحانه - أذن لكم فى ذلك ، أو إنما أنتم الذين حللتم وحرمتم على حسب أهوائكم . لأنه لو أذن لكم فى ذلك لبينه على لسان رسوله - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : « وقوله : ﴿ آلله أذن لكم ﴾ متعلق بأرأيتم ، وقل . تكرير للتوكيد . والمعنى أخبرونى آلله أذن لكم فى التحليل والتحريم ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة ، بمعنى : بل أتفترون على الله ، تقريرا للافتراء .

ثم قال : وكفى بهذه الآية زاجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام ، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد فى شىء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله »[2] .

ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ... ﴾ .

أى : هؤلاء الذين أحلوا وحرموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة ؟ أيظنون أن الله سيتركهم بدون عقاب ؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افترائهم عليه الكذب .

وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتهويل والتعظيم ، حيث أباحوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله - تعالى - :

وقال - سبحانه - ﴿ وما ظن ... ﴾ بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض .

وقوله : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ تذييل قصد به حض الناس على شكر خالقهم ، واتباع شريعته فيما أحل وحرم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٢ .

أى : إن الله لذو فضل عظيم على عباده ، حيث خلقهم ورزقهم ، وشرع لهم ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم ، لأنهم يستعملونها فى غير ما خلقت له .

وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، عطف على ذلك تذكيره إياهم بإحاطة علمه بكل صغير وكبير فى هذا الكون فقال : ﴿ وماتكون فى شأن . وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا ... ﴾ .

أى : وما تكون - أيها الرسول الكريم - فى شأن من الشئون أو فى حال من الأحوال .

وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن يهدى الى الرشد .

ولا تعملون - أيها الناس - عملا ما صغيرا أو كبيرا ، إلا كنا عليكم مطلعين .

ومن فى قوله ﴿ منه ﴾ للتعليل ، والضمير يعود إلى الشأن ، إذ التلاوة أعظم شئونه - ﷺ - ولذا خصت بالذكر . ويجوز أن يعود للقرآن الكريم ، ويكون الإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ، وتعظيم أمره .

ومن فى قوله ﴿ من قرآن ﴾ مزيدة لتأكيد النفى .

وقال الآلوسى : « والخطاب الأول خاص برأس النوع الإنسانى ، وسيد المخاطبين - ﷺ - هذا . وقوله ﴿ ولا تعملون ... ﴾ عام يشمل سائر العباد برهم وفاجرهم وقد روعى فى كل من المقامين ما يليق به ، فعبر فى مقام الخصوص فى الأول بالشأن ، لأن عمل العظيم عظيم ، وفى الثانى بالعمل العام للجليل والحقير . وقيل : الخطاب الأول عام للأمة أيضا كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم ﴾ .

وقوله : ﴿ إلا كنا عليكم شهودا ﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة . أى : وما تلابسون بشىء منها فى حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه ، حافظين له »[1] .

وقوله : ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أى : تخوضون وتندفعون فى ذلك العمل ، لأن الإفاضة فى الشىء معناها الاندفاع فيه بكثرة وقوة .

وقوله : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٤٤ .

ويعزب : أى يبعد ويغيب ، وأصله من قولهم : عزب الرجل يعزب بإبله إذا أبعد بها وغاب فى طلب الكلأ والعشب . والكلام على حذف مضاف .

أى : وما يغيب ويخفى عن علم ربك مثقال ذرة فى الوجود علويه وسفليه ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا وهو معلوم ومسجل عنده فى كتاب عظيم الشأن ، تام البيان .

وقوله : ﴿ من مثقال ذرة ﴾ تمثيل لقلة الشىء ودقته ، ومن فيه لتأكيد النفى وقدمت الأرض على السماء هنا ، لأن الكلام فى حال أهلها ، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه - سبحانه - بتفاصيلها . فكأنه - سبحانه - يقول : إن من يكون هذا شأنه لا يخفى عليه شىء من أحوال أهل الأرض مع نبيهم - ﷺ - .

وقوله : ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ جملة مستقلة ليست معطوفة على ما قبلها .

و ﴿ لا ﴾ نافية للجنس و ﴿ أصغر ﴾ اسمها منصوب لشبهه بالمضاف ، و ﴿ أكبر ﴾ معطوف عليه . و ﴿ فى كتاب مبين ﴾ متعلق بمحذوف خبرها .

وقدم ذكر الأصغر على الأكبر ، لأنه هو الأهم فى سياق العلم بما خفى من الأمور .

وقرأ حمزة ويعقوب وخلف ﴿ ولا أصغر ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : ولا ما هو أصغر من ذلك .

والمراد بالكتاب المبين : علم الله الذى وسع كل شىء ، أو اللوح المحفوظ الذى حفظ الله فيه كل شىء .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة على شمول قدرة الله - تعالى - لكل شىء ، وعلى دعوة الناس إلى الانتفاع بما جاء به القرآن من خيرات وبركات ، وعلى وجوب التزامهم بما شرعه - سبحانه - وعلى إحاطة علمه بما ظهر وبطن من الأمور .

وبعد أن وجه - سبحانه - نداء إلى الناس دعاهم فيه إلى الانتفاع بما جاء فى القرآن من خيرات ، وتوعد الذين شرعوا شرائع لم يأذن بها الله ، وأقام الأدلة على نفاذ قدرته ، وشمول علمه .

بعد كل ذلك ، بشر أولياءه بحسن العاقبة ، وأنذر أعداءه بسوء المصير ، ورد على الذين قالوا اتخذ الله ولدًا بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال - تعالى - :

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾

والأولياء : جمع ولى مأخوذ من الولى بمعنى القرب والدنو ، يقال : تباعد فلان من بعد ولى أى : بعد قرب .

والمراد بهم : أولئك المؤمنون الصادقون الذى صلحت أعمالهم ، وحسنت بالله - تعالى - صلتهم ، فصاروا يقولون ويفعلون كل ما يحبه ، ويجتنبون كل ما يكرهه .

قال الفخر الرازى : « ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شىء هو الذى يكون قريبا منه .

والقرب من الله إنما يتم إذا كان القلب مستغرقًا فى نور معرفته ، فإن رأى رأى دلائل قدرته ، وإن سمع سمع آيات وحدانيته ، وإن نطق نطق بالثناء عليه ، وإن تحرك تحرك فى خدمته ، وإن اجتهد اجتهد فى طاعته ، فهنالك يكون فى غاية القرب من الله - تعالى - ويكون وليا له - سبحانه - .

وإذا كان كذلك كان الله - وليا له - أيضًا - كما قال : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ .

وقد افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ وبحرف التوكيد ﴿ إن ﴾ لتنبيه الناس إلى وجوب الاقتداء بهم ، حتى ينالوا ما ناله أولئك الأولياء الصالحون من سعادة دنيوية وأخروية .

وقوله : ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تمييز لهم عن غيرهم ممن لم يبلغوا درجتهم .

والخوف : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لتوقعه حصول ما يكرهه .

والحزن اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

أى : أن الخوف يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن يكون من أجل مكروه قد وقع فعلاً .

والمعنى : ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن عملهم ، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا ، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله - سبحانه - ، فمتى فعلوا ما يؤدى إلى ذلك هان كل ما سواه .

وقوله : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ استئناف مسوق لتوضيح حقيقتهم فكأن سائلا قال : ومن هم أولياء الله ؟ فكان الجواب هم الذين توفر فيهم الإيمان الصادق ، والبعد التام عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .

وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضى ، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ . لا تزلزله الشكوك ، ولا تؤثر فيه الشبهات .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٢٦

وعبر عن تقواهم بالفعل الدال على الحال والاستقبال للإيذان بأن اتقاءهم وابتعادهم عن كل ما يغضب الله من الأقوال والأفعال ، يتجدد ويستمر دون أن يصرفهم عن تقواهم وخوفهم منه - سبحانه - ترغيب أو ترهيب .

وقوله - سبحانه - ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ زيادة تكريم وتشريف لهم .

والبشرى والبشارة : الخبر السار ، فهو أخص من الخبر ، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان ، فيجعله متهلل الوجه ، منبسط الأسارير ، مبتهج النفس .

أى : لهم ما يسرهم ويسعدهم فى الدنيا من حياة آمنة طيبة ، ولهم - أيضًا - فى الآخرة ما يسرهم من فوز برضوان الله ، ومن دخول جنته .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والثابت فى أكثر الروايات ، أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة .. فقد أخرج الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى .. وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله - تعالى - ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ فقال : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » .

وقيل المراد بالبشرى: البشرى العاجلة نحو النصر والغنيمة والثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ومحبة الناس ، وغير ذلك .

ثم قال : وأنت تعلم أنه لا ينبغى العدول عما ورد عن رسول الله - ﷺ - فى تفسير ذلك إذا صح . وحيث عدل من عدل لعدم وقوفه على ذلك فيما أظن ، فالأولى أن تحمل البشرى فى الدارين على البشارة بما يحقق نفى الخوف والحزن كائنًا ما كان ... »[1] .

وقوله : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أى : لا تغيير ولا خلف لأقوال الله - تعالى - ولا لما وعد به عباده الصالحين من وعود حسنة ، على رأسها هذه البشرى التى تسعدهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ يعود إلى ما ذكر من البشرى فى الدارين .

أى : ذلك المذكور من أن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، والذى لا يفوقه نجاح أو فضل .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٥٢ .

هذا ، وقد نقل الشيخ القاسمى - رحمه الله - كلاما حسنا من كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » فقال ما ملخصه :

هذه الآيات أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بين - سبحانه - فى كتابه ، وبين رسوله فى سنته أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء .

وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون . كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب .. »

والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد ، وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد - ﷺ - خاتم النبيين .. فلا يكون وليا إلا من آمن به واتبعه ، ومن خالفه كان من أولياء الشيطان ...

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله - تعالى - فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون فى ولاية الله - عز وجل - بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى .

ومن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، كان كاذبًا فى دعواه ، أو كان مجنونًا .

وليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصير .. بل يوجدون فى جميع طبقات الأمة . فيوجدون فى أهل القرآن ، وأهل العلم ، وفى أهل الجهاد والسيف ، وفى التجار والزراع والصناع ...

وليس من شرط الولى أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطىء ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين .. »[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه أولياؤه من سعادة دنيوية وأخروية ، أتبع ذلك بتسلية الرسول - ﷺ - عما لقيه من أعدائه من أذى فقال : ﴿ ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعًا ، هو السميع العليم ﴾ .

أى : ولا يحزنك يا محمد ما قاله أعداؤك فى شأنك ، من أنك ساحر أو مجنون ، لأن قولهم هذا إنما هو من باب حسدهم لك ، وجحودهم لدعوتك .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٣٧٤ ، طبعة الحلبى سنة ١٩٥٨ .

والنهى عن الحزن - وهو أمر نفسى لا اختيار للإنسان فيه - المراد به هنا النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب نسيانها .

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية له - ﷺ - وتأنيس لقلبه ، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور ، حتى لا يتأثر بها عند وقوعها .

وقوله : ﴿ إن العزة لله جميعًا هو السميع العليم ﴾ تعليل للنهى على طريقة الاستئناف ، فكأنه - ﷺ - قد قال : وما لى لا أحزن وهم قد كذبوا دعوتى ؟ فكان الجواب : إن الغلبة كلها ، والقوة كلها لله وحده لا لغيره ، فهو - سبحانه - القدير على أن يغلبهم ويقهرهم ويعصمك منهم ، وهو ﴿ السميع ﴾ ، لأقوالهم الباطلة ، ﴿ العليم ﴾ بأفعالهم القبيحة ، وسيعاقبهم على ذلك يوم القيامة عقابًا أليمًا .

ولا تعارض بين قوله - سبحانه - ﴿ إن العزة لله جميعًا ﴾ وبين قوله فى آية أخرى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[1] ، لأن كل عزة لغيره - سبحانه - فهى مستمدة من عزته ، وكل قوة من تأييده وعونه ، والرسول - ﷺ - والمؤمنون ، إنما صاروا أعزاء بفضل ركونهم إلى عزة الله - تعالى - وإلى الاعتماد عليه ، وقد أظهرها - سبحانه - على أيديهم تكريمًا لهم .

ولذا قال القرطبى[2] - رحمه الله - قوله : ﴿ إن العزة لله جميعًا ﴾ أى : القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصرك ومعينك ومانعك . و ﴿ جميعًا ﴾ نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فإن كل عزة بالله فهى كلها لله ، قال - سبحانه - ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾[3] .

ثم قال - تعالى - ﴿ ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ أى : ألا إن لله وحده ملك جميع من فى السموات ومن فى الأرض من إنس وجن وملائكة .

وجاء التعبير القرآنى هنا بلفظ ﴿ من ﴾ الشائع فى العقلاء ، للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم ، لأنهم إذا كانوا مع شرفهم وعلو منزلتهم مملوكين لله - تعالى - كان غيرهم ممن لا يعقل أولى بذلك .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ يعنى العقلاء

---

(١) سورة المنافقون آية ٨ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥٩ .
(٣) سورة الصافات آية ١٨٠ .

المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم بالذكر ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفى ملكه ، فهم عبيد كلهم ، وهو - سبحانه - ربهم ، ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكًا له فيها ، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكًا ، وليدل على أن من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنس ، فضلًا عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر »[١] .

وقوله : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ .

أى : وما يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم لغير الله شركاء فى الحقيقة ، وإنما يتبعون أشياء أخرى سموها من عند أنفسهم شركاء جهلا منهم ، لأن الله - تعالى - تنزه وتقدس عن أن يكون له شريك أو شركاء فى ملكه أو فى عبادته .

وعلى هذا التفسير تكون ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ وما يتبع ﴾ نافية ، وقوله ﴿ شركاء ﴾ مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى : وما يتبع الذين يدعون من دون الله آلهة شركاء .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهامية منصوبة بقوله ﴿ يتبع ﴾ ، ويكون قوله ﴿ شركاء ﴾ منصوب بقوله ﴿ يدعون ﴾ وعليه يكون المعنى .

أى شىء يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم ؟ إنهم يعبدون شركاء سموهم بهذا الاسم من عند أنفسهم ، أما هم فى الحقيقة فلا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ أى : ما يتبعون فى عبادتهم لغير الله إلا الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئًا ، وإلا الخرص المبنى على الوهم الكاذب ، والتقدير الباطل .

وأصل الخرص : الحزر والتقدير للشىء على سبيل الظن لا على سبيل الحقيقة .

قال الراغب : وحقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص ، سواء أكان مطابقًا للشىء أو مخالفًا له ، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص فى خرصه - أى : كفعل من يخرص الثمر على الشجر - وكل من قال قولًا على هذا النحو قد يسمى كاذبًا وإن كان قوله مطابقًا للمقول المخبر عنه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٤ .

وقيل : الخرص : الكذب كما فى قوله - تعالى - ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أى يكذبون[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبًا من مظاهر نعمه على عباده فقال - تعالى - ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا ... ﴾ .

أى : الله وحده - سبحانه - هو الذى جعل لكم الليل مظلمًا ، لكي تستقروا فيه بعد طول الحركة فى نهاركم من أجل معاشكم ، وهو الذى جعل لكم النهار مضيئًا لكى تبصروا فيه مطالب حياتكم .

والجملة الكريمة بيان لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، بعد بيان سعة علمه ، ونفاذ قدرته ، وشمولها لكل شىء فى هذا الكون .

وقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أى : إن فى ذلك الجعل المذكور لدلائل واضحات لقوم يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر وتعقل ، يدل على سعة رحمة الله - تعالى - بعباده ، وتفضله عليهم بالنعم التى لا تحصى .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان أقبح الرذائل التى تفوه بها المشركون فقال : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا .... ﴾ .

والمراد بهؤلاء القائلين : اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله - والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وكفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وغيرهم ممن نحا نحوهم فى تلك الأقوال الشائنة .

وقوله : ﴿ سبحانه هو الغنى له ما فى السموات ومافى الأرض ﴾ تنزيه له - عز وجل - عما قالوا ، فى حقه من أقاويل باطلة .

أى : تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، لأنه هو الغنى بذاته عن الولد وعن كل شىء ، وهو المالك لجميع الكائنات علويها وسفليها ، وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدراته .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا . لقد جئتم شيئًا إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٤٦ - بتصرف وتلخيص .

عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ تجهيل لهم ورد عليهم . و ﴿ إن ﴾ هنا نافية ، و ﴿ من ﴾ مؤكدة لهذا النفى ، ومفيدة للعموم . والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : ما عندكم دليل ولا شبهة دليل على مازعمتوه من أن لله ولدا ، وإنما قلتم ما قلتم لانطماس بصيرتكم ، واستحواذ الشيطان على نفوسكم .

وقوله - سبحانه - ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ توبيخ آخر لهم على جهلهم وكذبهم .

أى : أتقولون على الله - تعالى - قولاً ، لا علم لكم به ، ولا معرفة لكم بحقيقته ؟ إن قولكم هذا هو دليل على جهلكم وعلى تعمدكم الكذب والبهتان .

قال الآلوسى : « وفى الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة . وأن العقائد لا بد لها من قاطع ، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء »[1] .

وقوله : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على شركهم .

أى : قل لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذار والتهديد : إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الولد إليه ، والشريك له ، لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب أصلاً .

وقوله - سبحانه - ﴿ متاع فى الدنيا ﴾ بيان لتفاهة ما يحرصون عليه من شهوات الحياة الدنيا . وهو خبر لمبتدأ محذوف .

أى : أن ما يتمتعون به فى الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل مهما كثر ، لأنه إلى فناء واندثار .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد أن غرتهم الدنيا بشهواتها فقال : ﴿ ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

أى : ثم إلينا لا إلى غيرنا مرجعهم يوم القيامة ، ثم نحاسبهم حسابًا عسيرًا على أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياتنا ، وتكذيبهم لنبينا - ﷺ - .

---

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٥٦ .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد مدحت أولياء الله الصالحين ، وبشرتهم بالسعادة الدنيوية والأخروية ، وأقامت الأدلة على قدرة الله النافذة ورحمته الواسعة ، وردت على افتراءات المشركين بما يبطل أقوالهم ، ويفضح مزاعمهم .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة ما ساقت من الأدلة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله - ﷺ - وعلى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين .. بعد كل ذلك تحدثت عن بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فبدأت بجانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أن الله - تعالى - أغرقهم بعد أن تمادوا فى ضلالهم ، فقال - سبحانه - :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - سبحانه - لما بالغ فى تقرير الدلائل والبينات وفى الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك فى بيان بعض قصص الأنبياء - عليهم السلام - لوجوه :

أحدها : أن الكلام إذا طال فى تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما حصل نوع من أنواع الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر ، انشرح صدره . ووجد فى نفسه رغبة جديدة .

وثانيها : ليكون للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فإن

الرسول - ﷺ - إذا سمع أن معاملة الكفار لأنبيائهم سيئة .. خف ذلك على قلبه ، لأن المصيبة إذا عمت خفت .

وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن العاقبة للمتقين كان ذلك سببا فى انكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل فى نفوسهم . وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة ... »[1] .

ونوح - عليه السلام - : واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .

وكان قومه يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نوحًا ليدلهم على طريق الرشاد .

وقد تكررت قصته مع قومه فى سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، ونوح ... بصورة أكثر تفصيلاً .

أما هنا فى سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة ، لأن الغرض منها هنا ، إبراز جانب التحدى من نوح لقومه ، بعد أن مكث فيهم زمانًا طويلاً ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره .

والمعنى : واتل - يامحمد - على مسامع هؤلاء المشركين الذين مردوا على افتراء الكذب ، نبأ نوح - عليه السلام - مع قومه المغترين بأموالهم وكثرتهم ليتدبروا ما فى هذا النبأ من عظات وعبر . وليعلموا أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين .

والمقصود من هذه التلاوة ، دعوة مشركى مكة وأمثالهم ، إلى التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم ، لعلهم بسبب هذا التدبر والتأمل يثوبون إلى رشدهم ويتبعون الدين الحق الذى جاءهم به نبيهم محمد - ﷺ - .

وقوله : ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت .. ﴾ بيان لما قاله لهم بعد أن مكث فيهم زمنا طويلا ،، وسمع منهم ما سمع من استهزاء بدعوته ،، وتطاول على أتباعه .

أى : قال نوح لقومه بعد أن دعاهم ليلا ونهارا : يا قوم إن كان ﴿ كبر عليكم ﴾ .

أى : شق وعظم عليكم ﴿ مقامى ﴾ فيكم ووجودى بين أظهركم عمرا طويلا ﴿ وتذكيرى ﴾ إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ،، والتى تستلزم منكم إخلاص العبادة له والشكر لنعمه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٣٥ .

إن كان كبر عليكم ذلك فعلى الله وحده توكلت ، وإليه وحده فوضت أمرى ولن يصرفنى عن الاستمرار فى تبليغ ماأمرنى بتبليغه وعد أو وعيد منكم .

وخاطبهم - عليه السلام - بقوله : ﴿ ياقوم ﴾ استمالة لقلوبهم وإشعارا لهم بأنهم أهله وأقرباؤه الذين يحب لهم الخير ، ويكره لهم الشر .

وجملة ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ جواب الشرط . وقيل جواب الشرط محذوف والتقدير : إن كان كبر عليكم ذلك فافعلوا ما شئتم فإنى على الله وحده توكلت فى تبليغ دعوته لكم .

وقوله : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ معطوف على ما قبله .

والفعل ﴿ أجمعوا ﴾ بقطع الهمزة مأخوذ من أجمعت على الأمر إذا عزمت عليه عزما مؤكدا ووطنت نفسك على المضى فيه بدون تردد أو تقاعس .

والمراد بالأمر هنا : المكر والكيد والعداوة وما يشبه ذلك .

والمراد بشركائهم : أصنامهم التى عبدوها من دون الله وظنوا فيها النفع والضرر والتمسوا فيها العون والنصرة .

والمعنى : أن نوحا - عليه السلام - قد قال لقومه بصراحة ووضوح : ياقوم إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم ، وتذكيرى بآيات الله الدالة على وحدانيته فاجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بى ، ثم ادعوا شركاءكم ليساعدوكم فى ذلك فإنى ماض فى طريقى الذى أمرنى الله به ، بدون مبالاة بمكركم وبدون اهتمام بكيدكم .

قال الآلوسى : « وقوله ﴿ وشركاءكم ﴾ منصوب على أنه مفعول معه لأن الشركاء عازمون لا معزوم عليهم . وقيل إنه منصوب بالعطف على قوله ﴿ أمركم ﴾ بحذف المضاف . أى فأجمعوا أمركم وأمر شركائكم .

وقرأ نافع : فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع وعطف الشركاء على الأمر فى هذه القراءة ظاهر بناء على أنه يقال : جمعت شركائى ، كما يقال جمعت أمرى ... »[1] .

وقوله : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

وكلمة ﴿ غمة ﴾ بمعنى الستر والخفاء . يقال : غم على فلان الأمر أى : خفى عليه واستتر .

ومنه الحديث الشريف : « صوموا لرؤيته - أى الهلال - وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٤٠ .

فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » أى فإن استتر وخفى عليكم الهلال وحال دون رؤيتكم له حائل من غيم أو ضباب فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما .

أى : اجمعوا ما تريدون جمعه لى من مكر وكيد واستعينوا على ذلك بشركائكم ثم لا يكن أمركم ، الذى أجمعتم على تنفيذه فيه شيء من الستر أو الخفاء أو الالتباس الذى يجعلكم مترددين فى المضى فيه أو متقاعسين عن مجاهرتى بما تريدون فعله معى .

ومنهم من يرى أن كلمة ﴿ غمة ﴾ هنا بمعنى الغم كالكربة بمعنى الكرب أى : ثم لا يكن حالكم غما كائنا عليكم بسبب مقامى فيكم وتذكيرى إياكم بآيات الله .

وقد أشار صاحب الكشاف الى هذين الوجهين فقال : « فإن قلت : ما معنى الأمرين : أمرهم الذى يجمعونه وأمرهم الذى لا يكون عليهم غمة ؟

قلت : أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه يعنى : فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه ، وابذلوا وسعكم فى كيدى . وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته بهم وثقته بما وعده به ربه من كلاءته وعصمته إياه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا .

وأما الثانى ففيه وجهان : أحدهما أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم ، المكروهة عندهم . يعنى : ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببى غصة عليكم . وحالكم عليكم غمة . أى : غما وهما . والغم والغمة كالكرب والكربة .

وثانيهما : أن يراد به ما أريد بالأمر الأول . والغمة السترة من غمة إذا ستره ، وفى الحديث « لا غمة فى فرائض الله » أى لا تستر ولكن يجاهر بها .

يعنى : ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم . ولكن مكشوفا مشهورا تجاهروننى به »[1] .

وقوله : ﴿ ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾ زيادة فى تحديهم وإثارتهم .

والقضاء هنا بمعنى الأداء ، من قولهم : قضى المدين للدائن دينه ، إذا أداه إليه ، وقضى فلان الصلاة . أى أداها بعد مضى وقتها .

أى : ثم أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون أداءه من إيذائى أو إهلاكى بدون إنظار أو إمهال .

ويصح أن يكون القضاء هنا بمعنى الحكم ، أى : ثم احكموا على بما تريدون من أحكام ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٥ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٦ .

ولا تتركوا لى مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها على فى الحال .

فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة كيف أن نوحا - عليه السلام - كان فى نهاية الشجاعة فى مخاطبته لقومه ، بعد أن مكث فيهم ما مكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده .

فهو - أولا - يصارحهم بأنه ماض فى طريقه الذى أمره الله بالمضى فيه ، وهو تذكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له سواء أشق عليهم هذا التذكير أم لم يشق ، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده .

وهو - ثانيا - يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم وأن يأخذوا أهبتهم لكيده وحربه .

وهو - ثالثا - يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء ، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد ، لأن حاله معهم قد أصبح واضحا وصريحا .

وهو - رابعا - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار ، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم .

وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا . حتى إنه ليغريهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه - إن استطاعوا ذلك - .

وما لجأ - عليه السلام - إلى هذا التحدى الواضح المثير إلا لأنه كان معتمدا على الله - تعالى - الذى تتضاءل أمام قوته كل قوة وتتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ويتصاغر كل تدبير وتقدير أمام تدبيره وتقديره .

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة فى كل زمان ومكان تلك المواقف المشرفة لرسل الله - عليهم الصلاة والسلام - لكى يقتدوا بهم فى شجاعتهم ، وفى اعتمادهم على الله وحده ، وفى ثباتهم أمام الباطل مهما بلغت قوته ، واشتد جبروته .

ومتى فعلوا ذلك ، كانت العاقبة لهم لأنه - سبحانه - تعهد أن ينصر من ينصره .

ولنمض مع القصة حتى النهاية لنرى الدليل على ذلك فقد حكى - سبحانه - ما دار بين نوح وبين قومه بعد هذا التحدى السافر لهم فقال :

﴿ فإن توليتم ﴾ أى : فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولى ، وعن تذكيرى إياكم بآيات الله بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى . فما سألتكم من أجر أى : فإنى ما سألتكم فى مقابل تذكيرى لكم ، أو دعوتى إياكم الى الحق ، من أجر تؤدونه لى - ﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ وحده ، فهو الذى يثيبنى على قولى وعملى وهو الذى يعطينى من الخير

ما يغنيني عن أجركم وعطائكم وهو - سبحانه - الذى أمرنى ﴿ أن أكون من المسلمين ﴾ أى : المنقادين لأمره . المتبعين لهديه ، المستسلمين لقضائه وقدره .

ثم بين - سبحانه - العاقبة الطيبة التى آل إليها أمر نوح عليه السلام والعاقبة السيئة التى انتهى إليها حال قومه فقال : ﴿ فكذبوه ﴾ أى : فكذب قوم نوح نبيهم نوحا بعد أن دعاهم إلى الحق ليلا ونهارا وسرا وعلانية .

فماذا كانت نتيجة هذا التكذيب ؟ كانت نتيجته كما حكته السورة الكريمة ﴿ فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ أى : فنجينا نوحا ومن معه من المؤمنين ، بأن أمرناهم أن يركبوا فى السفينة التى صنعوها بأمر الله ، حتى لا يغرقهم الطوفان الذى أغرق المكذبين .

وقوله : ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أى : وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض لأولئك المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحا - عليه السلام - وعموا وصموا عن الحق الذى جاءهم به ودعاهم اليه .

هذه هى عاقبة نوح والمؤمنين معه أما عاقبة من كذبوه فقد بينها - سبحانه - فى قوله : ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى : وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أى : فانظر وتأمل - أيها العاقل - كيف كانت نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع معهم النذر والآيات التى جاءهم بها نبيهم نوح - عليه السلام - .

فالمراد بالأمر بالنظر هنا : التأمل والاتعاظ والاعتبار لا مجرد النظر الخالى عن ذلك .

وهكذا نجد أن من العبر والعظات التى من أجلها ساق الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - بهذه الصورة الموجزة هنا : إبراز ما كان عليه نوح - عليه السلام - من شجاعة وقوة وهو يبلغ رسالة الله إلى الناس واعتماده التام على خالقه وتوكله عليه وحده وتحديه السافر للمكذبين الذين وضعوا العراقيل والعقبات فى طريق دعوته ، وتحريضه لهم بمثيرات القول على مهاجمته إن كان فى إمكانهم ذلك ومصارحته لهم بأنه فى غنى عن أموالهم لأن خالقه - سبحانه - قد أغناه عنهم ، وبيان أن سنة الله لا تتخلف ولا تتبدل وهذه السنة تتمثل فى أنه - سبحانه - قد جعل حسن العاقبة للمؤمنين وسوء العاقبة للمكذبين .

ثم حكت السورة الكريمة أن الله - تعالى - قد أرسل رسلا كثيرين بعد نوح - عليه السلام - فكان موقف أقوامهم منهم مشابها لموقف قوم نوح منه ، فقال - تعالى - :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين ذوى قدر عظيم إلى أقوامهم ، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان فهود - عليه السلام - أرسلناه إلى قوم عاد ، وصالح - عليه السلام - أرسلناه إلى ثمود ، و هكذا أرسلنا رسلا كثيرين إلى أقوامهم .

وقوله : ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ أى : فأتى كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات ، وبالحجج الساطعات الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله - ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ بيان لموقف هؤلاء الأقوام الجاحدين من رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم وسعادتهم .

وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال :

فمنهم من يرى أن الضمائر فى « كانوا، ويؤمنوا، وكذبوا » تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن المراد بقوله : ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل مجىء الرسل إليهم .

والمعنى على هذا الرأى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم فجاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقوام الأشقياء . استمروا على كفرهم وعنادهم ، وامتنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجىء الرسل إليهم وهو إفراد الله - تعالى - بالعبادة والطاعة فكان حالهم فى الإصرار على الكفر والجحود قبل مجىء الرسل إليهم ، كحالهم بعد أن جاءوهم بالهدى ودين الحق ، حتى لكأنهم لم يأتهم من بشير ولا نذير .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام البيضاوى فقد قال : « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ أى : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر ، وخذلان الله إياهم .. بما كذبوا به من قبل ، أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - »[1] .

---

(١) تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٤٥٤ طبعة مصطفى الحلبى - الطبعة الثانية سنة ١٣٨٨ هـ .

ومنهم من يرى - أيضا - أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - إلا أن المراد بقوله ﴿ من قبل ﴾ : أى : من قبل ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقوام .

وعليه يكون المعنى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم ، فجاءوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالتكذيب من أول يوم ، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم ، فكان تكذيبهم لهم فى آخر أحوالهم معهم ، يشبه تكذيبهم لهم من قبل . أى : فى أول مجيئهم إليهم .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى : الإمام ابن كثير فقد قال : « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم ، كما قال - تعالى - ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [1] .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « كانوا ويؤمنوا » يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن الضمير فى قوله « كذبوا » يعود إلى قوم نوح ، وعلى هذا الرأى يكون المعنى :

ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا إلى أقوامهم . فجاءوهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم ، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأبوا أن يؤمنوا بوحدانية الله التى كذب بها قوم نوح من قبل .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام ابن جرير فقد قال « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ يقول : « فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم وبما كذب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية .. » [2] .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، تدل على أن هؤلاء الأقوام عموا وصموا عن الحق ، واستمروا على ذلك دون أن تحولهم الآيات البينات التى جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم .

وقوله : ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ بيان لسنة الله - تعالى - فى خلقه التى لا تتخلف ولا تتبدل . والطبع : الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشىء ما دخل فيه ، ولا يدخل فيه ما خرج منه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ طبعة دار الشعب ص ٢٣٠ المجلد الرابع .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٠ طبعة دار المعرفة - بيروت .

أى : مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود فى الكفر والجحود ، وذلك بخذلانهم ، وتخليتهم وشأنهم ، لانهماكهم فى الغواية والضلال .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، فبدأت بحكاية بعض المحاورات التى دارت بينه وبينهم ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم بعثنا .. ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم ... ﴾ من باب عطف القصة على القصة ، وهو من قبيل عطف الخاص على العام ، لما فى هذا الخاص من عبر وعظات .

والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام الذين جاءوا لأقوامهم بالأدلة والبينات . ﴿ موسى وهارون ﴾ عليهما السلام .. ﴿ إلى فرعون ﴾ الذى قال لقومه « أنا ربكم الأعلى » وإلى ﴿ ملئه ﴾ أى : خاصته وأشراف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن غيرهم كالتابع لهم .

﴿ بآياتنا ﴾ أى : بعثناهما إليهم مؤيدين بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلى صدقهما فيما يبلغانه عنا من هدايات وتوجيهات .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله ﴿ بآياتنا ﴾ الآيات التسع التى جاء ذكرها فى قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .. ﴾ [1] .

---

(١) الآية ١٠١

قال الجمل : « وتقدم فى الأعراف منها ثمانية ، ثنتان فى قوله - تعالى - ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ [١] وقوله : ﴿ ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ [٢] .

وواحدة فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ [٣] وخمسة فى قوله - تعالى - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .... ﴾ [٤] . والتاسعة فى هذه السورة - سورة يونس - فى قوله - تعالى - : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ [٥] .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وملئه من دعوة موسى لهم فقال : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ .

والاستكبار : ادعاء الكبر من غير استحقاق ، والفاء فصيحة ، والتقدير : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه ، فأتياهم ليبلغاهم دعوة الله ، ويأمراهم بإخلاص العبادة له ، فاستكبروا عن طاعتهما ، وأعجبوا بأنفسهم ، وكانوا قوما شأنهم وديدنهم الإجرام ، وهو ارتكاب ما عظم من الذنوب ، وقبح من الأفعال .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : فاستكبروا عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ، ويتعظموا عن تقبلها » [٦] .

ثم بين - سبحانه - ماتفوهوا به من أباطيل عندما جاءهم موسى بدعوته فقال : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ .

أى : فلما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - من عندنا لا من غيرنا ﴿ قالوا ﴾ على سبيل العناد والحقد والغرور ﴿ إن هذا ﴾ الذى جئت به يا موسى ﴿ لسحر مبين ﴾ أى : لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى تأمل أو تفكير .

والتعبير بقوله ﴿ جاءهم ﴾ يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .

وفى قوله ﴿ من عندنا ﴾ تصوير لشناعة الجريمة التى ارتكبوها فى جانب الحق ، الذى جاءهم من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

---

(١) الآية ١٠٧ (٢) الآية ١٠٨

(٣) الآية ١٣٠ (٤) الآية ١٣٣

(٥) الآية ٨٨ - حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣١٥

(٦) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٤ .

والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التى جاءهم بها موسى - عليه السلام - لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ بالقسم المؤكد : يدل على تبجحهم الذميم ، وكذبهم الأثيم ، حيث وصفوا الحق الذى لا باطل معه بأنه سحر واضح ، وهكذا عندما تقسو القلوب وتفسق النفوس ، تتحول الحقائق فى زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على مفترياتهم فقال : ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ﴾ .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :

قال موسى لفرعون وملئه منكرا عليهم غرورهم وكذبهم ، ﴿ أتقولون للحق ﴾ الذى هو أبعد ما يكون عن السحر ، حين مشاهدتكم له .

أتقولون عنه ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ .

يا سبحان الله !! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذى يدل على الجهالة والغباء ، انظروا وتأملوا ﴿ أسحر هذا ﴾ الذى ترون حقيقته بأعينكم ، وترتجف من عظمته قلوبكم ، والحال أنه ﴿ لا يفلح الساحرون ﴾ فى أى عمل من شأنه أن يهدى إلى الخير والحق .

فقد حذفت جملة ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ لدلالة قوله ﴿ أسحر هذا ﴾ عليه .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : هم قطعوا بقولهم : إن هذا لسحر مبين ، على أنه سحر فكيف قيل لهم أتقولون : أسحر هذا ؟

قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله : ﴿ أتقولون للحق ﴾ : أتعيبونه وتطعنون فيه ، وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول ، إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه .

وأن يحذف مفعول أتقولون وهو مادل عليه قولهم : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ كأنه قيل : أتقولون ما تقولون : يعنى قولهم : إن هذا لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا ؟

وأن يكون جملة قوله « أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا أجئتنا إلينا بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ ولا يفلح الساحرون .. ﴾[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٧ .

وقال الجمل : « قوله - تعالى - ﴿ قال موسى أتقولون .. ﴾ أى : قال جملا ثلاثة : الأولى : ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ والثانية ﴿ أسحر هذا ﴾ والثالثة ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ .

وقوله ﴿ للحق ﴾ أى فى شأنه ولأجله ، وقوله ﴿ لما جاءكم ﴾ أى : حين مجيئه إياكم من أول الأمر من غير تأمل وتدبر ، وهذا مما ينافى القول المذكور .

وقوله : ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ هنا مقول القول محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وإشارة إلى أنه لا ينبغى أن يتفوه به .

وقوله - سبحانه - حكاية عن موسى ﴿ أسحر هذا ﴾ مبتدأ وخبر ، وهو استفهام إنكار مستأنف من جهته - عليه السلام - تكذيبا لقولهم ، وتوبيخا إثر توبيخ ، وتجهيلا بعد تجهيل »[1] .

وقوله : ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ جملة حالية من ضمير المخاطبين ، وقد جىء بها تأكيدا للإنكار السابق ، وما فيه من معنى التوبيخ والتجهيل .

أى : أتقولون للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح فاعله ، أى : لا يظفر بمطلوب ، ولا ينجو من مكروه ، وأنا قد أفلحت ، وفزت بالحجة ، ونجوت من الهلكة .

ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يصفون الحق بأنه سحر مبين فقال - تعالى - : ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ .

واللفت : الصرف واللى يقال : لفته يلفته لفتا ، أى : صرفه عن وجهته إلى ذات اليمين أو الشمال .

أى : قال فرعون وملؤه لموسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجئتنا يا موسى بما جئتنا به ﴿ لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أى : لتصرفنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لك ولأخيك هارون ﴿ الكبرياء فى الأرض ﴾ أى السيادة والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة خاصة .

ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به موسى - عليه السلام - من الدين الحق فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أى وما نحن لكما بمصدقين فيما جئتما به ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٦٥ .

لأن تصديقنا لكما يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وينزع منا ملكنا الذى تتمتع بكبريائه خاصتنا ، وتعيش تحت سلطانه وقهره عامتنا .

وأفردوا موسى - عليه السلام - بالخطاب فى قولهم ﴿ أجئتنا لتلفتنا .. ﴾ لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم ويكشف عن غرورهم وغبائهم .

وجمعوا بين موسى وهارون - عليهما السلام - فى قولهم ﴿ وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما ، وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر .

هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة ، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون - عليهما السلام - ، هى تهمة قديمة جديدة فقوم نوح - مثلا - يمتنعون عن قبول دعوته ، لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون.فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾[1] . أى : يريد أن تكون له السيادة والفضل عليكم ، فيكون زعيما وأنتم له تابعون .

ولقد أفاض فى شرح هذا المعنى صاحب الظلال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال ما ملخصه :

وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها نظامهم السياسى والاقتصادى ، وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هذا السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة .

إنها العلة القديمة الجديدة التى تدفع بالطغاة إلى مقاومة دعوات الإصلاح ورمى الدعاة بأشنع التهم ؛ والفجور فى مقاومة الدعوات والدعاة .. إنها هى « الكبرياء فى الأرض » وما تقوم عليه من معتقدات باطلة ، يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة فى قلوب الجماهير ، بكل ما فيها من زيف وفساد ، وأوهام وخرافات ، لأن تفتح القلوب على العقيدة الصحيحة ، خطر على القيم الجاهلية الموروثة .

وما كان رجال من أذكياء قريش - مثلا - ليخطئوا إدراك ما فى رسالة محمد - ﷺ - من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من تهافت وفساد ، ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

الموروثة ، القائمة على ما فى تلك العقيدة من خرافات وتقاليد ، كما خشى الملأ من قوم فرعون على سلطانهم فى الأرض ، فقالوا متبجحين ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾[1] .

ثم حكت الآيات الكريمة بعد ذلك ما طلبه فرعون من ملئه ، وما دار بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة من محاورات فقال - تعالى - :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى من موسى الإصرار على دعوته ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى ثعبان مبين .

قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام - ﴿ ائتونى ﴾ أيها الملأ ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ أى : بكل ساحر من أفراد مملكتى تكون عنده المهارة التامة فى فن السحر ، والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .

وقوله : ﴿ فلما جاء السحرة ... ﴾ معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام والتقدير ، فامتثل القوم أمر فرعون وأسرعوا فى إحضار السحرة ، فلما جاءوا والتقوا بموسى - عليه السلام - وخيروه بقوله ﴿ إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ .

﴿ قال لهم موسى ﴾ على سبيل التحدى ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ من ألوان سحركم ، ليرى الناس حقيقة فعلكم ، وليميزوا بين حقى وباطلكم .

﴿ فلما ألقوا ﴾ أى : فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم .

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ على سبيل السخرية مما صنعوه .

---

(١) تفسير (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب جـ ١١ ص ٤٦٦ .

﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ أى : قال لهم موسى : أيها السحرة ، إن الذى جئتم به هو السحر بعينه ، وليس الذى جئت به أنا مما وصفه فرعون وملؤه بأنه سحر مبين .

وإن الذى جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس ، عن طريق ما أمرنى الله به - سبحانه - من إلقاء عصاى، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يصلح عمل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وليس من نوع الإصلاح .

وقوله : ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ تأكيد لسنة الله - تعالى - فى تنازع الحق والباطل ، والصلاح والفساد .

أى : أنه جرت سنة الله تعالى - أن لا يصلح عمل المفسدين ، بل يمحقه ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى يثبته ويقويه ويؤيده ﴿ بكلماته ﴾ النافذة ، وقضائه الذى لا يرد ، ووعده الذى لا يتخلف ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، لا تعطل مشيئة الله ، ولا تحول بين تنفيذ آياته وكلماته وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى ﴿ أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة للحديث عن جانب مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين قومه بنى إسرائيل ، إثر الحديث عن جانب مما دار بينه وبين فرعون وملئه وسحرته فقال - تعالى - :

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا

(١) سورة الأعراف الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قال الجمل : « قوله - سبحانه - ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه .. ﴾ . لما ذكر الله - تعالى - ما أتى به موسى - عليه السلام - من المعجزات العظيمة الباهرة ، أخبر - سبحانه - أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه . وإنما ذكر الله هذا تسلية لنبيه محمد - ﷺ - لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه ، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به ، واستمرارهم على الكفر والتكذيب ، فبين الله له أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . لأن ما جاء به موسى من المعجزات ، كان أمرا عظيما . ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه »[1] .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدل عليه السياق ، والتقدير : لقد أتى موسى - عليه السلام - بالمعجزات التى تشهد بصدقه ، والتى على رأسها ، أن ألقى عصاه فإذا هى تبتلع ما فعله السحرة ، ومع كل تلك البراهين الدالة على صدقه ، فما آمن به إلا ذرية من قومه .

والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد أن تخلف عن الإيمان آباؤهم وأغنياؤهم .

قال الآلوسى : قوله ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ أى : إلا أولاد بعض بنى إسرائيل حيث دعا - عليه السلام - الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ، وأجابته طائفة من شبابهم فالمراد من الذرية : الشبان لا الأطفال[2] .

والضمير فى قوله ﴿ من قومه ﴾ يعود لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون المعنى :

فما آمن لموسى - عليه السلام - فى دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون فى مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٧

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤٨

العذاب ، أما آباؤهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعا فى عطائه ، وخوفا من بطشه بهم .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير فى قوله ﴿ من قومه ﴾ يعود إلى فرعون لا إلى موسى .

فيكون المعنى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قوم فرعون .

قال ابن كثير ما ملخصه مرجحا هذا الرأى : « يخبر الله - تعالى - أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات والحجج ، إلا قليل من قوم فرعون ، من الذرية - وهم الشباب - ، على وجل وخوف منه ومن ملئه .

قال العوفى عن ابن عباس : « إن الذرية التى آمنت لموسى من قوم فرعون منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنه ، وامرأة خازنه » .

ثم قال : واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية ، أنها من بنى إسرائيل ، لا من قوم فرعون . لعود الضمير على أقرب مذكور .

وفى هذا نظر ، لأن من المعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى . واستبشروا به ، فقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به .

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ؟ » [١] .

والذى نراه أن ما اختاره ابن جرير من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - أرجح ، لأن هناك نوع خفاء فى إطلاق كلمة الذرية على من آمن من قوم فرعون ، ومنهم زوجته ، وامرأة خازنه .

ولأنه لا دليل على أن بنى إسرائيل كلهم قد آمنوا بموسى ، بل الحق أن منهم من آمن به ومنهم من كفر به ، كقارون والسامرى وغيرهما .

ولأن رجوع الضمير إلى موسى - عليه السلام - هو الظاهر المتبادر من الآية ، لأنه أقرب مذكور ، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية الكريمة عن هذا الظاهر .

ورحم الله ابن جرير فقد قال فى ترجيحه لما ذهب إليه من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - ماملخصه :

وأولى هذه الأقوال عندى بتأويل الآية ، القول الذى ذكرته عن مجاهد وهو أن الذرية فى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٣ .

هذا الموضع ، أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بنى إسرائيل ، وإنما قلت هذا القول أولى بالصواب ، لأنه لم يجر فى هذه الآية ذكر لغير موسى ، فلأن تكون الهاء فى قوله ﴿ من قومه ﴾ من ذكر موسى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون ، لبعد ذكره منها .

ولأن فى قوله ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾ الدليل الواضح على أن الهاء فى قوله ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ من ذكر موسى لا من ذكر فرعون ، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام على خوف منه ، ولم يكن على خوف من فرعون .. »[1] .

وقوله : ﴿ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ... ﴾ حال من كلمة ﴿ ذرية ﴾ ، و ﴿ على ﴾ هنا بمعنى مع . والضمير فى قوله ﴿ ملئهم ﴾ يعود إلى ملأ الذرية ، وهم كبار بنى إسرائيل الذين لا ذوا بفرعون طمعا فى عطائه أو خوفا من عقابه ولم يتبعوا موسى - عليه السلام - .

والمعنى : فما آمن لموسى الا عدد قليل من شباب قومه ، والحال أن إيمانهم كان مع خوف من فرعون ومن أشراف قومهم أن يفتنوهم عن دينهم ، أى : يعذبوهم ليحملوهم على ترك اتباع موسى - عليه السلام .

والضمير فى ﴿ يفتنهم ﴾ يعود إلى فرعون خاصة ، لأنه هو الآمر بالتعذيب ولأن الملأ إنما كانوا يأتمرون بأمره ، وينتهون عن نهيه ، فهم كالآلة فى يده يصرفها كيف يشاء .

وجملة ﴿ أن يفتنهم ﴾ فى تأويل مصدر ، بدل اشتمال من فرعون ، أى : على خوف من فرعون فتنته .

وقوله : ﴿ وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .

أى : وإن فرعون المتكبر متجبر فى أرض مصر كلها ، وإنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد فى الظلم والبغى وادعاء ما ليس له .

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون فى مقاومتهم إلى إيمان عميق ، واعتماد على الله وثيق ، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة ، ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ .

أى : قال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم : يا قوم ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام فعليه وحده

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٤ طبعة دار المعرفة - بيروت .

اعتمدوا ، وبجنابه وحده تمسكوا ، فإن من توكل على الله واتجه إليه ، كان الله معه بنصره وتأييده .

ثم حكى القرآن جوابهم الذى يدل على صدق يقينهم فقال : ﴿ فقالوا ﴾ أى مجيبين لنصيحة نبيهم ﴿ على الله ﴾ وحده لا على غيره ﴿ توكلنا ﴾ واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أى ياربنا لا تجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين . بأن تمكنهم منا فيسوموننا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق - فى زعمهم - لما تمكنوا منا ، ولما انتصروا علينا .

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه فى المباعدة بينهم وبين الظالمين فقالوا ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

أى : نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجينا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

قال الإمام الشو كانى : « وفى هذا الدعاء الذى تضرعوا به إلى الله - دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم »[1] .

وبعد هذا الدعاء المخلص ، وجه الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى ما يوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة .. ﴾.

وقوله ﴿تبوءا﴾ من التبؤ وهو اتخاذ المباءة أى المنزل، كالتوطن بمعنى اتخاذ الوطن .

يقال بوأته وبوأت له منزلا إذا أنزلته فيه ، وهيأته له .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون فى طغيانه وفى إنزال العذاب بالمؤمنين - أن اتخذا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم فى مصر ، ينزلون بها ، ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقوله ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أى : واجعلوا هذه البيوت التى حللتم بها مكانا لصلاتكم وعبادتكم ، بعد أن حال فرعون وجنده بينكم وبين أداء عباداتكم فى الأماكن المخصصة لذلك .

---

(١) تفسير (فتح القدير) للإمام الشوكانى جـ ٢ ص ٤٦٦ .

قال القرطبى : « المراد صلوا فى بيوتكم سرا لتأمنوا ، وذلك حين أخافهم فرعون ، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ، والإقدام على الصلاة ، والدعاء ، إلى أن ينجز الله وعده ، وهو المراد بقوله ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا فى البيع والكنائس ماداموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا فى بيوتهم ... »[١] .

وقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أى : داوموا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، فإن فى أدائها بهذه الصورة . وسيلة إلى تفريج الكروب ، وفى الحديث الشريف : « كان رسول الله - ﷺ - إذا حز به أمر صلى » .

وقوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ تذييل قصد به بعث الأمل فى نفوسهم متى أدوا ماكلفوا به .

أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح فى الدنيا ، وبالثواب الجزيل فى الآخرة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف نوع الخطاب فثنى أولا ، ثم جمع ، ثم وحد آخرا ؟

قلت : خوطب موسى وهارون - عليه السلام - أن يتبوآ لقومهما بيوتا ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور . ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التى هى الغرض تعظيما لها ، وللمبشر بها »[٢] .

ولأن بشارة الأمة - كما يقول الآلوسى - وظيفة صاحب الشريعة ، وهى من الأعظم أسَرُّ وأوقع فى النفس[٣] .

هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التى نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح ، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخالصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات ، بعد أن يئس من إيمان فرعون وملئه فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٧١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٥٢ .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان من ألوان اللباس وأوانى الطعام والشراب ، ووسائل الركوب .. وغير ذلك مما يستعمله الإنسان فى زينته ورفاهيته .

والمال : يشمل أصناف الزينة ، ويشمل غير ذلك مما يتملكه الإنسان .

والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مخاطبا ربه ، بعد أن فقد الأمل فى إصلاح فرعون وملئه : ياربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وأصحاب الرياسات منهم ، الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والتنعم ، كما أعطيتهم الكثير من الأموال فى هذه الحياة الدنيا .

وهذا العطاء الجزيل لهم : قد يضعف الإيمان فى بعض النفوس ، إما بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذى يملكه هؤلاء المنعمون ، بحيث يصيرون قادرين على إذلال غيرهم .

واللام فى قوله ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ لام العاقبة والصيرورة أى : أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر ، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال ، فأزل يامولانا هذه النعم من بين أيديهم .

قال القرطبى : « اختلف فى هذه اللام ، وأصح ما قبل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والصيرورة ، وفى الخبر : « إن لله - تعالى - ملكا ينادى كل يوم :

لدوا للموت وابنو للخراب » أى : لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال ، صار كأنه أعطاهم ليضلوا »[١] .

وقال صاحب المنار : « قوله : ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أى : لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك لأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطغيان على الناس ، وكثرة الأموال تمكنهم من ذلك ، وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال - تعالى - ﴿ إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى ﴾ .

فاللام فى قوله ﴿ ليضلوا ﴾ تسمى لام العاقبة والصيرورة ، وهى الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها ، يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ، ولا بقصد فاعل الفعل الذى تتعلق به كقوله - تعالى - ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ... ﴾[٢] .

ومنهم من يرى أن هذه اللام للتعليل ، والفعل منصوب بها ، فيكون المعنى :

وقال موسى مخاطبا ربه : ياربنا إنك قد أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، وإنك يا ربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغيانا على طغيانهم ، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وشبيه بهذه الجملة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾[٣] .

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال : « والصواب من القول فى ذلك عندى أنها لام كىْ ، ومعنى الكلام : ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه ، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم ، وهذا كما قال جل ثناؤه ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً . لنفتنهم فيه . ﴾[٤] .

ومنهم من يرى أن هذه اللام هى لام الدعاء ، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية فيكون المعنى :

وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ؛ اللهم ياربنا زدهم ضلالا على ضلالهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٧٤ .
(٢) راجع تفسير المنار جـ ١١ ص ٤٧٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٨ .

وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشاف . فقد قال ما ملخصه : « فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾؟

قلت : هو دعاء بلفظ الأمر كقوله : ربنا اطمس واشدد . وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا ، وردد عليهم النصائح والمواعظ زمانا طويلا . وحذرهم من عذاب الله ومن انتقامه ، وأنذرهم سوء عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً وعلى الإنذار إلا استكبارا ، وعن النصيحة إلا نبوا ، ولم يبق له مطمع فيهم . وعلم بالتجربة وطول الصحبة أو بوحى من الله ، أنه لايجىء منهم إلا الغى والضلال .

لما رأى منهم كل ذلك : اشتد غضبه عليهم ، وكره حالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره وهو ضلالهم .

فكأنه قال : ليثبتوا على ماهم عليه من الضلال .. » [1] .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، لكل واحد منها اتجاهه فى التعبير عن ضيق موسى - عليه السلام - لإصرار فرعون وشيعته على الكفر ، ولما هم فيه من نعم لم يقابلوها بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والبطر .

وإن كان الرأى الأول هو أظهرها فى الدلالة على ذلك ، وأقربها إلى سياق الآية الكريمة .

قال الشوكانى : « وقرأ الكوفيون ﴿ ليضلوا ﴾ بضم الياء . أى : ليوقعوا الإضلال على غيرهم . وقرأ الباقون بالفتح أى يضلون فى أنفسهم »[2] .

وقوله : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم . فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ دعا عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر والضلال .

والطمس : الإهلاك والإتلاف ومحو أثر الشىء يقال : طمس الشىء ويطمس طموسا إذا زال بحيث لا يرى ولا يعرف لذهاب صورته .

والشد : الربط والطبع على الشىء ، بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج منه .

والمعنى : وقال موسى مخاطبا ربه : ياربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل قابلوا عطاءك بالجحود ، اللهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥ .
(٢) تفسير فتح القدير ، للإمام الشوكانى جـ ٢ ص ٤٧٠ .

يا ربنا اطمس على أموالهم بأن تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ، حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء استعمال الكافرين لنعمك فى الإفساد والأذى .

﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعناداً على عنادها مع استمرارها على ذلك ، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذى لا ينفع عند إتيانه إيمان ، ولا تقبل معه توبة ، لأنهما حدثا فى غير وقتهما .

قال الجمل : « وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التى أوتيها موسى - عليه السلام -[1] .

وقال الإمام ابن كثير : « وهذه الدعوة كانت من موسى - عليه السلام - غضبا لله - تعالى - ولدينه على فرعون وملئه . الذين تبين له أنه لا خير فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا .. ﴾ ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم .. »[2] .

فقال : ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لموسى وهارون - عليهما السلام - : أبشرا فقد أجبت دعوتكما فى شأن فرعون وملئه ﴿ فاستقيما ﴾ على أمرى ، وامضيا فى دعوتكما الناس إلى الحق ، واثبتا على ما أنتما عليه من الإيمان بى والطاعة لأمرى .

﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ ما جرت به سنتى فى خلقى ، ولا يدركون طريق الخير من طريق الشر .

وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون ، مع أن الداعى موسى فقط كما صرحت الآيات السابقة ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه موسى والتأمين لون من الدعاء .

هذا ، ومن الحكم والعظات التى نأخذها من هاتين الآيتين الكريمتين : أن من علامات الإيمان الصادق . أن يكون الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال النعمة من بين أيدى المصرين على جحودهم وفسوقهم وبطرهم لأن وجود النعم بين أيديهم كثيرا ما يكون سببا فى إيذاء المؤمنين ، وإدخال القلق والحيرة على نفوس بعضهم .

وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ، كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٧٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٥ .

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فى هذه السورة الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين فقال - تعالى - :

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

قوله - سبحانه - ﴿ وجاوزنا ﴾ هو من جاوز المكان ، إذا قطعه وتخطاه وخلفه وراء ظهره وهو متعد بالباء إلى المفعول الأول الذى كان فاعلا فى الأصل ، وإلى الثانى بنفسه .

والمراد بالبحر هنا : بحر القلزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر . وقوله ﴿ بغيا وعدوا ﴾ أى ظلما واعتداء . يقال : بغى فلان على فلان بغيا ، إذا تطاول عليه وظلمه . ويقال : عدا عليه عَدْواً وعدوانا إذا سلبه حقه .

وهما مصدران منصوبان على الحالية بتأويل اسم الفاعل . أى : باغين وعادين . أو على المفعولية لأجله أى : من أجل البغى والعدوان .

والمعنى : وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، وهم تحت رعايتنا وقدرتنا ، حيث جعلناه لهم طريقا

يبسا ، فساروا فيه حتى بلغوا نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده لا لطلب الهداية والإيمان ، ولكن لطلب البغى والعدوان .

قال الآلوسى : « وذلك أن الله - تعالى - لما أخبر موسى وهارون - عليهما السلام - بإجابته دعوتهما ، أمرهما بإخراج بنى إسرائيل من مصر ليلا ، فخرجا بهم على حين غفلة من فرعون وملئه ، فلما أحس بذلك ، خرج هو وجنوده على أثرهم مسرعين ، فالتفت القوم فإذا الطامة الكبرى وراءهم ، فقالوا يا موسى ، هذا فرعون وجنوده وراءنا . وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص ، فأوحى الله - تعالى - إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم ، وصار لكل سبط طريق فسلكوا ، ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وبنو إسرائيل قد خرجوا من البحر ومسلهكم باق على حاله ، فسلكه فرعون وجنوده ، فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج من البحر ، انطبق عليهم وغشيهم من اليم ما غشيهم »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ماقاله فرعون عندما نزل به قضاء الله الذى لا يرد فقال - تعالى - : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلـه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ .

أى : لقد اتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى إذا أدركه الغرق وعاين الموت وأيقن أنه لا نجاة له منه ، قال آمنت وصدقت . بأنه لا معبود بحق سوى الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم الذين أسلموا نفوسهم لله وحده وأخلصوها لطاعته .

ولما كان هذا القول قد جاء فى غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لا ينفع لأنه جاء عند معاينة الموت ، فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه - ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين ﴾.

أى : آلآن تدعى الإيمان حين يئست من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من العصاة المفسدين فى الأرض ، المصرين على تكذيب الحق الذى جاءك به رسولنا موسى - عليه السلام - والظرف « آلآن » متعلق بمحذوف متأخر ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار .

وقوله : ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ جملة حالية من فاعل الفعل المقدر ، أى : آلآن تدعى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٠ .

الإيمان والحال أنك عصيت قبل وكنت من المفسدين .

قال الإمام ابن كثير : « وهذا الذى حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك . من أسرار الغيب التى أعلم الله - تعالى - بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله .

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل لى يا محمد لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أى طينًا أسود من طين البحر - فدسسته فى فمه مخافة أن تناله الرحمة » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث ، حماد بن سلمة وقال الترمذى : حديث حسن .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية .. ﴾ تهكم به ، وتخييب لآماله ، وقطع لدابر أطماعه،والمعنى إن دعواك الإيمان الآن مرفوضة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، وإننا اليوم بعد أن حل بك الموت ، نلقى بجسمك الذى خلا من الروح على مكان مرتفع من الأرض لتكون عبرة وعظة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة أو الإخبار ، سوء عاقبة المكذبين ، وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

قال الإمام الشوكانى : « قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك .. ﴾ قرئ ننجيك بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل .

أى : نلقيك على نجوة من الأرض . وذلك ان بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه .

ومعنى ﴿ ببدنك ﴾ بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل معناه بدرعك والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٧ ، طبعة دار الشعب .

أراد بالأبدان الدروع[1] - وباليلب - بفتح الياء واللام - الدروع اليمانية كانت تتخذ من الجلود .

وقوله : ﴿ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ تذييل قصد به دعوة الناس جميعا إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، وبمظاهر قدرته .

أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا على إهلاك كل ظالم جبار .

قال ابن كثير : وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء . كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبى - ﷺ - المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبى - ﷺ - لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم فصوموه »[2] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بنى إسرائيل بعد أن أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - : ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ﴾ .

وقوله : ﴿ بوأنا ﴾ أى : أنزلنا وأسكنا ، من التبوء ، وهو اتخاذ المباءة أى : المنزل والمسكن .

وفى إضافة المبوأ إلى الصدق مدح له ، فقد جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا : رجل صدق إذا كان متحليا بمكارم الأخلاق .

قال الآلوسى : « والمراد بهذا المبوأ ، كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك : الشام ومصر ، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا فى زمان موسى - عليه السلام - وهم المرادون هنا ، ملكوا ذلك حسبما ذهب إليه جمع من الفضلاء[3] .

وأخرج أبو الشيخ وغيره عن قتادة أن المراد به الشام وبيت المقدس ، واختاره بعضهم ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك .

وينبغى أن يراد ببنى إسرائيل على القولين ، ما يشمل ذريتهم بناء على أنهم ما دخلوا الشام فى حياة موسى - عليه السلام - إنما دخلها أبناؤهم - بقيادة يوشع بن نون .

وقيل المراد به أطراف المدينة إلى جهة الشام ، وببنى إسرائيل : الذين كانوا على عهد نبينا محمد - ﷺ - .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٧٠ .
(٢) تفسير أبن كثير جـ ٤ ص ٢٢٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٧ .

والمعنى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا ، فيه الأمان ، والاطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التى أحللناها لهم .

وقوله : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم .... ﴾ توبيخ لهم على موقفهم الجحودى من هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحى الذى أمرهم الله - تعالى - أن يتلوه حق تلاوته ، وان لا يستخدموه فى التأويلات الباطلة .

فالجملة الكريمة توبخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن يستعملوه - فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل .

أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقونه من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، ومع قومه بنى إسرائيل ، وجه القرآن خطابا إلى النبى - ﷺ - تثبيتا لقلبه ، وتسلية له عما أصابه من أذى ، فقال - تعالى - :

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

والمراد ﴿ مما أنزلنا إليك ﴾ هنا : ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - من قصص حكيم يتعلق بأنبياء الله - تعالى - ورسله .

قال الآلوسى : « وخصت القصص بالذكر ، لأن الأحكام المنزلة عليه - ﷺ - ناسخة لأحكامهم ، ومخالفة لها فلا يتصور سؤالهم عنها »[١] .

والمراد بالكتاب : جنسه فيشمل التوراة والإنجيل .

والمعنى : فإن كنت أيها الرسول الكريم - على سبيل الفرض والتقدير - فى شك مما أنزلنا إليك من قصص حكيم كقصة موسى ونوح وغيرهما ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ماقصصناه عليك ثابت فى كتبهم .

فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول - ﷺ - وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الثبوت .

قال ابن كثير : « قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا أشك ولا أسأل » .

وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصرى ، وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم بأن صفة نبيهم - ﷺ - موجودة فى الكتب المتقدمة التى بأيدى أهل الكتاب ، كما قال - تعالى - ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .. ﴾[٢] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى شأن عيسى - عليه السلام - : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته .. ﴾ .

فعيسى - عليه السلام - يعلم علم اليقين أنه لم يقل ذلك ، وإنما يفرض قوله فرضا . ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله - تعالى - منه .

أى : إن كنت قلته - على سبيل الفرض والتقدير - فقولى هذا لا يخفى عليك .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك .. ﴾؟

قلت : هو على سبيل الفرض والتمثيل . كأنه قيل : فإن وقع لك شك - مثلا - وخيل

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣١ .

لك الشيطان خيالا منه تقديرا ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب ﴾ .

والمعنى : أن الله - عز وجل - قدم ذكر بنى إسرائيل ، وهم قرأة الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله - ﷺ - مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وصحة نبوة محمد - ﷺ - ويبالغ فى ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا . فسل علماء أهل الكتاب يعنى أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك ، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ، فضلا عن غيرك .

فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله - ﷺ - لا وصفه بالشك فيه .

ويجوز أن يكون على طريق التهييج والإلهاب كقوله ﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين .. ﴾ ولذلك قال - ﷺ - عند نزوله : «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق » .

وقيل : خوطب رسول الله - ﷺ - والمراد خطاب أمته .

ومعناه : « فإن كنتم فى شك مما أنزلنا إليكم .. »[1] .

وقوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ كلام مستأنف مؤكد لاجتثاث إرادة الشك .

والتقدير : أقسم لقد جاءك الحق الذى لا لبس فيه من ربك لا من غيره ، فلا تكونن من الشاكين المترددين فى صحة ذلك .

وقوله : ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ تعريض بأولئك الشاكين والمكذبين له - ﷺ - من قومه . أى : ولا تكونن من القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدقك فيما تبلغه عنا ، فتكون بذلك من الخاسرين الذين أضاعوا دنياهم وأخراهم .

قال الآلوسى : « وفائدة النهى فى الموضعين التهييج والإلهاب نظير مامر . والمراد بذلك الإعلام بأن الامتراء والتكذيب قد بلغا فى القبح والمحذورية إلى حيث ينبغى أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما ، فكيف بمن يمكن اتصافه بذلك .. »[2] .

وقوله : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٨ .

العذاب الأليم ﴾ توبيخ للكافرين على إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق .

والمراد بكلمة ربك : حكمه النافذ ، وقضاؤه الذى لا يرد ، وسنته التى لا تتغير ولا تتبدل فى الهداية والإضلال .

والمراد بالآية : المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول - ﷺ - .

أى : إن الذين حكم الله - تعالى - عليهم بعدم الإيمان - لأنهم استحبوا العمى على الهدى - لا يؤمنون بالحق الذى جئت به - أيها الرسول الكريم .. مهما سقت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك ..

ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق ، حين يرون العذاب الأليم وقد نزل بهم من كل جانب .

وهنا سيكون إيمانهم كلا إيمان ، لأنه جاء فى غير وقته ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا .. ﴾[1] .

وسيكون حالهم كحال فرعون ، الذى عندما أدركه الغرق قال آمنت .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد نهت عن الشك والافتراء فى شأن الحق الذى جاء به الرسول - ﷺ - بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ، كما بينت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته للنور لا يراه ، فتكون نهايته إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبينات الدالة على طريق الحق .

ثم فتحت السورة الكريمة للمكذبين باب الأمل والنجاة ، فذكرتهم بقوم يونس - عليه السلام - الذين نجوا من العذاب بسبب إيمانهم ، كما ذكرتهم بإرادة الله التامة ، وقدرته النافذة ، ودعتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بما اشتمل عليه هذا الكون .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تسوق كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ

(١) سورة غافر الآية ٨٥ .

جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قال القرطبى ما ملخصه : « روى فى قصة يونس - عليه السلام - عن جماعة من المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل - بالعراق - وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام ، وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم. فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل . وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم ، فهو نزول العذاب لاشك ...

فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم ، فأصبحوا فلم يجدوه ، فآمنوا وتابوا ، ودعوا الله ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم ..

قال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا العذاب لما نفعهم الإيمان »[1] .

وكلمة ﴿ لولا ﴾ فى قوله - سبحانه - ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ... ﴾ للحث والتحضيض ، فهى بمعنى هلا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٨٧ .

والمقصود بالقرية أهلها وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهى اسم كان . وقوله ﴿ آمنت ﴾ خبرها . وقوله ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ معطوف على ﴿ آمنت ﴾ .

والمعنى : فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فآمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستئصال الذى حل بهم فقطع دابرهم ، كما نجا منه قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا أمارات العذاب الذى أنذرهم به نبيهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل بهم ، ومتعهم بالحياة المقدرة لهم ، إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا .

قال الإمام الشوكانى : والاستثناء بقوله : ﴿ إلا قوم يونس .. ﴾ منقطع ، وهو استثناء من القرية لأن المراد أهلها .

والمعنى : فهلا قرية واحدة من القرى التى أهلكناها آمنت إيمانا معتدا به - وذلك بأن يكون خالصا لله - قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخره كما أخره فرعون ، لكن قوم يونس « لما آمنوا » إيمانا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم « كشفنا عنهم عذاب الخزى » أى : الذل والهوان .

وقيل يجوز أن يكون متصلا ، والجملة فى معنى النفى ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس .. »[1] .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : « وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب نزل عليهم ، وجعل يدور على رءوسهم .. ونحو هذا ، ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة ...

وفى الآية إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس .

والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى - ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : «عرض على الأنبياء ، فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبى معه الرجل ، والنبى معه الرجلان ، والنبى ليس معه أحد »[2] .

وفى الآية الكريمة - أيضا - تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب إعراض

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٧٣ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ٦ ص ٣٤٠٠ .

قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذارهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العذاب فنفعهم إيمانهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية لرسوله - ﷺ - تسلية أخرى فقال : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ... ﴾ ومفعول المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - يا محمد - إيمان أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا دون أن يتخلف منهم أحد ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأنه مخالف للحكمة التى عليها أساس التكوين والتشريع ، والإثابة والمعاقبة ، فقد اقتضت حكمته - سبحانه - أن يخلق الكفر والإيمان ، وأن يحذر من الكفر ويحض على الإيمان ، ثم بعد ذلك من كفر فعليه تقع عقوبة كفره ، ومن آمن فله ثواب إيمانه .

والهمزة فى قوله - سبحانه - ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ للاستفهام الإنكارى، والفاء للتفريع .

والمراد بالناس : المصرين على كفرهم وعنادهم .

والمعنى : تلك هى مشيئتنا لو أردنا إنفاذها لنفذناها ، ولكننا لم نشأ ذلك فهل أنت يا محمد فى وسعك أن تكره الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان ؟ .

لا ، ليس ذلك فى وسعك ولا فى وسع الخلق جميعا ، بل الذى فى وسعك هو التبليغ لما أمرناك بتبليغه .

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية أخرى للرسول - ﷺ - ودفع لما يضيق به صدره ، من إعراض بعض الناس عن دعوته .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ... ﴾ تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله - تعالى - أى : وما صح وما استقام لنفس من الأنفس ، أن تؤمن فى حال من الأحوال ، إلا بإذن الله » أى : إلا بإرادته ومشيئته وتوفيقه وهدايته .

وقوله : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾. معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد ، والرجس : يطلق على الشىء القبيح المستقذر .

والمعنى : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، فيأذن لمن يشاء من تلك الأنفس بالإيمان ، ويجعل الرجس أى الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يهدى إلى الحق والخير ، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيل والشرور .

ولما كان التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، يعين على التفكير السليم ، وعلى استعمال العقل فيما يهدى إلى الحق والخير ، أمر الله - تعالى - الناس بالنظر والاعتبار فقال - سبحانه - : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك : انظروا وتأملوا وتفكروا فيما اشتملت عليه السموات من شموس وأقمار ، وكواكب ونجوم ، وسحاب وأمطار ...

وفيما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار ، ومن جبال وأشجار ، ومن حيوانات ودواب متنوعة .

انظروا إلى كل ذلك وتفكروا ، فإن هذا التفكر يهدى أصحاب العقول السليمة إلى أن لهذا الكون إلها واحد عليما قديرا ، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ توبيخ للغافلين عن النظر السليم الذى يؤدى إلى الهداية .

و ﴿ ما ﴾ نافية ، والمراد بالآيات : ما أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك بقوله : ﴿ ماذا فى السموات والأرض ﴾ والنذر : جمع نذير ، وهو من يخبر غيره بأمر مخوف حتى يحذره .

والمعنى : انظروا وتفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من آيات بينات دالة على وحدانية الخالق وقدرته ..

ومع ذلك فإن الآيات مهما اتضحت ، والنذر مهما تعددت ، لا تجدى شيئا ، بالنسبة لمن تركوا الإيمان ، وأصروا على الجحود والعناد .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ للاستفهام الإنكارى ، فيكون المعنى وأى شىء تجدى الآيات السماوية والأرضية ، والنذر بحججها وبراهينها ، أمام قوم جاحدين معاندين ، قد استحبوا الكفر على الإيمان ؟ .

ثم ساق - سبحانه - للمكذبين برسوله - ﷺ - تهديدا يخلع قلوبهم فقال : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ .

قال القرطبى : « الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما ، كقوله - تعالى - ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ ، وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٨٦ .

والمعنى : إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إثابتنا للمؤمنين ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لدعوتك ، إلا العذاب الذى نزل بالمكذبين لدعوة الرسل من قبلك ؟ فالاستفهام للتهكم والتقريع .

وقوله : ﴿ قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ بأن يستمر فى تهديدهم ووعيدهم .

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاحدين للحق الذى جئت به : إذاً فانتظروا العذاب الذى نزل بالسابقين من أمثالكم ، إنى معكم من المنتظرين لوعد ربى لى ، ولوعيده لكم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل فقال : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ .

والجملة الكريمة عطف على محذوف ، والتقدير : تلك سنتنا فى خلقنا نهلك الأمم المكذبة ﴿ ثم ننجى رسلنا ﴾ الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وننجى - أيضا - الذين آمنوا برسلنا وصدقوهم وقوله ﴿ كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ الكاف فى ﴿ كذلك ﴾ بمعنى : مثل ، وهى صفة لمصدر محذوف ، واسم الإشارة يعود على الإنجاء الذى تكفل الله به للرسل السابقين ولمن آمن بهم ولفظ ﴿ حقا ﴾ منصوب بفعل مقدر أى : حق ذلك علينا حقا أى : مثل ذلك الإنجاء الذى تكفلنا به لرسلنا ولمن آمن بهم ، ننج المؤمنين بك - أيها الرسول الكريم - ، ونعذب المصرين على تكذيبك ، وهذا وعد أخذناه على ذاتنا فضلا منا وكرما .

﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾[1] وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حضت الضالين على الاقتداء بقوم يونس - عليه السلام - لكى ينجوا من العذاب ، وذكرتهم بنفاذ إرادة الله وقدرته ، ودعتهم إلى التفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وأخبرتهم بأن سنة الله ماضية فى إنجاء المؤمنين ، وفى إهلاك المكذبين .

وبعد هذا الحديث المتنوع الذى زخرت به سورة يونس - عليه السلام - عن وحدانية الله وقدرته ، وعن صدق الرسول - ﷺ ، وعن النفس الإنسانية وأحوالها ، وعن يوم القيامة وأهوالها ...

بعد كل ذلك وجهت فى ختامها نداءين إلى الناس أمرتهم فيهما بإخلاص العبادة لله - تعالى - وبالاعتماد عليه وحده ، وبتزكية نفوسهم ...

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٧ .

استمع إلى السورة الكريمة فى ختامها وهى تقول :

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

والمعنى : ﴿ قل ﴾ أيها الرسول الكريم ، لجميع من ارتاب فى دينك .

﴿ يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى ﴾ الذى جئتكم به من عند الله - تعالى - ، وترغبون فى تحويلى عنه ، فاعلموا أنى برىء من شككم ومن أديانكم التى أنتم عليها .

ومادام الأمر كذلك ، فأنا « لا أعبد الذين تعبدون من دون الله » من آلهة باطلة فى حال من الأحوال .

﴿ ولكن أعبد الله ﴾ - تعالى - الذى خلقكم و ﴿ الذى يتوفاكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ، ويعاقبكم على كفركم .

وقوله ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ تأكيد لإخلاص عبادته - ﷺ - لله وحده .

أى : وأمرت من قبل خالقى - عز وجل - بأن أكون من المؤمنين بأنه لا معبود بحق سواه .

وأوثر الخطاب باسم الجنس « الناس » مع تصديره بحرف التنبيه ، تعميما للخطاب ، وإظهارا لكمال العناية بشأن المبلغ إليهم .

وعبر عن شكهم « بإن » المفيدة ؛ لعدم اليقين ، مع أنهم قد شكوا فعلا فى صحة هذا الدين بدليل عدم إيمانهم به ، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لساحة هذا الدين عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها .

وقدم - سبحانه - ترك عبادة الغير على عبادته - عز وجل - ، إيذانا بمخالفتهم من أول الأمر ، ولتقديم التخلية على التحلية .

وتخصيص التوفى بالذكر ، للتهديد والترهيب ، أى : ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولأنه أشد الأحوال مهابة فى القلوب .

وقوله : ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ... ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أن أكون من المؤمنين ﴾ .

و ﴿ حنيفا ﴾ حال من الدين أو من الوجه ، والحنيف : هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام .

وخص الوجه بالذكر ، لأنه أشرف الأعضاء .

والمعنى : أن الله - سبحانه - أمره بالاستقامة فى الدين . والثبات عليه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال .

قال الآلوسى : « إقامة الوجه للدين ، كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته - تعالى - ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شىء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات .

أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده . وهو معطوف على ﴿ أقم ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٧٨ .

أى : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده واثبت على ذلك ، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تأكيدا آخر فقال : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ .

أى : ولا تدع من دون الله فى أى وقت من الأوقات ﴿ مالا ينفعك ﴾ إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب ﴿ ولا يضرك ﴾ إذا تركته وأهملته .

﴿ فإن فعلت ﴾ شيئا مما نهيناك عنه ﴿ فإنك إذا ﴾ تكون ﴿ من الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد المهالك ، لإشراكها مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

ثم بين - سبحانه - أنه وحده هو الضار والنافع فقال : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ .

« المس » : أعم من اللمس فى الاستعمال ، يقال : مسه السوء والكبر والعذاب والتعب ، أى : أصابه ذلك ونزل به .

والضر : اسم للألم والحزن وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ، كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما .

والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة .

والمعنى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ كمرض وتعب وحزن ، فلا كاشف له ، أى : لهذا الضر ﴿ إلا هو ﴾ - سبحانه - .

﴿ وإن يردك بخير ﴾ كمنحة وغنى وقوة ﴿ فلا راد لفضله ﴾ أى : فلا يستطيع أحد أن يرد هذا الخير عنك .

وعبر - سبحانه - بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات .

وقوله ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ أى : يصيب بذلك الفضل والخير ﴿ من يشاء ﴾ إصابته ﴿ من عباده ﴾ .

﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أى : وهو الكثير المغفرة والرحمة لمن تاب إليه ، وتوكل عليه ، وأخلص له العبادة .

وفى معنى هذه الآية جاء قوله - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ،

وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقال ابن كثير : « وروى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم »[٢] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء آخر - أمر رسوله - ﷺ - أن يوجهه للناس فقال : ﴿ قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ... ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا جميع الناس ، سواء منهم من سمع نداءك أو من سيبلغه هذا النداء من بعدك قل لهم جميعا : ﴿ قد جاءكم الحق ﴾ المتمثل فى كتاب الله وفى سنتى ﴿ من ربكم ﴾ وليس من أحد سواه .

﴿ فمن اهتدى ﴾ إلى هذا الحق ، وعمل بمقتضاه ﴿ فإنما يهتدى لنفسه ﴾ أى : فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره .

﴿ ومن ضل ﴾ عن هذا الحق وأعرض عنه ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أى : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه .

﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أى بحفيظ يحفظ أموركم ، وإنما أنا بشير ونذير والله وحده هو الذى يتولى محاسبتكم على أعمالكم .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين ﴾.

أى : ﴿ واتبع ﴾ - أيها الرسول الكريم - فى جميع شئونك ﴿ ما يوحى إليك ﴾ من ربك من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ..

﴿ واصبر ﴾ على مشاق الدعوة وتكاليفها ..

﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبين قومك ، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ . لأنه هو العليم بالظواهر والبواطن ، وهو الذى لا معقب لحكمه .

وبعد : فهذه هى سورة يونس - عليه السلام - رأينا ونحن نفسرها كيف أقامت الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، ونفاذ إرادته ، وسعة رحمته ، وسمو عزته ..

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٤ .

وكيف أنها أقامت الأدلة - أيضاً - على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه .

وكيف أنها ساقت الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أحوال الناس فيه ، مما يرقق القلوب القاسية ، ويبعث فى النفوس الخشية وحسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد ، وكيف أنها ساقت جانبا من أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وقررت سنة من سنن الله التى لا تتخلف ، وهى نجاة رسل الله والمؤمنين بهم ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون .

وكيف أنها بينت أحوال الناس فى السراء والضراء ... بيانا صادقا قوياً مؤثراً ، من شأنه أن يحملهم على التحلى بالأخلاق الكريمة والتخلى عن الأخلاق الذميمة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين .

المدينة المنورة السبت ٧ من المحرم سنة ١٤٠١

الموافق ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م

تفسير

سُورَةُ هُودٍ

عليه السلام



تعريف بسورة هود - عليه السلام -

١ - سورة هود - عليه السلام - هى السورة الحادية عشرة فى ترتيب المصحف « فقد سبقتها فى هذا الترتيب سورة الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس .

أما ترتيبها فى النزول ، فهى السورة الثانية والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة يونس .

٢ - وعدد آياتها : ثلاث وعشرون ومائة آية .

٣ - وقد سماها النبى - ﷺ - بسورة هود ، فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يارسول الله قد شبت ! قال : «شيبتنى» « هود » و « الواقعة » ، و « المرسلات » و « عم يتساءلون » و « إذا الشمس كورت » .

وفى رواية : شيبتنى هود وأخواتها .

قال القرطبى بعد أن ساق بعض الأحاديث فى فضل هذه السورة . ففى تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس . وتشيب منه الرءوس »[1] .

٤ - متى نزلت سورة هود ؟

جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية ، وقيل هى مكية إلا ثلاث آيات منها : وهى قوله - تعالى - ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك ... ﴾ الآية ١٢ .

وقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ الآية ١٧ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ﴾ الآية ١١٤ .

والذى نرجحه أن السورة كلها مكية ، وسنرى عند تفسيرنا لهذه الآيات التى قيل بأنها مدنية ، ما يشهد لصحة ما ذهبنا إليه .

كذلك نرجح أن هذه السورة الكريمة ، كان نزولها فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج ، وذلك لأن نزولها - كما سبق أن أشرنا - كان بعد سورة يونس ، وسورة يونس كان نزولها بعد سورة الإسراء ، التى افتتحت بالحديث عنه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٢ طبعة دار الكاتب العربى بالقاهرة .

وهذه الفترة التى كانت قبيل حادث الإسراء والمعراج والتى أعقبته ، تعتبر من أشق الفترات وأحرجها وأصعبها فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففى هذه الفترة مات أبو طالب عم النبى - ﷺ - والمدافع عنه ، وماتت كذلك السيدة خديجة - رضى الله عنها - التى كانت نعم المواسى له عما يصيبه من أذى ... ففقد الرسول - ﷺ - بموتهما نصيرين عزيزين ، كانت لهما مكانتهما العظيمة فى نفسه ، وتعرض - ﷺ - فى هذه الفترة لألوان من الأذى والاضطهاد فاقت كل ما سبقها وبلغت الحرب المعلنة من المشركين عليه وعلى دعوته ، أقسى وأقصى مداها ..

قال ابن إسحاق خلال حديثه عن هذه الفترة : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله - ﷺ - المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبى طالب - وكان له عضدا وحرزا فى أمره ، ومنعة وناصرًا على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا .

ثم قال ابن إسحاق : فحدثنى هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير قال لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله - ﷺ - ذلك التراب دخل رسول الله - ﷺ - بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب ، وهى تبكى ، ورسول الله - ﷺ - يقول لها : « لا تبكى يابنية ، فإن الله مانع أباك » ..

قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب »[1] .

وسنرى عند استعراضنا للسورة الكريمة ، أنها صورت هذه الفترة أكمل تصوير .

٥ - مناسبتها لسورة يونس - عليه السلام - :

قال الآلوسى - رحمه الله -: ووجه اتصالها بسورة يونس ، أنه ذكر فى سورة يونس قصة نوح - عليه السلام - مختصرة جدًا ومجملة ، فشرحت فى هذه السورة وبسطت فيها ما لم تبسط فى غيرها من السور .. ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فإن قوله - تعالى - هنا ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ... ﴾ نظير قوله - سبحانه - هناك ﴿ الر . تلك آيات الكتاب الحكيم ... ﴾ بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط - أيضًا - ، حيث ختمت بنفى الشرك ، واتباع الوحى ، وافتتحت هذه ببيان الوحى والتحذير من الشرك[2] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٧٨ الطبعة المنيرية .

٦ - عرض إجمالى للسورة الكريمة :

عندما نطالع سورة هود بتدبر وتأمل ، نراها فى الربع الأول[1] منها - قد افتتحت بالتنويه بشأن القرآن الكريم . وبدعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وإلى التوجه إليه بالاستغفار والتوبة الصادقة ، حتى ينالوا السعادة فى دنياهم وآخرتهم .

قال - تعالى - : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴾ .

ثم وضحت السورة جانبًا من مسالك الكافرين ، تلك المسالك التى تدل على جهالاتهم بعلم الله التام ، وبقدرته النافذة ، وفصلت مظاهر هذه القدرة ، وشمول هذا العلم ..

قال - تعالى - : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

ثم بينت أحوال الإنسان فى حالة منحه النعمة ، وفى حالة سلبها عنه ، وساقت للرسول - ﷺ - من الآيات ما يسليه عما أصابه من كفار مكة ، وتحدتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن الكريم ، وأنذرتهم بسوء عاقبة المعرضين عن دعوة الله ، الصادين عن سبيله ، الكافرين بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، وبشرت المؤمنين بحسن العاقبة ، وضربت المثل المناسب لكل من فريقى الكافرين والمؤمنين .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور كل ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ... ﴾ .

إلى أن تقول بعد حديث مفصل عن الكافرين وسوء عاقبتهم : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً ، أفلا تذكرون ﴾ .

فإذا ما وصلنا إلى الربع[2] الثانى من سورة هود ، وجدناها تسوق لنا بأسلوب مفصل ،

---

(١) الآيات من ١ - ٢٤ .

(٢) الآيات من ٢٥ - ٤٠ .

قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فتحكى أمره لهم بعبادة الله وحده ، كما تحكى الرد القبيح الذى رد به عليه زعماؤهم ، وكيف أنه - عليه السلام - لم يقابل سفاهتهم بمثلها ، بل خاطبهم بلفظ « ياقوم » الدال على أنه واحد منهم ، يسره ما يسرهم ، ويؤلمه ما يؤلمهم ، ومع هذا فقد لجوا فى طغيانهم وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ... ﴾ .

فكان رده عليهم ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ... ﴾ .

وقد أتاهم الله - تعالى - بالعذاب الذى استعجلوه فأغرقهم بالطوفان الذى غشيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، والذى قطع دابرهم .

ثم نراها بعد ذلك فى الربع[1] الثالث ، تقص علينا مشهدًا مؤثرًا ، مشهد نوح - عليه السلام - وهو ينادى ابنه الذى استحب الكفر على الإيمان فيقول له بشفقة وحرص : ﴿ يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ .

ولكن الابن العاق لا يستمع إلى نصيحة أبيه العطوف بل يقول له : ﴿ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ﴾ .

ويجيبه الأب بحزن وحسم ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

ويتضرع الأب الحزين إلى ربه فيقول : ﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ .

ويأتيه الجواب من الله - تعالى - : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ .

ويلجأ نوح - عليه السلام - إلى خالقه ، مستعيذًا به من غضبه فيقول : ﴿ رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ .

فيقبل الله - تعالى - ضراعته فيقول : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ .

ثم يختم الله - تعالى - قصة نوح ، بتسلية النبى - ﷺ - ، وبما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ .

---

(١) الآيات من ٤١ - ٦٠ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، فتحكى دعوته لهم إلى عبادة الله - تعالى - ، ومصارحته إياهم بأنه لا يريد منهم أجرًا على دعوته ؛ وإرشادهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ؛ وقوة على قوتهم ، ولكنهم قابلوا تلك النصائح الغالية بالتكذيب والسفاهة ، فقالوا له - كما حكت السورة عنهم - ﴿ ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .... ﴾ .

فيرد عليهم هود بقوله : ﴿ إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ... ﴾ .

ثم كانت النتيجة بعد هذه المحاورات والمجادلات أن نجى الله هودا ، والذين آمنوا معه ، أما الكافرون بدعوته ، فقد نزل بهم العذاب الغليظ ، الذى تركهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ...

وفى الربع[1] الرابع منها تسوق لنا السورة الكريمة ، ما دار بين صالح وقومه ، حيث أمرهم بعبادة الله ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وحذرهم من الاعتداء على الناقة التى هى لهم آية .. ولكنهم استخفوا بتذكيره وبتحذيره فكانت النتيجة إهلاكهم ...

قال - تعالى - ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ، ما فعله إبراهيم - عليه السلام - عندما جاءه رسل الله بالبشرى ، وكيف أنهم قالوا له عندما أنكرهم وأوجس منهم خيفة : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ... ﴾ .

ثم وضحت حال لوط - عليه السلام - عندما جاءه هؤلاء الرسل ؛ وحكت ما دار بينه وبين قومه الذين جاءوه يهرعون إليه عندما رأوا الرسل ، فقال لهم : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد .... ﴾ .

فيقولون له فى صفاقة وانحراف عن الفطرة السليمة : ﴿ لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

وأسقط فى يد لوط - عليه السلام - ، وأحس بضعفه أمام هؤلاء المنحرفين المندفعين إلى

---

(١) الآيات من ٦٢ - ٨٣ .

ارتكاب الفاحشة ، اندفاع المجنون إلى حتفه ، فقال بأسى وحزن : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

وهنا كشف له الرسل عن طبيعتهم ، وأخبروه بمهمتهم ؛ وطلبوا منه أن يغادر هو ومن آمن معه مكان إقامتهم ، فإن العذاب نازل بهؤلاء المجرمين بعد وقت قصير .

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ .

ثم تتابع السورة الكريمة فى الربع الخامس[1] ، حديثها عن جانب من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فتحدثنا عن قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أنه قال لهم مقالة كل رسول لقومه ﴿ ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

ثم نهاهم بأسلوب رصين حكيم ، عن ارتكاب الفواحش التى كانت منتشرة فيهم ، وهى إنقاص الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ...

ولكنهم - كعادة السفهاء الطغاة - قابلوا نصائحه بالتهكم والاستخفاف والوعيد ... فكانت النتيجة أن حل بهم عذاب الله الذى أهلكهم ، كما أهلك أمثالهم .

قال - تعالى - ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباوالذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك بإيجاز ، جانبًا من قصة موسى مع فرعون وملئه ، الذين اتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد .

ثم تعقب على كل تلك القصص السابقة ، بتعقيب يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ... قال - تعالى - : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب ... ﴾ .

أما فى الربع السادس[2] والأخير منها ، فنراها تبين بأسلوب قوى منذر ، أن الناس سيأتون

---

(١) الآيات من ٨٤ - ١٠٧ .

(٢) الآيات ص ١٠٨ إلى آخر السورة .

يوم القيامة ، منهم الشقى ومنهم السعيد ، وأنه - سبحانه - سيوفى كل فريق منهم جزاءه غير منقوص .

ثم ترشد إلى ما يوصل إلى السعادة ، فتدعو إلى الاستقامة على أمر الله ، وإلى عدم الركون إلى الظالمين ، وإلى إقامة الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، وإلى الصبر الجميل .

قال - تعالى - : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن من أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، تثبيت فؤاد النبى - ﷺ - وتقوية قلبه ، وتسليته عما أصابه ، وتبشيره بأن العاقبة له ولأتباعه .

قال - تعالى - : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

٧ - أهم الموضوعات التى عنيت السورة الكريمة بالحديث عنها :

من استعراضنا لسورة هود ، ومن معرفة الفترة التى نزلت فيها ، نستطيع أن نقول : إن السورة الكريمة قد عنيت بالحديث عن موضوعات متنوعة من أهمها ما يأتى :

(ا) ترغيب الناس فى طاعة الله ، وتحذيرهم من معصيته ، وهذا المعنى نراه فى كثير من آيات سورة هود ، ومن ذلك :

قوله - تعالى - : ﴿ ألا تعبدو إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ... ﴾ .

وقوله - تعالى - حكاية عن هود - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ... ﴾ .

وقوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ... ﴾ .

(ب) تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، ومن مظاهر هذه التسلية ، أن

السورة الكريمة قد اشتملت فى معظم آياتها على قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فقد ذكرت نواحى متنوعة من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة هود مع قومه ، ومن قصة صالح مع قومه ، ومن قصة شعيب مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه ...

وقد تحدثت خلال كل قصة عن المسالك الخبيثة ، والمجادلات الباطلة ، التى اتبعها الطغاة مع أنبيائهم الذين جاءوا لسعادتهم وهدايتهم .

كما ختمت كل قصة من هذه القصص ، ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ..

وفى ذلك ما فيه من التسلية للرسول الكريم - ﷺ - عما لحقه من أذى ، وما أصابه من اضطهاد ، وما تعرض له من اعتداء عليه وعلى أصحابه .

وكأن ما ورد فى هذه السورة من قصص طويل متنوع ، يقول للرسول - ﷺ - : إن ما أصابك من قومك يا محمد ، قد أصاب الأنبياء السابقين من أقوامهم ، فاصبر كما صبروا ، فإنه ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ .

(جـ) إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من كلام البشر ..

فقد تحداهم هنا أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، ثم تحداهم فى موطن آخر أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا ، وساق لهم - على لسان الرسول - ﷺ - الكثير من أخبار الأولين ، ومن قصص الأنبياء مع أقوامهم مع أن الرسول - ﷺ - لم يكن معاصرا لهؤلاء السابقين ، ولم يكن قارئا لأخبارهم فدل ذلك على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه .

قال - تعالى - : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

وقال - تعالى - : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ .

(د) بيان سنة من سنن الله التى لا تتخلف ، وهى أنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئا ؛ ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ؛ بإعراضهم عن الحق ، واتباعهم للهوى ، واستحقاقهم للعقوبة التى هى جزاء عادل لكل ظالم .

وهذا البيان نراه فى مواضع متعددة من السورة ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى ختام الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم .

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء ، لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد .... ﴾ .

وبعد : فهذه تعريفات عن سورة هود ، رأينا أن نذكرها قبل البدء فى تفسيرها ، وأرجو أن يكون فى ذكرها ما يعطى القارئ صورة واضحة عن هذه السورة الكريمة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة فى ٢١ من صفر سنة ١٤٠١ هـ

٢٨ / ١٢ / ١٩٨٠ م

محمد سيد طنطاوى

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (١) ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير (٢) وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير (٣) إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير (٤) ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور (٥)

سورة هود - عليه السلام - من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن تكلمنا بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، عن آراء العلماء فى المراد بهذه الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور .

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ماتؤلفون به كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند

الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة .

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ، ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .

وقوله : ﴿ أحكمت آياته ﴾ من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شيء واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر . أى : أتقنه ومنعه من الفساد . أى : منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق : ويقال أحكم الفرس ، إذا جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب .

وقوله : ﴿ ثم فصلت ﴾ من التفصيل ، بمعنى التوضيح والشرح للحقائق والمسائل المراد بيانها ، بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس .

والمعنى : هذا الكتاب الذى أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، فقد أحكم الله آياته إحكاما بديعا ، وأتقنها إتقانا معجزا ، بحيث لا يتطرق إليها خلل فساد . ثم فصل - سبحانه - هذه الآيات تفصيلا حكيما ، بأن أنزلها نجوما ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة على ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحكام .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ﴿ أحكمت آياته ﴾ أى : نظمت نظما رصينا محكما ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف .. وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، قال جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إنى أخاف عليكم أن أغضبا

﴿ ثم فصلت ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، أو جعلت فصولا سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة » [1] .

و ﴿ ثم ﴾ فى قوله - سبحانه - « ثم فصلت » للتراخى فى الرتبة كما هو شأنها فى عطف الجمل ، لما فى التفصيل من الاهتمام لدى النفوس ، لأن العقول ترتاح إلى التفصيل بعد الإجمال ، والتوضيح بعد الإيجاز .

وجملة ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ صفة أخرى للكتاب ، وصف بها ، لإظهار شرفه من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٨ .

حيث مصدره ، بعد أن وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات أى : هذا الكتاب الذى أتقنت آياته إتقانا بديعا ، وفصلت تفصيلا رصينا ، ليس هو من عند أحد من الخلق ، وإنما هو من عند الخالق الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها .

قال الشوكانى : وفى قوله ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها خبير ، عالم بمواقع الأمور [١] .

وقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ جملة تعليلية ، أى : أنه - سبحانه - فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير ، لكى تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتتركوا عبادة غيره ؛ لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز ، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة .

وقوله : ﴿ إننى لكم منه نذير وبشير ﴾ بيان لوظيفة الرسول - ﷺ - .

والضمير المجرور فى « منه » يعود على الله - تعالى - .

أى : عليكم - أيها الناس - أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فإنه - سبحانه - قد أرسلنى إليكم لكى أنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العاقبة ، وأبشر الذين استجابوا لدعوته بحسن المثوبة .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ؛ لأن الخطاب موجه إلى الكافرين ، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

قال بعضهم : « والجمع بين النذارة والبشارة ، لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله . بطريق النهى ، وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثانى » [٢] .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعته من خيرات فقال : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ،ويؤت كل ذى فضل فضله .. ﴾ .

والاستغفار طلب المغفرة والرحمة من الله - تعالى - .

والتوبة : الإقلاع عن كل ما نهى الله ، مع التصميم على عدم العودة إلى ذلك فى المستقبل .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٨٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ١١ ص ٣١٥ .

ويمتعكم : من الإمتاع ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه : أمتعنا الله بك أى : أطال لنا بقاءك .

والآية الكريمة معطوفة على قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله .. ﴾ .

والمعنى : وعليكم - أيها الناس - بعد أن نبذتم كل عبادة لغير الله ، أن تديموا طلب مغفرته ورحمته ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحا ، فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿ يمتعكم ﴾ الله - تعالى - ﴿ متاعا حسنا ﴾ بأن يبدل خوفكم أمنا ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة .

قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أى : إلى نهاية حياتكم التى قدرها الله لكم فى هذه الدنيا .

وقوله : ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ أى : ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .

فالمراد بالفضل الأول : العمل الصالح . والمراد بالفضل الثانى الثواب الجزيل من الله - تعالى - .

فالجملة الكريمة ، وعد كريم عن الله - تعالى - لكل من آمن وعمل صالحا .

وجملة ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ معطوفة على استغفروا . و ﴿ ثم ﴾ هنا على بابها من التراخى ، لأن الإنسان يستغفر أولا ربه من الذنوب ، ثم يتوب إليه التوبة الصادقة النصوح التى لا رجعة معها إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى .

ووصف المتاع بالحسن ، ليدل على أنه عطاء ليس مشوبا بالمكدرات والمنغصات التى تقلق الإنسان فى دنياه ، وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التى أسبغها عليه ، مع المداومة على شكره - سبحانه - على هذه النعم .

قال - تعالى - ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

ثم حذر - سبحانه - من الإعراض عن طاعته فقال : ﴿ وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ .

أى : ذكرهم أيها الرسول الكريم بأن فى إخلاصهم العبادة لله ، وفى طاعتهم له ، سعادتهم الدنيوية والأخروية ، وفى إعراضهم عن ذلك شقاؤهم وحلول العذاب بهم .

أى : إن تتولوا - أيها الناس - عن الحق الذى جئتكم به ، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذى هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا .

فتنكير ﴿ يوم ﴾ للتهويل والتعميم ، حتى يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، حيث

إنهم كانوا ينكرون البعث والحساب ، فتخويفهم بالعذابين أزجر لنفوسهم القاسية ، وقلوبهم العاتية .

وفى وصفه بالكبر ، زيادة - أيضا - فى تهويله وشدته ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويقلعوا عن غيهم وعنادهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴾ تحذير آخر لهم ، إثر التحذير من الإعراض عما جاءهم به نبيهم - ﷺ - .

والمرجع : مصدر ميمى بمعنى الرجوع الذى لا انفكاك لهم منه ، ولا محيد لهم عنه .

أى : إلى الله - تعالى - وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم ، ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء ، وهو - سبحانه - على كل شىء قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل .

وما دام الأمر كذلك ، فأخلصوا لله العبادة ، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من جهالات المنحرفين عن الحق ، ومن أوهامهم الباطلة ، فقال - تعالى - :

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

وقوله : ﴿ يثنون ﴾ من الثنى بمعنى الطى والستر . يقال : ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة .

وثنى الصدور : إمالتها وطأطأتها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة . والاستخفاء : محاولة الاختفاء عن الأعين ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم .. ﴾[1] .

وقوله : ﴿ يستغشون ثيابهم .. ﴾ أى : يتدثرون ويتغطون بها ، مبالغة فى الاستخفاء عن الأعين . فالسين والتاء فيه للتأكيد ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ واستغشوا ثيابهم ... ﴾ أى : جعلوها كالغشاء عليهم .

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنه كان الرجل من الكفار

(١) سورة النساء الآية ١٠٨ .

يدخل بيته ، ويرخى ستره ، ويحنى ظهره ، ويتغشى بثوبه ثم يقول : هل يعلم الله ما فى قلبى فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت فى المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبى - ﷺ - ثنى صدره . وتغشى بثوبه لئلا يراه .

وقيل : نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - ﷺ - المحبة ، ويضمر فى قلبه ما يضادها .. »[1] .

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة تصور تصويرا بديعا جهالات بعض الضالين بعلم الله - تعالى - المحيط بكل شىء ، كما تصور تصويرا دقيقا أوضاعهم الحسية حين يأوون إلى فراشهم ، وحين يلتقون بالنبى - ﷺ - .

والضمير المجرور فى قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - وعليه يكون المعنى ألا إن هؤلاء المشركين يلوون صدورهم عن الحق الذى جاءهم به نبيهم - ﷺ - توهما متهم أن فعلهم هذا يخفى على الله - تعالى - .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى النبى - ﷺ - وعليه يكون المعنى :

ألا إن هؤلاء المشركين يعرضون عن لقاء النبى - ﷺ - ويطأطئون رءوسهم عند رؤيته ، ليستخفوا منه ، حتى لا يؤثر فيهم بسحر بيانه .

ومع أن كلا القولين له وجاهته وله من سبب النزول ما يؤيده ، إلا أننا نميل إلى كون الضمير يعود على الله - تعالى - لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يؤيد عودة الضمير إليه - سبحانه - إذ علم السر والعلن مرده إليه وحده .

وافتتحت الآية الكريمة بحرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ وجىء به مرة أخرى فى قوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم .. ﴾ للاهتمام بمضمون الكلام ، وللفت أنظار السامعين إلى ما بلغه هؤلاء الضالون من جهل وانطماس بصيرة .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شىء من أحوالهم فقال : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

أى : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون بثيابهم ، يعلم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٨٥ .

الله - تعالى - ما يسرونه فى قلوبهم من أفكار ، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال ، لأنه - سبحانه - محيط بما تضمره النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار .

وجملة ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليلية لتأكيد ما قبلها من علمه - سبحانه - بالسر والعلن . والمراد بذات الصدور : الأسرار المستكنة فيها .

هذا ، وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى فى سبب نزول هذه الآية فقال : قال ابن عباس :

كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية رواه البخارى من حديث ابن جريج .

وفى لفظ آخر له قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم .. » [1] .

وظاهر من هذا الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم ، ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب نزولها ، لأن الآية مسوقه للتوبيخ والذم ، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون وأشباههم الذين أعرضوا عن الحق ، وجهلوا صفات الله - تعالى - .

قال الجمل بعد أن ذكر قول ابن عباس : وتنزيل الآية على هذا القول بعيد جدا ، لأن الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة فى حال كشف العورة إلى جهة السماء ، أمر مستحسن شرعا ، فكيف يلام عليه فاعله ويذم بمقتضى سياق الآية » [2] .

وإذاً فالذى يستدعيه السياق ويقتضيه ربط الآيات ، كون الآية فى ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسابغ فضله ، وشمول علمه فقال - تعالى - :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٨٠ .

عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : الدابة اسم لكل حيوان ذى روح ، ذكرا كان أو أنثى . عاقلا أو غيره ، مأخوذ من الدبيب وهو فى الأصل المشى الخفيف .. واختصت فى العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بها هنا المعنى اللغوى باتفاق المفسرين ... »[1] .

قال - تعالى - ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير ﴾[2] .

والمراد برزقها : طعامها وغذاؤها الذى به قوام حياتها .

والمعنى : وما من حيوان يدب على الأرض ، إلا على الله - تعالى - غذاؤه ومعاشه ، فضلا منه - سبحانه - وكرما على مخلوقاته .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ﴿ على الله ﴾ على متعلقه وهو ﴿ رزقها ﴾ لإفادة القصر . أى على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها .

وكون رزقها ومعاشها على الله - تعالى - لا ينافى الأخذ بالأسباب ، والسعى فى سبيل الحصول على وسائل العيش ، لأنه - سبحانه - وإن كان قد تكفل بأرزاق خلقه ، إلا أنه أمرهم بالاجتهاد فى استعمال كافة الوسائل المشروعة من أجل الحصول على ما يغنيهم ويسد حاجتهم .

قال - تعالى - : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ،وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[3] .

وجملة ﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء فى هذا الكون .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢ .
(٢) سورة النور الآية ٤٥ .
(٣) سورة الملك الآية ١٥ .

والمستقر والمستودع : اسما مكان لمحل الاستقرار والإيداع للدابة فى هذا الكون ، سواء أكان ذلك فى الأصلاب أم فى الأرحام أم فى القبور أم فى غيرها .

قال الشوكانى : أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس فى قوله ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ قال : حيث تأوى . ومستودعها قال : حيث تموت .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها فى الأرحام ومستودعها حيث تموت .

قال : ويؤيد هذا التفسير الذى ذهب اليه ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى - ﷺ - قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض ، أتيحت له اليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتنى »[1] .

وقوله : ﴿ كل فى كتاب مبين ﴾ تذييل قصد به بيان دقة علمه - سبحانه - بعد بيان شمول هذا العلم وإحاطتة بكل شىء .

والتنوين فى ﴿ كل ﴾ هو تنوين العوض ، أى : كل ما يتعلق برزق هذه الدواب ومستقرها ومستودعها مسجل فى كتاب مبين ، أى : فى كتاب واضح جلى ظاهر فى علم الله - سبحانه - ، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بعظيم قدرته فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ... ﴾ .

والأيام جمع يوم ، والمراد به هنا مطلق الوقت الذى لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

أى : وهو - سبحانه - الذى أنشأ السموات والأرض وما بينهما ، على غير مثال سابق ، فى ستة أيام من أيامه - تعالى - ، التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو .

وقيل : أنشأهن فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - : كان الله قادرا على خلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة ، فخلقهن فى ستة أيام ، تعليما لعباده التثبت والتأنى فى الأمور .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٨٤ .

وقد جاءت آيات تدل على أنه - سبحانه - خلق الأرض فى يومين ، وخلق السموات فى يومين وخلق ما بينهما فى يومين ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ... ﴾[1] .

وجملة ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ اعتراضية بين قوله ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وبين ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ويجوز أن تكون حالية من فاعل خلق وهو الله - تعالى - وعرش الله - تعالى - من الألفاظ التى لا يعلمها البشر إلا بالاسم . وقد جاء ذكر العرش فى القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة .

ونحن مكلفون بأن نؤمن بأن له - سبحانه - عرشا ، أما كيفيته فنفوض علمها إليه - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه قبل خلقهما ليس تحته شىء سوى الماء .

قالوا : وفى ذلك دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل وجود السموات والأرض .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ بين - سبحانه - أن خلق العرش والماء ، كان قبل خلق الأرض والسماء ...

ثم قال : وروى البخارى عن عمران بين حصين قال كنت عند النبى - ﷺ - إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا : بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقالوا : جئنا لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

قال : « إن الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء. ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شىء »[2] .

وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : قال رسول الله - ﷺ - إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق

---

(١) سورة فصلت الآيات من ٩ - ١٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٨ .

السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء .

وروى الإمام أحمد عن لقيط بن عامر العقيلى قال : قلت يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك[١] .

والعماء : السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب مدبرا له ، وعاليا عليه . والسحاب ليس تحته سوى الهواء ، وليس فوقه سوى الهواء . والمراد أنه ليس مع الله - تعالى - شيء آخر .

وقوله - سبحانه - ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ جملة تعليلية . ويبلوكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان .

أى : خلق ما خلق من السموات والأرض وما فيهما من كائنات ، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ، ليعاملكم معاملة من يختبر غيره ، ليتميز المحسن من المسيء ، والمطيع من العاصى ، فيجازى المحسنين والطائعين بما يستحقون من ثواب ، ويعاقب المسيئين والعاصين بما هم أهله من عقاب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ وأعمال المؤمنين هى التى تتفاوت الى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو مقصود الله - تعالى - من عباده ، فخصهم بالذكر ، واطرح ذكر من وراءهم ، تشريفا لهم ، وتنبيها على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفا للسامعين ، وترغيبا فى حيازة فضلهم[٢] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف الكافرين من البعث والحساب فقال : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾.

أى ، ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين أرسلك الله لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، لئن قلت لهم ﴿ إنكم مبعوثون ﴾ يوم القيامة ﴿ من بعد الموت ﴾ الذى سيدركم فى هذه الدنيا عند نهاية آجالكم ﴿ ليقولن ﴾ لك هؤلاء الكافرون على سبيل الآنكار والتهكم ما هذا الذى تقوله يا محمد ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أى : إلا سحر واضح جلى ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

وقرأ حمزة والكسائى وخلف ﴿ إلا ساحر مبين ﴾ فتكون الإشارة بقوله ﴿ هذا ﴾ إلى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٤٠ طبعة الشعب .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٠ .

الرسول - ﷺ - أى : أنه فى زعمهم يقول كلاما ليسحرهم به ، وليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا من ألوان غرور المشركين ، كما بين أحوال بعض الناس فى حالتى السراء والضراء فقال - تعالى - :

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

قال القرطبى ما ملخصه : الأمة : اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالأمة تكون الجماعة ، كقوله - تعالى - : ﴿ وجد عليه أمة من الناس ... ﴾ والأمة : أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام ، والأمة: الرجل الجامع للخير الذى يقتدى به ، كقوله - تعالى - ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ والأمة : الدين والملة ، كقوله - تعالى - : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ والأمة : الحين والزمان كقوله - تعالى - : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ والأمة : القامة وهو طول الانسان وارتفاعه ، يقال من ذلك : فلان حسن الأمة ، أى القامة ، والأمة : الرجل المنفرد بدينه وحده ، لا يشركه فيه أحد . قال - ﷺ - يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده » والأمة : الأم . يقال : « هذه أمة زيد ، أى أم زيد... »[1] والمراد بالأمة هنا : الحين والزمان والمدة .

والمعنى : ولئن أخرنا - بفضلنا وكرمنا- عن هؤلاء المشركين « العذاب » المقتضى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٠ .

لجحودهم لآياتنا ، وتكذيبهم لرسلنا « إلى أمة معدودة » أى : إلى وقت معين من الزمان على حساب إرادتنا وحكمتنا : « ليقولن » على سبيل التهكم والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، « ما يحبسه » أى : ما الذى جعل هذا العذاب الذى حذرنا منه محمد - ﷺ - محبوسا عنا ، وغير نازل بنا...

ولاشك أن قولهم هذا ، يدل على بلوغهم أقصى درجات الجهالة والطغيان ، حيث قابلوا رحمة الله - تعالى - المتمثلة هنا فى تأخير العذاب عنهم ، بالاستهزاء والاستعجال ، ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : ألا إن ذلك العذاب الذى استعجلوه واستخفوا به ، يوم ينزل بهم ، لن يصرفه عنهم صارف ، ولن يدفعه عنهم دافع ، بل سيحيط بهم من كل جانب ، بسبب استهزائهم به وإعراضهم عمن حذرهم منه .

واللام فى قوله ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب ﴾ موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله « ليقولن ما يحبسه » .

والأقرب إلى سياق الآية أن يكون المراد بالعذاب هنا : عذاب الاستئصال الدنيوى ، إذ هو الذى استعجلوا نزوله ، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكرين له أصلا ، كما حكى عنهم - سبحانه - فى الآية السابقة فى قوله : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

قال الآلوسى : والظاهر بأن المراد العذاب الشامل للكفرة ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر وابن ابى حاتم عن قتادة قال : لما نزل ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلا ، ثم عادوا إلى أعمالهم السوء : فأنزل الله - تعالى - ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله - تعالى - قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية »[1] .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ إيماء إلى أن تأخير العذاب عنهم ليس لمدة طويلة ، لأن ما يحصره العد : جرت العادة فى أساليب العرب أن يكون قليلا ، ويؤيد ذلك أنه بعد فترة قليلة من الزمان نزل بهم فى غزوة بدر القتل الذى أهلك صناديدهم ، والأسر الذى أذل كبرياءهم .

وافتتحت جملة ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ﴾ بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ للاهتمام

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤ .

بمضمون الخبر ، وللإشارة الى تحقيقه ، وإدخال الروع فى قلوبهم .

وعبر بالماضى ﴿ حاق ﴾ مع أنه لم ينزل بهم بعد ، للإشارة ، إلى أنه آت لا ريب فيه ، عندما يأذن الله – تعالى – بذلك .

ثم بين – سبحانه – جانبا من طبيعة بنى آدم إلا من عصم الله فقال – تعالى – ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منًّا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور... ﴾ .

والمراد بالإنسان هنا الجنس على أرجح الأقوال ، فيشمل المسلم وغيره ، بدليل الاستثناء الآتى بعد ذلك فى قوله ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : المراد بالإنسان هنا مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه –تعالى– استثنى منه قوله ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فثبت أن الانسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر .

الثانى : أن هذه الأية موافقة على هذا التقرير لقوله – سبحانه – : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملو الصالحات ...﴾.

الثالث : أن مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز . قال ابن جريج فى تفسير هذه الآية : « يابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزعت منك فيؤوس قنوط »[1] .

وقيل المراد بالانسان هنا جنس الكفار فقط ، لأن هذه الأوصاف تناسبهم وحدهم .

والمراد بالرحمة هنا : رحمة الدنيا ، وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والغنى والأمان وما يشبه ذلك من ألوان النعم .

واليؤوس والكفور : صيغتا مبالغة للشخص الكثير اليأس ، والكفر ، والقنوط : الشديد الجحود لنعم الله – تعالى – يقال : يئس من الشيء ييأس ، إذا قنط منه .

والمعنى : ولئن منحنا الإنسان – بفضلنا وكرمنا – بعض نعمنا ، كالصحة والغنى والسلطان والأمان ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أى : ثم سلبناها منه ، لأن حكمتنا تقتضى ذلك .

﴿ إنه ﴾ فى هذه الحالة ﴿ ليؤوس كفور ﴾ أى : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع اليه ما سلب منه أو مثله ، ولكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومنن .

قال الشوكانى : وفى التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٩٠ طبعة عبد الرحمن محمد .

ينعم الله بها عليه : لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم »[١] .

وفى قوله « ثم نزعناها منه » إشارة إلى شدة تعلقه بهذه النعم ، وحرصه على بقائها معه.

وجملة ﴿ إنه ليؤوس كفور ﴾ جواب القسم ، وأكدت بإن وباللام ، لقصد تحقيق مضمونها ، وأنه حقيقة ثابتة .

وهى تصوير بليغ صادق لما يعترى نفس هذا الانسان عندما تسلب منه النعمة بعد أن ذاقها ، فهو - لقلة إيمانه وضعف ثقته بربه - قد فقد كل أمل فى عودة هذه النعمة إليه ، ولكأن هذه النعمة التى سلبت منه لم يرها قبل ذلك .

ثم بين - سبحانه - حالة هذا الانسان اليؤوس الكفور ، عندما تأتيه السراء بعد الضراء فقال : ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور ﴾ .

والنعماء : النعمة التى يظهر أثرها على صاحبها ، واختير لفظ النعماء لمقابلته للضراء .

والضراء : ما يصيب الإنسان من مصائب يظهر أثرها السىء عليه .

والمراد بالسيئات : الأضرار التى لحقته كالفقر والمرض .

والمعنى : ولئن أذقنا هذا الانسان اليؤوس الكفور ﴿ نعماء ﴾ بعد ضراء مسته كصحة بعد مرض ، وغنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، ونجاح بعد فشل..

﴿ليقولن ذهب السيئات عنى ﴾ أى : ليقولن فى هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر ، وغرور وتكبر ، لقد ولت المصائب عنى الأدبار ، ولن تعود إلى .

وعبر - سبحانه - فى جانب الضراء بالمس ، للإشارة إلى أن الإصابة بها أخف مما تذوقه من نعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده فى كل الاحوال .

وجملة ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ جواب القسم .

أى : إنه لشديد الفرح والبطر بالنعمة : كثير التباهى والتفاخر بما أعطى منها ، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه - سبحانه - .

وإنها - أيضا - لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة ، فلا يتذكر فيما مضى ، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت ، ولا يعتبر بتقلبات الأيام ، فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة ، وهو بطر فخور إذا عادت إليه ، وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مرذولة .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٨٥ .

وقوله : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات.. ﴾ استثناء من هؤلاء الناس الذين لا يصبرون عند الشدة ، ولا يشكرون عند الرخاء .

أى : إلا الذين صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، وعملوا فى الحالتين الأعمال الصالحات التى ترضى الله - تعالى - .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بذلك ﴿ لهم ﴾ من الله - تعالى - ﴿ مغفرة ﴾ عظيمة تمسح ذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ منه - سبحانه - لهم . جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم الصالح .

وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ثم بين - سبحانه - بعض أقوال المشركين ، التى كان النبى - ﷺ - يضيق بها صدره ، ويحزن منها نفسه ، فقال - تعالى - :

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا . وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية »[1] .

ولفظ ﴿ لعل ﴾ - كما يقول الآلوسى - للترجى ، وهو يقتضى التوقع ، ولا يلزم من توقع الشىء وقوعه ولا ترجح وقوعه ، لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل بأن توقع ترك التبليغ منه - ﷺ - مما لا يليق بمقام النبوة ، لأن المانع منه هنا ثبوت عصمته - ﷺ - عن كتم شىء أمر بتبليغه ... والمقصود بهذا الاسلوب هنا تحريضه - ﷺ - وتهييج داعيته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك فى كل توقع نظير هذ التوقع » .

و ﴿ تارك ﴾ اسم فاعل من الفعل ترك . و ﴿ ضائق ﴾ اسم فاعل من الفعل ضاق ، وهو معطوف على ﴿ تارك ﴾ .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٩٢ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ .

والمراد ببعض ما يوحى إليه - ﷺ - فى قوله -سبحانه - ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ : ما نزل عليه : من قرآن فيه استهزاء بآلهتهم ، وتسفيه لعقولهم التى استساغت أن تشرك مع الله - تعالى - فى عبادتها آلهة أخرى » .

والضمير المجرور فى قوله - سبحانه - ﴿ وضائق به صدرك ﴾ يعود الى البعض الموحى به ، وقيل يعود للتبليغ ، وقيل للتكذيب .

وجملة ﴿ أن يقولوا ﴾ فى محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : كراهة أو خشية أن يقولوا .

والكنز : يطلق على المال الكثير المجموع بعضه إلى بعض سواء أكان فى بطن الأرض أم فى ظهرها ، ومرادهم بإنزاله هنا : أن ينزل على الرسول - ﷺ - من السماء مال كثير يغنيه هو وأصحابه ، ويجعلهم فى رغد من العيش ، بدل ما يبدو على بعضهم من فقر وفاقة ..

والمعنى : ليس خافيا علينا - أيها الرسول الكريم - ما يفعله المشركون معك ، من تكذيب لدعوتك ، ومن جحود لرسالتك ، ومن مطالب متعنتة يطلبونها منك ...

ليس خافيا علينا شيئا من ذلك ، ولعلك إزاء مسالكهم القبيحة هذه، تارك تبليغ بعض ما يوحى اليك ، وهو ما يثير غضبهم ، وضائق صدرك بهذا التبليغ ، كراهة تكذيبهم لوحى الله ، واستهزائهم بدعوتك ، وقولهم لك على سبيل التعنت : هلا أنزل إليك من السماء مال كثير تستغنى به وتغنى أتباعك ، وهلا كان معك ملك يصاحبك فى دعوتك ، ويشهد أمامنا بصدقك . ويؤيدك فى تحصيل مقصودك ..

لا - أيها الرسول الكريم - لا تترك شيئا من تبليغ ما أمرك الله بتبليغه لهؤلاء المشركين ، ولا يضيق صدرك بأفعالهم الذميمة ، وبأقوالهم الباطلة ، بل واصل دعوتك لهم إلى طريق الحق ، فما عليك إلا الإنذار ، أما نحن فإلينا إيابهم ، وعلينا حسابهم .

وعبر - سبحانه - عن تأثر الرسول - ﷺ - من مواقفهم المتعنتة باسم الفاعل ﴿ ضائق ﴾ لا بالصفة المشبهة « ضيق » لمراعاة المقابل وهو قوله ﴿ تارك ﴾ ، وللإشارة إلى أن هذا الضيق مما يعرض له - ﷺ - أحيانا ، وليس صفة ملازمة له ،لأن اسم الفاعل يقتضى الحدوث والانقطاع ، بخلاف الصفة المشبهة فتقتضى الثبات والدوام .

وأبرز - سبحانه - هنا صفة الإنذار للرسول - ﷺ - مع أن وظيفته الإنذار والتبشير ، لأن المقام هنا يستوجب ذلك ، إذ أن هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كل حد فى الإساءة إليه - ﷺ - .

وقوله - سبحانه - ﴿والله على كل شىء وكيل﴾ تذييل قصد به زيادة تثبيته وتحريضه

على المضى فى تبليغ دعوته .

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - غير مبال بما يصدر عنهم من مضايقات لك ، والله - تعالى - حافظ لأحوالك وأحوالهم ، وسيجازيهم بالجزاء الذى يتناسب مع جرائمهم وكفرهم .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تعبر أكمل تعبير عن الفترة الحرجة التى نزلت فيها هذه السورة الكريمة ، فقد سبق أن قلنا عند التعريف بها ، إنها نزلت فى الفترة التى أعقبت وفاة النصيرين الكبيرين للرسول - ﷺ - وهما أبو طالب وخديجة - رضى الله عنها - وكانت هذه الفترة من أشق الفترات على الرسول - ﷺ - حيث تكاثر فيها إيذاء المشركين له ولأصحابه ..

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة تحث النبى - ﷺ - على الثبات والصبر ، وعلى تبليغ ما يوحى اليه ، مع عدم المبالاة بما يضعه المشركون فى طرقه من عقبات ..

هذا ، وقد سبق أن بينا عند التعريف بهذه السورة - أيضا - أن من العلماء من يرى أن هذه الآية مدنية ، ولعلك معى -أيها القارىء الكريم - فى أنه لا يوجد أى دليل نقلى أو عقلى يؤيد ذلك ، بل الذى تؤيده الأدلة ويؤيده سبب النزول أن الآية مكية كبقية السورة .

وهناك آيات أخرى مكية تشبه هذه الآية فى أسلوبها وموضوعها ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ... ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك زعما آخر من مزاعمهم الكثيرة ، وهو دعواهم أن القرآن مفترى ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من أمثال هذا القرآن المفترى فى زعمهم ، فقال - تعالى - :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٧، ٨ .

و ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بما طلبوه منك يا محمد ، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد جرما ، وهو قولهم إنك افتريت القرآن الكريم ، واخترعته من عند نفسك .

وقوله : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ... ﴾ أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويكبت نفوسهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التحدى : إن كان الأمر كما تزعمون من أنى قد افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم وبشر مثلكم فهاتوا أنتم عشر سور مختلقات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به فى حسن النظم ، وبراعة الأسلوب ، وحكمة المعنى ، وادعوا لمعاونتكم فى بلوغ هذا الامر كل من تتوسمون فيه المعاونة غير الله - تعالى - لأنه هو - سبحانه - القادر على أن يأتى بمثله .

وجواب الشرط فى قوله - سبحانه - ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ محذوف دل عليه ما تقدم . أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى افتريت هذا القرآن ، فهاتوا أنتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .

والمتأمل لآيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - قد تحدى المشركين تارة بأن يأتوا بمثله كما فى سورتى الإسراء والطور . ففى سورة الإسراء يقول - سبحانه - ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[1] وفى سورة الطور يقول - سبحانه - ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[2] .

وتارة تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما فى هذه السورة ، وتارة تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما فى سورتى البقرة ويونس ، ففى سورة البقرة ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله... ﴾[3] وفى سورة يونس يقول - سبحانه - : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[4] . وقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة ، وهم من هم فى فصاحتهم ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو

---

(١) الآية ٨٨ .
(٢) الآية ٣٤ .
(٣) الآية ٢٣ .
(٤) الآية ٣٨ .

فهل أنتم مسلمون ﴾ إرشاد لهؤلاء المشركين إلى طريق الحق والسعادة لو كانوا يعقلون ، إذ الخطاب موجه اليهم لعلهم يثوبون إلى الرشد .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين تحديتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن ، وأبحت لهم أن يستعينوا فى ذلك بمن شاءوا من البشر ، قل لهم : فإن لم يستجب لدعوتكم من استعنتم بهم فى الإتيان بعشر سور من مثل القرآن .. وهم لن يستجيبوا لكم قطعا - ﴿ فاعلموا ﴾ أيها الناس أن هذا القرآن ﴿ أنزل بعلم الله ﴾ وحده ، وبقدرته وحدها . ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا - أيضا - أنه ﴿ لا إلـه إلا هو ﴾ - سبحانه - فهو الإله الحق ، الذى تعنو له الوجوه ، وتخضع له القلوب ، وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة .

﴿ فهل أنتم ﴾ أيها المشركون بعد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله ، وعلى أن هذا القرآن من عنده ﴿ مسلمون ﴾ أى : داخلون فى الإسلام ، متبعون لما جاءكم به الرسول - ﷺ - .

والمراد بالعلم فى قوله ﴿ فاعلموا أنما أنزل ... ﴾ : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، أى فأيقنوا أن هذا القرآن ما أنزل إلا ملابسا لعلم الله - تعالى - المحيط بكل شىء .

والفاء فى قوله ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ للتفريع ، والاستفهام هنا المقصود به الحض على الفعل وعدم تأخيره .

أى : فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة على صدق ما جاءكم به نبينا محمد - ﷺ - تشكون فى أن الإسلام هو الدين الحق؟ إن الشك فى ذلك لا يكون من عاقل ، فبادروا إلى الدخول فى الإسلام إن كنتم من ذوى العقول التى تعقل ما يقال لها .

ويرى بعض العلماء أن الخطاب فى هذه الآية موجه إلى النبى - ﷺ - والمسلمين ، أو إليه وحده - ﷺ - وعلى سبيل التعظيم وعليه يكون المعنى :

« فإن لم يستجب لكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتموهم به ﴿ فاعلموا ﴾ أى فازدادوا علما ويقينا وثباتا ، بأن هذا القرآن « إنما أنزل بعلم الله » الذى لا يعزب عنه شىء ، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو - سبحانه - مستحق للعبادة والطاعة ، فهل أنتم بعد كل ذلك ﴿ مسلمون ﴾ أى ثابتون على الإسلام ، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه .

ومع أننا نرى أن القولين صحيحان من حيث المعنى ، إلا أننا نفضل الرأى الأول القائل

بأن الخطاب للمشركين ، لأن سياق الآيات السابقة فى شأنهم فلأن يكون الخطاب لهم هنا أولى .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين لا يريدون بأقوالهم وأعمالهم وجه الله - تعالى - فقال :

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أى : من كان يريد بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر ، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية ، بدون التفات إلى مايقربه من ثواب الآخرة .

من كانوا يريدون ذلك ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ أى: نوصل إليهم - بإرادتنا ومشيئتنا - ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا .

والتعبير بكان فى قوله ﴿ من كان يريد ... ﴾ يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم ، بدون تطلع إلى خير الآخرة .

وعدى الفعل ﴿ نوف ﴾ بإلى ، مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمينه معنى نوصل .

وقوله - سبحانه - ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ تذييل قصد به تأكيد ما سبقه ، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع عباده فى دنياهم .

والبخس : نقص الحق ظلما . يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا ظلمه ونقصه .

أى : وهم فى هذه الدنيا لا ينقصون شيئا من نتائج جهودهم وأعمالهم ، حتى ولو كانت جهودا لا إخلاص معها ولا إيمان .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .

أى : أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ، ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة فى الدنيا وبقيت عليهم أوزار نياتهم السيئة فى الآخرة .

﴿ وحبط ما صنعوا فيها ﴾ أى : وفسد ما صنعوه فى الدنيا من أعمال الخير ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله - تعالى - وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس ...

وقوله ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ أى : وباطل فى نفسه ما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح ، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب فى الآخرة لأن الأعمال بالنيات ، ونيات هؤلاء المرائين ، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله ، وإنما كانت متجهة اتجاها كليا إلى الحياة الدنيا وزينتها ، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾[2] .

هذا ومن العلماء من يرى أن هاتين الآيتين مسوقتان فى شأن الكفار ومن على شاكلتهم من الضالة كاليهود والنصارى والمنافقين ... لأن قوله - تعالى - ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ... ﴾ لا يليق إلا بهم .

والذى نراه أن هاتين الآيتين تتناولان الكفار ومن على شاكلتهم تناولا أوليا ، ولكن هذا لا يمنع من أنهما يندرج تحت وعيدهما كل من قصد بأقواله وأعماله الحياة الدنيا وزينتها ، ونبذ كل معانى الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ومما يشهد لذلك أن هناك أحاديث كثيرة ، حذرت من الرياء ، وتوعدت مقترفه بأشد أنواع العقوبات ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » - أى رائحتها -[3] .

وصفوة القول : أن الآيتين الكريمتين تسوقان سنة من سنن الله مع عباده فى هذه الدنيا ، هى أن الله - تعالى - لا ينقص الناس شيئا من ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا ، إلا أن هذه الجهود وتلك الأعمال التى ظاهرها الصلاح ، إن كان المقصود بها الحياة الدنيا وزينتها

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٠ .

(٢) سورة الإسراء الآيات من ١٧ - ٢٠ .

(٣) من كتاب رياض الصالحين للإمام النووى من باب « تحريم الرياء » ص ٦١٩ .

وجدوا نتائجها وثمارها فى الدنيا فحسب .

وإن كان المقصود بها رضا الله - تعالى - وثواب الآخرة ، وجدوا ثمارها ونتائجها الحسنة يوم القيامة ، بجانب تمتعهم بما أحله الله لهم فى الدنيا من طيبات .

وذلك لأن العمل للحياة الأخرى - فى شريعة الإسلام - لا يحول بين العمل النافع فى الحياة الدنيا ، ولا ينقص شيئا من آثاره وثماره ، بل إنه يزكيه وينميه ويباركه .. ورحم الله القائل : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفِّى ثوابها فإن كان مسلما مخلصا وُفِّى ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وفى ثوابها فى الدنيا .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، أتبع ذلك بيان حال الذين يريدون الحق والصواب فيما يفعلون ويتركون فقال - تعالى - :

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قال صاحب المنار ما ملخصه : البينة ما تبين به الحق من كل شيء بحسبه كالبرهان فى العقليات والنصوص فى النقليات ، والخوارق فى الإلهيات ، والتجارب فى الحسيات ، والشهادات فى القضائيات ، والاستقراء فى إثبات الكليات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل قد جاءوا أقوامهم بالبينات وأن كل نبى منهم كان يحتج على قومه بأنه على بينة من ربه وأنه جاءهم ببينة من ربهم ، كما ترى فى قصصهم فى هذه السورة وفي غيرها ... »[1] .

وقوله : ﴿ ويتلوه ... ﴾ من التلو بمعنى الاقتفاء والاتباع . يقال : تلا فلان فلانا إذا كان تابعا له ومقتفيا أثره . والمراد به هنا : التأييد والتقوية .

وللمفسرين أقوال متعددة فى المقصود بقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ وبقوله - سبحانه - ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٥٠ .

وفى مرجع الضمائر فى قوله « ربه - ويتلوه - ومنه » ...

وأقرب هذه الأقوال إلى الصواب أن يكون المقصود بقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ الرسول - ﷺ - وأتباعه المؤمنون .

وبقوله تعالى - ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ليكون معجزة له شاهدة بصدقه .

والضمير فى قوله من ربه يعود إلى النبى - ﷺ - وفى قوله ﴿ ويتلوه ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، وفى قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - .

وعلى هذا القول يكون المعنى: أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه تهديه الى الحق والصواب فى كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه ويؤيده ويقويه فى دعوته شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز لسائر البشر..

أفمن كان هذا شأنه كمن ليس كذلك ؟

أو أفمن كان هذا شأنه كمن استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا وزينتها ؟ كلا إنهما لا يستويان .

وشهادة القرآن الكريم بصدق الرسول - ﷺ - فى دعوته ، تتجلى فى إعجازه ، فقد تحدى النبى - ﷺ - أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وإنما جعلنا هذا القول أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو الذى يتسق مع ما يفيده ظاهر الآية الكريمة ، ولأننا عندما نقرأ هذه السورة الكريمة وغيرها ، نجد الرسل الكرام كثيرا ما يؤكدون لأقوامهم - أنهم - أى الرسل على بينة من ربهم .

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ .

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ ياقوم أرأيتم إن كنت على بنية من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ... ﴾ .

وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا .. ﴾

وهكذا نجد كل نبى يؤكد لقومه أنه جاءهم على بينة من ربه وما دام الأمر كذلك فسيدنا رسول الله - ﷺ - هو أفضل من جاء قومه على بينة من ربه ، والمؤمنون به - ﷺ - يقتدون به فى ذلك .

ويرى بعضهم أن المراد بالبينة القرآن الكريم . وبالشاهد إعجازه وبالموصول مؤمنو أهل الكتاب وأن الضميرين فى قوله « ويتلوه - ومنه » يعودان إلى القرآن الكريم وإعجازه .

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أفمن كان على برهان جلى من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ويؤيده ويقويه - أى القرآن - شاهد منه على كونه من عند الله وهذا الشاهد هو إعجازه للبشر عن أن يأتوا بسورة من مثله .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ : أصل البينة الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقا .. والتنوين فيها للتعظيم ، أى : بينة عظيمة الشأن والمراد بها القرآن ، وباعتبار ذلك أو البرهان جاء الضمير الراجع إليها فى قوله ﴿ ويتلوه ﴾ مذكرا وقوله ﴿ ويتلوه ﴾ أى يتبعه ﴿ شاهد ﴾ عظيم يشهد بكونه من عند الله وهو إعجازه .. » .

ومعنى كون ذلك الشاهد تابعا له ، أنه وصف له لا ينفك عنه .. وكذا الضمير فى « منه » - يعود إلى القرآن - وهو متعلق بمحذوف وقع صفته لشاهد ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه .. »[1] .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالبينة القرآن الكريم - أيضا - ويرى أن المراد بالشاهد جبريل - عليه السلام - وأن قوله - سبحانه - ﴿ ويتلوه ﴾ من التلاوة بمعنى القراءة لا من التلوِ بمعنى الاتباع .

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أفمن كان على برهان جلى من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ويتلو هذا القرآن على الرسول - ﷺ - شاهد من الله - تعالى - هو جبريل - عليه السلام - .

فالضمير فى ﴿ ويتلوه ﴾ على هذا الرأى يعود الى جبريل - عليه السلام - وفى « منه » يعود على الله تعالى - .

وهناك أقوال أخرى فى تفسير الآية الكريمة رأينا من الخير أن نضرب عنها صفحا لضعفها[2] .

وقوله ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ﴾ دليل آخر على صدق النبى - ﷺ - فى دعوته . وهو معطوف على شاهد والضمير فى قوله ﴿ ومن قبله ... ﴾ يعود على شاهد -أيضا - .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢٥ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢٥ .

وقوله ﴿ إماما ورحمة ﴾ منصوبان على الحالية من قوله ﴿ كتاب ﴾ .

والمعنى ومن قبل هذا الشاهد على صدق الرسول - ﷺ - وهو القرآن الكريم أنزل الله - تعالى - على موسى كتابه التواره مشتملا على صفات الرسول - ﷺ - و ﴿ إماما ﴾ يؤتم به فى أمور الدين والدنيا ورحمة لبنى اسرائيل من العذاب إذا ما آمنوا به واتبعوا تعاليمه .

قال الشوكانى : وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه - أى الشاهد بمعنى المعجز - وصفا لازما غير مفارق فكان أغرق فى الوصفية من كتاب موسى .

وهى شهادة كتاب موسى وهو التوراة أنه بشر بمحمد - ﷺ - وأخبر بأنه رسول من الله - تعالى -[1] .

واسم الإشاره فى قوله ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ يعود الى الموصوفين بأنهم على بينة من ربهم وهم النبى - ﷺ - وأتباعه المؤمنون الصادقون .

أى : أولئك الموصوفون بأنهم على بينة من ربهم يؤمنون بأن الاسلام هو الدين الحق وبأن رسول الله - ﷺ - رسول صدق وبأن القرآن من عند الله - تعالى - وحده .

فالضمير فى قوله ﴿ به ﴾ يعود على كل ما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه ويدخل فى ذلك دخولا أوليا القرآن الكريم .

وقوله : ﴿ ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده ﴾ بيان لسوء عاقبة الكافرين بما جاء به الرسول - ﷺ - بعد بيان حسن عاقبة المؤمنين به .

والأحزاب جمع حزب وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم لمحاربة الرسول - ﷺ - ودعوته .

أى : ومن يكفر بهذا القرآن وبما جاء به الرسول - ﷺ - من هدايات فإن نار جهنم هى المكان الذى ينتظره وينتظر كل متحزب ضد دعوته - ﷺ - .

وفى جعل النار موعدا لهذا الكافر بالقرآن إشعار بأن فيها مالا يحيط به الوصف من ألوان العذاب الذى يجعله لا يموت فيها ولا يحيا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالحض على النظر الصحيح الذى يؤدى إلى اليقين بأن ما جاء به الرسول - ﷺ - هو الحق الذى لا يشو به باطل فقال - تعالى - : ﴿ فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٨٨ .

أى: فلا تك - أيها العاقل - فى شك من أن هذا القرآن من عند الله ومن أن ما جاء به الرسول - ﷺ - هو الصدق ، بل عليك أن تعتقد اعتقادا جازما فى صحة ذلك ، لأن ما جاء به - ﷺ - هو الحق الثابت من عند ربك و لكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك لا نطماس بصائرهم ، ولتقليدهم لآبائهم ، ولإيثارهم الغى على الرشد .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ميزت بين من كان على الحق ومن كان على الباطل وساقت حشودا من الأدلة الدالة على صدق الرسول - ﷺ - فى دعوته ، وعلى صحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم بالثبات على الحق الذى آمنوا به ، وتوعدت المتحزبين ضد دعوة الإسلام بنار جهنم التى هى بئس القرار .

هذا ، وهذه الآية الكريمة هى من الآيات التى قيل بأنها مدنية ، وبمراجعتنا لتفسيرها لم نجد ما يؤيد ذلك ، بل الذى نراه أن السورة كلها مكية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى المقدمة .

ثم وصف - سبحانه - الكافرين بالإسلام ببضعة عشر وصفا . وبين سوء مصيرهم كما بين حسن عاقبة المؤمنين وضرب مثلا لحال الفريقين فقال - تعالى - :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم فى تحصيلها ، وقد أبطل الله - تعالى - هذه الطريقة بقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... ﴾ إلى آخر الآية . ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول - ﷺ - ويقدحون فى معجزاته وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بقوله ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ... ﴾ .

ومنها أنهم كانوا يزعمون فى الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بهذه الآيات وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله ... »[1] .

وجمله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا .... ﴾ معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

والاستفهام للإنكار والنفى ، والتقدير : لا أحد أشد ظلما ممن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده - سبحانه - .

وقوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ بيان لما يقال لهؤلاء الظالمين على سبيل التشهير والتوبيخ يوم القيامة والأشهاد : جمع شهيد كشريف وأشراف . أو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم - على الراجح - جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء والمؤمنين .

والمعنى : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله - تعالى - يعرضون يوم الحساب ، على ربهم ومالك أمرهم ، كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحته أمام الناس .

﴿ ويقول الأشهاد ﴾ الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افتروا الكذب على الله ﴿ هؤلاء ﴾ المجرمون هم ﴿ الذين كذبوا على ربهم ﴾ بأن نسبوا إليه ما هو منزه عنه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٠٣ طبعة عبد الرحمن محمد .

﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ الذين وضعوا الأمور فى غير مواضعها ، فأوردوا أنفسهم المهالك » .

وجيء باسم الإشارة ﴿ هؤلاء ﴾ زيادة فى التشنيع عليهم ، وفى تمييزهم عن غيرهم وصدرت جملة ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ بأداة الاستفتاح ﴿ألا ﴾ لتأكيد الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله - تعالى - بسبب افترائهم الكذب .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الأشهاد ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله - ﷺ - يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - عز وجل - يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه - أى ستره وعفوه - ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾[1] .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله - تعالى - على سبيل الاستئناف بعد أن قال الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ .

ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من أفعالهم الشنيعة فقال : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ... ﴾

و ﴿ يصدون ﴾ من صد بمعنى صرف الغير عن الشيء ومنعه منه . يقال صد يصد صدودا وصدا .

و ﴿ سبيل الله ﴾ طريقه الموصلة إلى رضائه . والمراد بها ملة الإسلام .

﴿ ويبغونها عوجا ﴾ أى يطلبون لها العوج ، يقال : بغيت لفلان كذا إذا طلبته له .

والعوج -بكسر العين - الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج .

والعوج - بفتح العين - يكون فى المحسوسات كالميل فى الحائط والرمح وما يشبههما . أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها يكون فى المحس .

والمعنى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٢٤٧ طبعة دار الشعب .

عن الحق بل يحاولون صرف غيرهم عنه ويطلبون لملة الإسلام العوج و يصفونها بذلك تنفيرا للناس منها ، وقوله عوجا مفعول ثان ليبغون ، أو حال من سبيل الله .

وقوله ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ بيان لعقيدتهم الباطلة فى شأن البعث والحساب .

أى : وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

وكرر الضمير ﴿ هم ﴾ لتأكيد كفرهم وللإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغا لم يبلغه أحد سواهم حتى لكأن كفر غيرهم يسير بالنسبة لكفرهم .

ثم بين – سبحانه – أنه كان قادرا على تعذيبهم فى الدنيا قبل الآخرة ولكنه أخر عذابهم إملاء لهم فقال : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ... ﴾ .

وقوله : معجزين من الإعجاز بمعنى عدم المقدرة على الشىء .

أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب لم يكن – سبحانه – عاجزا عن إنزال العذاب الشديد بهم فى الدنيا . وما كان لهم من غيره من نصراء ينصرونهم من بأسه لو أراد إهلاكهم .

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد ، يقال أعجزنى فلان أى : منعنى عن مرادى ...

والمقصود أن قوله ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ﴾ دل على أنه لا قدرة لهم على الفرار .

وقوله : ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ دل على أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من عذابه . فجمع – سبحانه – بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم ، ووضح بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة »[1] .

وقوله : ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ جملة مستأنفة لبيان أن من حكمة تأخير العذاب عنهم فى الدنيا مضاعفة العذاب لهم فى الآخرة .

وقوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ تصوير بليغ لاستحواذ الشيطان عليهم .

أى أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذى جاءهم من ربهم لثقله على نفوسهم الفاسدة ، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبيهم – ﷺ – .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٠٦ .

فليس المراد نفى السماع والإبصار الحسيين عنهم وإنما المراد أنهم لا تطماس بصائرهم صاروا كمن لا يسمع ولا يرى .

ثم أكد - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أى : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، هم الذين خسروا أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب تعمدهم الكذب على الله ، ﴿ وضل عنهم ﴾ أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من اعتقادات باطلة وادعاءات فاسدة .

وقوله ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ زيادة فى تأكيد خسرانهم .

وكلمة ﴿ لا جرم ﴾ وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع . وفى كل موضع جاءت متلوة بأن واسمها .

وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل : حق أو ثبت ، والجملة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل .

أى : وثبت كونهم فى الآخرة هم الأخسرون .

ومن النحاة من يرى أن « لا » نافية للجنس و« جرم » اسمها وما بعدها خبرها .

والمعنى . لا محالة ولاشك فى أنهم فى الآخرة هم الأخسرون .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين بعد بيان سوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

قال الجمل : والإخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب . ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام . فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه . وإذا قلت أخبت له فمعناه : خشع وخضع له . فقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إشارة الى جميع أعمال الجوارح . وقوله : ﴿ وأخبتوا إلى ربهم ﴾ إشارة إلى أعمال القلوب وهى الخشوع والخضوع لله - تعالى - »[1] .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات التى ترضيه - سبحانه - واطمأنوا إلى قضاء ربهم وخشعوا له أولئك الموصوفون بذلك هم أصحاب الجنة وهم الخالدون فيها خلودا أبديا وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٨٩ .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين فقال : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى و الأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ﴾ .

وقوله : ﴿ مثل الفريقين ... ﴾ أى : حالهم وصفتهم .

وأصل المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير والشبيه ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - أى الذى ورد فيه أولا .

ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من المحسوس وعرض الغائب فى صورة الشاهد . فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب وأثبت فى النفوس .

والمعنى : حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف .

أما الكافرون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصمم . لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون لكنهم لم ينتفعوا بذلك فصاروا كالفاقد لهما .

وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين البصر السليم والسمع الواعى لأنهم انتفعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله وقدرته وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الإسلام .

والمقصود من هذا التمثيل . تنبيه الكافرين إلى ما هم عليه من ضلال وجهالة لعلهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم ، فيدخلون فى دين الإسلام وتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من حق ، وبذلك يزدادون إيمانا على إيمانهم .

والاستفهام فى قوله ﴿هل يستويان مثلا﴾ للإنكار والنفى، أى: هل يستوى فى الصفة والحال من كان ذا سمع وبصر بمن فقدهما؟ كلا إنهما لا يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلا

وقوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ حض على التذكر والتدبر والتفكر .

أى : أتشكون فى عدم استواء الفريقين ؟ لا إن الشك فى عدم استوائهما لا يليق بعاقل وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما والدخول فى صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأخبتوا إلى ربهم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت حال الكافرين وذكرت من أوصافهم أربعة

عشر وصفا أولها : افتراء الكذب ... وآخرها : الخسران فى الآخرة . كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود فى الجنة : ثم ضربت مثلا لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات ..

وفى ذلك ما فيه من الهداية إلى الطريق المستقيم ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته وعن إعجاز القرآن الكريم وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ساقت السورة الكريمة بترتيب حكيم قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها فقد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة لوط مع قومه ، وعن قصة شعيب مع قومه ، كما تحدثت عن قصة إبراهيم مع رسل الله الذين جاءوه بالبشرى ، وعن جانب من قصة موسى مع فرعون .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه – تعالى – لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة ، أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم النبى – ﷺ – ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت . فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم وعنادهم يفيد تسلية النبى – ﷺ – وتخفيف ذلك على قلبه .

وثانيها : أنه – تعالى – يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا والخسارة فى الآخرة . وعاقبة أمر المحقين الى الدولة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين.

وثالثها : التنبيه على أنه – تعالى – وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة النبى – ﷺ – لأنه كان أميا ، وما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ، فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفه بالوحى من الله – تعالى –[1] .

وقد بدأت السورة الكريمة قصصها بقصة نوح مع قومه ، وقد وردت هذه القصة فى سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة المؤمنون ، وسورة نوح ... إلا أنها وردت هنا بصورة أكثر تفصيلا من غيرها .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٤٠ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾

وقوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... ﴾ جواب لقسم محذوف . أى والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة .

وافتتحت القصة بصيغة القسم لأن المخاطبين بها لما لم يحذروا ما نزل بقوم نوح بسبب كفرهم نزلوا منزلة المنكر لرسالته .

وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .

وقوم الرجل : هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام : فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده »[1] .

وقوله : ﴿ إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله ... ﴾ بيان للوظيفة التى من أجلها أرسل الله - تعالى - نوحا إلى قومه .

قال الشوكانى : قرأ ابن كثيرر وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة فى ﴿ إنى ﴾ على تقدير

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٢ .

حرف الجر أى : أرسلناه بأنى. أى : أرسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو أنى لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول . أى : أرسلناه قائلا لهم ﴿ إنى لكم نذير مبين ﴾[1] .

ونذير من الإنذار وهو إخبار معه تخويف ..

ومبين : من الإبانة بمعنى التوضيح والإظهار ..

أى : أرسلناه إلى قومه فقال لهم يا قوم : إنى لكم محذر تحذيرا واضحا من موجبات العذاب التى تتمثل فى عبادتكم لغير الله - تعالى - .

واقتصر على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله - تعالى - إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة .

وجملة ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ بدل من قوله ﴿ إنى لكم نذير مبين ﴾ أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله .

وقوله : ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ جملة تعليلية ، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم .

أى إنى أحذركم من عبادة غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم الى وقوع العذاب الأليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأنتم منى بمقتضى القرابة والنسب .

ووصف اليوم بالأليم على سبيل المجاز العقلى ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية والنهاية فى ذلك ، جعل الوقت الذى تقع فيه وقتا أليما أى مؤلما .

ثم حكى - سبحانه - مارد به قوم نوح عليه فقال : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ .

والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وهو - كما يقول الآلوسى - : مأخوذ من قولهم فلان مليء بكذا : إذا كان قادرا عليه ... أو لأنهم متمالئون أى متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون ...

ووصفهم بالكفر ، لتسجيل ذلك عليهم من أول الأمر زيادة فى ذمهم .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٩٣ .

أى : بعد هذا النصح الحكيم الذى وجهه نوح - عليه السلام - لقومه ، رد عليه أغنياؤهم وسادتهم بقولهم ﴿ ما نراك ﴾ يا نوح إلا بشرا مثلنا ، أى : إلا إنسانا مثلنا ، ليست فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا ...

فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة لاتجامع البشرية ، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم ، حتى تتم فائدة التفاهم معه ، والاقتداء به فى أخلاقه وسلوكه .

وقد حكى القرآن قولهم هذا فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب بما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ... ﴾[1] .

ثم إنهم فى التعليل لعدم اتباع نبيهم لم يكتفوا بقولهم ما نراك إلا بشر مثلنا : بل أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ ومرادهم بقولهم : ﴿ أراذلنا ﴾ أى فقراؤنا ومن لا وزن لهم فينا .

قال الجمل : ولفظ ﴿ أراذلنا ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه جمع الجمع فهو جمع أرذل - بضم الذال - جمع رذل - بسكونها - نحو كلب وأكلب وأكالب ...

ثانيهما : انه جمع مفرد وهو أرذل كأكبر وأكابر .. والأرذل هو المرغوب عنه لرداءته »[2] .

ومرادهم بقولهم : ﴿ بادى الرأى ﴾ أى: أوله من البدء . يقال : بدأ يبدأ إذا فعل الشىء أولا وعليه تكون الياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها ويؤيده قراءة أبى عمرو « بادئَ الرأى » .

أى : وما نراك اتبعك يا نوح إلا الذين هم أقلنا شأنا وأحقرنا حالا من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، ولو تثبتوا وتفكروا ما اتبعوك ويصح أن يكون مرادهم بقولهم ﴿ بادى الرأى ﴾ أى اتبعوك ظاهرا لا باطنا ، ويكون لفظ ﴿ بادى ﴾ من البدو بمعنى الظهور . يقال : بدا الشىء يبدو بدواً وبُدوًا وبداء أى ظهر وعليه يكون المعنى : وما نراك اتبعك يانوح إلا الذين هم أهوننا أمرا ، ومع ذلك فإن اتباعهم لك إنما هو فى ظاهر أمرهم ، أما بواطنهم فهى تدين بعقيدتنا .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٩١ .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية لأنهم أى الملأ من قوم نوح - كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام ، يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ، ولقد زال عنهم أن التقدم فى الدنيا - مع ترك الآخرة - لا يقرب أحدا من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا عن أن يجعله سببا فى الاختيار للنبوة والتأهيل لها ... »[2] .

ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة زعما جديدا فقالوا : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ .

والفضل : الزيادة فى الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به الانسان عن غيره .

والمراد هنا : آثاره التى تدل عليه .

أى : أنت يا نوح لست إلا بشرا مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأنا ، وما نرى لك ولمتبعيك شيئا من الزيادة علينا لا فى العقل ولا فى غيره ، بل إننا لنعتقد أنكم كاذبون فى دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق فى نظرنا هو فى عبادة هذه الاصنام التى عبدها من قبلنا آباؤنا .

وهكذا نرى أن الملأ من قوم نوح - عليه السلام - قد عللوا كفرهم بما جاءهم به بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم وثالثها : أنه لا مزية له ولأتباعه عليهم ..

وهى كلها علل باطلة ، تدل على جهلهم ، وانطماس بصيرتهم ، ويدل على ذلك ، رد نوح - عليه السلام - الذى حكاه القرآن فى قوله - تعالى - :

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ

(١) سورة الشعراء الآية ١١١ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٥ .

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى..... ﴾ .

أى : قال نوح - عليه السلام - فى رده على الملأ الذين كفروا من قومه : ﴿ يا قوم ﴾ أى : يا أهلى وعشيرتى الذين يسرنى ما يسرهم ويؤلمنى ما يؤلمهم .

﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ﴾ أى : اخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وحجة واضحة من ربى ، بها يتبين الحق من الباطل .

﴿ وآتانى رحمة من عنده ﴾ أى : ومنحنى بفضله وإحسانه النبوة التى هى طريق الرحمة لمن آمن بها ، واتبع من اختاره الله لها . فالمراد بالرحمة هنا النبوة ﴿فعميت عليكم﴾ أى : فأخفيت عليكم هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم ممن استحب العمى على الهدى .

يقال : عُمِّى على فلان الأمر : أى أخفى عليه حتى صار بالنسبة اليه كالأعمى قال صاحب المنار : قرأ الجمهور فعميت - بالتخفيف - كخفيت وزنا ومعنى . قال -تعالى - ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالتشديد والبناء للمفعول ﴿ فعميت ﴾ أى : فحجبها عنكم جهلكم وغروركم ..

والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت ، لأنه مأخوذ من العمى المقتضى لأشد أنواع الخفاء[1] .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ للإنكار والنفى .

أى : إذا كانت الهداية إلى الخير التى جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلائها ،

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٦٤ .

فهل استطيع أنا وأتباعى أن نجبركم إجبارا ، ونقسركم قسرا على الإيمان بى ، وعلى التصديق بنبوتى ، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها .

كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع و اختيار لا عن إكراه وإجبار .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : واللفظ فى القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة للتناسق الفنى بين الألفاظ ، ومن أمثله ذلك قوله - تعالى - فى قصة نوح مع قومه ﴿ أنلزمكموها .... ﴾ فأنت تحس أن كلمة انلزمكموها تصور جو الإكراه ، بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق ، وشد بعضها الى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ، وهكذا يبدو لون من التناسق فى التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية[1] .

ثم وجه نوح - عليه السلام - نداء ثانيا إلى قومه زيادة فى التلطف معهم ، وطمعا فى إثارة وجدانهم نحو الحق فقال : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ﴾ .

أى : لا أطلب منكم شيئا من المال فى مقابل تبليغ ما أمرنى ربى بتبليغه إليكم : لأن طلبى هذا قد يجعلكم تتوهمون أنى محب للمال ..

﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ - تعالى وحده ، فهو الذى يثيبنى على دعوتى إلى عبادتكم له ، وفى هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله - تعالى - مالا ، وإنما يسأله ثوابا ، إذ ثواب الله يسمى أجرا ، لأنه جزاء على العمل الصالح .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ وجملة ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لا أسألكم عليه مالا ﴾ لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها ، إذ أن زهده فى مالهم يقتضى تمسكه بأتباعه المؤمنين .

الطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا .

أى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى ، سواء أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء ، لأن من استغنى عن مال الناس وعطائهم لا يقيسهم بمقياس الغنى والجاه والقوة ... وإنما يقيسهم بمقياس الإيمان و التقوى .

قال الآلوسى : والمروى عن ابن جريج أنهم قالوا له : يانوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء الأراذل - وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٥٤٢ .

وذلك كما قال زعماء قريش للنبى - ﷺ - فى شأن فقراء الصحابة : اطرد هؤلاء عن مجلسك ونحن نتبعك فإنا نستحى أن نجلس معهم فى مجلسك ... »[1] .

وجملة ﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ تعليل لنفى طردهم .

أى : لن أطردهم عن مجلسى أبدا ، لأنهم قد آمنوا بى ، ولأن مصيرهم إلى الله - تعالى - ، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم ، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التى تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملأ الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب .

وقوله : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ استدراك مؤكد لمضمون ما قبله .

أى : لن اطردهم ، لأن ذلك ليس من حقى بعد أن آمنوا ، وبعد أن تكفل الله بمحاسبتهم ، ولكنى مع هذا البيان المنطقى الواضح ، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الناس عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعا إليه وحده - سبحانه - ليحاسبهم على أعمالهم ، وتتطاولون على المؤمنين تطاولا يدل على طغيانكم وسفاهتكم .

وحذف مفعول ﴿ تجهلون ﴾ للعلم به ، وللإشارة الى شدة جهلهم .

أى : تجهلون كل ما ينبغى ألا يجهله عاقل .

ثم وجه إليهم نداء ثالثا لعلهم يفيئون إلى رشدهم فقال : ﴿ ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون ﴾ .

أى : افترضوا يا قوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسى ، فمن ذا الذى يحمينى ويجيرنى من عذاب الله ، لأنه - سبحانه - ميزانه فى تقييم الناس ليس كميزانكم ، إن أكرم الناس عنده هو أتقاهم وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عنده - سبحانه - منكم ، فكيف أطردهم ؟

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ لتوبيخهم وزجرهم . والجملة معطوفة على مقدر .

أى : أتصرون على جهلكم ؛ فلا تتذكرون أن لهم ربا ينصرهم إن طردتهم ؟ إنكم إن بقيتم على هذا الإصرار سيكون أمركم فرطا ، وستتعرضون للعذاب الأليم الذى يهلككم .

ثم أخذ نوح - عليه السلام - فى تفنيد شبهاتهم ، وفى دحض مفترياتهم ، وفى تعريفهم

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٣٥ .

بحقيقة أمره فقال : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك .. ﴾ .

والخزائن : جمع خزانة - بكسر الخاء - وهو المكان الذى يخزن فيه المال أو الطعام أو غيرهما خشية الضياع ، والمراد منها هنا : أنواع رزقه - سبحانه - التى يحتاج إليها عباده ، وأضيفت إليه - سبحانه - لاختصاصه بها . وملكيته لها .

أى : إنى لا أقول لكم إن النبوة التى وهبنى الله إياها ، تجعلنى أملك خزائن أرزاقه - سبحانه - فأصير بذلك من الأثرياء ، وأعطى من أشاء بغير حساب ...

كلا . إنى لا أملك شيئا من ذلك ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، أرسلنى لأخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وهذه الجملة الكريمة رد على قولهم السابق ! ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ .

وأيضا لا أقول لكم إنى أعلم الغيوب التى اختص الله بعلمها ، فأدعى قدرة ليست للبشر ، أو أزعم أن لى صلة بالله - تعالى - غير صلة النبوة - أو أدعى الحكم على قلوب الناس وعلى منزلتهم عند الله ، كما ادعيتم أنتم فقلتم ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ... ﴾ .

وأيضاً فإنى لا أقول لكم إنى ملك ، بل أنا بشر مثلكم آكل مما تأكلون منه ، وأشرب مما تشربون منه ، إلا أن الله - تعالى - اختصنى من بينكم بالنبوة ، والبشرية مقتض للنبوة وليست مانعا منها - كما تزعمون - حيث قلتم ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ .

ولم يكتف نوح - عليه السلام - بهذا الرد المبطل لدعاواهم الفاسدة ، بل أضاف إلى ذلك - كما حكى القرآن عنه - ﴿ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما أنفسهم ، إنى إذا لمن الظالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ تزدرى ﴾ من الازدراء بمعنى التحقير والانتقاص ، يقال : ازدرى فلان فلانا إذا احتقره وعابه .

أى : أنا لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الله ، أو بأنى أعلم الغيب ، أو بأنى ملك من الملائكة ، ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تنظرون إليهم نظر احتقار واستصغار : إنهم - كما تزعمون - ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا ﴾ يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، بل أقول لكم إنه - سبحانه - سيؤتيهم ذلك - إذا شاء - لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر - أما أنا فلا علم لى إلا بظواهرهم التى تدل على إيمانهم وإخلاصهم ؛ و ﴿ إنى إذًا لمن الظالمين ﴾ لنفسى ولغيرى إذا ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى .

قال البيضاوى ما ملخصه ، وأسند - سبحانه - الازدراء إلى الأعين فى قوله ﴿ تزدرى أعينكم ﴾ للمبالغة والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادئ الرؤية - أى بمجرد نظرهم إليهم - من غير روية بسبب ما عاينوه من رثاثة حالهم وقلة منالهم ، دون تأمل فى معانيهم وكمالاتهم »[1]

وهذا الإسناد من باب المجاز العقلى ، لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة « فى نظر الناظر » فتكون الأعين سببا فى هذا الازدراء .

وأكد جملة ﴿ إنى إذا لمن الظالمين ﴾ بعدة مؤكدات ، تحقيقا لظلم كل من يدعى شيئا من هذه الدعاوى ، وتكذيبا لأولئك الكافرين الذين احتقروا المؤمنين ، وزعموا أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزهقها ...

وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا - على عادة طبقتهم - إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم :

قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

أى : قال قوم نوح - عليه السلام - له بعد أن غلبهم بحجته ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ... ﴾

أى : خاصمتنا ونازعتنا فأكثرت فى ذلك حتى لم تترك لنا منفذا للرد عليك ، والجدال : هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله - كما يقول الآلوسى - من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجديل - أى الحبل المفتول - ، وجدلت البناء : أحكمته ، والأجدل :

---

(١) تفسير البيضاوى ص ٤٦٧ .

الصقر المحكم البنية ، والمجدل - كمنبر القصر المحكم البناء ....

وسميت المنازعة فى الرأى جدالا ، لأن كل واحد من المتجادلين كأنما ، يفتل الآخر عن رأيه - أى بصرفه عنه - ...

وقيل : الأصل فى الجدال الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة - بفتح الجيم - أى : الأرض الصلبة »[1] .

ثم أضافوا إلى هذا العجز عن مجابهة الحجة سفاهة فى القول فقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

أى : لقد سئمنا مجادلتك لنا ومللناها ، فأتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به ، إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، وفى وعيدك لنا بعقاب الله ، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا ، وكارهون لما تدعونا إليه .

وهذا شأن الجاهل المعاند ، إنه يشهر السيف إذا أعجزته الحجة ، ويعلن التحدى إذا يئس عن مواجهة الحق ...

ولكن نوحا - عليه السلام - لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولم يقعده عناد قومه عن مداومة النصح لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى ضلوا عنها ، فقد رد عليهم بقوله ﴿ إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أنتم بمعجزين ﴾ .

أى : إنما يأتيكم بهذا العذاب الذى تستعجلونه الله - تعالى - وحده ، إن شاء ذلك ، لأنه هو الذى يملكه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى : وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذابه متى اقتضت مشيئته - سبحانه - إنزاله لكم ، لأنه - تعالى - لا يعجزه شىء .

ثم أضاف إلى هذا الاعتراف بقدرة الله - تعالى - اعترافا آخر بشمول إرادته فقال : ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ﴾ .

والنصح معناه : تحرى الصلاح والخير للمنصوح مع إخلاص النية من شوائب الرياء .

يقال : نصحته ونصحت له ... أى : أرشدته إلى ما فيه صلاحه .

ويقال : رجل ناصح الجيب إذا كان نقى القلب طاهر السريرة . والناصح الخالص من كل شىء .

أى : إنى قد دعوتكم إلى طاعة الله ليلا ونهارا ، ولم أقصر معكم فى النصيحة ومع ذلك فإن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٤١ .

نصحى الدائم لن يفيدكم شيئا ، مادامت قلوبكم فى عمى عنه ، وأسماعكم فى صمم منه ، ونفوسكم على غير استعداد له .

وجواب الشرط فى قوله ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه .

وقوله ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ : زيادة تأكيد منه - عليه السلام - لعموم قدرة الله وإرادته .

أى : إن كان الله - تعالى - يريد أن يضلكم عن طريق الحق ، ويصرفكم عن الدخول فيه ، بسبب إصراركم على الجحود والعناد ، فعل ذلك ، لأنه هو ربكم ومالك أمركم ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة ، ليجازيكم الجزاء الذى تستحقونه .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبرا جميلا .

وعند هذا الحد من قصة نوح مع قومه ، تنتقل السورة الكريمة انتقالا سريعا بقارئها إلى الحديث عن مشركى مكة ، الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله ، ووقفوا من نبيهم ﷺ - موقفا يشبه موقف قوم نوح منه - عليه السلام - فترد عليهم بقوله - تعالى - :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

وأم هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر .

والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والإجرام : اكتساب الجرم وهو الشىء القبيح الذى يستحق فاعله العقاب .

يقال : أجرم فلان وجرم واجترم ، بمعنى اقترف الذنب الموجب للعقوبة وللمفسرين فى معنى هذه الآية اتجاهان :

الاتجاه الأول يرى أصحابه : أنها معترضة بين أجزاء قصة نوح مع قومه ، وأنها فى شأن مشركى مكة الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله .

وعليه يكون المعنى . لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون إنك قد افتريت هذا

القرآن ، قل لهم : إن كنت قد افتريته - على سبيل الفرض - فعلى وحدى تقع عقوبة إجرامى وافترائى الكذب ، وأنا برىء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب .

أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الآية الكريمة ليست معترضة ، وإنما هى من قصة نوح عليه السلام - وعليه يكون المعنى : بل أيقول قوم نوح إن نوحا - عليه السلام - قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه ثم نسبه إلى الله - تعالى - قل لهم إن كنت قد افتريته فعلى سوء عاقبة إجرامى وكذبى ، وأنا برىء مما تقترفونه من منكرات ، وما تكتسبونه من ذنوب .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أرجح ، لأن التعبير عن أفكارهم بيقولون ، وعن الرد عليهم بقل ، الدالين على الحال والاستقبال ، يقوى أن الآية الكريمة فى شأن مشركى مكة .

وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول ، ولم يذكر شيئا عن الاتجاه الثانى مما يدل على ترجيحه للاتجاه الأول فقال ما ملخصه : يقول - تعالى - ذكره : أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك : افترى محمد هذا القرآن وهذا الخبر عن نوح ، قل لهم : إن افتريته فتخرصته واختلقته فعلى إثمى فى افترائى ما افتريت على ربى دونكم .. وأنا برىء مما تذنبون وتأثمون فى حقى وحق ربكم ... »[1] .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من مجادلة قوم نوح له ، ومن تطاولهم عليه ، ومن تحديهم لدعوته ، كما حكت لنا رده عليهم بأسلوب حكيم ، جعلهم يعجزون عن مجابهته فماذا كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك ؟

* * *

لقد تابعت السورة الكريمة حديثها عن هذه القصة ، فبينت بعد ذلك قضاء الله العادل فى هؤلاء الظالمين ، حيث حكت لنا ما أوحاه الله إلى نوح - عليه السلام - فى شأنهم ، وما أمره بصنعه ... فقال - تعالى - :

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٢٠ .

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ معطوف على قوله ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا .. ﴾ .

أى : بعد أن لج قوم نوح فى طغيانهم ، وصموا آذانهم عن سماع دعوته .. أوحى الله - تعالى - إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق فى قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن ، وبعد أن مكث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الدخول فى الدين الحق ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ..

وقوله : ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ تسلية له - عليه السلام - عما أصابه منهم من أذى .

والابتئاس : الحزن . يقال : ابتأس فلان بالأمر ، إذا بلغه مايكرهه ويغمه ، والمبتئس : الكاره الحزين فى استكانة .

أى : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتماديهم فى سفاهاتهم وطغيانهم ، فقد آن الأوان للانتقام منهم .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - فى هذه الآية ، أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم ، وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته وهى ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ فمنذ ذلك أوحى الله - تعالى - إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم »[1] .

وقوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... ﴾ معطوف على قوله .. ﴿ فلا تبتئس ... ﴾ .

والفلك : ما عظم من السفن ، ويستعمل هذا اللفظ للواحد والجمع ، والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح - عليه السلام - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٢ طبعة دار الشعب .

والباء فى قوله ﴿ بأعيننا ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير اصنع .

أى : واصنع الفلك يا نوح ، حالة كونك بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ نهى له عن المراجعة بشأنهم .

أى : ولا تخاطبنى يا نوح فى شأن هؤلاء الظالمين ، بأن ترجونى فى رحمتهم أو فى دفع العذاب عنهم ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ولا راد لقضائى .

وقوله - تعالى - ﴿ ويصنع الفلك ﴾ بيان لامتثال نوح لأمر ربه .

وجاء التعبير بالفعل المضارع مع أن الصنع كان فى الماضى : استحضارا لصورة الصنع ، حتى لكأن نوحا - عليه السلام - يشاهد الآن وهو يصنعها .

ثم بين - سبحانه - موقف قومه منه وهو يصنعها وقال : ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ... ﴾ .

والسخرية : الاستهزاء . يقال : سخر فلان من فلان وسخر به ، إذا استخف به وضحك منه .

أى : امتثل نوح لأمر ربه ، فطفق يصنع الفلك ، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها استهزأوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له على سبيل التهكم به ، يا نوح صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، كما جاء فى بعض الآثار .

وهنا يرد عليهم نوح بقوله : ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ .

أى قال نوح لهم : إن تسخروا منى ومن أتباعى اليوم لصنعنا السفينة ، وتستجهلوا منا هذا العمل ، فإنا سنسخر منكم فى الوقت القريب سخرية محققة فى مقابل سخريتكم الباطلة .

قال الإمام الرازى : وقوله ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فيه وجوه :

الأول : التقدير : إن تسخروا منا فى هذه الساعة فإنا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة .

الثانى : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منا .

الثالث : إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم ، واستجهالكم أقبح وأشد ، لأنكم لا تستجهلون

إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر، والاغترار بظاهر الحال، كما هو عادة الأطفال[١].

ثم أضاف نوح - عليه السلام - إلى تهديدهم تهديدا آخر فقال: ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾.

أي: فسوف تعلمون عما قريب، من منا الذى سينزل عليه العذاب المخزى المهين فى الدنيا، ومن منا الذى سيحل عليه العذاب الدائم الخالد فى الآخرة.

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت حكم الله الفاصل فى شأن قوم نوح - عليه السلام - بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الحق، ولكنهم صموا آذانهم عنه فماذا كان من أمره وأمرهم بعد ذلك.

كان من أمره وأمرهم بعد ذلك أن أمر الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - أن يحمل فى السفينة بعد أن أتم صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى، ثم نزل الطوفان، وسارت السفينة بمن فيها، وأغرق الله - تعالى - الظالمين، وقد حكى - سبحانه - كل ذلك فقال - تعالى.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٢٤.

مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ... ﴾ بيان لمرحلة جديدة من مراحل قصة نوح - عليه السلام - مع قومه .

و ﴿ حتى ﴾ هنا حرف غاية لقوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ ويصنع الفلك .. الخ ﴾ .

والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه - ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ... ﴾ حلول وقت نزول العذاب بهم ، فهو مفرد الأمور ، أى : حتى إذا حل بهم وقت عذابنا .. قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

ويصح أن يكون المراد به الأمر بالشىء على أنه مفرد الأوامر ، فيكون المعنى : حتى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السفينة ، وللأرض بتفجير عيونها ، وللسماء بإنزال أمطارها ... قلنا احمل فيها ...

وجملة ، وفار التنور ، معطوفة على ﴿ جاء أمرنا ﴾ ، وكلمة ﴿ فار ﴾ من الفور والفوران ، وهو شدة الغليان للماء وغيره .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « والفور والفوران ضرب من الحركة والارتفاع القوى ، يقال فى الماء إذا غلا وارتفع ... ويقال فى النار إذا هاجت قال - تعالى - ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ﴾ ...

ومن المجاز : فار الغضب ، إذا اشتد ... »[1] .

وللمفسرين فى المراد بلفظ ﴿ التنور ﴾ أقوال منها : أن المراد به الشىء الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الكانون ...

ومنها أن المراد به وجه الأرض ...

ومنها : أن المراد به موضع اجتماع الماء فى السفينة ...

ومنها : أن المراد به طلوع الفجر من قولهم : تنور الفجر ...

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٧٥ .

ومنها : أن المراد به أعالى الأرض والمواضع المرتفعة فيها ..

وقيل : إن الكلام على سبيل المجاز ، والمراد بقوله - سبحانه - ﴿ فار التنور ﴾ التمثيل بحضور العذاب ، كقولهم ، حمى الوطيس ، إذا اشتد القتال[1] .

وأرجح هذه الأقوال أولها ، لأن التنور فى اللغة يطلق على الشىء الذى يخبز فيه ، وفورانه معناه : نبع الماء منه بشدة مع الارتفاع والغليان ، كما يفور الماء فى القدر عند الغليان ، ولعل ذلك كان علامة لنوح - عليه السلام - على اقتراب وقت الطوفان .

وقد رجح هذا القول المحققون من المفسرين ، فقد قال الإمام ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى التنور : « وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله ﴿ التنور ﴾ قول من قال : هو التنور الذى يخبز فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شىء منه بخلاف ذلك ، فيسلم لها .

وذلك لأنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بماخاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به .

أى : قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه ... وفار التنور الذى جعلنا فورانه بالماء آية مجىء عذابنا .. احمل فيها - أى السفينة من كل زوجين اثنين .. »[2] .

وقال الإمام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : فما الأصح من هذه الأقوال - فى معنى التنور .. ؟ .

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ، ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه ، فوجب حمل اللفظ عليه ...

ثم قال : والذى روى من أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة عظيمة ، وقد وعد الله - تعالى - المؤمنين النجاة فلابد أن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين « فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة »[3] .

وجملة ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾ جواب إذا

ولفظ ﴿ زوجين ﴾ تثنية زوج ، والمراد به هنا الذكر والأنثى من كل نوع .

قراءة الجمهور : ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ بدون تنوين للفظ كل ، وإضافته إلى زوجين .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٢٥ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٢٦ .

وقرأ حفص : ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ بتنوين لفظ كل وهو تنوين عوض عن مضاف إليه ، والتقدير : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى .

ويكون لفظ ﴿ زوجين ﴾ مفعولا لقوله ﴿ احمل ﴾ واثنين صفة له .

والمراد بأهله : أهل بيته كزوجته وأولاده ، وأكثر ما يطلق لفظ الأهل على الزوجة ، كما فى قوله - ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ... ﴾[1] .

والمراد بأهله : من كان مؤمنا منهم .

وجملة ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ استثناء من الأهل .

أى : احمل فيها أهلك إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله .

والمراد بمن سبق عليه القول : زوجته التى جاء ذكرها فى سورة التحريم فى قوله - تعالى ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما .. ﴾ وابنه الذى أبى أن يركب معه السفينة .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الجملة : والمراد زوجة له أخرى تسمى (واعلة) بالعين المهملة ، وفى رواية (والقه) وابنه منها واسمه (كنعان) .. وكانا كافرين »[2] .

وجملة ﴿ ومن آمن ﴾ معطوفة على قوله ﴿ وأهلك ﴾ أى : واحمل معك من آمن بك من قومك .

والمعنى للآية الكريمة : لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة ، حتى إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قومه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال الله - تعالى - لنوح : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكر أو أنثى ، واحمل فيها أيضا من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كذلك جميع المؤمنين الذين اتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك .

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على قلة عدد من آمن به فقال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٥٠ .

أى : وما آمن معه إلا عدد قليل من قومه بعد أن لبث فيهم قرونا متطاولة يدعوهم إلى الدين الحق ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قال الآلوسى بعد أن ساق أقوالا فى عدد من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه : ... والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين : زوجته ، وبنوه الثلاثة ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم ... »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ .

ومجريها ومرساها ، قرأهما الجمهور بضم الميمين فيهما ، وهما مصدران من جرى وأرسى . والباء فى ﴿ باسم الله ﴾ للملابسة ، والآية الكريمة معطوفة على جملة ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

أى : قلنا له ذلك فامتثل أمرنا ، وقال لمن معه من المؤمنين : سلموا أمركم لمشيئة الله - تعالى - وقولوا عند ركوب السفينة : باسم الله جريها فى هذا الطوفان العظيم ، وباسم الله إرساءها فى المكان الذى يريد الله - تعالى - إرساءها فيه .

قال الشيخ الفاضل ابن عاشور : وعدى فعل ﴿ اركبوا ﴾ بفى ، جريا على الأسلوب الفصيح ، فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها . وأما ركوب الفلك فيعدى بفى ، لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار ، فلا يقال : ركب السفينة ؛ فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقى والركوب المشابه له ، وهى تفرقة حسنة »[2] .

وجملة ﴿ إن ربى لغفور رحيم ﴾ تعليل للأمر بالركوب المصاحب لذكر الله - تعالى - :

أى : إن ربى لعظيم المغفرة ولعظيم الرحمة لمن كان مطيعا له مخلصا فى عبادته .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يقول الله - تعالى - إخبارا عن نوح أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة ﴿ اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها .. ﴾ .

وقال - سبحانه - فى موضع آخر : ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين﴾ .

ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور : عند الركوب فى السفينة وعلى الدابة .

فقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - قال : «أمان أمتى من الغرق إذا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٥٠ .

(٢) تفسير سورة هود ص ٧٣ .

ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك .. بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم » [١] .

ثم بين - سبحانه - حال السفينة وهى تمخر بهم عباب الماء فقال :
﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ .

والموج : ما ارتفع من ماء البحر عند اضطرابه . وأصله من ماج الشىء يموج إذا اضطرب ومنه قوله - تعالى - ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . بم اتصل قوله - تعالى - ﴿ وهى تجرى بهم ﴾؟

قلت : اتصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها باسم الله ، كأنه قيل : فركبوا فيها وهم يقولون : باسم الله ، وهى تجرى بهم . أى تجرى بهم وهم فيها فى موج كالجبال ، يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة بالجبل فى تراكمها وارتفاعها .. » [٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ تصوير لتلك اللحظة الرهيبة الحاسمة التى أبصر فيها نوح - عليه السلام - ابنه الكافر وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين .

والمعزل : مكان العزلة ، أى : الانفراد .

أى : وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه ، رأى نوح ابنه كنعان ، وكان هذا الابن فى مكان منعزل ، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة الملهوفة يا بنى اركب معنا فى السفينة ، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيلفهم الطوفان بين أمواجه عما قريب . ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه ، لم تجد أذنا واعية من هذا الابن العاق المغرور ، بل رد على أبيه : ﴿ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء... ﴾ .

أى : قال : سألتجئ إلى جبل من الجبال الشاهقة ، لكى أتحصن به من وصول الماء إلى .

وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .. ﴾ .

أى : قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه - سبحانه - بلطفه وإحسانه ، وأما الجبال وأما الحصون .. وأما غيرهما من وسائل النجاة ، فسيعلوها الطوفان ، ولن تغنى عن المحتمى بها شيئا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٥٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٠ .

وعبر عن العذاب بأمر الله ، تهويلا لشأنه .

وقوله : ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى آل إليها أمر الابن الكافر .

أى : وحال وفصل الموج بهديره وسرعته بين الابن وأبيه ، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين الكافرين المغرقين .

والتعبير بقوله : ﴿ وحال ... ﴾ يشعر بسرعة فيضان الماء واشتداده ، حتى لكأن هذه السرعة لم تمهلهما ليكملا حديثهما .

والتعبير بقوله : ﴿ فكان من المغرقين ﴾ يشير إلى أنه لم يغرق وحده ، وإنما غرق هو وغرق معه كل من كان على شاكلته فى الكفر .

وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة مادار بين نوح وابنه من محاورات فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التى يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم .

وبعد أن غرق الكافرون ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين ، وجه الله - تعالى - أمره إلى الأرض وإلى السماء .. فقال : ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

أى : وبعد أن أدى الطوفان وظيفته فأغرق بأمر الله - تعالى - الكافرين ، قال الله - تعالى - للأرض : ﴿ يا أرض ابلعى ماءك ﴾ .

أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ، وابتلعيه بسرعة فى باطنك كما يبتلع الإنسان طعامه فى بطنه بدون استقرار فى الفم .

وقال - سبحانه - للسماء ﴿ ويا سماء أقلعى ﴾ أى : أمسكى عن إرسال المطر يقال : أقلع فلان عن فعله إقلاعا ، إذا كف عنه وترك فعله . ويقال : أقلعت الحمى عن فلان ، إذا تركته .

فامتثلتا - أى الأرض والسماء - لأمر الله - تعالى - فى الحال ، فهو القائل وقوله الحق : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

وقوله ﴿ وغيض الماء ﴾ أى : نقص ونضب . يقال : غاض الماء يغيض ، إذا قل ونقص .

---

(١) سورة يس الآية ٨٢ .

والمراد به هنا : الماء الذى نشأ عن الطوفان .

وقوله : ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى : تم ونفذ ما وعد الله - تعالى - به نبيه نوحا - عليه السلام - من إهلاكه للقوم الظالمين .

والضمير فى قوله : ﴿ واستوت على الجودى ﴾ للسفينة ، والجودى ، جبل بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل . وقيل هو جبل بالشام .

أى : واستقرت السفينة التى تحمل نوحا والمؤمنين بدعوته ، على الجبل المعروف بهذا الاسم ، بعد أن أهلك الله أعداءهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم ، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : مر النبى - ﷺ - بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال لهم : ما هذا الصوم ؟ قالوا ، هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى . فصامه نوح وموسى - عليه السلام - شكرا لله .

فقال النبى - ﷺ - « أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم » . فصامه ، وقال لأصحابه : من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان قد أصاب من غذاء أهله ، فليتم بقية يومه »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : وقيل بعدا للقوم الظالمين .

أى : هلاكا وسحقا وطردا من رحمة الله - تعالى - للقوم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية .

قال الجمل : ﴿ وبعدا ﴾ مصدر بعد - بكسر العين - ، يقال بعد بعدا - بضم فسكون - وبعداً - بفتحتين - إذا بعد بعدا بعيدا بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء ، وهو منصوب على المصدر بفعل مقدر . أى : وقيل بعدًا بعدا ... »[2] .

هذا وقد تكلم بعض العلماء عن أوجه البلاغة والفصاحة فى هذه الآية كلاما طويلا ، نكتفى بذكر جانب مما قاله فى ذلك الشيخ القاسمى فى تفسيره .

قال - رحمه الله - ما ملخصه : « هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان بإبراز ذلك ، ومن أوسعهم مجالا فى مضمار معارفها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٠٠ .

الإمام « السكاكى » فقد أطال وأطنب فى كتابه « المفتاح » فى الحديث عنها .

فقد قال - عليه الرحمة - فى بحث البلاغة والفصاحة :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة ، فأذكر لك على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها من وجوهها ما عسى أن يكون مستورا عنك ، وهذه الآية هى قوله - تعالى - ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ... ﴾ .

والنظر فى هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعانى ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان .. فتقول : إنه - عز سلطانه - لما أراد أن يبين معنى هو : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض لما أراد ذلك : بنى الكلام على التشبيه ، بأن شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لا يتأتى منه أن يعصى أمره .. وكأنهما عقلاء مميزون فقال : ﴿ يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ... ﴾

ثم قال : ﴿ ماءك ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيها لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالمالك .

ثم اختار لاحتباس المطر لفظ الإقلاع الذى هو ترك الفاعل للفعل .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ... فذلك أنه اختير ﴿ يا ﴾ دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر فى الاستعمال ... واختير لفظ « ابلعى » على « ابتلعى » لكونه أخصر . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع منه ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهى كما ترى . نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ما ترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة .

ولا تظن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت [1] .

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٤٦ وتفسير المنار جـ ١٢ ص ٩٠ .

ثم ختم - سبحانه - قصة نوح مع قومه فى هذه السورة ، بتلك الضراعة التى تضرع بها نوح - عليه السلام - بشأن ولده ، وبذلك الرد الحكيم الذى رد به الخالق - عز وجل - على نوح - عليه السلام ، وبتعقيب على القصة يدل على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه قال - تعالى - :

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

والمراد بالنداء فى قوله - سبحانه - : ﴿ ونادى نوح ربه ﴾.. الدعاء والضراعة إلى الله - تعالى -

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها .

أى : وبعد أن تخلف ابن نوح عليه السلام عن الركوب معه فى السفينة ، وقضى الأمر بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .. تضرع نوح - عليه السلام - إلى ربه فقال فى استعطاف ورجاء :

يارب ! إن إبنى « كنعان » ﴿ من أهلى ﴾ فهو قطعة منى ، فأسألك أن ترحمه برحمتك ﴿ إن وعدك الحق ﴾ أى : وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق وأنت - ياربى - قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن ابنى وفى رحمتك له .

وقوله : ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ أى : وأنت يا إلهى - لا راد لما تحكم به ، ولا معقب لحكمك ، وحكمك هو الحق والعدل ، وهو المنزه عن الخطأ والمحاباة ، لأنه صادر عن كمال العلم والحكمة .

واكتفى نوح - عليه السلام - بأن يقول : ﴿ رب إن ابنى من أهلى . وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ﴾ دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله - تعالى - وحياء منه - سبحانه - واعتقاداً منه بأنه - سبحانه - عليم بما يريده ،وخبير بما يجول فى نفسه .

وهذا لون من الأدب السامى ، سلكه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فى مخاطبتهم لربهم - عز وجل - ومن أولى منهم بذلك ؟!!

ولعل نوحا - عليه السلام - عندما تضرع إلى ربه - سبحانه - بهذا الدعاء لم يكن يعلم أن طلب الرحمة أو النجاة لابنه الكافر ممنوع ، فكان حاله فى ذلك كحال النبى - ﷺ - عندما قال لعمه أبى طالب : « لأستغفرن لك مالم أنه عن ذلك » واستمر يستغفر له إلى أن نزل قوله - تعالى - ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى .. ﴾[1] .

وقال الشيخ القاسمى : وإنما قال نوح ذلك - أى : رب إن ابنى من أهلى .. ألخ - لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحمة النسبية ، وغفل - لفرط التأسف على ابنه - عن استثنائه - تعالى - بقوله : ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده)[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك .. ﴾ رد من الله - تعالى - على نوح فيما طلبه منه .

أى : قال الله - تعالى - مجيبا لنوح - عليه السلام - فيما سأله إياه : يا نوح إن ابنك

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة التوبة جـ ٦ ص ٣١ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٤٨ .

هذا ﴿ ليس من أهلك ﴾ لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر ، فلا علاقة بين مسلم وكافر .

أو ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره .

فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه ، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه ، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه ، لخلوه عن الدليل .

قال ابن كثير : وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلا أنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن زنية .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زنت أمرأة نبى قط ، ثم قال : وقوله : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ أى : الذين وعدتك بنجاتهم .

وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه ؛ فإن الله - تعالى - أغير من أن يمكن امرأة نبى من الفاحشة[1] .

وجملة ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ تعليل لنفى الأهلية .

وقد قرأ الجمهور (عمل) بفتح الميم وتنوين اللام - على أنه مصدر مبالغة فى ذمه حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح وأصل الكلام إنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد لمداومته عليه .

وقرأ الكسائى ويعقوب ﴿ عمل ﴾ بوزن فرح بصيغة الفعل الماضى - أى : إنه عمل عملا غير صالح وهو الكفر والعصيان ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك فى دينك ومعتقدك من الأباعد فى المنصب وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك)[2] .

وقال الفخر الرازى : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابة الدين ، لا جرم نفاه الله - تعالى - بأبلغ الألفاظ وهو : قوله : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٩ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٣ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٣ .

والفاء فى قوله : ﴿ فلا تسألن ماليس لك به علم .. ﴾ للتفريع .

أى : ما دمت قد وقفت على حقيقة الحال ، فلا تلتمس منى ملتمسا لا تعلم على وجه اليقين ، أصواب هو أم غير صواب ، بل عليك أن تتثبت من صحة ما تطلبه ، قبل أن تقدم على طلبه .

وجملة ﴿ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ تأكيد لما قبلها ، ونهى له عن مثل هذا السؤال فى المستقبل ، بعد أن أعلمه بحقيقة حال ابنه .

أى : إنى أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

وهنا بين الله - تعالى - أن نوحا - عليه السلام - قد تنبه إلى ما أرشده إليه ربه ، فبادر بطلب العفو والصفح منه - سبحانه - فقال : ﴿ قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم .. ﴾ .

أى : قال نوح - عليه السلام - ملتمسا الصفح من ربه : رب إنى أستجير بك ، وأحتمى بجنابك من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولائق ﴿ وإلا تغفر لى ﴾ ما فرط منى من قول ، وما صدر عنى من فعل .

﴿ وترحمنى ﴾ برحمتك الواسعة التى وسعت كل شىء .

﴿ أكن من الخاسرين ﴾ الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك . ثم بشر - سبحانه - نبيه نوحا - عليه السلام - بقبول توبته فقال : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .. ﴾ .

والسلام : التحية المقرونة بالأمان والاطمئنان ، وأصله السلامة ، والباء فيه للمصاحبة والبركات . جمع بركة وهى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، واشتقاقها من البرك ، وهو صدر البعير . يقال : برك البعير إذا ألقى بركه أى صدره على الأرض وثبت . ومنه البركة لثبوت الماء فيها .

والأمم : جمع أمة ، وهى الجماعة الكثيرة من الناس ، يجمعها نسب واحد أو لغة واحدة ، أو موطن واحد .

أى : قال الله - تعالى - مبشرا نوحا - عليه السلام - بقبول توبته : يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك ، وعلى أمم متشعبة ومتفرعة وناشئة من الأمم المؤمنة التى ستهبط معك ، بعد أن أنجاكم الله - تعالى -

بفضله ورحمته من العذاب ، الذى حل بالكافرين من قومك ..

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قال يا نوح اهبط بسلام .. ولكن جاء التعبير بقيل ، مسايرة للتعبيرات السابقة فى أجزاء القصة ، مثل قوله - سبحانه - ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك .. ﴾ وقوله : ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

وقوله ﴿ اهبط بسلام .. ﴾ فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط فى ضيافة الله ورعايته ، وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين ، لما نجت السفينة من ذلك الطوفان العظيم .

والتعبير بقوله ﴿ منا ﴾ لزيادة التكريم ، وتأكيد السلام . أى : انزل بسلام ناشىء من عندنا ، وليس من عند غيرنا ؛ لأن كل سلام من غيرنا لا قيمة له بجانب سلامنا .

وقوله ﴿ عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ متعلق بسلام وبركات .

وفى هذا إشارة إلى أنه - سبحانه - سيجعل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين ، أمما كثيرة ستكون محل كرامة الله وأمانه وبركاته .

وقوله - سبحانه - ﴿ وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله .

أى : أن الأمم التى ستكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين : قسم منهم له منا السلام ، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح .

وقسم آخر سنمتعه فى الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها ، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا ، وعصيانه لرسلنا .

فعلى كل عاقل أن يجتهد فى أن يكون من القسم الأول ، وأن يتجنب القسم الثانى .

ثم اختتم الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فى هذه السورة ، بقوله : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى ما قصه الله - تعالى - من قصة نوح مع قومه فى هذه السورة .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر الهام . والغيب : مصدر غاب ، وهو مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .

أى : تلك القصة التى قصصناها عليك يا محمد بهذا الأسلوب الحكيم ، من أخبار الغيب الماضية ، التى لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا .

ونحن ﴿ نوحيها إليك ﴾ ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين .

وهذه القصة وأمثالها ﴿ ما كنت تعلمها ﴾ أنت يا محمد ، وما كان يعلمها ﴿ قومك ﴾ أيضا ، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ، الخالية من الأساطير والأكاذيب .

﴿ من قبل ﴾ هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

وما دام الأمر كذلك ﴿ فاصبر ﴾ صبرا جميلا على تبليغ رسالتك ، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل .

وجملة ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ تعليل للأمر بالصبر .

والعاقبة : الحالة التى تعقب حالة قبلها ، وقد شاعت عند الإطلاق فى حالة الخير كما فى قوله - تعالى - ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ . وأل فيها للجنس ، واللام فى قوله ﴿ للمتقين ﴾ للاختصاص .

أى : إن العاقبة الحسنة الطيبة فى الدنيا والآخرة ، للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - ، وليست لغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى .

والآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصد به الامتنان على النبى - ﷺ - والموعظة ، والتسلية .

فالامتنان نراه فى قوله - تعالى - ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ .

والموعظة نراها فى قوله - سبحانه - ﴿ فاصبر ﴾ .

والتسلية نراها فى قوله - عز وجل - ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ .

وبعد ، فهذه قصة نوح - عليه السلام - كما وردت فى هذه السورة الكريمة ، ومن العبر والعظات والهدايات والحقائق التى نأخذها منها ما يأتى :

١ - الدلالة على صدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، فقد أخبرنا عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وعن غيرها من القصص ، التى هى من أنباء الغيب ، والتى لا يعلم حقيقتها وتفاصيلها أحد سوى الله - عز وجل - .

٢ - أن نوحا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله - تعالى - أحسن الأساليب وأحكمها ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده فى الليل وفى النهار . وفى السر وفى العلانية ، وأقام لهم ألوانا من الأدلة على صدقه ، ورغبهم فى الإيمان بشتى ألوان الترغيب ، وحذرهم من الكفر بشتى أنواع التحذير ، وصبر على أذاهم صبرا جميلا ، ورد على سفاهاتهم

وأقوالهم بمنطق سليم ، أبطل به حججهم .. مما جعلهم يكفون عن مناقشته ، ويلجأون إلى التحدى والتعنت .

وما أحوج الدعاة إلى الله - عز وجل - إلى التماس العبرة والعظة من قصة نوح مع قومه .

٣ - أن النسب مهما شرف وعظم لن ينفع صاحبه عند الله ، إلا إذا كان معه الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان والصلاح ليسا مرتبطين بالوراثة والأنساب لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت ذرية نوح ومن معه من المؤمنين الذين نجوا معه فى السفينة . كلها من المؤمنين الصالحين ، مع أن المشاهد غير ذلك .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال - ما ملخصه - عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك .. ﴾ : « وفى هذه الآية تسلية للآباء فى فساد أبنائهم وإن كان الآباء صالحين ». فقد روى أن ابنا لمالك بن أنس ارتكب أمرا لا يليق بمسلم ، فعلم بذلك مالك فقال : « الأدب أدب الله ، لا أدب الأباء والأمهات ، والخير خير الله ، لاخير الآباء والأمهات .. »[1] .

٤ - أن سؤال نوح - عليه السلام - ما سأله لابنه لم يكن - كما قال صاحب المنار معصية لله - تعالى - خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ فى اجتهاد رأى بنية صالحة .

وإنما عدها الله - تعالى - ذنبا له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، هبطت بضعفه البشرى ، وما غرس فى الفطرة من الرحمة والرأفة بالأولاد إلى اتباع الظن ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فيقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم آنا بعد آن ، بما يصعدون به فى معارج العرفان »[2] .

٥ - إن القرآن فى إيراده للقصص والأخبار ، لا يهتم إلا بإبراز النافع المفيد منها ، أما ماعدا ذلك مما لا فائدة من ذكره ، فيهمل القرآن الحديث عنه .

فمثلا فى قصة نوح - عليه السلام - هنا ، لم يتعرض القرآن لبيان المدة التى قضاها نوح فى صنع السفينة . ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها ، ولا لتفاصيل الأنواع التى حملها معه فى السفينة ، ولا لبيان الفترة التى عاشها نوح ومن معه فيها .

ولا لبيان المكان الذى هبط فيه نوح بعد أن استوت السفينة على الجودى .. ولا لبيان

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٤٧ .
(٢) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٨٦ .

الزمان الذى استغرقه الطوفان فوق الأرض .

وما ورد فى ذلك من أقوال وأخبار ، أكثرها من الإسرائيليات التى لا يؤيدها دليل من الشرع أو العقل .

ومن المسائل التى تكلم عنها كثير من العلماء ، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى مسألة الطوفان .

وقد أصدر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فتوى فى هذا الشأن ، ملخصها كما يقول صاحب المنار : أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عاما للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض .

وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبينها بنص قطعى ، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ، ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت العلم خلافه لا يضرنا ، لأنه لا ينقض نصا قطعيا عندنا)[1] .

٦ - أن سنة الله - تعالى - فى خلقه لا تتخلف ولا تتبدل وهى أن العاقبة للمتقين ، مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الأخيار والأشرار .

فلقد لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقد لقى خلال تلك المدة الطويلة مالقى من الأذى ... ولكن كانت النتيجة فى النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق أعدائه بالطوفان العظيم .

ولقد أفاض صاحب الظلال - رحمه الله - وهو يتحدث عن هذا المعنى فقال ما ملخصه : « ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح ، لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله - سبحانه - .

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح - عليه السلام - تذكر بعض الروايات ، أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عاما .

إن هذه الحفنة - وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - ، قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شىء ... وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها .

وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم .

إنه لا ينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام ، أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٠٨ .

إفراد الله - سبحانه - بالربوبية . كما أنه لا ينبغى له أن يقبس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى ، وهو عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه : (أنى مغلوب فانتصر) .

إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة .. إن الجاهلية تملك قواها .. ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - ،وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب !! .

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملا ، ثم يتركوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين ، وأن يجأروا إليه وحده كما جأر عبده الصالح نوح : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ .

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عبادة ، فهم على هذا الانتظار مأجورون .. والعاقبة للمتقين »[1] .

ثم تابعت السورة الكريمة حديثها عن قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، بعد حديثها عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٨٥ للأستاذ سيد قطب .

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

تلك هى قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكتها هذه السورة ، وقد وردت قصته معهم فى سور أخرى منها : سورة الأعراف ، والشعراء ، والأحقاف .

وينتهى نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - فهو - كما قال بعض المؤرخين - : هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح)[1] .

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم - ، وكانت مساكنهم بالأحقاف - جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - ، وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالى جنوب الجزيرة العربية .

وكان قوم هود - عليه السلام - يعبدون الأصنام ، فأرسله الله إليهم لهدايتهم .

---

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار .

ويقال إن هودا - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما زهاء مائة سنة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ معطوف على قصة نوح التى سبق الحديث عنها .

أى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده ، أرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : ﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ .

ووصفه - سبحانه - بأنه ﴿ أخاهم ﴾ لأنه من قبيلتهم فى النسب ، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية وناداهم بقوله : ﴿ ياقوم ﴾ زيادة فى التلطف معهم ، استجلابا لقلوبهم ، وترضية لنفوسهم ، وجملة ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ فى معنى العلة لما قبله .

أى : أنا آمركم بعبادة الله وحده ، لأنه ليس هناك إله آخر يستحق العبادة سواه ، فهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى يحييكم ويميتكم .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ .

والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا شبهة لصاحبه فى النطق به .

أى : ما أنتم إلا متعمدون للكذب فى جعلكم الألوهية لغير الله - تعالى - .

ثم بين لهم بعد ذلك أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا فى مقابل دعوته إياهم إلى الحق فقال : ﴿ وياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى ... ﴾ .

وفطرنى : أى خلقنى وأبدعنى على غير مثال سابق ، يقال : فطر الأمر . أى : ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق : أى خلقهم وأوجدهم . وأصل الفطر : الشق ، ثم استعمل فى الخلق والإنشاء مجازا .

والمعنى : ويا قوم لا أريد منكم على ما أدعوكم إليه أجرا منكم ، وإنما أجرى تكفل به الله الذى خلقنى بقدرته ، فهو وحده الذى أطلب منه الأجر والعطاء .

ومقصده من هذا القول ، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك فى نفوسهم ، من أنه ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه ، إلا لأنه رجل يبتغى منهم الأجر الذى يجعله موسرا فيهم ..

والهمزة فى قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ للاستفهام الإنكارى ، وهى داخلة على محذوف .

أى : أتجهلون ما هو واضح من الأمور ، فلا تعقلون أن أجر الناصحين المخلصين ، إنما هو من الله - تعالى - رب العالمين ورازقهم .

ثم أرشدهم إلى ما يؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم ، وحذرهم من سوء عاقبة البطر والأشر

فقال : ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ .

والاستغفار : طلب المغفرة من الله - تعالى - وعدم المؤاخذة على الخطايا :

والتوبة : العزم على الإقلاع عن الذنب ، مع الندم على ما حصل منه فى الماضى .

أى : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان ، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح .

وثم هنا للترتيب الرتبى ، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك : مقدم على طلب المغفرة .

وجملة ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ جواب الأمر فى قوله ﴿ استغفروا ﴾ .

والمراد بالسماء هنا السحاب أو المطر ، تسمية للشىء باسم مصدره .

ومدرارا : مأخوذ من الدر أى : سيلان اللبن وكثرته . ثم استعير للمطر الغزير يقال : درت السماء بالمطر تدر وتدر درا ... إذا كثر نزول المطر منها .

وهو حال من السماء ، ولم يؤنث مع أنه حال من مؤنث ، باعتبار أن المراد بالسماء هنا المطر أو السحاب .

والمعنى : أن هودا - عليه السلام - قال لقومه يا قوم اعبدوا الله واستغفروه وتوبوا إليه .. فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله - تعالى - عليكم المطر غزيرا متتابعا فى أوقات حاجتكم إليه ؛ لتشربوا منه وتسقوا به دوابكم وزروعكم .

وجملة ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ معطوفة على ما قبلها .

أى : وأيضا إن فعلتم ذلك زادكم الله - تعالى - عزا إلى عزكم ، وشدة إلى شدتكم التى عرفتم بها ، ووهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة .

قال الآلوسى : « رغبهم - عليه السلام - بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات . وقيل : حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين ، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار ، ومضاعفة القوة بالتناسل ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٧٣ .

ثم حذرهم من مقابلة نعم الله بالكفر والجحود فقال : ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ والتولى : هو الإعراض عن الشيء بإصرار وعناد .

أى : ولا تتولوا عما دعوتكم إليه وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من إجرام وجحود وعناد .

وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد وضح لقومه دعوته ، ورغبهم فى الاستجابة لها ، وحذرهم من الإعراض عنها ، وناداهم بلفظ - يا قوم - ثلاث مرات ، توددا إليهم ، وتذكيرا لهم بآصرة القرابة التى تجمعهم وإياه . لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

ولكن قوم هود - عليه السلام - قابلوا كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه فقالوا : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة .. ﴾ .

والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل . أى : قالوا له يا هود إنك لم تجئنا بحجة تقنعنا بأنك على الحق فيما تدعو إليه ، وترضى نفوسنا وطباعنا وعاداتنا .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ﴾ .

أى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل : اتركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده .

ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم بقولهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أى : بمستجيبين لك ومصدقين .

ثم أضافوا إلى إصرارهم هذا استخفافا به وبما يدعو إليه فقالوا : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ... » .

ومعنى اعتراك : أصابك ومسك . يقال عراه الأمر واعتراه أى أصابه ، وأصله من قولهم : عراه يعروه ، أى : غشيه وأصابه . ومنه قول الشاعر :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... أى : تصيبنى .

أى : ما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمتبعين ، بل عليك أن تيأس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وحالتك التى نراها بأعيننا تجعلنا نقول لك : إن سبك لآلهتنا جعل بعضها - لا كلها - يتسلط عليك ، ويوجه قدرته نحوك ، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض .

ولم يقولوا : « اعتراك آلهتنا بسوء » بل قالوا : ﴿ بعض آلهتنا ﴾ تهديدا له وإشارة إلى

أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا .

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تدرجوا فيها من السيء إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقبح .. مما يدل على توغلهم فى الطغيان ،وبلوغهم النهاية فى العناد والكفر والجحود .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .. » .

أى : مسك بجنون لسبك إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء ، فمن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان المبرسمين .

ثم قال . وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ،ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد .

وهذا الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا فى حجارة أنها تنتصر وتنتقم ... »[1] .

والآن وبعد أن استمع هود – عليه السلام – إلى ردودهم القبيحة ماذا كان موقفه منهم ؟

لقد كان موقفه منهم : موقف المتبرئ من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم والمعتمد على الله – تعالى – وحده فى الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال :

﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾ .

أى : قال هود – عليه السلام – للطغاة من قومه بعزة وثقة ﴿ إنى أشهد الله ﴾ الذى لا رب سواه على براءتى من عبادتكم لغيره .

﴿ واشهدوا ﴾ أنتم أيضا على ﴿ أنى برىء مما تشركون من دونه ﴾ .

أى : على براءتى من كل عبادة تعبدونها لغير الله – تعالى – لأنها عبادة باطلة . يحتقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

فأنت تراه فى هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لآلهتهم ، وبراءته من شركهم ،وإستخفافه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٥ .

بأصنامهم التى زعموا أن بعضها قد أصابه بسوء ، ويوثق هذه البراءة بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم .

وذلك كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد الله وأشهدك على أنى فعلت بك كذا وكذا ، وقلت فى حقك كذا وكذا ... فافعل أنت ما بدا لك !!

ثم ينتقل من براءته من شركهم ، إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول : ﴿ فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ .

أى : لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أنى برىء من شرككم ، وهاأنذا فى مواجهتكم ، فانضموا إلى آلهتكم ،وحاربونى بما شئتم من ألوان المحاربة والأذى بدون تريث أو إمهال ، فإنى لن أكف عن الجهر بدعوتى ، ولن أتراجع عن احتقار الباطل الذى أنتم عليه .

وهذا - كما يقول صاحب الكشاف - من أعظم الآيات ، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه ،وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم ..[1] .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان السبب الذى دعاه إلى البراءة من شركهم ، وإلى عدم المبالاة بهم فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إنى توكلت على الله ربى وربكم ... ﴾ .

أى : إنى فوضت أمرى إلى الله الذى هو ربى وربكم ، ومالك أمرى وأمركم ، والذى لا يقع فى هذا الكون شىء الا بإرادته ومشيئته .

وفى قوله : ﴿ ربى وربكم ﴾ مواجهة لهم بالحقيقة التى ينكرونها ، لإفهامهم أن إنكارهم لا قيمة له ، وأنه إنكار عن جحود وعناد .. فهو - سبحانه - ربهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه . وقوله ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ تصوير بديع لشمول قدرته - سبحانه - والأخذ : هو التناول للشىء عن طريق الغلبة والقهر .

والناصية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه .

قال الإمام الرازى : واعلم أن العرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان . أى أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون ..[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٣ .

والمعنى : إنى اعتمدت على الله ربى وربكم : ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا والله - تعالى - مالكها وقاهر لها ، وقادر عليها ، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه .

وفى هذا التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام ، كما تناسب غلظة قوم هود وشدتهم . وصلابة أجسامهم وبنيتهم ، وجفاف حسهم ومشاعرهم .. فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : إنكم مهما بلغتم من القوة والبطش ، فما أنتم الا دواب من تلك الدواب التى يأخذ ربى بناصيتها . ويقهرها بقوته قهراً يهلكها - إذا شاء ذلك - فكيف أخشى دوابا مثلكم مع توكلى على الله ربى وربكم ؟!

ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله - تعالى - بوصف آخر يدل على عدالته وتنزهه عن الظلم فيقول : ﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾ .

أى : إن ربى قد اقتضت سنته أن يسلك فى أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم على لأنه - حاشاه - أن يسلط من كان متمسكا بالباطل ، على من كان متمسكا بالحق .

واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه ، للإشارة إلى أن لطفه - سبحانه - يشمل هودا وحده ولا يشملهم ، لأنهم أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

ثم ختم هود - عليه السلام - رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم فقال : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ... ﴾ .

أى : فإن تتولوا عن دعوتى ، وتعرضوا عن الحق الذى جئتكم به من عند ربى ، فتكون عاقبتكم خسرا ، وأمركم فرطا .

أما أنا فقد أديت واجبى ، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم من عند ربى بدون تكاسل أو تقصير . وقوله ﴿ ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ﴾ وعيد لهم بإهلاكهم وإحلال غيرهم محلهم .

أى : وهو - سبحانه - سيهلككم بسبب إصراركم على كفركم فى الوقت الذى يشاؤه ، ويستخلف من بعدكم قوما آخرين سواكم، يرثون دياركم وأموالكم، ولن تضروا الله شيئا من الضرر بسبب إصراركم على كفركم ، وإنما أنتم الذين تضرون أنفسكم بتعريضها للدمار فى الدنيا ، وللعذاب الدائم فى الآخرة .

وقوله : ﴿ إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾ أى : إن ربى قائم على كل شىء بالحفظ والرقابة والهيمنة ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أن يحفظ رسله وأولياءه ، وأن يخذل أعداءه .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا بأسلوب بليغ حكيم ، جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فماذا كانت نتيجة هذا الحوار والجدال ؟

لقد كانت نتيجته إنجاء هود والذين آمنوا معه ، وإهلاك أعدائهم .

قال - تعالى - ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾.

والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه - ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ الأمر بنزول العذاب بهم .

أى : وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا فى قوم هود ، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم ﴿ نجينا هودا والذين آمنوا معه ﴾ تنجية مصحوبة ﴿ برحمة ﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

﴿ ونجيناهم ﴾ كذلك ﴿ من عذاب غليظ ﴾ أى : من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ووصف العذاب بأنه غليظ ، بهذا التصوير المحسوس ، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة ، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة فى الأجسام ، ومن تفاخر بالقوة .

قال - تعالى - ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ... ﴾[1] .

وكان عذابهم كما جاء فى آيات أخرى بالريح العقيم ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .. ﴾.

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ وتلك عاد ... ﴾ يعود إلى القبيلة أو إلى آثارهم التى خلفوها من بعدهم . أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها هود - عليه السلام - وتلك هى عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم ، وتهوينا من شأنهم بعد أن انتهوا ،وبعدوا عن الأنظار والأفكار ، وقد كانوا يقولون : من أشد منا قوة .

وقوله : ﴿ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .. ﴾ بيان لجرائمهم التى استحقوا بسببها العذاب الغليظ .

والجحد : الإنكار الشديد للحق الواضح .

(١) سورة فصلت الآية ١٥ .

وآيات ربهم : الحجج والبراهين التى جاء بها الأنبياء من ربهم للدلالة على صدقهم .
والجبار : هو الشخص المتعالى المتعاظم على الناس ، المترفع عن الاستجابة للحق .
والعنيد : المعاند الطاغى الذى يعرف الحق ولكنه لا يتبعه .

أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه ، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم ، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون تفكر أو تدبر .

وقال - سبحانه - ﴿ وعصوا رسله ﴾ مع أنهم قد عصوا رسولا واحدا هو هود - عليه السلام - ، للإشارة إلى أى معصيتهم لهذا الرسول كأنها معصية للرسل جميعا ، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وهى : عبادة الله - تعالى - وحده ، والتقيد بأوامره ونواهيه .

والإشارة أيضا إلى ضخامة جرائمهم ، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلا لا رسولا .

وقد وصفهم - سبحانه - فى هذه الآية بثلاث صفات هى أعظم الصفات فى القبح والشناعة : أولها : جحودهم لآيات ربهم . وثانيها : عصيانهم لرسله . وثالثها : اتباعهم أمر رؤسائهم الطغاة .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم مع نبيهم فى هذه السورة بقوله : ﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾.

والإتْباع : اقتفاء أثر الشىء بحيث لا يفوته . يقال : أتبع فلان فلانا إذا اقتفى أثره لكى يدركه أو يسير على نهجه .

واللعنة : الطرد بإهانة وتحقير .

أى : أنهم هلكوا مشيعين ومتبوعين باللعن والطرد من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ تسجيل لحقيقة حالهم ، ودعاء عليهم بدوام الهلاك ، وتأكيد لسخط الله عليهم .

أى : ألا إن قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن رحمة الله ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستحبابهم العمى على الهدى .

وتكرير حرف التنبيه « ألا » وإعادة لفظ « عاد » للمبالغة فى تهويل حالهم وللحض على الاعتبار والاتعاظ بمآلهم .

هذا ، ومن العبر البارزة فى هذه القصة :

١ - أن الداعى إلى الله ، عليه أن يذكر المدعوين بما يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، ويرغبهم فى اتباع الحق ، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم .

وأن الانحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم .

انظر إلى قول هود - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾ .

٢ - وأن الداعى إلى الله - تعالى - عندما يخلص لله دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - فى تبليغ رسالته ، ويغار عليها كما يغار على عرضه أو أشد .

فإنه فى هذه الحالة سيقف فى وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم .. لأنه قد آوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر فى قصة هود عليه السلام .

ألا تراه وهو رجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا طغاة ، إذا بطشوا بطشوا جبارين ، يدلون بقوتهم ويقولون فى زهو وغرور : من أشد منا قوة .

ومع كل ذلك عندما يتطاولون على عقيدته ؛ ويراهم قد أصروا على عصيانه .

يواجههم بقوله : ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون .. ﴾ .

أرأيت كيف واجه هود - عليه السلام - هؤلاء الغلاظ الشداد بالحق الذى يؤمن به دون مبالاة بوعيدهم أو تهديدهم .. ؟

وهكذا الإيمان بالحق عندما يختلط بالقلب .. يجعل الإنسان يجهر به دون أن يخشى أحداً إلا الله - تعالى - .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم فتحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى -

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾

هذه قصة صالح - عليه السلام - مع قومه كما ذكرتها هذه السورة ، وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة الأعراف ، والشعراء ، والنمل ، والقمر .

وصالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - فهو صالح بن عبيد بن آسف بن ما سح بن عبيد بن حاذر بن ثمود .. بن نوح .

وثمود : اسم للقبيلة التى منها صالح ، سميت باسم جدها ثمود ،وقيل سميت بذلك لقلة مائها ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وموقعه الآن - تقريبا - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح حتى اليوم .

وقبيلة صالح من القبائل العربية ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام فقد قال - سبحانه - : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا .. ﴾[1] .

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - اليهم صالحاً ليأمرهم بعبادة الله وحده .

وقوله : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ معطوف على ما قبله من قصتى نوح وهود - عليهما السلام -

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا - عليه السلام فقال لهم تلك الكلمة التى قالها كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذى خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكرهم بقدرة الله - تعالى - وبنعمه عليهم فقال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ .

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشىء على غير مثال سابق .

واستعمركم من الإعمار ضد الخراب فالسين والتاء للمبالغة . يقال : أعمر فلان فلانا فى المكان واستعمره ، أى جعله يعمره بأنواع البناء والغرس والزرع .

أى : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، لأنه - سبحانه - هو الذى ابتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها وهو الذى جعلكم المعمرين لها ، والساكنين فيها ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتا ... ﴾ .

قال - تعالى - فى شأنهم .. ﴿ أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ﴾[2] .

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد ذكرهم بجانب من مظاهر قدرة الله ومن أفضاله عليهم ، لكى يستميلهم إلى التفكر والتدبر ، وإلى تصديقه فيما يدعوهم إليه .

والفاء فى قوله ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ للتفريع على ما تقدم .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء الآيات من ١٤٦ - ١٥٠ .

أى : إذا كان الله - تعالى - هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فعليكم أن تخلصوا له العبادة ، وأن تطلبوا مغفرته عما سلف منكم من ذنوب .

ثم تتوبوا إليه توبة صادقة : تجعلكم تندمون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر ، وتعزمون على التمسك بكل ما يرضى الله - تعالى - فى المستقبل .

ثم فتح أمامهم باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : ﴿ إن ربى قريب مجيب ﴾ .

أى : إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب الدعاء الداعين المخلصين ، فاقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمة الله .

ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. ﴾ .

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح لقد كنت فينا رجلا فاضلا نرجوك لمهات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك .. قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك ، وصرت فى رأينا رجلا مختل التفكير .

فالإشارة فى قوله ﴿ قبل هذا ﴾ إلى الكلام الذى خاطبهم به حين بعثه الله إليهم .

والاستفهام فى قولهم ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ للتعجيب والإنكار .

أى : أجئتنا بدعوتك الجديدة لتنهانا عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤنا من قبلنا ؟

لا ، إننا لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين وإننا على آثارهم نسير .

ثم ختموا ردهم عليه بقولهم : ﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة أى : القلق والاضطراب .

أى : لن نترك عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا ، وإننا لفى شك كبير ، وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه .

فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل ، ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس بل يرد عليهم بأسلوب حكيم فيقول :

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ .

أى قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى .

﴿ وآتانى منه رحمة ﴾ أى : وأعطانى من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارنى لحمل رسالته . وتبليغ دعوته .

وجملة ﴿ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ﴾ جواب الشرط وهو قوله ﴿ إن كنت على بينة ﴾ .

أى : إذا كان الله - تعالى - قد منحنى كل هذه النعم ، وأمرنى بأن أبلغكم دعوته فمن ذا الذى يجيرنى ويعصمنى من غضبه ، إذا أنا خالفت أمره أو قصرت فى تبليغ دعوته ، احتفاظا برجائكم فى ، ومسايرة لكم فى باطلكم ؟

لا ، إننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى عن ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .

وقوله ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ تصريح منه بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .

والتخسير : مصدر خسر ، يقال خسر فلان فلانا إذا نسبه إلى الخسران . أى : فما تزيدوننى بطاعتكم ومعصية ربى غير الوقوع فى الخسران ، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه وحاشاى أن أخالف أمر ربى إرضاء لكم .

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق بالله - تعالى - ، ومن ثبات على دعوته ومن حرص على طاعته - سبحانه -

ثم أرشد صالح - عليه السلام - إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال :

﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية .. ﴾ أى : معجزة ، واضحة دالة على صدقى وفى إضافة الناقة إلى الله - تعالى - تعظيم لها وتشريف لحالها ، وتنبيه على أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التى تستعمل فى الركوب والنحر وغيرهما . لأن الله - تعالى - قد جعلها معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ولم يجعلها كغيرها .

وقد ذكر بعض المفسرين من صفات هذه الناقة وخصائصها . مالا يؤيده نقل صحيح ، لذا أضربنا عن كل ذلك صفحا ، ونكتفى بأن نقول : بأنها كانت ناقة ذات صفات خاصة مميزة ، تجعل قوم صالح يعلمون عن طريق هذا التمييز لها عن غيرها أنها معجزة دالة على صدق نبيهم - عليه السلام - فيما يدعوهم إليه .

وقوله : ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء وتحذير لهم من نتائج مخالفة أمره .

أى : اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله الواسعة ؛ ومن رزقه الذى تكفل به لكل دابة ، واحذروا أن تمسوها بشيء من السوء مهما كان قليلا ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب .

والتعبير بقوله ﴿ فيأخذكم ﴾ بفاء التعقيب وبلفظ الأخذ ، يفيد سرعة الأخذ وشدته ، لأن أخذه - سبحانه - أليم شديد .

ولكن قوم صالح - عليه السلام - لم يستمعوا إلى تحذيره ، بل قابلوه بالطغيان والعصيان ، ﴿ فعقروها ﴾ أى : فعقروا الناقة ﴿ وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾[1] .

والفاء معطوفة على محذوف : أى فخالفوا ما نهاهم عنه نبيهم فعقروها أى نحروها وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل فى النحر لأن ناحر البعير يعقله ثم ينحره فقال لهم صالح - عليه السلام - بعد عقرها ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ .

والتمتع : الانتفاع بالمتاع ، وهو اسم لما يحتاج إليه الإنسان فى هذه الحياة من مأكل ومشرب وغيرهما .

والمراد بدارهم : أماكن سكناهم التى يعيشون فيها .

أى : قال لهم نبيهم بعد نحرهم للناقة : عيشوا فى بلدكم هذا ، متمتعين بما فيه من نعم لمدة ثلاثة أيام : فقط ، فهى آخر ما بقى لكم من متاع هذه الدنيا ، ومن أيام حياتكم .

﴿ ذلك ﴾ الوعد بنزول العذاب بكم بعد هذه المدة القصيرة .

﴿ وعد غير مكذوب ﴾ فيه لأنه صادر من الله - تعالى - الذى لا يخلف وعده .

وعبر عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد على سبيل التهكم بهم .

قال الجمل : « ومكذوب » يجوز أن يكون مصدرًا على وزن مفعول ، وقد جاء منه ألفاظ نحو : المجلود والمعقول والمنشور والمغبون ، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابه وفيه تأويلان : أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعًا مستترًا فى الصفة ومثله : يوم مشهود . والثانى : أنه جعل هو نفسه غير مكذوب ، لأنه قد وفى به ، وإذا وفى به فقد صدق »[2] .

ولقد تحقق ما توعدهم به نبيهم ، فقد حل بهم العذاب فى الوقت الذى حدده لهم ، قال

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٠٨ .

- تعالى - ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى : فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم فى الوقت المحدد .

﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ أى برحمة عظيمة كائنة منا .

ونجيناهم أيضًا ﴿ من خزى يومئذ ﴾ أى : من خزى وذل ذلك اليوم الهائل الشديد الذى نزل فيه العذاب بالظالمين من قوم صالح - عليه السلام - فأبادهم .

فالتنوين فى قوله ﴿ يومئذ ﴾ عوض عن المضاف إليه المحذوف .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن ربك هو القوى العزيز ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - وللمؤمنين عما أصابهم من أذى .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو القوى الذى لا يعجزه شىء ، العزيز الذى لا يهون من يتولاه ويرعاه ، فلا تبتئس عما أصابك من قومك ، فربك قادر على أن يفعل بهم ، ما فعله بالظالمين السابقين من أمثالهم .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين تصويرا يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ فقال : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدًا لثمود ﴾ .

والصيحة : الصوت المرتفع الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق الصوت ، من قولهم : انصاح الخشب والثوب ، إذا انشق فسمع له صوت .

و ﴿ جاثمين ﴾: من الجثوم وهو للناس وللطير بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم .. إذا وقع على صدره ، ولزم مكانه فلم يبرحه .

ويغنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال : غنى فلان بالمكان يغنى إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام - عن طريق الصيحة الشديدة التى صيحت بهم بأمر الله - تعالى - ﴿ فأصبحوا ﴾ بسببها ﴿ فى ديارهم جاثمين ﴾ أى : هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة ...

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى : كأن هؤلاء القوم الظالمين لم يقيموا فى ديارهم عمرا طويلاً وهم فى رخاء من عيشهم .

﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ أى : ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم وجحودها ؛ ألا بعدًا وسحقًا وهلاكًا لهؤلاء المجرمين من قبيلة ثمود .

وفى تكرار حرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ وتكرار لفظ ﴿ ثمود ﴾ تأكيد لطردهم من رحمة الله ،

وتسجيل لما ارتكبوه من منكرات .

وبذلك انطوت صفحة أولئك الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - كما انطوت من قبلهم صحائف قوم نوح وهود - عليهما السلام - .

ومن أبرز العبر والعظات التى نأخذها من قصة صالح مع قومه كما وردت فى هذه السورة الكريمة : أن النفوس إذا انطمست ، والعقول إذا انتكست ، تعجب مما لا عجب فيه ؛ وتستنكر ما هو حق وصدق ، وتسىء ظنها بالشخص الذى كان بالأمس القريب موضع رجائها وثقتها ، لأنه أتاهم بما لم يألفوه ... حتى ولو كان ما أتاهم به فيه سعادتهم وهدايتهم ...

فصالح - عليه السلام - كان مرجوا فى قومه قبل أن يكون نبيًا ، فلما صار نبيًا وبلغهم ما أرسله الله به ، خاب أملهم فيه ، وساء ظنهم به ، وجاهروه بالعداوة والعصيان ... مع أنه أتاهم بما يسعدهم ...

وصدق الله إذ يقول : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[1] .

هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - ﷺ - قد مر على ديار ثمود وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله - ﷺ - بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لئلا يصيبكم ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى .

ثم ساقت السورة الكريمة جانبًا من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة ، الذين جاءوه بالبشارة ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ .

قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

هذه قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، وبإخباره بإهلاك قوم لوط - عليه السلام - .

وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة الحجر فى قوله - تعالى - : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا ، قال إنا منكم وجلون ... ﴾[1] .

ومنها سورة الذاريات فى قوله - تعالى - ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا ، قال سلام قوم منكرون ... ﴾[2] .

والمراد بالرسل فى قوله - سبحانه - ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ جماعة من الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - لتبشير إبراهيم بابنه إسحاق .

وقد اختلفت الروايات فى عددهم فعن ابن عباس أنهم ثلاثة وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل . وعن الضحاك أنهم كانوا تسعة ، وعن السدى أنهم كانوا أحد عشر ملكًا ..

والحق أنه لم يرد فى عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله - تعالى - .

---

(١) الآيات من ٥١ إلى ٦٠ .

(٢) الآيات من ٢٤ إلى ٣٧ .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة وهى الخبر السار ، فهى أخص من الخبر ، وسميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه أى : جلده .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التأكيد للاهتمام بمضمونها ، وللرد على مشركى قريش وغيرهم ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .

والباء فى قوله - سبحانه - ﴿ بالبشرى ﴾ للمصاحبة والملابسة ، أى : جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : ﴿ قالوا سلامًا قال سلام ﴾ حكاية لتحيتهم له ولرده عليهم .

﴿ وسلاما ﴾ منصوب بفعل محذوف . أى قالوا نسلم عليك سلاما .

﴿ وسلام ﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى قال أمرى سلام .

وقرأ حمزة والكسائى : قال سلم وهو اسم للمسالمة .

ثم بين - سبحانه - ما فعل إبراهيم مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم فقال : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ .

و « ما » فى قوله ﴿ فما لبث ﴾ نافية ، والفاء للتعقيب ، واللبث فى المكان معناه : عدم الانتقال عنه . والعجل : الصغير من البقر .

والحنيذ : السمين المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض . يقال : حنذ الشاة يحنذها حنذًا أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : فما أبطأ وما تأخر إبراهيم - عليه السلام - عن إكرامهم ، بل بمجرد أن انتهى من رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ ...

وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من آداب الضيافة ، تعجيل القرى للضيف ..

قال أبو حيان : والأقرب فى إعراب ﴿ فما لبث أن جاء ... ﴾ أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، ولبث معناه تأخر وأبطأ و ﴿ أن جاء ﴾ فاعل لبث والتقدير : فما تأخر مجيئه ...

ويجوز أن يكون فاعل لبث ضمير إبراهيم ، وأن جاء على إسقاط حرف الجر ، أى فما تأخر فى أن جاء بعجل حنيذ ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال : ﴿ فلما

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ٢٤١ طبعة دار الفكر ببيروت .

رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ... ﴾ .

ومعنى ﴿ نكرهم ﴾ : نفر منهم ، وكره تصرفهم . نقول : فلان نكر حال فلان - كعلم - وأنكره نكرًا ونكورًا ... إذا وجده على غير ما يعهده فيه ، ويتوقعه منه .

﴿ وأوجس ﴾ من الوجس وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف والفزع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم ، نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفًا ورعبًا ؛ لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه - بدون سبب مقنع - يشعر بأن هذا الضيف ينوى شرًا به ... والتقاليد فى كثير من البلاد إلى الآن تؤيد ذلك .

ولذا قالت الملائكة لإبراهيم عندما لاحظوا ما يساور نفسه من الخوف : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

أى : لا تخف يا إبراهيم فإنا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله - تعالى - أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

وقد جاء فى بعض الآيات أنه صارحهم بالخوف منهم ، ففى سورة الحجر قال - تعالى - : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ... ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث بعد ذلك فقال : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

والمراد بامرأته - كما يقول القرطبى - « سارة بنت هاران بن ناحور ، ابن شاروع ، بن أرغو ، ابن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم »[١] .

وقيامها كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف ... أو لغير ذلك من الأمور التى تحتاجها المرأة فى بيتها .

والمراد بالضحك هنا حقيقته . أى : فضحكت سرورًا وابتهاجًا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، أو بهما معا ...

قال الشوكانى : والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب والسرور كما قاله الجمهور .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٠ .

وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض ، ومنه قول الشاعر :

وإنى لآتى العرس عند طهورها وأهجرها يومًا إذا تك ضاحكا

وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت[1] .

أى : وفى أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف ... كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك « ضحكت » سرورًا وفرحًا لزوال خوفه ﴿ فبشرناها ﴾ عقب ذلك بمولودها ﴿ إسحاق ﴾ كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله ﴿ يعقوب ﴾ ، فهى بشارة مضاعفة . إذ أنها تحمل فى طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها ...

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس . ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة يهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : ﴿ ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا إن هذا لشىء عجيب ﴾ .

وكلمة ﴿ ياويلتا ﴾ تستعمل فى التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه .

والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك ، وهى كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له ، ويتعجبن منه .

أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز ، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل، ﴿ وهذا بعلى ﴾ أى : زوجى إبراهيم « شيخا » كبيرًا متقدمًا فى السن .

قال الجمل : وهاتان الجملتان - ﴿ وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا ﴾ - فى محل النصب على الحال من الضمير المستتر فى ﴿ أألد ﴾ ، وشيخًا حال من بعلى ، والعامل فيه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل »[2] .

وقوله - كما حكى القرآن عنها - ﴿ إن هذا لشىء عجيب ﴾ أى : إن هذا الذى بشرتمونى به من حصول الولد لى فى تلك السن المتقدمة ﴿ لشىء عجيب ﴾ فى مجرى العادة عند النساء وقد رد عليها الملائكة بقولهم : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ ؟!!

أى : أتستبعدين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة ؟ لا إنه لا ينبغى لك أن تستبعدى ذلك ، لأن قدرة الله لا يعجزها شىء . فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها واستبعادها البشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥١٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤١١ .

وقوله : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ حكاية لما قالته الملائكة لها ، زيادة فى سرورها وفى إدخال الطمأنينة على قلبها .

أى رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب .

وإلى ذلك أشارت الملائكة فى قولهم ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ .

أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب . والكلام مستأنف علل به إنكار التعجب . كأنه قيل : « إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنه حميد مجيد ﴾ تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .

أى إنه - سبحانه - ﴿ حميد ﴾ أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده ﴿ مجيد ﴾ أى : كريم واسع الإحسان ، فليس بعيدًا منه أن يعطى الولد للآباء بعد الكبر .

قال صاحب المنار ما ملخصه : وأصل المجد فى اللغة أن تقع الإبل فى أرض واسعة المرعى ، كثيرة الخصب ، يقال : مجدت الإبل تمجد من باب نصر - مجدًا ومجادة ، وأمجدها الراعى .

والمجد فى البيوت والأنساب ما يعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة نوالهم .

ووصف الله كتابه بالمجيد ، كما وصف نفسه بذلك ، لسعة هداية كتابه ، وسعة كرمه وفضله على عباده ... »[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من إبراهيم بعد أن سكن خوفه ، واطمأن إلى ضيوفه فقال : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ أى : الخوف والفزع ، بسبب اطمئنانه إلى ضيوفه ، وعلمه أنهم ليسوا من البشر .

﴿ وجاءته البشرى ﴾ منهم بالولد ، واتصال النسل ، فازداد سرورا بهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨١ .
(٢) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٣٠ .

بعد كل ذلك ، أخذ إبراهيم ﴿ يجادلنا فى قوم لوط ﴾ أى : يجادل رسلنا ويحاورهم فى شأن قوم لوط ، وفى كيفية عقابهم ، بعد أن أخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاكهم .

وأضاف - سبحانه - المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة ، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره - تعالى - ، فمجادلة إبراهيم لهم هى مجادلة فى تنفيذ أمره - تعالى - .

وقال - سبحانه - ﴿ يجادلنا ﴾ مع أنها كانت فى الماضى ، لتصوير هذه الحالة فى الذهن تصويرًا حاضرًا ، حتى تزداد منه العبرة والعظة .

وهذه المجادلة التى كانت بين إبراهيم وبين الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، قد حكاها - سبحانه - فى سورة العنكبوت فى قوله : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ أى القرية التى يسكنها قوم لوط ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطًا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ الآيتان ٣١ - ٣٢ .

وهذا التفسير للمجادلة التى دارت بين إبراهيم والملائكة فى عقاب قوم لوط هو الصحيح لأن خير تفسير للقرآن هو ما كان بالقرآن .

وما ورد من أقوال تخالف ذلك فلا يلتفت إليها ، لعدم استنادها إلى النقل الصحيح .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ بيان للدواعى التى حملت إبراهيم - عليه السلام - على مجادلة الملائكة فى شأن إهلاك قوم لوط .

والحليم : هو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها بالإحسان .

والأواه : هو الذى يكثر التأوه من خشية الله .

قال الآلوسى : وأصل التأوه قوله : آه ونحوه مما يقوله المتوجع الحزين . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال رجل : يا رسول الله ما الآواه ؟ قال : « الخاشع المتضرع الكثير الدعاء »[1] .

والمنيب : السريع الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والاستغفار .

أى أن إبراهيم لصبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، كثير التضرع إلى الله ، سريع الرجوع إليه فى كل ما يحبه ويرضاه .

ولكن حلم إبراهيم وإنابته ... لم يرد قضاء الله العادل فى شأن قوم لوط ولذا قالت الملائكة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٣٥ .

له - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم : ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ الجدال فى أمر قوم لوط، وفى طلب إمهال عقوبتهم ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ بإهلاكهم ﴿ وإنهم ﴾ بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش ﴿ آتيهم ﴾ من ربهم ﴿ عذاب ﴾ شديد ﴿ غير مردود ﴾ عنهم لا بسبب الجدال ولا بأى سبب سواه ، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين . هذا ، وقد ذكر الشيخ القاسمى بعض الفوائد والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات فقال : قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات وفوائد .

منها : أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وأن هلاك العاصى نعمة - أيضًا - لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق لقوله ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ وفسرت بهلاك قوم لوط ، لقوله : ﴿ قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

ومنها : استحباب نزول المبشر - بالكسر - على المبشر - بالفتح - لأن الملائكة أرسلهم الله - تعالى - لذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشر أن يتلقى البشارة بالشكر لله - تعالى - على ما بشر به . فقد حكى عن الأصم أنه قال : جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم ﴿ سلام ﴾ بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامرأته قائمة ؛ أى فى خدمة أضياف إبراهيم ... وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .

ومنها : جواز مراجعة الأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه - ﷺ - من أهل بيته[1] :

ومنها : - كما يقول الإمام ابن كثير - استدل على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٦٧ .

إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح اسحاق والحالة هذه ، فتعين أن يكون الذبيح إسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه :[1]

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عما دار بين لوط وبين الملائكة وبينه وبين قومه من حوار وجدال فقال - تعالى - :

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٦ .

- تلك هى قصة لوط مع الرسل الذين جاءوا لإهلاك قومه ومع قومه المجرمين ، كما حكتها سورة هود .

- وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى وبأساليب متنوعة ، ومنها سورة الأعراف ، والحجر ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصافات ، والذاريات ، والقمر ..

قال الإمام ابن كثير : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، فهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل بلدة سدوم وما حولها يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها دون أن يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شىء لم يكن أحد من بنى آدم يعهده ولا يألفه ولا يخطر بباله ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهم قرية بوادى الأردن عليهم لعائن الله »[1] .

- وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا بتصوير ما اعترى لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ... ﴾ .

- أى : وحين جاء الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم ..

قال ابن كثير ما ملخصه : « يخبر الله - تعالى - عن قدوم رسله من الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم .. فأتوا لوطًا - عليه السلام - وهو على ما قيل فى أرض له . وقيل فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم ... »[2] .

- وقوله : ﴿ وضاق بهم ذرعًا ﴾ تصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذى حل بهم .

قال القرطبى : والذرع مصدر ذرع . وأصله : أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعًا على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه القىء أى غلبه .

أى : ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٦ .

وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه ... »[١] .

- و ﴿ ذرعا ﴾ تمييز محول عن الفاعل . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ : أى وقال لوط - عليه السلام - فى ضجر وألم : هذا اليوم الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف ، يوم « عصيب » أى : شديد هوله وكربه .

وأصل العصب : الشد والضغط ، فكأن هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه قد عصب به الشر والبلاء ، أى : شد به .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها فى الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا علم أنه لا مخلص له منه ضاق به ذرعًا . ثم يصدر تعبيرًا عن المعانى يريح به نفسه »[٢] .

- ثم بين - سبحانه - ما كان من قوم لوط - عليه السلام - عندما علموا بوجود هؤلاء الضيوف عنده فقال : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه . ومن قبل كانوا يعملون السيئات ... ﴾ .

- ويهرعون - بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبنى للمفعول - أى : يدفع بعضهم بعضًا بشدة ، كأن سائقًا يسوقهم إلى المكان الذى فيه لوط وضيوفه .

يقال : هُرع الرجل وأهرع - بالبناء للمفعول فيهما - إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك .

قال الآلوسى : والعامة على قراءته مبنيًا للمفعول ، وقرأ جماعة يهرعون - بفتح الياء مع البناء للفاعل - من هرِع - بفتح الهاء والراء - وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان ، كأن بعضه يدفع بعضًا[٣] .

أى : وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضًا إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجىء ، كان هؤلاء القوم الفجرة ، يرتكبون السيئات الكثيرة ، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء .

وقد طوى القرآن الكريم ذكر الغرض الذى جاءوا من أجله ، وأشار إليه بقوله : ﴿ ومن

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور جـ ١٢ ص ١٣٥ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٩٥ .

قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة فى نفوسهم الشاذة ، فلا يسعون إلا من أجل قضائها .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ ...

والمراد بيناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه ؛ لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ... ﴾ يرشدهم إلى نسائهم ، فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال لهم فى آية أخرى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ ...

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبى أبو أمته ...

وقال سعيد بن جبير : يعنى نساؤهم ، هن بناته وهو أب لهم ...[1] .

ومنهم من يرى أن المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن ...

ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء فى بعض الروايات - وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرًا ، فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج ..؟

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازى بأن قال ما ملخصه : « وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه . منها : أنه قال ﴿ هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ وبناته اللاتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل ..

ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : زنتا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ... »[2] .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التى ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم : برجاء ورفق ﴿ ياقوم ﴾ هؤلاء نساؤكم اللائى بمنزلة بناتى ارجعوا إليهن فاقضوا شهوتكم معهن فهن أطهر لكم نفسيًا وحسيًا من التلوث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٨ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٣٢ .

برجس اللواط ، وأفعل التفضيل هنا وهو ﴿ أطهر ﴾ ليس على بابه ، بل هو للمبالغة فى الطهر .

قال القرطبى : وليس ألف أطهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن فى نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أى كبير - ... ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه ... »[1] .

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشادًا آخر فقال : ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ... ﴾ .

قال الجمل : ولفظ الضيف فى الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق ليلاً إلى المضيف ، ولذا يقع على المفرد والمذكر وضديهما بلفظ واحد ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ، ويجمع فيقال : « أضياف وضيوف ... »[2] .

وتخزون : من الخزى وهو الإهانة والمذلة . يقال : خزى الرجل يخزى خزيًا ... إذا وقع فى بلية فذل بذلك .

أى : بعد أن أرشدهم إلى نسائهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله . ولا تجعلونى مخزيًا مفضوحًا أمام ضيوفى بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطًا - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلمس بها نخوتهم إن كان قد بقى فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله :

﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يهدى إلى الرشد والفضيلة . وينهى عن الباطل والرذيلة . فيقف إلى جانبى ، ويصرفكم عن ضيوفى ؟

ولكن هذا النصح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة الآسنة . ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة . بل ردوا عليه بقولهم :

﴿ قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يالوط علما لا شك معه ، أننا لا رغبة لنا فى النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٨٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤١٣ .

قال الشوكانى : قوله ﴿ مالنا فى بناتك من حق ﴾ أى : مالنا فيهن من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء . ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا فى نكاحهن ... »[1] .

وقولهم : ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنك لتعلم علمًا يقينيا الشىء الذى نريده فلماذا ترجعنا ؟!

وقولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور ..

لذا رد عليهم لوط - عليه السلام - رد اليائس من ارعوائهم عن غيهم ، المتمنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم ... ﴿ قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

والقوة : ما يتقوى به الإنسان على غيره .

وآوى : أى ألجأ وأنضوى تقول : أويت إلى فلان فأنا آوى إليه أُوِيًّا أى : انضممت إليه .

والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص القوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به ...

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه الاستمرار فى غيهم ، ولم يقدر على دفعهم - على سبيل التفجع والتحسر : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة أستطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ معطوف على ما قبله ، أو ليتنى أستطيع أن أجد شخصًا قويًا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى ...

قالوا : وإنما قال لوط - عليه السلام - ذلك ؛ لأنه كان غريبًا عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا - وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ - كشف له الملائكة عن حقيقتهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه ﴿ قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ أى : إنا رسل

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٥١٤ .

ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك يسوء فى نفسك أو فينا .

روى أن الملائكة لما رأوا ما لقيه لوط - عليه السلام - من الهم والكرب بسببهم قالوا له : يالوط إن ركنك لشديد ... ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أدبارهم يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله - تعالى - فى سورة القمر : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر ﴾ .

وقوله : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أى : فاخرج من هذه القرية مصحوبًا بالمؤمنين من أهلك فى جزء من الليل يكفى لابتعادك عن هؤلاء المجرمين .

قال القرطبى : قرىء « فاسر وفأسر بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . قال - تعالى - ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وقال « سبحان الذى أسرى بعبده ... ﴾ وقيل « فأسر » بالقطع تقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار ... »[1] .

وقوله : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ... ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ فأسر بأهلك ... ﴾ .

أى : فأسر بأهلك فى جزء من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه ، اتقاء لرؤية العذاب ، ﴿ إلا امرأتك ﴾ يالوط فاتركها ولا تأخذها معك لأنها كافرة خائنة ، ولأنها سيصيبها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين . فيهلكها معهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قوله ﴿ إلا امرأتك ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالرفع ، وقرأ الباقون بالنصب .

قال الواحدى : من نصب فقد جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك ...

وأما الذين رفعوا فالتقدير ؛ ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم .

روى عن قتادة أنه قال : إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت واقوماه فأصابها حجر فأهلكها »[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٣٦ .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ بشارة أخرى للوط - عليه السلام - الذى تمنى النصرة على قومه .

أى : إن موعد هلاك هؤلاء المجرمين يبتدىء من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه ؟

قال - تعالى - فى سورة الحجر : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ أى : وهم داخلون فى وقت الشروق . فكان ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهاؤه وقت الشروق .

والجملة الكريمة ﴿ إن موعدهم الصبح ... ﴾ كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدره من استعجاله العذاب لهؤلاء المجرمين .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ للتقرير أى : بلى إنه لقريب .

قال الآلوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له ؛ موعدهم الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا له ؛ أليس الصبح بقريب . ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين[1] .

ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ .

أى : « فلما أمرنا » بإهلاك هؤلاء القوم المفسدين ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين ؛ وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ...

وقوله : ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ زيادة فى عقوبتهم ولعنهم .

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليها حجارة ﴿ من سجيل ﴾ أي : من حجر وطين مختلط ، قد تحجر وتصلب ﴿ منضود ﴾ أى : متتابع فى النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من النضد وهو وضع الأشياء بعضها إلى بعض .

﴿ مسومة عند ربك ﴾ أى : معلمة بعلامات من عند ربك لا يعلمها إلا هو ، ومعدة إعدادًا خاصًا لإهلاك هؤلاء القوم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٠١ .

﴿ وما هى ﴾ أى تلك القرى المهلكة ﴿ من الظالمين ﴾ وهم مشركو مكة ﴿ ببعيد ﴾ أى : ببعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام .

قال - تعالى - ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار ، وتمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا وتتعظوا ؟؟

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله ﴿ وما هى ﴾ يعود إلى الحجارة التى أهلك الله بها هؤلاء القوم .

أى : وما هى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هى حاضرة مهيئة بقدرة الله - تعالى - لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين ما يشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، ولم يتبع ما جاء به الرسول - ﷺ - .

وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام -

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لا بأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .

فلوط - عليه السلام - عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء فى الحديث الشريف بشأن لوط - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

وظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله - ﷺ - « رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد » إنما هو من باب الإنكار على لوط - عليه السلام - فى قوله ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

والحق أنه لا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطًا - عليه السلام - إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش . من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط - عليه السلام - أنه يأوى من ربه - تعالى - إلى أمنع قوة ، وأشد ركن .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ - ١٣٨ .

ولا جناح على لوط - عليه السلام - فى طلب قوة من الناس - فقد قال الله - تعالى - ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ .

وقد طلب رسول الله - ﷺ - من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمرًا هو فعله ؟!!

تالله ما أنكر ذلك رسول الله - ﷺ - ، وإنما أخبر أن لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط علم بأنهم ملائكة ... ﴾[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك فقصت علينا ما كان بين شعيب - عليه السلام - وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب بليغ حكيم ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم قال - تعالى - :

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٧٢ .

كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

تلك هى قصة شعيب – عليه السلام – كما حكتها هذه السورة الكريمة ، وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها : سورتى الأعراف والشعراء ..

ومدين اسم للقبيلة التى تنتسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .

وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى (معان) وتقع بين حدود الحجاز والشام .

وأهل مدين يسمون أيضًا بأصحاب الأيكة .

والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية (معان) ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبًا إليهم جميعًا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، فهو أخوهم فى النسب .

وكان النبى - ﷺ - إذا ذكر شعيب قال : (ذلك خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه يعبدون الأصنام . ويطففون فى الكيل والميزان ... فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

ويرى بعض العلماء : أن شعيبًا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ؛ وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأن الله - تعالى - لم يبعث نبيًا مرتين سوى شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة ، فأهل مدين هم أصحاب الأيكة ، أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أى السحابة - وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ... ﴾ معطوف على ما سبقه من قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .

أى : وكما أرسلنا صالحًا - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبًا - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم ، وهو الذى إليه مرجعكم ...

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف فى الكيل والميزان فقال : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ .

والمكيال والميزان : اسمان للآلة التى يكال بها ويوزن .

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم .

فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم .

وإلى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - ﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ... ﴾ .

ثم بين لهم الأسباب التى دعته إلى أمرهم ونهيهم فقال : ﴿ إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ .

والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويغنيه ويسره .

ومحيط : أى شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه . كما يحيط الظرف بالمظروف ...

أى : أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل فى معاملاتكم ، فإنى أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون فى رغد من العيش ، وفى بسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لواهبها وهو الله - تعالى - وأن يستعملها استعمالاً يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

وإنى - أيضًا - أخاف عليكم إذا ما تماديتم فى مخالفة ما آمركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لا يستطيع أن يهرب منها ...

قال الشوكانى : وصف - سبحانه - اليوم بالإحاطة ، والمراد العذاب لأن العذاب واقع فى اليوم ، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنهم لا يشذ منهم أحد عنه ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا »[1] .

فأنت ترى أن شعيبًا - عليه السلام - بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم .. ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعًا لعذرهم حتى لا يقولوا له نحن فى حاجة إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ما حمله على هذا النصح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥١٨ .

النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب فى دعوته فقال : ﴿ وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ ..

أى : وياقوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم العدل والقسط .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ... ﴾ أى : ولا تنقصوهم شيئًا من حقوقهم . يقال : بخس فلان فلانًا حقه إذا ظلمه وانتقصه . وهو يشمل النقص والعيب فى كل شىء ..

والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكى تشمل غير المكيل والموزون كالمزروع والمعدود ، والجيد والردىء ...

قال الجمل ما ملخصه : وقد كرر - سبحانه - نهيهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء .. لأن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف الكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد ، ولا شك أن التكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور به والمنهى عنه ، فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ... »[١] .

وقوله : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله فى غير ما خلقت له .

قال ابن جرير : « وأصل العثى شدة الإفساد ، بل هو أشد الإفساد . يقال عثى فلان فى الأرض يعثى - كرضى يرضى - إذا تجاوز الحد فى الإفساد .. »[٢] .

أى : ولا تسعوا فى أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصى ، فتسلب عنكم ثم أرشدهم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال : ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

ولفظ ﴿ بقية ﴾ اسم مصدر من الفعل : بقى ، ضد : فنى . وإضافتها إلى الله - تعالى - إضافة تشريف وتيمن .

أى : ما يبقيه الله لكم من رزق حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة فى حياتكم ... بسبب التزامكم بالقسط فى معاملاتكم ، هو خير لكم من المال الكثير الذى تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤١٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٨ .

وجملة « إن كنتم مؤمنين » معترضة لبيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان .

أى : ما يبقيه الله لكم من الحلال ... هو خير لكم ، إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فلن تكون بقية الله خيرا لكم ، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين ، فاستجيبوا لنصيحتى لتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم .

وجملة « وما أنا عليكم بحفيظ » تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ .

أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه . وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربى بتبليغه ، وهو وحده - سبحانه - الذى سيتولى مجازاتكم .

وإلى هنا نجد شعيبًا - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى صِلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد ويهدى للتى هى أقوم ..

فماذا كان رد قومه عليه ؟

لقد كان ردهم عليه - كما حكاه القرآن الكريم - طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : ﴿ ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له - على سبيل التهكم والاستهزاء - : ياشعيب أصلاتك - التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تكثر منها - تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه ..

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه - عليه السلام - كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلى سخروا منه .

وجملة « أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » إنكار منهم لترك ما تعودوه من نقص الكيل والميزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

أى : أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن نترك ما تعودنا فعله فى أموالنا من التطفيف فى الكيل والميزان ...

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك ، فهى فى نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونًا من ألوان جنونك وهذيانك ..

وجملة « إنك لأنت الحليم الرشيد » زيادة منهم فى السخرية منه - عليه السلام - وفى

التهكم عليه ، فكأنهم - قبحهم الله - يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص فى الكيل والميزان ، مع علمك اليقينى بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذى يتأنى ويتروى فى أحكامه ، الرشيد الذى يرشد غيره إلى ما ينفعه ؟

إن هذين الوصفين لا يليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ، أى الجهالة والسفه والعجلة فى الأحكام .

قال صاحب الكشاف : وأرادوا بقولهم : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغى ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذى لا يبض حجره ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل معناه : إنك للمتواصف بالحلم والرشد فى قومك . يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما اشتهرت به ... »[1] .

هكذا رد قوم شعيب عليه ، وهو رد يحمل السخرية فى كل مقطع من مقاطعه ، ولكنها سخرية الشخص الذى انطمست بصيرته ، وقبحت سريرته !!

ومع كل هذه السفاهة ؛ ترى شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى .. ﴾ والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة منحنى إياها ربى ومالك أمرى .

﴿ورزقنى منه ﴾ - سبحانه - ، ﴿ رزقا حسنا ﴾ يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى المال الحلال الذى بين يدى ، وفى الحياة الطيبة التى أحياها .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبرونى إن كنت كذلك ، هل يليق بى بعد ذلك أن أخالف أمره مسايرة لأهوائكم ؟ كلا إنه لا يليق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع ما أمرنى بتبليغه دون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ... ﴾ .

أى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، وبنهيى إياكم عن التطفيف والبخس ، مجرد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٧ .

مخالفتكم ومنازعتكم ومعاكستكم ، أو أن آمركم بشيء ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية ..

كلا ، كلا إنى لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولى فعلى ، وأختار لكم ما أختاره لنفسى .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : قوله ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه . وخالفنى عنه : إذا ولى عنه وأنت تقصده .

ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفنى إلى الماء ، يريد أنه ذهب إليه واردا ، وهو ذهب عنه صادراً ، ومنه قوله - سبحانه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يعنى : ما أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم »[1] .

وقال الإمام ابن كثير ، وعن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود - رضى الله عنه - فقالت له : أأنت الذى تنهى عن الواصلة - أى التى تصل شعرها بشعر آخر - ؟ قال : نعم . فقالت : فلعله فى بعض نسائك ، فقال : ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾[2] .

ثم بين لهم أنه ما يريد لهم إلا الإصلاح فيقول : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... ﴾ .

أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع ذلك ، وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله - تعالى - فيقول : ﴿ وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر إلا بتأييد الله وعونه، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده الذى إليه أرجع فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع السابقين ، محذرا إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول : ﴿ ويا قوم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٥ .

لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ... ﴾ .

ومعنى ﴿ لا يَجْرِمَنَّكم ﴾ لا يحملنكم ، مأخوذ من جرمه على كذا ، إذا حمله عليه .

أو بمعنى لا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب، غير أنه لا يكون إلا فى كسب مَا لَا خير فيه، ومنه الجريمة ، وهى اقتراف الجرم والذنب .

وأصل الجرم : قطع الثمرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ، لأن الكاسب لشىء ينقطع له .

وقوله ﴿ شقاقى ﴾ من الشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ، كأن كل واحد من المتعادين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر ، والشق : الجانب .

والمعنى ، ويا قوم لا تحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب على ، وعلى التمادى فى عصيانى ومحاربتى . فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب الذى أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

وقوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ : تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .

أى : إذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتم ، فاتعظوا بما أصاب قوم لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

والمراد بالبعد – فى قوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ – بعد الزمن والمكان والنسب .

فزمن لوط – عليه السلام – غير بعيد من زمن شعيب – عليه السلام – .

وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة بجوار معان ممايلى الحجاز ، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت .

وكان مدين بن إبراهيم – عليهما السلام – وهو جد قبيلة شعيب ، المسماة باسمه ، متزوجا بابنة لوط » .

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل فى رحمة الله ، إن هم تابوا إليه – سبحانه – وأنابوا فقال : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ .

أى : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنوب ثم توبوا إليه توبة صادقة نصوحا :

﴿ إن ربى ﴾ ومالك أمرى ﴿ رحيم ﴾ أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ، ﴿ ودود ﴾ أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

وهكذا نجد شعيبا – عليه السلام – وهو خطيب الأنبياء – يلون لقومه النصح ، وينوع

لهم المواعظ ، ويطوف بهم فى مجالات الترغيب والترهيب ..

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه ... فقد ردوا على هذه النصائح الغالية بقولهم : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ... ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إننا لا نفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم تتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت فى دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص فى الكيل والميزان حتى مللنا دعوتك وسئمناها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا ، وخافية على عقولنا ..

فمرادهم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه : لا أدرى ما تقوله ، ولا أفهم ما تتفوه به من ألفاظ .

قال أبو السعود ما ملخصه : والفقه : معرفة غرض المتكلم من كلامه ، أى : ما نفهم مرادك وإنما قالوا ذلك بعد أن سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاقت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا ... كما هو ديدن المفحم المحجوج ، يقابل النصائح البينات بالسب والإبراق والإرعاد ... إذ جعلوا كلامه المشتمل على الحكم من قبيل مالا يفهم معناه .... »[1] .

ثم قالوا له - ثانيا - ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ أى : لا قوة لك إلى جانب قوتنا ، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .

ثم قالوا له .. ثالثا - ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ ورهط الرجل : قومه وعشيرته الأقربون . ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يحتمى فيه ...

ولفظ (الرهط) اسم جمع يطلق غالبا على العصابة دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة .

أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة حتى تموت ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك .

ثم قالوا له - رابعا - ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أى : وما أنت علينا بمكرم أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجمك ، بل أنت فينا الضعيف المكروه ...

وهنا نجد شعيبا - عليه السلام - ينتقل فى أسلوب مخاطبته لهم من اللين إلى الشدة ، ومن

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ص

التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه - سبحانه - فيقول لهم : ﴿ قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ... ﴾ .

أى : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجمونى ، أعز وأكرم عندكم من الله - تعالى - الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم ..

﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئتكم بها من لدنه - سبحانه - كالشىء المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بسبب كفركم وطغيانكم ﴿ إن ربى بما تعملون محيط ﴾ أى : إن ربى قد أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد فى توبيخهم وتهديدهم فقال ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب ﴾ والمكانة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشىء مكانه ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن ، والأمر فى قوله ﴿ اعملوا ﴾ للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى ، وابذلوا فى تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ... ؟ .

وإنى سأقابل عملكم السىء هذا بعمل آخر حسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب .. ﴾ استئناف مؤكد لتهديده لهم .

أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله .

﴿ وارتقبوا ﴾ عاقبة تكذيبكم للحق ﴿ إنى معكم رقيب ﴾ أى : إنى معكم منتظر ومراقب لما سيفعله الله - تعالى - بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرمات الله - تعالى - ، والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لما يحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طغيانهم ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فقال :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا .. ﴾ .

أى : وحين جاء أمرنا بعذابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة منا لا من غيرنا .

﴿ وأخذت الذين ظلموا ﴾ من قومه ﴿ الصيحة ﴾ التى زلزلتهم وأهلكتهم ﴿ فأصبحوا فى ديارهم ﴾ التى كانوا يسكنونها .

﴿ جاثمين ﴾ أى : هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا ..

من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل ، يقال ، جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى : كأن هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملؤها الرغد والرخاء والأمان ...

يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد ...

﴿ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ أى : ألا هلاكا مصحوبا بالخزى واللعنة والطرد من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب .. عليه السلام - كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليه السلام - .

هذا ، ومن أهم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لكى ينجح فى دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين ، بحيث يشتمل توجيهه على الترغيب والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه من نتائج ، وعلى ما يقنع العقل ويقنع العاطفة ...

ففى هذه القصة نجد شعيبا - عليه السلام - يبدأ دعوته بأمر قومه بعبادة الله - تعالى - ، ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التى كانت منتشرة وهى نقص المكيال والميزان ، ثم يبين لهم الأسباب التى حملته على ذلك : ﴿ إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ .

ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التشبع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ما هو صالح وما هو طالح : وبقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين .. » .

ثم يذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينهاهم إلا عما ينهاها عنه وأنه ليس ممن يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... ﴾

ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين من قبلهم : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ... ﴾ .

ثم يفتح لهم باب الأمل فى عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ .

ثم تراه يثور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالنسبة لله - تعالى - وللحق الذى جاءهم به من عنده - سبحانه - : ﴿ أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون ... ﴾

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول - ﷺ - يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير ، والتوجيه السديد .

وليت الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب .. عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى .

* * *

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، بالإشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، من نسل « لاوى » بن يعقوب .

ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

والمراد بالآيات : الآيات التسع المشار إليها فى قوله - تعالى - « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... »(١) .

وهى : العصا ، واليد البيضاء ، والسنون العجاف ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والسلطان المبين : الحجة الواضحة ، والبرهان الظاهر على صدقه ، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على ما يدعى ، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه ، كما يقهر السلطان غيره .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبراؤهم ...

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فساده والضمير فى قوله ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ يعود إلى الملأ .

أى : فاتبعوا أمره فى كل ما قرره من كفر ، وفى كل ما أشار به من فساد .

وفى هذه الجملة الكريمة - كما يقول الزمخشرى - تجهيل لهم ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠١ .

وقال - سبحانه - ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتشهير به ، والإعلان عن ذمه الذى صرح به فى قوله - سبحانه - ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ .

والرشيد بزنة - فعيل - من الفعل رشد من باب نصر وفتح : هو الشخص المتصف بإصابة الرأى ، وجودة التفكير ، وأضيف الرشد إلى الأمر على سبيل المجاز ، مبالغة فى اشتمال أمر فرعون على مايناقض الرشد والسداد ، ويطابق الغى والفساد .

أى : ما شأن فرعون وأمره بذى رشد وهدى ، بل هو محض الغى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه ...

ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ .

ويقدم - كينصر - بمعنى يتقدم مأخوذ من الفعل قدم - بفتح الدال - تقول : قدم الرجل يقدم قدماً وقدوما بمعنى : تقدم ، ومنه قادمة الرحل بمعنى مقدمته .

وقوله ﴿ فأوردهم ﴾ من الإيراد وهو جعل الشىء واردا إلى المكان - وداخلا فيه .

والورد - بكسر الواو - يطلق على الماء الذى يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب .

والمعنى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم فى الكفر فى الدنيا ، فأوردهم النار ، أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة لتحقيق الوقوع وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال - تعالى - : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[1] .

وقوله وبئس الورد المورود ، أى : وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - الذى هو النصيب المقدر للإنسان من الماء - إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمته ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .

ثم صرح - سبحانه - بلعنهم فى الدارين فقال : ﴿ وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ ...

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعتهم فى الدنيا وفى الأخرى ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[2] .

---

(١) سورة غافر الآية ٤٥ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٢ .

وجملة ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ مستأنفة لإنشاء ذم اللعنة ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ذكر اللعنة ، أى بئس الرفد هى .

الرفد العطاء والعون يقال رفد فلان فلانا يرفده رفدا أى أعطاه وأعانه على قضاء مصالحه ، أى : بئس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لابستهم فى الدنيا والآخرة .

وسميت اللعنة رفدا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع . فكأنه - سبحانه - يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكر أو تدبر ...

وبئس العطاء عطاؤه لهم ...

وإلى هنا تكون هذه السورة الكريمة قد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة إبراهيم مع الملائكة ، وعن قصة لوط مع قومه ومع الملائكة ، وعن قصة شعيب مع قومه ، وعن قصة موسى مع فرعون وملئه .

ويلاحظ أن السورة الكريمة قد ساقت لنا تلك القصص حسب ترتيبها التاريخى والزمنى ، لأهداف من أهمها :

١ - إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فكل نبى قد قال لقومه : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... ثم يسوق لهم الأدلة على صدقه فيما بلغه عن ربه .

٢ - إبراز أن الناس فى كل زمان ومكان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار الذين يحاربون الحق ...

٣ - بيان العاقبة الحسنة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصدقهم وعملهم الصالح ... والعاقبة السيئة التى انتهى إليها الكافرون بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق ...

قال - تعالى - ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

* * *

ثم ساقت السورة بعد ذلك حتى نهايتها آيات كريمة اشتملت على تعليقات وتعقيبات

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٠ .

متنوعة ، وهذه التعليقات والتعقيبات قوية الصلة بما سبقها من آيات ...

وكان التعقيب الأول يهدف إلى بيان أن هذه القرى المهلكة التى منها ما هو قائم ومنها ما هو حصيد ، ما ظلم الله - تعالى - أهلها ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم الرسل ، وإصرارهم على الكفر والعناد ، قال - تعالى - :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة ، وهو جزء ﴿ من أنباء القرى ﴾ المهلكة .

ونحن نقصه عليك ، فى هذا القرآن عن طريق وحينا الصادق ، ليعتبر به الناس ، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذى لا علم لهم به من عند الله .

وافتتح - سبحانه - الكلام باسم الإشارة المفيد للبعد ، للتنويه بشأن هذه الأنباء التى سبق الحديث عنها ، وللإشعار بأنها أنباء هامة فيها الكثير من العظات والعبر لقوم يعقلون .

والضمير فى قوله : منها قائم وحصيد ، يعود إلى تلك القرى المهلكة ، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار ، فكأن سائلا سأل ما حال هذه القرى الباقية آثارها أم عفى عليها الزمن ؟ فكان الجواب : منها قائم وحصيد .

أى : من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها ، كآثار قوم ثمود .

ومنها ما أثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذى استؤصل بقطعه ، فلم تبق منه باقية ، كديار قوم نوح .

ففى هذه الجملة الكريمة تشبيه بليغ ، حيث شبه - سبحانه - القرى التى بعض آثارها مازال باقيا بالزرع القائم على ساقه ، وشبه مازال منها واندثر بالزرع المحصود .

وحصيد مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه ، أى منها قائم ومنها حصيد .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم : .. ﴾ بيان لمظاهر عدله فى قضائه وأحكامه .

والضمير المنصوب فى ﴿ ظلمناهم ﴾ يعود إلى أهل هذه القرى ، لأنهم هم المقصودون بالحديث .

أى : وما ظلمنا أهل هذه القرى بإهلاكنا إياهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق ، واستهزائهم بالرسل الذين جاءوا لهدايتهم ...

ثم بين - سبحانه - موقف آلهتهم المخزى منهم فقال : ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك .. ﴾ .

أى : أن هؤلاء المهلكين عندما نزل بهم العذاب ، لم تنفعهم أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله شيئا من النفع ... بل هى لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا .

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فما أغنت ﴾ للتفريع على ظلمهم لأنفسهم ، لأن اعتمادهم على شفاعة الأصنام ، وعلى دفاعها عنهم ... من مظاهر جهلهم وغبائهم وظلمهم لأنفسهم .

و ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من شىء ﴾ لتأكيد انتفاء النفع والإغناء : أى : لم تغن عنهم شيئا ولو قليلا من الإغناء ؛ ولم تنفعهم لا فى قليل ولا كثير ...

وجملة ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ تأكيد لنفى النفع ، وإثبات للضر والخسران .

والتتبيب : مصدر تب بمعنى خسر ، وتبب فلان فلانا إذا أوقعه فى الخسران .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ أى : هلكتا وخسرتا كما قد هلك وخسر هو .

أى : وما زادتهم أصنامهم التى كانوا يعتمدون عليها فى دفع الضر سوى الخسران والهلاك .

قال الإمام الرازى : والمعنى : أن الكفار كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ، ثم إنه - تعالى - أخبرأنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ، ما وجدوا منها شيئا لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد

زالت عنهم به منافع الدنيا والآخرة ، وجلب لهم مضارها ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران »[١] .

ثم بين – سبحانه – سنته فى عقاب الظالمين فى كل زمان ومكان فقال : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ... ﴾ .

والكاف فى ﴿ وكذلك ﴾ بمعنى مثل ، والمراد بالقرى : أهلها الظالمون .

والأخذ : هو العقاب المباغت السريع : يقال أخذ فلان الموت ، إذا نزل به بسرعة وقوة .

أى : ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظالمين السابقين ، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتى بعدهم وينهج نهجهم .

وجملة ، وهى ظالمة ، فى موضع الحال من القرى ، وفائدة هذه الحال الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم ، وفى ذلك ما فيه من التحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل فوات الآوان .

والمراد بالظلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصى التى نهى الله عنها ، كالكذب وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وقوله : ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ زيادة فى التحذير من الوقوع فى الظلم .

أى : إن أخذه – سبحانه – للظالمين عظيم إيلامه ، شديد وقعه ، لا هوادة فيه ، ولا مخلص منه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله – ﷺ – قال : إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله – ﷺ – ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] .

ثم بين – سبحانه – أن ما ساقه فى هذا القرآن عن أحوال السابقين فيه العبرة لمن اعتبر ، وفيه العظة لمن خاف عذاب الآخرة الذى ينقسم الناس فيه إلى شقى وسعيد ، فقال – تعالى – :

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٥٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٩ .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

أى ﴿ إن فى ذلك ﴾ القصص الذى قصصناه عليك - يا محمد - والمشتمل على بيان سنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك الظالمين .

﴿ لآية ﴾ أى : لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، وحجة واضحة .

﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه ، وصفاء نفسه ، وإيقانه بأن هناك فى الآخرة ثوابا وعقابا ، وحسابا على الأعمال الدنيوية ..

أما الذى ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، فإنه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى دمرهم تدميرا ، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعة أو فلكية أو غيرهما ، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم ...

« لأن الخائف من عذاب الآخرة ، عندما يرى ما حل بالمجرمين فى الدنيا من عقاب ، يزداد إيمانا على إيمانه ، وتصديقا على تصديقه ، بأن الله - تعالى - قادر على أن يعذبهم فى الآخرة عذابا أشد وأبقى من عذاب الدنيا ...

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه فقال : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾.

واسم الإشارة فى الموضعين ، يعود إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر عذاب الآخرة قبل ذلك ، واللام فى قوله - سبحانه - ﴿ مجموع له ﴾ لام العلة .

أى : ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، يوم يجمع الناس فيه لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على

أعمالهم ، ويشهده جميع الخلائق الذين يؤمرون بشهوده ، دون أن يغيب منهم أحد قال صاحب الكشاف : و ﴿ الناس ﴾ رفع باسم المفعول الذى هو ﴿ مجموع ﴾ كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس .

فإن قلت : لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله ؟

قلت : لما فى اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم لابد من أن يكون ميعادا مضروبا لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت - أيضا - لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه .

ونظيره قول المهدد : إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل ...

والمراد بالمشهود : الذى كثر شاهدوه ، ومنه قولهم : لفلان مجلس مشهود ، وطعام محضور ... والغرض من ذلك ، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام ، بأنه اليوم الذى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد ... »[1] .

ثم قال - تعالى - ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾.

والأجل فى اللغة : الوقت المضروب لانتهاء مدة معينة ، فأجل الإنسان : هو الوقت المحدد لانقضاء عمره .

والمعدود : أصله المحسوب ، والمراد به هنا : المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها ولا يتأخر عنها .

أى : أننا لا نؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدد معلوم لنا ، فإذا ما جاء موعد هذا الوقت ، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة ، الذى اقتضت حكمتنا عدم إطلاع أحد على موعده .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من أهوال هذا اليوم ، ومن أحوال الناس فيه فقال : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ .

والشقى : صفة مشبهة من الفعل شقى ، وهو الشخص المتلبس بالشقاوة . والشقاء : أى سوء الحال - بسبب إيثاره الضلالة على الهداية ، والباطل على الحق ...

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٢ - بتصرف وتلخيص .

والسعيد : هو الشخص المتلبس بالسعادة ، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح .

والمعنى : حين يأتى هذا اليوم ؛ وهو يوم القيامة ، لا تتكلم فيه نفس بأى كلام إلا بإذن الله - تعالى - ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين : قسم شقى معذب بسبب كفره ، وسوء عمله ، وتفريطه فى حقوق الله ..

وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه : وعمله الصالح ..

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى تنفى الكلام عن كل نفس إلا بإذن الله وبين قوله - تعالى - ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ... ﴾ .

فالجواب : أن فى يوم القيامة مواقف متعددة ، ففى بعضها يجادل الناس عن أنفسهم ، وفى بعضها يكفون عن الكلام إلا بإذن الله ، وفى بعضها يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ...

وفى هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمه المشركون من أن أصنامهم ستدافع عنهم ، وستشفع لهم يوم القيامة .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ... ﴾ أى : يوم يأتى هذا اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾[1] .

وقال - سبحانه - ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾[2] .

- فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - فى حديث الشفاعة الطويل : - « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم »[3] .

ثم فصل - سبحانه - أحوال الأشقياء والسعداء فقال : ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ .

قال الألوسى : قال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه مأخوذ من زفر فلان إذا حمل حملا بمشقة فتردد فيه نفسه ، ومنه قيل للإماء الحاملاتِ الماءَ : زوافر .

---

(١) سورة النبأ الآية ٣٨ .
(٢) سورة طه الآية ١٠٨ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٩ .

والشهيق . رد النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء .

والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق ه حتى صار فى كرب شديد[1] .

والمعنى : فأما الذين كان نصيبهم الشقاء فى الآخرة ، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصى فى الدنيا ، فمصيرهم إلى الاستقرار فى النار ، لهم فيها من ضيق الأنفاس . وحرج الصدور ، وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم . وخص - سبحانه - من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق ؛ تنفيرا من الأسباب التى توصل إلى النار ، وتبشيعا لتلك الحالة التى فيها ما فيها من سوء المنظر ، وتعاسة الحال ...

ثم أكد - سبحانه - خلودهم فى النار فقال : ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ... ﴾ .

أى أن الأشقياء لهم فى النار العذاب الأليم ، وهم ماكثون فيها مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مدة دوام السموات التى تظلهم ، والأرض التى تقلهم فهو فى معنى قوله - تعالى - ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمقصود من هذا التعبير : التأبيد ونفى الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذا ، مالاح كوكب ، وما أضاء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار ... إلى غير ذلك من كلمات التأبيد عندهم ...

وليس المقصود منه تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها .

وجوز أن يحمل ذلك على التعليق ، ويراد بالسموات والأرض ، سماوات الآخرة وأرضها ، وهما دائمتان أبدا ...)[2] .

أما قوله - سبحانه - ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ فقد ذكر العلماء فى المقصود به أقوالا متعددة أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر قولا من أشهرها :

أن هذا الاستثناء فى معنى الشرط فكأنه - سبحانه - يقول :

١ - خالدين فيها خلودا أبديا إن شاء ربك ذلك إذ كل شىء خاضع لمشيئة ربك وإرادته .. وعليه يكون المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٢٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٢٦ .

إليه - سبحانه - وإعلامهم بأن كل شىء خاضع لإرادته ومشيئته فهو الفاعل المختار الذى لا يجب عليه شىءولا حق لأحد عليه ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ .

وليس المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله نفى خلودهم فى النار لأنه لا يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئةولأنه قد أخبرنا - سبحانه - فى كتابه بخلود الكافرين خلودا أبديا فى النار .

قال - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[1] .

وشبيه بهذا الاستثناء ما حكاه - سبحانه - عن نبيه شعيب - عليه السلام - فى قوله :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما .... »[2] .

فشعيب - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر ، نراه يفوض الأمر إلى مشيئة الله تأدبا معه - سبحانه ..

فيقول : وما يكون لنا أن نعود فيها - أى ملة الكفر - إلا أن يشاء ربنا شيئا غير ذلك وهذا من الأدب العالى فى مخاطبة الأنبياء لخالقهم - عز وجل .

وقد ذكر كثير من المفسرين هذا القول ضمن الأقوال فى معنى الآية ، وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه ، ومن هذا البعض صاحب المنار ، وصاحب محاسن التأويل ...

أما صاحب المنار فقد قال : قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ أى : أن هذا الخلود الدائم هو المعد لهم فى الآخرة ... إلا ما شاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، فهو إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى فى قبضة مشيئته ، وقد عهد مثل هذا الاستثناء فى سياق الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئة الله - تعالى .. فقط ، لا لإفادة عدم عمومها ... »[3] .

وأما صاحب محاسن التأويل فقد قال : فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيها من غير استثناء ؟ .

فالجواب : أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

---

(١) سورة النساء . الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف ص ٣٢٣ .
(٣) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٦٠ .

والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة ، إنما كانت كذلك بمشيئة الله - تعالى - لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء - تعالى - أن يغيرها لفعل .

وابن كثير قد أشار إلى ذلك بقوله : يعنى أن دوامهم فيها ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئته - تعالى - »[1] .

٢ - أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين .

ومن العلماء الذين رجحوا هذا القول الإمامان : ابن جرير وابن كثير .

أما ابن جرير فقد قال ما ملخصه بعد أن سرد الأقوال فى ذلك :

« وأولى الأقوال فى تأويل هذه الآية بالصواب ، القول الذى ذكرناه عن الضحاك وقتادة من أن ذلك استثناء فى أهل التوحيد من أهل الكبائر ، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبدا ، إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة - أى العصاة من المؤمنين ... »[2] .

وأما ابن كثير فقد وضح ما اختاره ابن جرير ورجحه فقال ما ملخصه :

وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ... نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير ، واختار : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله - ﷺ - ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا فى تفسير هذه الآية الكريمة »[3] .

وقد ذكر الشيخ الشوكانى هذا القول ضمن أحد عشر قولا فقال ما ملخصه :

وقوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ : قد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء على أقوال منها :

(أ) أنه من قوله ﴿ ففى النار ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ...

(ب) أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين وإنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٨٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٧٠ .
(٣) تفسير ابم كثير جـ ٤ ص ٢٨١ .

خالدين ، وتكون ﴿ ما ﴾ بمعنى ﴿ من ﴾ ، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم .

(جـ) أن الاستثناء من الزفير والشهيق ، أى لهم فيها زفير وشهيق ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ... »[1] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح الآراء ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك :

﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ أى فهو إن شاء غير ذلك فعله ، وإن شاء ذلك فعله ، ما شاء من الأفعال كان ومالم يشاء لم يكن .

وجاء - سبحانه - بصيغة المبالغة ﴿ فعال ﴾ للإشارة إلى أنه - سبحانه - لا يتعاصى عليه فعل من الأفعال بأى وجه من الوجوه .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة السعداء فقال : ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ أى فى الآخرة بسبب إيمانهم وتقواهم فى الدنيا ، ﴿ ففى الجنة خالدين فيها إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ .

أى : عطاء منه - سبحانه - لهم غير مقطوع عنهم ، يقال : جذ الشىء يجذه جذا ، أى : كسره وقطعه ، ومنه الجذاذ - بضم الجيم - لما تكسر من الشىء كما فى قوله - تعالى - حكاية عما فعله إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم ﴾ ...

وبذلك نرى أن هذه الآيات قد فصلت أحوال السعداء والأشقياء ، تفصيلا يدعو العقلاء إلى أن يسلكوا طريق السعداء ، وأن يتجنبوا طريق الأشقياء .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تسلية للنبى - ﷺ - عما أصابه من قومه من أذى ، وما فيه تثبيت لقلوب المؤمنين ، وما فيه إرشاد لهم إلى ما يقربهم من الخير ، ويبعدهم عن الشر فقال - تعالى - : .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

---

(١) راجع تفسير الشوكانى جـ ٢ ص ٥٢٥ .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول ﷺ - أحوال الكفار من قومه فقال : ﴿ فلاتك فى مرية .. ﴾ والمعنى : فلا تكن ، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن حرف النون إذا وقع على طرف الكلام ، لم يبق عند التلفظ به إلا مجرد الغنة ، فلا جرم أسقطوه .. »[1] .

والمرية بكسر الميم - الشك المتفرع عن محاجة ومجادلة بين المتخاصمين .

والمعنى : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين وبينا لك مصير السعداء والأشقياء ... ومادام الأمر كذلك ، فلاتك فى شك من أن عبادة هؤلاء المشركين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٦٨ .

لأصنامهم إنما هى تقليد لما كان يعبده آباؤهم من قبل ، وهذه العبادة لغير الله - تعالى - ستؤدى بالجميع إلى سوء العاقبة وإلى العذاب الأليم .

والخطاب وإن كان للرسول - ﷺ - على سبيل التسلية والتثبيت ، إلا أن التحذير فيه يندرج تحته كل من يصلح للخطاب .

وهذا الأسلوب كثيرا ما يكون أوقع فى النفس ، وأشد تأثيراً فى القلب ، لأنه يشعر المخاطب بأن ما بينه الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - إنما هو من قبيل القضايا الموضوعية التى لا تحتاج إلى جدال مع أحد ، ومن جادل فيها فإنما يجادل فى الحق الواضح بدافع الحسد والعناد ، لأن الواقع يشهد بصحة ما بينه الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - .

وجملة ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ مستأنفة ، لبيان أن الخلف قد ساروا فى الجهالة والجحود على طريقة السلف .

وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ، مع أنها كانت فى الماضى بقرينة ﴿ من قبل ﴾ . للدلالة على استمرارهم على هذه العبادة الباطلة حتى موتهم ، وأن أبناءهم لم ينقطعوا عنها ، بل واصلوا السير على طريق آبائهم الضالين بدون تفكر أو تدبر .

والمضاف إليه فى قوله ﴿ من قبل ﴾ محذوف ، والتقدير : من قبلهم .

وقوله ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ تذييل قصد به تأكيد العقاب الذى سينزل بهم فى الآخرة بسبب عبادتهم لغير الله .

وموفوهم من التوفية ، وهى إعطاء الشىء كاملا بدون نقص .

والمراد بالنصيب هنا : المقدار المعد لهم من العذاب ، وسماه نصيبا على سبيل التهكم بهم .

أى : وإنا لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهج آبائهم فى عبادة غير الله ، نصيبهم وحظهم من عذاب الآخرة كاملا بدون إنقاص شىء منه ، كما ساروا هم على طريقة سلفهم فى الضلال دون أن يغيروا شيئا منها ...

ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا : ما يشمل الجزاء على الأعمال الدنوية والأخروية .

قال صاحب المنار : أى ، وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم فى الدنيا والآخرة وافيا تاما لا ينقص منه شىء ، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ، فإنه ما من خير يعمله أحد منهم كبرٍّ الوالدين وصلة الأرحام .... إلا ويوفيهم الله جزاءهم عليه فى الدنيا بسعة الرزق ، وكشف الضر جزاء تاما ، لا ينقصه شىء يجزون عليه فى الآخرة .. »[1] .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٦٢ .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق الآية الكريمة يؤيده إذ الكلام فيها فى شأن جزاء الذين ساروا على نهج آبائهم فى الضلال ، وليس فى بيان الجزاء العام فى الدنيا والآخرة .

ثم بين – سبحانه – أن اختلاف الناس فى الحق موجود قبل بعثة النبى – ﷺ – فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه .. ﴾ .

أى : كما اختلف قومك – أيها الرسول الكريم – فى شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين ، فقد اختلف قوم موسى من قبلك فى شأن التوراة التى أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم ، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ...

ومادام الأمر كذلك ، فلا تحزن – أيها الرسول الكريم – لاختلاف قومك فى شأن القرآن الكريم ، فإن هذا الاختلاف شأن الناس فى كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت .

فالجملة الكريمة تسلية للرسول – ﷺ – عما أصابه من مشركى قومه .

وجاء الفعل ﴿ اختلف ﴾ بصيغة المبنى للمجهول ، لأن ذكر فاعل الاختلاف لا يتعلق به غرض ، وإنما الذى يتعلق به الغرض هو ما نجم عن هذا الاختلاف من كفر وضلال .

ثم بين – سبحانه – جانبا من مظاهر فضله ورحمته بخلقه فقال : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... ﴾ .

والمراد بالكلمة التى سبقت : تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا .

قال الشوكانى: قوله – سبحانه – ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم .. ﴾ أى : لولا أن الله – تعالى – قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ، لقضى بينهم ، أى : بين قومك ، أو بين قوم موسى ، فيما كانوا فيه مختلفين ، فأثيب المحق وعذب المبطل ، أو الكلمة ؛ هى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك .

وقيل إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له – ﷺ – »[1] .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بقوله : ﴿ وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ .

والمريب اسم فاعل من أراب . يقال أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة والحيرة .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥٢٩ .

أى : وإن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب لفى شك منه ، وهذا الشك قد أوقعهم فى الريبة والتخبط والاضطراب .

وهذا شأن المعرضين عن الحق ، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره ، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه ، وتأويله تأويلا سقيما يدعو إلى الريبة والقلق .

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير فى قوله ﴿ وإنهم ﴾ إلى قوم موسى ، وفى قوله ﴿ منه ﴾ إلى كتابهم التوراة .

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبى - ﷺ - والثانى إلى القرآن الكريم .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أظهر فى معنى الآية ، لأن الكلام فى موسى - عليه السلام وقومه الذين اختلفوا فى شأن كتابهم التوراة اختلافا كبيرا ، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول .

وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول - ﷺ - كانوا فى شك من القرآن ، أوقعهم هذا الشك فى الريبة والحيرة .

فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية للرسول - ﷺ - عما قاله بعض المشركين فى شأن القرآن الكريم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب ، الشاكين فى صدقه ، سوف يجمعهم الله - تعالى - مع غيرهم يوم القيامة للجزاء والحساب على أعمالهم فقال - تعالى - ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ .

وقد وردت فى هذه الآية الكريمة عدة قراءات متواترة[1] منها : قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديد ، إن ولما ، وقد قيل فى تخريجها :

إن لفظ ، ﴿ كلا ﴾، اسم ﴿ إن ﴾، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، واللام فى ، ﴿ لما ﴾، هى الداخلة فى خبر ﴿ إن ﴾ وما بعد اللام هو حرف « من » الذى هو من حروف الجر ، و « ما » موصولة أو نكره موصوفة والمراد بها من يعقل ، فيكون تقدير الكلام : وإن كلا « لمن ما » ، فقلبت النون ميما للإدعام فاجتمع ثلاث ميمات ، فحذفت واحدة منها للتخفيف ، فصارت « لما » والجار والمجرور خبر ﴿ إن ﴾ ، واللام فى ﴿ ليوفينهم ﴾، جواب قسم مضمر ، والجملة صلة أو صفة ﴿ لما ﴾ .

والتقدير : وإن كلا من أولئك المختلفين وغيرهم لمن خلق الله الذين هم بحق ربك

---

(١) لمعرفة هذه القراءات راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٢٦ وتفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٣٣ .

ليوفينهم - سبحانه - جزاء أعمالهم دون أن يفلت منهم أحد ، إنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء منها .

وفى الآية الكريمة توكيدات متنوعة ، حتى لا يشك فى نزول العذاب بالظالمين مهما تأجل ، وحتى لا يشك أحد - أيضا - فى أن ما عليه المشركون هو الباطل الذى لا يعرفه الحق ، وأنه الكفر الذى تلقاه الخلف عن السلف .

وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية فى تلك الفترة التى نزلت فيها هذه السورة - وهى فترة ما بعد حادث الإسراء والمعراج وقبل الهجرة - يستلزم هذه التأكيدات تثبيتا لقلوب المؤمنين ، وتوهينا للشرك والمشركين .

قال الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : سمعت بعض الأفاضل قال : إنه - تعالى - لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين فى هذه الآية ، ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات :

أولها : كلمة « إن » وهى للتأكيد ، وثانيها كلمة « كل » وهى أيضا للتأكيد ، وثالثها : اللام الداخلة على خبر « إن » وهى تفيد التأكيد - أيضا - ، ورابعها حرف « ما » إذا جعلناه على قول الفراء موصولا ، وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام : وإن جميعهم والله ليوفينهم : وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، وسابعها : النون المؤكدة فى قوله « ليوفينهم » .

فجميع هذه المؤكدات السبعة تدل على أن أمر القيامة والحساب والجزاء حق ... » [1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - وأتباعه بالتزام الصراط المستقيم فقال - سبحانه - : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ .

والفاء للتفريع على ما تقدم من الأوامر والنواهى .

والاستقامة - كما يقول القرطبى - هى الاستمرار فى جهة واحدة من غير أخذ فى جهة اليمين والشمال ... » [2] .

والطغيان : مجاوزة الحد . ومنه طغى الماء ، أى ارتفع وتجاوز الحدود المناسبة .

والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - حال السعداء وحال الأشقياء ، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٧٠ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٣٦ .

وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق ، وداوموا على ذلك كما أمركم الله ، بدون إفراط أو تفريط ، واحذروا ان تتجاوزوا حدود الاعتدال فى كل أقوالكم وأعمالكم .

ووجه - سبحانه - الأمر بالاستقامة إلى النبى - ﷺ - تنويها بشأنه ، وليبنى عليه قوله - ﴿ كما أمرت ﴾ ، فيشير بذلك إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - هو وحده المتلقى للأوامر الشرعية من الله - تعالى - .

وقد جمع قوله - تعالى - ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أصول الإصلاح الدينى وفروعه ، كما جمع قوله - تعالى - « ولا تطغوا » أصول النهى عن المفاسد وفروعه ، فكانت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدرء المفاسد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين فى هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة ، لأن ذلك من العون على النصر على الأعداء ، وينهاهم عن الطغيان وهو البغى ، لأنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك » .

وقال الآلوسى : والاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق .

أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال ، لما نزلت هذه الآية قال - ﷺ - شمروا شمروا ، وما رؤى بعد ضاحكا » .

وعن ابن عباس قال : ما نزلت على رسول الله - ﷺ - آية أشد من هذه الآية ولا أشق » [1] .

وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » [1] .

وجملة ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة وللنهى عن الطغيان .

أى : الزموا المنهج القويم ، وابتعدوا عن الطغيان ، لأنه - سبحانه - مطلع على أعمالكم اطلاع المبصر ، العليم بظواهرها وبواطنها ، وسيجازيكم يوم القيامة عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الميل إلى الظالمين فقال : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٣٦ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٠٧ .

والركون إلى الشىء : الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال إليه بقلبه ، واعتمد عليه فى قضاء مصالحه .

والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محارم الله .

والمعنى : واحذروا - أيها المؤمنون - أن تميلوا إلى الظالمين ، أو تسكنوا إليهم ؛ لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل .

قال بعض العلماء : ويستثنى من ذلك للضرورة صحبة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبى إليه .

وقوله ﴿ فتمسّكم النار ﴾ أى فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم ، والاعتماد عليهم ، والرضا بأفعالهم .

وقوله ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ فى موضع الحال من ضمير ﴿ تمسكم ﴾ .

أى : والحال أنه ليس لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب النازل بكم ، بسبب ركونكم إلى الذين ظلموا ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم .

وثم فى قوله ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ للتراخى الرتبى . أى ثم لا تجدون بعد ذلك من ينصركم بأى حال من الأحوال ، لأن الظالمين مالهم من أنصار .

قال بعض العلماء : الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس فى حمأته ؟!!

ثم قال : وقد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ، والأعمال بالنيات . والتفصيل أولى .

فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو الخير . فلا حرج فى ذلك . وإن كانت لإيناسهم وإقرارهم على ظلمهم فلا .. » [1] .

ثم أرشد - سبحانه - عباده المؤمنين إلى ما يعينهم على الاستقامة وعلى عدم الركون إلى الظالمين ، فقال : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

---

(١) تفسير القاسمى - بتصرف يسير - جـ ٩ ص ٣٤٩١ .

والمراد بإقامتها الإتيان بها فى أوقاتها كاملة الأركان والخشوع والإخلاص لله رب العالمين .

والمراد بالصلاة هنا : الصلاة المفروضة .

قال القرطبى : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية ، المراد بها الصلوات المفروضة . وخصها بالذكر لأنها ثانية أركان الإسلام ، وإليها يفزع فى النوائب ، وكان النبى - ﷺ - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة »[1] .

وطرفى النهار : أى أول النهار وآخره ، لأن طرف الشىء منتهاه من أوله أو من آخره .

والنهار : يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس . سمى بذلك لأن الضياء ينهر فيه أى يبرز كما يبرز النهر .

والصلاة التى تكون فى هذين الوقتين ، تشمل صلاة الغداة وهى صلاة الصبح ، وصلاة العشى وهى صلاة الظهر والعصر ، لأن لفظ العشى يكون من الزوال إلى الغروب .

وقيل الصلاة التى تكون فى هذين الوقتين هى صلاة الصبح والمغرب .

وقوله ﴿ وزلفا من الليل ﴾ معطوف على طرفى النهار .

والزلف جمع زلفة ه كغرف وغرفة - والمراد بها الساعات القريبة من آخر النهار ، إذا الإزلاف معناه القرب ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ... ﴾ أى : قربت منهم . وتقول أزلفنى فلان منه : أى قربنى .

فمعنى ﴿ وزلفا من الليل ﴾ طائفة من أوله . وصلاة الزلف تطلق على صلاتى المغرب والعشاء قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله ﴿ وزلفا من الليل ﴾ يعنى صلاة المغرب والعشاء . قال رسول الله - ﷺ - « هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء » .

ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ فى حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه أيضا فى قول »[2] .

وجملة ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٠٩ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٤ .

وأكدت بحرف ﴿ إن ﴾ للاهتمام وتحقيق الخبر ، والحسنات صفة لموصوف محذوف ، وكذلك السيئات .

والمعنى : إن الأعمال الحسنة – كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، والاستغفار .. يذهبن الأعمال السيئات ، أى يذهبن المؤاخذة عليها ، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة .

والمراد بالسيئات هنا صغار الذنوب ، لقوله – تعالى – ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾[١] . ولقوله – تعالى – ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ... ﴾[٢] ، ولأن كبائر الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة .

وقوله ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ أى : ذلك الذى أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة ، ومن الاستقامة على أمر الله .. فيه التذكرة النافعة ، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار ، لا الإعراض والعناد .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قال عنها بعض المفسرين بأنها مدنية ، وقد ذكرنا فى التمهيد بين بدى السورة ، أن سورة هود ترجح أنها كلها مكية ، وليس فيها آيات مدنية .

ومما يؤيد أن هذه الآية مكية أنها مسوقة مع ما سبقها من آيات لتسلية النبى – ﷺ – ولإرشاده وأتباعه إلى ما يعينهم على الاستقامة ، وعدم الركون إلى الظالمين .

ولأن بعض الروايات التى وردت فى شأنهالم تذكر أنها نزلت فى المدينة ، بل ذكرت أن الرسول – ﷺ – تلاها على السائل ، ومن هذه الروايات ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير – وهذا لفظه – عن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبى – ﷺ – فقال : يا رسول الله إنى وجدت امرأة فى بستان ، ففعلت بها كل شىء ، غير أنى لم أجامعها ، فافعل بى ما شئت ، فلم يقل رسول الله – ﷺ – شيئا ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه الرسول – ﷺ بصره ثم قال : ردوه على فردوه عليه فقرأ عليه : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل .. ﴾ الآية ، فقال معاذ – وفى رواية عمر – يا رسول الله ، أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة »[٣] .

---

(١) سورة النساء الآية ٣١ .
(٢) سورة النجم الآية ٣٢ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٦ .

والروايات التى ورد فيها فأنزل عليه هذه الآية ، فى الإمكان أن تؤول أن المراد أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضية السائل ، ولجميع ما يماثلها من إصابة الذنوب سوى الكبائر .

هذا ، ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

أى : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التى كلفكم الله - تعالى - بها ، فإنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

قال الآلوسى : ومن البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبى - ﷺ وإن كانت عامة فى المعنى ، والمناهى جمعت للأمة ، للدلالة على عظم منزلة الرسول - ﷺ عند ربه[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآيات الدالة على سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وعلى الحكم التى من أجلها ساق الله - تعالى - تلك القصص فى كتابه فقال - تعالى - :

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤٣ .

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وقوله - تعالى - ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ... ﴾ إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، حلت بها المصائب والنكبات ..

ولولا : حرف تحضيض بمعنى هلا . والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبى - ﷺ - ومن سيأتى بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .

والقرون : جمع قرن ، والمراد به الأمة من الناس الذين يجمعهم زمان واحد ، والراجح أن القرن مائة عام .

و ﴿ أولو بقية ﴾ أى : أصحاب مناقب حميدة ، وخصال كريمة ، وعقول راجحة ...

وأصل البقية : ما يصطفيه الإنسان لنفسه من أشياء نفيسة يدخرها لينتفع بها ، ومنه قولهم : فلان من بقية القوم ، أى : من خيارهم وأهل الفضل فيهم ، قال الشاعر :

إن تذنبوا ثم تأتينى بقيتكم فما على بذنب منكم فوت

وفى الأمثال : فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا .

والفساد فى الأرض : يشمل ما يكون فيها من المعاصى واختلال الأحوال وارتكاب المنكرات والبعد عن الصراط المستقيم .

والمعنى : فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين كانوا من قبلكم ، رجال أصحاب خصال كريمة ، وعقول سليمة ، تجعلهم هذه الخصال وتلك العقول ينهون أنفسهم وغيرهم عن الإفساد

فى الأرض ، وعن انتهاك الحرمات ؟ .

كلا إنهم لم يكن فيهم هؤلاء الرجال الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا عددا قليلا منهم أنجيناهم بسبب إيمانهم ونهيهم عن الفساد فى الأرض .

وفى هذا من التوبيخ لأهل مكة ولكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما فيه ، لأن الله - تعالى - بين أن عذاب الاستئصال الذى حل بالظالمين السابقين ، كان من أسبابه عدم نهيهم عن الفساد فى الأرض .

قال الشوكانى : والاستثناء فى قوله ﴿ إلا قليلا .. ﴾ منقطع ، أى : لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض ، وقيل : هو متصل ، لأن فى حرف التحضيض معنى النفى ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، ومن فى قوله ﴿ ممن أنجينا منهم ﴾ بيانية ، لأنه لم ينج إلا الناهون »[1] .

وقال ابن كثير : ولهذا أمر الله - تعالى - هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » ولهذا قال : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ... ﴾[2] .

وقوله : ﴿ واتبعَ الذين ظلموا ما أترفوا فيه ... ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء القاعدين عن النهى عن الإفساد فى الأرض ، قد استمروا على فجورهم وفسقهم دون أن يلتفتوا إلى خصال الخير ، وإلى سبيل الصلاح .

وأترفوا من الترف ومعناه التقلب فى نعم الله - تعالى - مع ترك شكره - سبحانه - عليها .

والمترف : هو الشخص الذى أبطرته النعمة ، فانغمس فى الشهوات والمعاصى ، وأعرض عن الأعمال الصالحة ..

والجملة الكريمة معطوفة على كلام مقدر يقتضيه الكلام ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لم يكن فيهم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا من استثنى ، قد استمروا فى طغيانهم ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنىء والشهوات العاجلة ، فكفروا النعمة ، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، وكانوا قوما مجرمين ، أى مصرين على ارتكاب الجرائم

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٠ .

والمنكرات ، فحق عليهم العقاب الذى يستحقونه بسبب هذه السيئات .

ثم بين - سبحانه - أن رحمته بعباده تقتضى عدم ظلمه لهم فقال : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

والمراد بالظلم هنا ما يشمل الإشراك بالله - تعالى - وغيره من الوقوع فى المعاصى والمنكرات .

والباء فى ﴿ بظلم ﴾ للملابسة ، والتنوين فيه للإشعار بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم يتنزه الله - تعالى - عنه على أبلغ وجه ، وإن كانت أفعاله - عز وجل - لا ظلم فيها أيا كانت هذه الأفعال .

والمعنى : وما كان من شأن ربك - أيها الرسول الكريم - أن يهلك أهل قرية من القرى إهلاكًا متلبسًا بظلم منه لها ، والحال أن أهلها قوم مصلحون ، لأن ذلك الإهلاك مع تلك الحال يتنافى مع ما كتبه على نفسه من الرحمة والعدل .

قال - تعالى - ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ... ﴾ وقال - تعالى - ﴿ ولا يظلم ربك أحدًا ﴾ .

وقال - تعالى - ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

ومنهم من فسر الظلم هنا بالشرك ، وجعل الباء للسببية ، فيكون المعنى : ليس من شأن ربك أن يهلك أهل قرية من القرى بسبب كفرهم وحده ، مع صلاحهم فى تعاطى الحقوق فيما بينهم ، وإنما يهلكهم عندما يضمون إلى الكفر الإفساد فى الأرض كما أهلك قوم شعيب لشركهم وإنقاصهم المكيال والميزان .

وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - القولين دون أن يرجح بينهما فقال : القول فى تأويل قوله - تعالى - ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

يقول - تعالى - ذكره : وما كان ربك يا محمد ليهلك القرى التى أهلكها والتى قص عليك نبأها ظلمًا وأهلها مصلحون فى أعمالهم غير مسيئين ، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم فى أعمالهم وطاعتهم ربهم ظلمًا ، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله ؛ وتماديهم فى غيهم ..

وقد قيل معنى ذلك : لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله : وذلك قوله بظلم يعنى بشرك ، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا »[1] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٨٤ .

والذى نراه أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن حمل الظلم هنا على الشرك تخصيص بدون مخصص ، حيث لم يرد عن رسول الله - ﷺ - حديث صحيح يخصصه بذلك ، فوجب حمل الظلم على معناه الحقيقى الذى يتناول الشرك وغيره .

ثم أخبر - سبحانه - بأن قدرته لا يعجزها شىء فقال : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ .

والأمة : القوم المجتمعون على أمر واحد ؛ يقتدى فيه بعضهم ببعض ، وهذا اللفظ مأخوذ من « أم » بمعنى قصد ، لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده فى مختلف شئونه .

ولو شرطية امتناعية ، ومفعول فعل المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعًا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولو شاء ربك لجمعهم على الهدى ... ﴾ .

وقوله ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ تأكيد لما اقتضته سنته من اختلاف الناس .

أى : ولا يزالون ما بقيت الدنيا مختلفين فى شأن الدين الحق ، فمنهم من دخل فيه وآمن به ، ومنهم من أعرض عنه ، إلا الذين رحمهم ربك منهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم من أول الأمر ، فإنهم لم يختلفوا ، بل اتفقوا على الإيمان بالدين الحق فعصمهم الله - تعالى - من الاختلاف المذموم .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أى : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذى أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبى - ﷺ - الأمى خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ونصروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضا : إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة . وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ومن هم يارسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابى »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩١ .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ يعود على المصدر المفهوم من مختلفين قال الآلوسى : فكأنه قيل : وللاختلاف خلق الناس ، على معنى لثمرة الاختلاف من كون فريق فى الجنة وفريق فى السعير خلقهم .

واللام لام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله - سبحانه - ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولأنهم لو خلقهم له - أى للاختلاف - لم يعذبهم على ارتكاب الباطل .... »[1] .

ومنهم من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور ، فيكون التقدير : إلا من رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس .

وصح تذكير اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى .

ومنهم من جعل الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، لأنه لا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله ﴿ عوان بين ذلك ﴾ أى بين الفارض والبكر .

فيكون المعنى : « وللاختلاف والرحمة خلقهم » أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف .

وقد رجح الإمام القرطبى هذا الوجه فقال : قوله « ولذلك خلقهم » قال الحسن ومقاتل وعطاء :

الإشارة إلى الاختلاف ، أى : وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك :

الإشارة إلى الرحمة : أى : ولرحمته خلقهم .

وقيل : الإشارة إلى الاختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك إلى شيئين متضادين ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ .

وهذا أحسن الأقوال - إن شاء الله - لأنه يعم . أى : ولما ذكر خلقهم .. أى : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير . أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة ... »[2] .

والمراد بكلمة ربك فى قوله - سبحانه - ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ قضاؤه النافذ ، وإرادته التى لا تتخلف ، وحكمه الأزلى .

---

[1] تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١١٤٧ .
[2] تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١١٥ .

أى : وتمت كلمة ربك ، ونفذ قضاؤه ، وثبت حكمه الذى أكده وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهنم من عصاة الجن ، ومن عصاة الإنس أجمعين ، لأنه من المعروف أن الوعيد إنما هو للعصاة والمذنبين وليس للمؤمنين الصادقين .

قال الآلوسى: وفى معنى ذلك ما قيل من أن المراد بالجنة والناس أتباع إبليس لقوله - تعالى - فى سورة الأعراف وفى سورة ص ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ فاللازم دخول جميع تابعيه فى جهنم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا .. » [1] .

ثم بين - سبحانه - أهم الفوائد التى تعود على الرسول - ﷺ - من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم فقال : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... ﴾ .

والتنوين فى قوله ﴿ وكلا ﴾ للعوض عن المضاف إليه . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام :

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه . فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ بيان لما اشتملت هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى وجاءك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمثالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكانتكم : مصدر مكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤٨ .

دعوتك ، قل لهم اعملوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرون على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله إليه ، بدون التفات إلى كيدكم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإنا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة فقال : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

أى : ولله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة .

ومادام الأمر كذلك ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ أى : فأخلص له العبادة ، واجعل توكلك عليه وحده .

﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا ، لا يعزب عنه مثقال ذرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة هود - عليه السلام - أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المدينة المنورة - صباح الخميس ٥ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠١ هـ الموافق ٩ من أبريل سنة ١٩٨١ م .

محمد سيد طنطاوى

تفسير

سورة يوسف عليه السلام



تعريف بسورة يوسف - عليه السلام -

١ - سورة يوسف - عليه السلام - هى السورة الثانية عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقها فى الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران،والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس وهود ..

أما ترتيبها فى النزول ، فكانت السورة الثالثة والخمسين ، وكان نزولها بعد سورة هود - عليه السلام - .

وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وجه تسميتها بهذا الاسم ظاهر ، لأنها مشتملة على قصته - عليه السلام - مع إخوته ، ومع امرأة العزيز ، ومع ملك مصر فى ذلك الوقت ..

ولم يذكر اسم يوسف - عليه السلام - فى غير هذه السورة سوى مرتين : إحداهما فى سورة الأنعام فى قوله -تعالى - ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ... ﴾ الآية ٨٤ .

والثانية فى سورة غافر فى قوله - تعالى - ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ...﴾ الآية ٣٤ .

والقول الصحيح أن سورة يوسف جميعها مكية ، ولا التفات إلى قول من قال بأن فيها آيات مدنية ، لأن هذا القول لا دليل عليه .

قال الآلوسى : سورة يوسف مكية كلها على المعتمد ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : هى مكية إلا ثلاث آيات من أولها . واستثنى بعضهم رابعة وهى قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ .

٢ - وكل ذلك واه جدا لا يلتفت إليه ، وما اعتمدناه - كغيرنا - من أنها كلها مكية - هو الثابت عن الحبر أى عن ابن عباس »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٠ طبعة منير الدمشقى .

٣ - وقد ورد فى سبب نزولها روايات متعددة ، منها ما روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : أنزل القرآن على رسول الله - ﷺ - فتلاه على أصحابه زمانا ، فقالوا : يارسول الله ، لو قصصت علينا فنزلت سورة يوسف ...»[1] .

٤ - طبيعة الفترة التى نزلت فيها هذه السورة : قلنا إن سورة يوسف كان نزولها بعد سورة هود ، وسبق أن بينا عند تفسيرنا لسورة هود ، أن هذه السورة الكريمة كان نزولها - على الراجح - فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج ..

ويبدو أن سورة يوسف - أيضا- كان نزولها فى هذه الفترة ، التى تعتبر من أشق الفترات فى حياة النبى - ﷺ - إذ تعرض خلالها للكثير من أذى المشركين ، بعد أن فقد - ﷺ - فى هذه الفترة عمه أبا طالب ، وزوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها .

ونزول سورة يوسف فى هذه الفترة ، كان من أعظم المسليات التى واسى الله - تعالى - بها نبيه - ﷺ - فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته ، وعما تعرض له هذا النبى الكريم من مصائب وأذى ..

ولاشك أن فى قصة يوسف وما يشبهها ، تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه .

٥ - والذى يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها قد اشتملت على أوضح الدلائل ، وأنصع البراهين ، التى تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ...

فقد قصت علينا قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته ومع غيرهم بأسلوب مشوق حكيم ، يهدى النفوس ، ويشرح الصدور ، ويكشف عن الخفايا التى لا يعلمها أحد إلا الله - تعالى - ، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويرا بديعا معجزا ..

كما يراها قد ساقت ما ساقت من حكم وأحكام ، وعبر وعظات ، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم ، وجمال العرض ، حتى إننا لنستطيع أن نقسم أهم الموضوعات التى تحدثت عنها إلى عشرة أقسام .

(أ) أما القسم الأول[2] منها ، فنراها تتحدث فيه عن جانب من فضائل القرآن الكريم ، وعن رؤيا يوسف - عليه السلام - وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصها عليه ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٠ .

(٢) الآيات من ١ - ٦ .

قال - تعالى - ﴿ ألر . تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين * إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ .

(ب) وفى القسم الثانى[1] منها نراها تحدثنا عن مكر إخوة يوسف به ، وحسدهم له ، وتآمرهم على الانتقام منه وإجماعهم على أن يلقوا به فى الجب ، وتنفيذهم لذلك بعد خداعهم لأبيهم ، وزعمهم له بأنهم سيحافظون على أخيهم يوسف ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البديع المعجز فيقول : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أواطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب . يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾.

(جـ) ثم نراها فى القسم الثالث[2] منها تحدثنا عن انتشال السيارة ليوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمن بخس دراهم معدودة ، وعن وصية من اشتراه لامرأته بإكرام مثواه ، وعن محنته مع تلك المرأة التى راودته عن نفسه ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ وعن خروجه من هذه المحنة بريئا ، نقى العرض ، طاهر الذيل .. بعد أن شهد ببراءته شاهد من أهلها .

قال - تعالى - : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ... ﴾ .

---

(١) الآيات من ٧ - ١٨ .
(٢) الآيات من ١٩ - ٢٩ .

ثم يختم - سبحانه - هذا القسم من السورة بحكاية ما قاله الزوج لامرأته وليوسف ، بعد أن تبين له صدق يوسف وكذب امرأته فيقول : ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(د) ثم تحدثنا السورة بعد ذلك فى القسم الرابع[1] منها عن شيوع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وعما فعلته تلك المرأة مع من أشاع هذا الخبر ، وعن لجوء يوسف - عليه السلام - الى ربه يستجير به من كيد هؤلاء النسوة ..

قال - تعالى - حاكيا هذا المشهد بأسلوب معجز : ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

(هـ) ثم تحدثنا السورة الكريمة بعد ذلك فى القسم[2] الخامس منها ، عن يوسف السجين المظلوم ، وكيف أنه لم يمنعه السجن من دعوة رفاقه فيه إلى وحدانية الله ، وإلى إخلاص العبادة له - سبحانه - ..

﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(و) ثم تحدثنا السورة الكريمة فى القسم[3] السادس منها عن الرؤيا المفزعة التى رآها ملك مصر فى ذلك الوقت ، وكيف أن حاشيته عجزت عن تفسيرها ، ولكن يوسف الصديق فسرها تفسيرا صحيحا أعجب الملك ، وحمله على دعوته للالتقاء به ، إلا أن يوسف - عليه السلام -

---

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٥ .

(٢) الآيات من ٣٩ - ٤٢ .

(٣) الآيات من ٤٣ - ٥٧ .

أبى الالتقاء به إلا بعد أن يحقق الملك فى قضيته بنفسه ، ويعلن براءته على رءوس الأشهاد ..

وبعد أن استجاب الملك لطلب يوسف ، وثبتت براءته - عليه السلام - حضر معززا مكرما وقال للملك بعزة وإباء : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى هذا المشهد بأسلوبها الزاخر بالمحاورات والمفاجآت ، فتقول : ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ...﴾ .

وينتهى هذا المشهد ببيان سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف ، والتى تتمثل فى حسن عاقبة المؤمنين حيث يقول - سبحانه - : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

(ز) ثم تنتقل السورة الكريمة فى القسم السابع[1] منها إلى الحديث عن اللقاء الأول الذى تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا من بلادهم بفلسطين إلى مصر يلتمسون الزاد والطعام ... وكيف أنه عرفهم دون أن يعرفوه .. وكيف أنه - عليه السلام - طلب منهم بعد أن أكرمهم أن يحضروا إليه من بلادهم ومعهم أخوهم من أبيهم - وهو شقيقه « بنيامين » .

وكيف أن أباهم وافق على إرسال « بنيامين » معهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق لكى يحافظوا عليه ..

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى كل ذلك فتقول : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون * ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون * وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم

---

(١) الآيات من ٥٨ - ٦٨ .

لعلم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون * فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ... ﴾ .

(ح) ثم حدثتنا السورة الكريمة فى القسم الثامن[1] منها عن اللقاء الثانى الذى تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا إليه فى هذه المرة ومعهم « بنيامين » شقيق يوسف ، وكيف قام يوسف بالتعرف عليه ، ثم كيف احتجزه عنده بحيلة دبرها بإلهام من الله - تعالى - وكيف رد على إخوته الذين طلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكان « بنيامين ».. .

وماذا قال «يعقوب» - عليه السلام - بعد أن عاد إليه أبناؤه ، وليس معهم « بنيامين » .

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى كل هذه المشاهد والأحداث فتقول :

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم * قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ... ﴾ .

وينتهى هذا القسم بقول يعقوب - عليه السلام - لأبنائه بعد أن عادوا إليه وليس معهم أخوهم بنيامين : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم * وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون . يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

(ط)ثم حدثتنا السورة الكريمة بعد ذلك فى القسم التاسع[2] منها عن اللقاء الثالث والأخير بين يوسف وإخوته ، فحكت لنا أن يوسف - عليه السلام - كشف لإخوته عن نفسه فى هذا اللقاء . وأمرهم بأن يذهبوا بقميصه ليلقوا به على وجه أبيه ... كما أمرهم أن يعودوا إليه ومعهم جميع أهلهم .

---

(١) الآيات من ٦٩ - ٨٧ .

(٢) الآيات من ٨٨ - ١٠١ .

كما حكت لنا لقاء يوسف بأبويه ، وإكرامه لهما ، وشكره لله - تعالى - على ما وهبه من نعم ..

قال - تعالى - حاكيا ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يوسف وأبيه فى هذا اللقاء :
﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين * قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا . وأتونى بأهلكم أجمعين .. ﴾ .

﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .

ثم ختم -سبحانه - قصة يوسف بهذا الدعاء الذى حكاه - سبحانه - عنه فى قوله :
﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ .

(ى) أما القسم العاشر[1] والأخير من السورة الكريمة ، فقد كان تعقيبا على ما جاء فى تلك القصة من حكم وأحكام ، ومن عبر وعظات ، ومن آداب وهدايات ..

وقد بين - سبحانه - فى هذا القسم ما يدل على أن القرآن من عند الله ، وما يشهد بصدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ..

كما بين - سبحانه - وظيفة الرسول - ﷺ - وموقف المشركين من دعوته وأنه - ﷺ - ليس بدعا من الرسل وأن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون * وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين * وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين * وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .. ﴾ .

ثم يختتم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

---

(١) الآيات من ١٠٢ - ١١١ .

٦ - هذا عرض مجمل لأهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة يوسف - عليه السلام - ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أهمها ما يأتى :

(أ) إبراز الحقائق والهدايات ، بأسلوب المحاورات والمجادلات والمناقشات ... ومن مظاهر ذلك :

المحاورات التى دارت حول إخوة يوسف فى شأن الانتقام منه ، والتى منها قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمحاورات التى دارت بينهم وبين أبيهم فى شأن اصطحابهم ليوسف ، والتى منها قوله - تعالى - : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون * قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ .

والمحاورات التى دارت بين يوسف وإخوته ، بعد أن عرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن ترددوا عليه ثلاث مرات للحصول على حاجتهم من الزاد .. والتى منها قوله - تعالى - : ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

وهكذا نجد السورة الكريمة زاخرة بأسلوب المحاورات والمناقشات والمجادلات . تارة بين يوسف وإخوته ، وتارة بين إخوته فيما بينهم ، وتارة بينهم وبين أبيهم ، وتارة بين يوسف وامرأة العزيز ، وتارة بينه وبين ملك مصر فى ذلك الوقت .

وهذه المحاورات التى حفلت بها السورة الكريمة ، قد أكسبتها لونا من العرض المشوق ، الذى يجعل القارىء لها يتعجل حفظ كل موضوع من موضوعاتها ، ليصل الى الموضوع الذى يليه .

وهذا الأسلوب فى عرض الحقائق من أسمى الأساليب التى تعين القارىء على حفظ القرآن الكريم ، وعلى تدبر معانيه ، وعلى الانتفاع بهداياته ..

(ب) إبرازها لجوهر الأحداث ولبابها .. أما تفاصيل هذه الأحداث . فترکت معرفتها لفهم القارىء وفطنته ، وسلامة تفكيره ، وحسن تدبره لكلام الله - تعالى - ..

وهذا اللون من العرض للأحداث ، يسمى فى عرف البلغاء ، بأسلوب الإيجاز بالحذف والقارىء لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها على رأس السور القرآنية التى كثر فيها هذا الأسلوب البليغ .

فمثلا قوله - تعالى - : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ...﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب وانصرفوا لشئونهم « جاءوا على قميصه بدم كذب » لكى يخدعوا أباهم ، فلما أخبروه بأن الذئب قد أكله قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ...﴾ .

وكذلك قوله - تعالى - : ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ... ﴾ مترتب على كلام محذوف يفهم من سياق الآيات .

والتقدير : وبعد أن سمع ما قالته النسوة بشأنه عندما دخل عليهن بأمر من امرأة العزيز ، وسمع تهديد هذه المرأة له بقولها : ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

بعد أن سمع يوسف كل ذلك ، وتيقن من مكرهن به ، لجأ إلى ربه مستجيرا به من كيدهن فقال : ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ...﴾ .

وأيضا قوله - تعالى - : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان ... ﴾ . يعتبر من بديع أسلوب الإيجاز بالحذف ، إذ تقدير الكلام :

وبعد أن عجز الملأ عن تفسير رؤيا الملك ، وقالوا له : إن رؤياك أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، قال الذى نجا منهما ، أى : من صاحبى يوسف فى السجن وهو الساقى ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ أى وتذكر بعد نسيان طويل ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ إلى من عنده تفسير هذه الرؤيا تفسيرا صحيحا - وهو يوسف - فاستجابوا له وأرسلوه إلى يوسف ، فذهب إليه فى السجن ، فلما دخل عليه قال له : يا يوسف يأيها الصديق، أفتنا فى سبع بقرات سمان ... إلخ .

وهذا الأسلوب الذى زخرت به السورة الكريمة ، وهو أسلوب الإيجاز بالحذف ، من شأنه

أنه ينشط العقول ، ويبعثها على التأمل والتدبر فيما تقرؤه ، ويعينها على الاتعاظ والاعتبار ..

وهو أسلوب أيضا تقتضيه هذه السورة الكريمة، لأنها تتحدث عن قصة نبى من أنبياء الله - تعالى - . والحديث عن ذلك يستلزم إبراز جوهر الأحداث ولبابها ، لا إبراز تفاصيلها وما لا فائدة من ذكره .

فاشتمال السورة الكريمة على هذا الأسلوب البليغ ، هو من باب رعاية الكلام لمقتضى الحال ، وهو أصل البلاغة وركنها الركين .

(جـ) السورة الكريمة اهتمت اهتماما واضحا بشرح أحوال النفس البشرية وتحليل ما يصدر عنها فى حال رضاها وغضبها ، وفى حال صلاحها وانحرافها ، وفى حال غناها وفقرها ، وفى حال عسرها ويسرها ، وفى حال صفائها وحقدها ..

وقد حدثتنا عن الشخصيات التى وردت فيها حديثا صادقا أمينا ، كشفت لنا فيه عن جوانب متعددة من أخلاقهم ، وسلوكهم ، وميولهم ، وأفكارهم .. وأعطت كل واحد منهم حقه فى الحديث عنه .

(١) فيوسف - عليه السلام - وهو الشخصية الرئيسية فى القصة - حدثتنا عنه حديثا مستفيضا نستطيع من خلاله ، أن نرى له - عليه السلام - مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتى :

امتلاكه لنفسه ولشهوته مهما كانت المغريات ، بسبب خوفه لمقام ربه ، ونهيه لنفسه عن الهوى ..

ولا أدل على ذلك من قوله - تعالى - : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ..﴾ .

قال الشيخ القاسمى : قال الإمام ابن القيم ماملخصه : « لقد كانت دواعى متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها : ماركبه الله فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة ..

ومنها : أنه كان شابا غير متزوج .. ومنها : أنها كانت ذات منصب وجمال .. وأنها كانت غير آبية ولا ممتنعة .. بل هى التى طلبت وأرادت وبذلت الجهد ..

ومنها : أنه كان فى دارها وتحت سلطانها .. فلا يخشى أن تنم عليه ..

ومنها : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن ، وشكت حالها إليهن ..

ومنها : أنها توعدته بالسجن والصغار إن لم يفعل ماتأمره به ..

ومنها : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها ..

ومع كل هذه الدواعى ، فقد آثر يوسف مرضاة الله ومراقبته ، وحمله خوفه من خالقه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يغضبه .. »[1] .

٢ - صبره الجميل على المحن والبلايا ، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها : ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين .. ﴾ .

٣ - نشره للدين الحق ، ودعوته لعبادة الله وحده ، حتى وهو بين جدران السجن ، فهو القائل لمن معه فى السجن : ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار * ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ...﴾ .

٤ - حسن تدبيره للأمور ، وتوصله إلى ما يريده بأحكم الأساليب ، وحرصه الشديد على إنقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك ، ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ..﴾ .

٥ - عزة نفسه ، وسمو خلقه ، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملك إلا بعد إعلان براءته ﴿ وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ..﴾ .

٦ - تحدثه بنعمة الله ، ومعرفته لنفسه قدرها ، وطلبه المنصب الذى يناسبه ، ويثق بقدرته على القيام بحقوقه ﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

٧ - ذكاؤه وفطنته ، فقد تعرف على إخوته مع طول فراقه لهم : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ...﴾ .

٨ - عفوه وصفحه عمن أساء إليه ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ..﴾ .

٩ - وفاؤه لأسرته ولعشيرته ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ .

١٠ - شكر الله - تعالى - على نعمه ومننه ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٥٥ .

هذا جانب من حديث السورة الكريمة عن يوسف - عليه السلام - ، وهو حديث يدل على أنه كان فى الذروة العليا من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ..

(د) وتحدثت السورة الكريمة عن يعقوب - عليه السلام - فذكرت من بين ما ذكرت عنه ، صفات الصبر الجميل ، والأمل فى رحمة الله مهما اشتدت الخطوب ، والحرص على سلامة أبنائه من كل ما يؤذيهم حتى ولو أساءوا إليه ، والنظر إلى الأمور بعين تختلف عن عيون أبنائه ، والحكم عليها بحكم يختلف عن أحكامهم ..

يدل على ذلك قوله - تعالى - ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ... ﴾ .

وقوله : - تعالى - : ﴿ وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ .

(هـ) وتحدثت عن إخوة يوسف حديثا مستفيضا ، تبدو فيه غيرتهم من يوسف ، وحسدهم له ، وتآمرهم على حياته ، وحقدهم عليه حتى وهو بعيد عنهم .. ثم ندمهم فى النهاية على ما فرط منهم فى حقه بعد أن مكن الله له فى الأرض ..

نرى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم.. ﴾ .

وفى قوله : ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾ .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ...﴾ .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ .

(و) وتحدثت عن امرأة العزيز حديثا يكشف عن حال المرأة عندما تحب .. وكيف أنها فى سبيل الحصول على رغبتها تحطم كل الموانع النفسية والاجتماعية .. وتستخدم كل الوسائل التى تظن أنها ستوصلها إلى مرادها . حتى ولو كانت هذه الوسائل تخالف ما عرف عن المرأة من أنها حريصة على أن تكون مطلوبة من الرجل لا طالبة له ..

(ز) وتحدثت عن العزيز حديثا قصيرا يناسب حجمه وسلوكه وتبلد شعوره ، فهو مع إيقانه بخطأ امرأته لم يزد عن أن قال ليوسف ولها ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(ح) وتحدثت عن ملك مصر فى ذلك الوقت ... وعن البيئة التى وصل الحال بها أن تزج بيوسف البرىء فى السجن ، إرضاء لشهوات النفوس الجامحة ..

قال - تعالى - : ﴿ ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

وهكذا نجد السورة الكريمة تحدثنا عن نماذج من البشر ، فتصف كل نموذج بما يناسبه من صفات ، بصدق وأمانة ، وتحكم عليه بالحكم الذى يناسبه .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا فى موضوعها وفى جوها وفى ظلالها وإيحاءاتها ، بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة ..

ففى الوقت الذى كان الرسول - ﷺ - يعانى من الوحشة والغربة والانقطاع فى جاهلية قريش - منذ عام الحزن - كان الله - تعالى - يقص عليه قصة أخ له كريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهو يعانى صنوفا من المحن والابتلاءات ..

محنة كيد الإخوة ، ومحنة الجب ، ومحنة الرق ، ومحنة كيد امرأة العزيز ، ومحنة السجن ، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان ..

فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبى الكريم ، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك .. تسلية للرسول - ﷺ - ولأصحابه عما أصابهم من أعدائهم ، وتسرية لقلوبهم وتطمينا لنفوسهم .

ولكأن الله - تعالى - يقول لنبيه - ﷺ - : كما أخرج يوسف من حضن أبيه ليواجه هذه الابتلاءات كلها ، ثم لينتهى بعد ذلك إلى النصر والتمكين ..

كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مكة مهاجرا ... ثم تعود إليها فى الوقت الذى يشاؤه الله ظافرا منتصرا[1] .

---

(١) تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٢ ص ١٩٥٠ .

وبعد : فهذا تعريف لسورة يوسف ، رأينا أن نسوقه قبل البدء فى تفسيرها ، لعله يعين على فهم ما اشتملت عليه من حكم وأحكام . ومن عبر وعظات ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة :

مساء الخميس ٩ من شعبان سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ١١/٦/ ١٩٨١ م

د . محمد سيد طنطاوى

« التفسير »

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

افتتحت سورة يوسف – عليه السلام – ببعض الحروف المقطعة . وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء فى هذه الحروف فى سورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود .

وقلنا ما ملخصه : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الايقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .

فكأن الله – تعالى – يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله – تعالى – : هاكم

القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ماتؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .. فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك .

ومما يشهد لصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة تراها تتحدث - صراحة أو ضمنا - عن القرآن الكريم وعن كونه من عند الله - تعالى - وعن كونه معجزة للرسول - ﷺ - ففى مطلع سورة البقرة : ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ...﴾ .

وفى مطلع سورة آل عمران : ﴿ ألم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل .. ﴾ .

وفى أول سورة الأعراف : ﴿ ألمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ..﴾ .

وفى أول سورة يونس : ﴿ ألر . تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ...﴾ .

وفى أول سورة هود : ﴿ ألر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... ﴾ .

وهكذا نجد أن معظم الآيات التى تلى الحروف المقطعة ، منها ما يتحدث عن أن هذا الكتاب من عند الله - سبحانه - ومنها ما يتحدث عن وحدانية الله - تعالى - ، ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول - ﷺ - فى دعوته ..

وهذا كله لتنبيه الغافلين إلى أن هذاالقرآن من عند الله ، وأنه المعجزة الخالدة للرسول - ﷺ - .

ثم قال - تعالى - : ﴿تلك آيات الكتاب المبين ﴾ .

و« تلك » اسم إشارة ، المشار إليه الآيات ، والمراد بها آيات القرآن الكريم ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب . وأصل الكتب ضم أديم الى آخر بالخياطة . واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، والمراد به القرآن الكريم .

والمبين : أى الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أى ظهر .

والمعنى : تلك الآيات التى نتلوها عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة وفى غيرها ، هى آيات الكتاب الظاهر أمره ، الواضح إعجازه ، بحيث لا تشتبه على العقلاء حقائقه ، ولا تلتبس عليهم هداياته .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب الكريم ، مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ .

أى : إنا أنزلنا هذا الكتاب الكريم على نبينا محمد - ﷺ - بلسان عربى مبين ، لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به ، تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهداياته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر ، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر وهو الله - عز وجل - .

فالضمير فى « أنزلناه » يعود إلى الكتاب ، وقرآنا حال من هذا الضمير أو بدلا منه .

والتأكيد بحرف إن متوجه إلى خبرها وهو أنزلناه ، للرد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله .

وجملة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ بيان لحكمة إنزاله بلغة العرب وحذف مفعول « تعقلون » للإشارة إلى أن نزوله بهذه الطريقة ، يترتب عليه حصول تعقل أشياء كثيرة لا يحصيها العد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وفى أشرف شهور السنة ، فكمل له الشرف من كل الوجوه»[١] .

وقال الجمل : « واختلف العلماء هل يمكن أن يقال : فى القرآن شىء غير عربى .

قال أبو عبيدة : من قال بأن فى القرآن شىء غير عربى فقد أعظم على الله القول . واحتج بهذه الآية .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٣ . طبعة دار الشعب .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة بأن فيه من غير العربى مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم ، وإستبرق ونحو ذلك .

وهذا هو الصحيح المختار ، لأن هؤلاء أعلم من أبى عبيدة بلسان العرب . وكلا القولين صواب - إن شاء الله - .

ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية فى الأصل ، لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم ، وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين ، وأمكن الجمع بينهما»[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها فقال - تعالى - : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : « القصص : إتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة المتابعة قال - تعالى - ﴿ وقالت لأخته قصيه .. ﴾ أى اتبعى أثره . وقال - تعالى - : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ أى : اتباعًا . وإنما سميت الحكاية قصصا ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا ، كما يقال : « تلا فلان القرآن ، أى قرأه آية فآية » [2] .

والمعنى : نحن نقص عليك - أيها الرسول الكريم « أحسن القصص » أى : أحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سيق من أجله .

وإنما كان قصص القرآن أحسن القصص ، لا شتماله على أصدق الأخبار ، وأبلغ الأساليب ، وأجمعها للحكم والعبر والعظات .

والباء فى قوله ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ للسببية متعلقة بنقص ، و ﴿ ما ﴾ مصدرية .

أى : نقص عليك أحسن القصص ، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى هو فى الذروة العليا فى بلاغته وتأثيره فى النفوس .

وجملة ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ فى موضع الحال من كاف الخطاب فى ﴿ إليك ﴾ و « وإن » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٣٢ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٨٥ .

والضمير فى قوله ﴿ من قبله ﴾ يعود إلى الإيحاء المفهوم من قوله ﴿ أوحينا ﴾ .

والمعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب ما أوحيناه إليك من هذا القرآن . والحال أنك كنت قبل إيحائنا إليك بهذا القرآن ، من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص ، وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك فى ذلك شأن قومك الأميين .

قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كمثال لأحسن القصص فقال - تعالى - ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

ويوسف : اسم أعجمى ، مشتق - كما يقول الآلوسى - من الأسف ، وسمى به لأسف أبيه عليه . وأبوه : هو يعقب بن إسحاق بن إبراهيم . وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وقوله : ﴿ يا أبت ﴾ أصله يا أبى ، فحذفت الياء وعوض عنها تاء التأنيث ، ونقلت إليها كسرة الباء ، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التأنيث .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - وقت أن قال يوسف لأبيه ، يا أبت إنى رأيت فى منامى ﴿ أحد عشر كوكبا ﴾ تسجد لى ، ورأيت كذلك ﴿ الشمس والقمر ﴾ لى ﴿ ساجدين ﴾ .

ولم يدرج الشمس والقمر فى الكواكب مع أنها منها ، لإظهار مزيتها ورفعا لشأنها ، وجملة ﴿ رأيتهم لى ساجدين ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها .

وأجريت هذه الكواكب مجرى العقلاء فى الضمير المختص بها ، لوصفها بوصفهم حيث إن السجود من صفات العقلاء ، والعرب تجمع مالا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته .

قال ابن كثير : « وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة وسفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن زيد ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل بعد ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ،

وهو سريره . وإخوته بين يديه .. وخروا له سجدا وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا ... »[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقال : ﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ .

وقوله ﴿ يا بنى ﴾ تصغير ابن . والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة عليه ، والتلطيف معه .

وقوله ﴿ رؤياك ﴾ من الرؤيا التى هى مصدر رأى العلمية الدالة على ما وقع للإنسان فى نومه ، أما رأى البصرية فيقال فى مصدرها الرؤية .

وقوله « فيكيدوا لك .. » من الكيد وهو الاحتيال الخفى بقصد الإضرار والفعل كاد يتعدى بنفسه ، فيقال : كاده يكيده كيدا ، إذا احتال لإهلاكه . ولتضمنه معنى احتال عدى باللام .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بشفقة ورحمة ، بعد أن سمع منه ما رآه فى منامه : « يا بنى » لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه ..

وإنما قال له ذلك ، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله - تعالى - سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما . ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير من الناس ، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ، ومن عدوانهم عليه .

والتنوين فى قوله « كيدا » للتعظيم والتهويل ، زيادة فى تحذيره من قص الرؤيا عليهم .

وجملة « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » واقعة موقع التعليل للنهى عن قص الرؤيا على إخوته ، وفيها إشارة إلى أن الشيطان هو الذى يغريهم بالكيد له إذا ما قص عليهم ما رآه ، وهو بذلك لا يثير فى نفسه الكراهة لإخوته .

أى : لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، فيحتالوا للإضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان فى نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، فيفرح هو بذلك ، إذ كل قبيح يقوله أو يفعله الناس يفرح له الشيطان .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٨ .

أنه يجوز للانسان فى بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التى أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه . ومن الأحاديث التى وردت فى فضل الرؤيا الصالحة ما رواه البخارى عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله – ﷺ – من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. » .

وفى حديث آخر : « الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » .

وفى حديث ثالث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهى الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له »[١] .

كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « والظاهر أن القوم – أى إخوة يوسف – كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء[٢] .

وهذا ما عليه الأكثرون سلفا وخلفا . أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم .

وأما الخلف فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأى من قال بذلك الإمام ابن تيمية ، فى مؤلف له خاص بهذه المسألة ، وقد قال فيه :

الذى يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار ، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس فى القرآن ولا فى السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء ... » .

ثم حكى – سبحانه – ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال :

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » .

والكاف فى قوله ﴿ وكذلك ﴾ حرف تشبيه بمعنى مثل ، وهى داخلة على كلام محذوف .

---

(١) لمعرفة المزيد عن الرؤيا المنامية راجع تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٥٠٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٦٤ .

وقوله ﴿ يجتبيك ﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من جبيت الشىء إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .

و ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ معناه تفسيرها تفسيرا صحيحا ، إذ التأويل مأخوذ من الأَوْل بمعنى الرجوع ، وهو رد الشىء إلى الغاية المرادة منه .

والأحاديث جمع تكسير مفرده حديث ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحدث بها .

والمعنى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه - سبحانه - يجتبيك ويختارك لأمور عظام فى مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحسِّ ، ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكا سليما ، وتعبر الرؤى تعبيرا صحيحا صادقاً .

« ويتم نعمته عليك » بالنبوة والرسالة والملك والرياسة « وعلى آل يعقوب » وهم إخوته وذريتهم ، بأن يسبغ عليهم الكثير من نعمه .

﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ﴾ أى : من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت .

وقوله « إبراهيم وإسحاق » بيان لأبويه .

أى : يتم نعمته عليك إتماما كائنا كإتمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق بأن وهبهما - سبحانه - النبوة والرسالة .

وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف ، مع أن إبراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام - ، وللمبالغة فى إدخال السرور على قلبه ، ولأن هذا الاستعمال مألوف فى لغة العرب ، فقد كان أهل مكة يقولون للنبى - ﷺ - يا ابن عبد المطلب ، وأثر عنه - ﷺ - أنه قال : أنا النبى لا كذب - أنا ابن عبد المطلب . وجملة « إن ربك عليم حكيم » مستأنفة لتأكيد ما سبقها من كلام .

أى : إن ربك عليم بمن يصطفيه لحمل رسالته ، وبمن هو أهل لنعمه وكرامته ، حكيم فى صنعه وتصرفاته .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وساقت بأسلوب حكيم ما قاله يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بعد أن قص ما رآه فى المنام .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ، وحالتهم وهم يجادلون أباهم فى شأنه . وحالتهم وهم ينفذون مؤامراتهم المنكرة وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا

إلى أبيهم ليلا يتباكون فقال - تعالى - :

۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ (٧) إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٨) ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (١٠) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (١١) أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ (١٣) قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٥)

وقوله - سبحانه - : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ شروع فى حكاية قصة يوسف مع إخوته ، بعد أن بين - سبحانه - صفة القرآن الكريم ، وبعد أن أخبر عما رآه يوسف فى منامه ، وما قاله أبوه له .

وإخوة يوسف هم : رأو بين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وأشير ، وبنيامين .

والآيات : جمع آية والمراد بها هنا العبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .

والمعنى : لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة ، وحكمته الباهرة ، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر ، وعلى ما للحسد والبغى من شرور وخذلان .

وقوله : « للسائلين » أى : لمن يتوقع منهم السؤال ، بقصد الانتفاع بما ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام .

أى : لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته ، آيات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، ومن تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة .. ﴾ . بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم ، قبل أن ينفذوا جريمتهم .

و « إذ » ظرف متعلق بالفعل « كان » فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته .. ﴾.

واللام فى قوله ﴿ ليوسف ﴾ لتأكيد أن زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه ، أمر ثابت ، لا يقبل التردد أو التشكك .

والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو « بنيامين » وكان أصغر من يوسف - عليه السلام - أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

ولم يذكروه باسمه ، للاشعار بأن محبة يعقوب له ، من أسبابها كونه شقيقا ليوسف ، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد .

وجملة « ونحن عصبة » حالية . والعصبة كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهى مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، أو لأن الأمور تعصب بهم . أى تشتد وتقوى .

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكر به : ليوسف وأخوه«بنيامين»أحب إلى قلب

أبينا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخيه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ تذييل قصدوا به درء الخطأ عن أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف وإلقائه على أبيه الذى فرق بينهم - فى زعمهم - فى المعاملة .

والمراد بالضلال هنا : عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء فى موضعها الصحيح ، وليس المراد به الضلال فى العقيدة والدين .

أى : إن أبانا لفى خطأ ظاهر ، حيث فضل فى المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء النافعين له القادرين على خدمته .

قال القرطبى : لم يريدوا بقولهم ﴿ إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ الضلال فى الدين إذلو أرادوه لكانوا كفارا ، بل أرادوا : إن أبانا لفى ذهاب عن وجه التدبير فى إيثاره اثنين على عشرة ، مع استوائهم فى الانتساب إليه »[1] .

وهذا الحكم منهم على أبيهم ليس فى محله ، لأن يعقوب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : يروى أن يعقوب - عليه السلام - كان يوسف أحب إليه لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة .

وقال بعضهم : إن زيادة حبه ليوسف وأخيه ، صغرهما ، وموت أمهما ، وقد قيل لإحدى الأمهات : أى بنيك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يشفى .

ولا لوم على الوالد فى تفضيله بعض ولده على بعض فى المحبة لمثل ذلك وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما يدخل تحت وسع البشر .. »[2] .

ثم أخبر - سبحانه - عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال - تعالى - : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ .

ولفظ « اطرحوه » مأخوذ من الطرح ، ومعناه رمى الشيء وإلقاؤه بعيداً ، ولفظ « أرضاً » منصوب على نزع الخافض ، والتنوين فيه للإبهام . أى : أرضا مجهولة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٣١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧١ .

والمعنى : لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه علينا ، مع أننا أولى بذلك منهما ؛ وما دام هو مصراً على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت فيها غريبا .

قال الآلوسى : « وحاصل المعنى : اقتلوه أو غربوه ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود ، ولعمرى لقد ذكروا أمرين مرين ، فإن الغربة كربة أية كربة ، ولله - تعالى - در القائل :

حسنوا القول وقالوا غربة ... إنما الغربة للأحرار ذبح

وجملة « يخل لكم وجه أبيكم » جواب الأمر .

والخلو : معناه الفراغ . يقال خلا المكان يخلو خلوا وخلاء ، إذا لم يكن به أحد .

والمعنى : اقتلوا يوسف أو اقذفوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد ، فيقبل عليكم بكليته ، ويكن كل توجهه إليكم وحدكم ، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف .

قال صاحب الكشاف : « يخل لكم وجه أبيكم » أى : يقبل عليكم إقبالة واحدة ، لا يلتفت عنكم إلى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشىء أقبل عليه بوجهه ... » [1] .

وقوله ﴿ وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ معطوف على جواب الأمر .

أى : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه فى أرض بعيدة ، قوما صالحين فى دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم ، وصالحين فى دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التى كان يثيرها وجود يوسف بينكم .

وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ، وتحاول التخلص ممن يزاحمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر فى صورة الكبائر ، والكبائر فى صورة الصغائر .

فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم ، يستحق إزهاق روح الأخ . وفى الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شىء هين ، فى الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم ،وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٥ .

وقوله – سبحانه – ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ بيان للرأى الذى اقترحه أحدهم ، واستقر عليه أمرهم .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ﴿ وألقوه فى غيابة الجب ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابة الجب » بالإفراد – وقرأ أهل المدينة « فى غيابات الجب » – بالجمع – .

وكل شىء غيب عنك شيئا فهو غيابة ، ومنه قيل للقبر غيابة – قال الشاعر :

فإن أنا يوما غيبتنى غيابتى فسيروا بسيرى فى العشيرة والأهل

والجب : الركية – أى الحفرة – التى لم تطو – أى لم تبن بالحجارة – فإذا طويت فهى بئر . وسميت جبا لأنها قطعت فى الأرض قطعا . وجمع الجب جببه وجباب وأجباب .

وجمع بين الغيابة والجب ، لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين ... » [١] .

والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون فى السير ليصلوا إلى مقصودهم .

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف أفزعه ماهم مقدمون عليه بشأن أخيهم الصغير : لا تقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلا من ذلك ، ألقوه فى قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين ، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم وجه أبيكم .

ولم يذكر القرآن اسم هذا القائل أو وصفه ، لأنه لا يتعلق بذكر ذلك غرض ، وقد رجح بعض المفسرين أن المراد بهذا القائل « يهوذا » .

والفائدة فى وصفه بأنه منهم ، الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو طرحه فى أرض بعيدة حتى يدركه الموت .

وأتى باسم يوسف دون ضميره . لاستدرار عطفهم عليه ، وشفقتهم به ، واستعظام أمر قتله .

وجواب الشرط فى قوله « إن كنتم فاعلين » محذوف لدلالة « وألقوه » عليه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٣٢ .

والمعنى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فألقوه فى غيابة الجب ، ولا تقتلوه ولا تطرحوه أرضا .

وفى هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التغريب بأسلوب بليغ ، حيث فوض الأمر إليهم ، تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به ، فكان أمثلهم رأيا ، وأقربهم إلى التقوى .

قالوا : وفى هذا الرأى عبرة فى الاقتصاد عند الانتقام ، والاكتفاء بما حصل به الغرض دون إفراط ، لأن غرضهم إنما هو إبعاد يوسف عن أبيهم . وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه فى غيابة الجب .

ثم حكى - سبحانه - محاولاتهم مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم - محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم - : يا أبانا « مالك لا تأمنا على يوسف » أى : أى شىء جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف فى خروجه معنا ، والحال أننا له لناصحون ، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص ، والود الصادق .

وفى ندائهم له بلفظ « يا أبانا » استمالة لقلبه ، وتحريك لعطفه ، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم .

والاستفهام فى قولهم « مالك لا تأمنا .. » للتعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم إخوته ، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك فى اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب .. ﴾ .

والرتع والرتوع هو الاتساع فى الملاذ والتنعم فى العيش ، يقال : رتع الإنسان فى النعمة إذا أكل ما يطيب له ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت ، وفعله كمنع والمراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السآمة ، كالتسابق عن طريق العدو ، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة .

أى : أرسله معنا غدا ليتسع فى أكل الفواكه ونحوها ،وليدفع السآمة عن نفسه عن طريق القفز والجرى والتسابق معنا .

﴿ وإنا له لحافظون ﴾ . كل الحفظ من أن يصيبه مكروه ، أو يمسه سوء .

وقد أكدوا هذه الجملة والتى قبلها وهى قوله « وإنا له لناصحون » بألوان من المؤكدات ، لكى يستطيعوا الحصول على مقصودهم فى اصطحاب يوسف معهم .

وهو أسلوب يبدو فيه التحايل الشديد على أبيهم ، لإقناعه بما يريدون تنفيذه وتحقيقه من مآرب سيئة .

ثم أخبر - سبحانه - عما رد به عليهم أبوهم فقال : ﴿ قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ .

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب .

والخوف : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .

والذئب : حيوان معروف بعدوانه على الضعاف من الإنسان ومن الحيوان ، وأل فيه للجنس ، والمراد به أى فرد من أفراد الذئاب .

أى : قال يعقوب لأبنائه ردا على إلحاحهم فى طلب يوسف للذهاب معهم يا أبنائى إنى ليحزننى حزناً شديداً فراق يوسف لى ، وفضلا عن ذلك فإننى أخشى إذا أخذتموه معكم فى رحلتكم أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ، بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه .

قالوا : وخص الذئب بالذكر من بين سائر الحيوانات ، ليشعرهم بأن خوفه عليه مما هو أعظم من الذئب توحشا وافتراسا أشد وأولى .

أو خصه بالذكر لأن الأرض التى عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ رد مؤكد من إخوة يوسف على تخوف أبيهم وتردده فى إرساله معهم . إذ اللام فى قوله : « لئن » موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله : « إنا إذا لخاسرون » .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة الحزن والخوف عن نفسه : يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا فى هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شىء نافع .

وأخيراً استسلم الأب ، لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره على يوسف . ولتسير قصة حياته فى الطريق الذى شاء الله تعالى - له أن تسير فيه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة

الجب . وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

أى : فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به فى الغد إلى حيث يريدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به فى قعر الجب ، فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة .

فالفاء فى قوله فلما : للتفريع على كلام مقدر ، وجواب « لما » محذوف ، دل عليه السياق . وفعل « أجمع » يتعدى إلى المفعول بنفسه ، ومعناه العزم والتصميم على الشىء ، تقول : أجمعت المسير أى : عزمت عزما قويا عليه .

وقوله « أن يجعلوه » مفعول أجمعوا .

قال الآلوسى : « والروايات فى كيفية إلقائه فى الجب ، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ماله سند يعول عليه »[1] .

والضمير فى قوله ، وأوحينا إليه يعود على يوسف - عليه السلام - .

أى : وأوحينا إليه عند إلقائه فى الجب عن طريق الإلهام القلبى ، أو عن طريق جبريل - عليه السلام - أو عن طريق الرؤيا الصالحة . ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ أى : لتخبرنهم فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - فى مستقبل الأيام ، بما فعلوه معك فى صغرك من إلقائك فى الجب ، ومن إنجاء الله - تعالى - لك ، فالمراد بأمرهم هذا : إيذاؤهم له وإلقاؤهم إياه فى قعر الجب ، ولم يصرح - سبحانه - به ، لشدة شناعته .

وجملة « وهم لا يشعرون » حالية ، أى : والحال أنهم لا يحسون ولا يشعرون فى ذلك الوقت الذى تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف . لاعتقادهم أنك قد هلكت ولطول المدة التى حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتباين حالك وحالهم فى ذلك الوقت ، فأنت ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون عليك فقراء يطلبون عونك ورفدك .

وقد تحقق كل ذلك - كما سيأتى - عند تفسير قوله تعالى - : ﴿ ولما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر .. ﴾ .

وكان هذا الإيحاء - على الراجح - قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا .

وكان المقصود منه ، إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشيره بما سيصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٧ .

قالوا : وكان هذا الجب الذى ألقى فيه يوسف على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - بفلسطين .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم وعادوا إليه ليلا يبكون فقال :

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

فقوله :﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ .

والعشاء : وقت غيبوبة الشفق الباقى من بقايا شعاع الشمس ، وبدء حلول الظلام والمراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع للتمويه والخداع لأبيهم ، حتى يقنعوه - فى زعمهم - أنهم لم يقصروا فى حق أخيهم .

أى : وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتباكون ، متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : « دموع الفاجر بيديه » .

﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أى : نتسابق عن طريق الرمى بالسهام ، أو على الخيل ، أو على الأقدام . يقال : فلان وفلان استبقا أى : تسابقا حتى ينظر أيها يسبق الآخر .

﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى : عند الأشياء التى نتمتع بها وننتفع فى رحلتنا ، كالثياب والأطعمة وما يشبه ذلك .

﴿ فأكله الذئب ﴾ فى تلك الفترة التى تركناه فيها عند متاعنا .

والمراد : قتله الذئب ، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئا ندفنه .

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ أى : وما أنت بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن

يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين فى ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .

وهذه الجملة الكريمة توحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المريب أن يقول خذونى - كما يقولون - .

ولكنهم لم يكتفوا بهذا التباكى وبهذا القول ، بل أضافوا إلى ذلك تمويها آخر حكاه القرآن فى قوله : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ... ﴾ أى : بدم ذى كذب ، فهو مصدر بتقدير مضافه ، أو وصف الدم بالمصدر مبالغة ، حتى لكأنه الكذب بعينه ، والمصدر هنا بمعنى المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق ، أى : بدم مكذوب .

والمعنى : وبعد أن ألقوا بيوسف فى الجب ، واحتفظوا بقميصه معهم ، ووضعوا على هذا القميص دما مصطنعا ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم شىء آخر قد يكون ظبيا وقد يكون خلافه .

وقال - سبحانه - ﴿ على قميصه ﴾ للإشعار بأنه دم موضوع على ظاهر القميص وضعا متكلفا مصطنعا ، ولو كان من أثر افتراس الذئب لصاحبه ، لظهر التمزق والتخريق فى القميص ، ولتغلغل الدم فى قطعة منه .

ولقد أدرك يعقوب - عليه السلام - من قسمات وجوههم ، ومن دلائل حالهم ، ومن نداء قلبه المفجوع أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأن هؤلاء المتباكين هم الذين دبروا له مكيدة ما ، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة مخادعة له ، ولذا جابهم بقوله : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ... ﴾ .

والتسويل : التسهيل والتزيين. يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل أى زينته وحسنته له ، وصورته له فى صورة الشىء الحسن مع أنه قبيح .

أى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربى ومشيئته .

ونكر الأمر فى قوله : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ لاحتماله عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف ، كالقتل ، أو التغريب ، أو البيع فى الأسواق لأنه لم يكن يعلم على سبيل اليقين ما فعلوه به .

وفى هذا التنكير والإبهام - أيضا - ما فيه من التهويل والتشنيع لما اقترفوه فى حق أخيهم .

وقوله ﴿ فصبر جميل ﴾ أى : فصبرى صبر جميل ، وهو الذى لا شكوى فيه لأحد سوى الله - تعالى - ولا رجاء معه إلا منه - سبحانه - .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أى : والله - تعالى - هو الذى أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابنى يوسف قد أكله الذئب .

أو المعنى : والله - تعالى - وحده هو المطلوب عونه على إظهار حقيقة ما تصفون ، وإثبات كونه كذبا ، وأن يوسف مازال حيا ، وأنه - سبحانه - سيجمعنى به فى الوقت الذى يشاؤه .

قال الآلوسى : « أخرج ابن ابى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف - بعد أن ألقوا به فى الجب - أخذوا ظبيا فذبحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم جعل يقلبه ويقول : تا الله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا الذئب !! أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه ... »[1] .

وقال القرطبى : « استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب - عليه السلام - قد استدل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات ... »[2] .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : « وفى الآية من الفوائد : أن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود وبمن يراعيه ... وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، لم يصدق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله - تعالى - فضحه الله - عز وجل - ، وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا ينجى منه ... »[3] .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تآمر به إخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلا ورأيا ، وما تحايلوا به على أبيهم لكى يصلوا إلى مآربهم ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن نفذوا جريمتهم فى أخيهم . بأن ألقوا به فى الجب ..

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتشاله من الجب ، وعن بيعه بثمن بخس وعن وصية الذى اشتراه لامرأته ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٥٠ .
(٣) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٢٠ .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ... ﴾ شروع فى الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته فى الجب .

والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر .

والوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى للناس الذين معه . ويقع هذا اللفظ على الفرد والجماعة . فيقال لكل من يرد الماء وارد ، كما يقال للماء مورود .

وقوله ﴿ فأدلى ﴾ من الإدلاء بمعنى إرسال الدلو فى البئر لأخذ الماء .

والدلو : إناء معروف يوضع فيه الماء .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :

وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليستقوا ، فوجد جبا ، فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ، فلما خرج ورآه فرح به وقال : يابشرى هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى ، للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنها شخص عاقل يستحق النداء ، أى : يا بشارتى أقبلى فهذا أوان إقبالك .

وقيل المنادى محذوف والتقدير : يارفاقى فى السفر أبشروا فهذا غلام ، وقد خرج من الجب .

وقرأ أهل المدينة ومكة : يابشراى هذا غلام . بإضافة البشرى إلى ياء المتكلم . والضمير المنصوب وهو الهاء فى قوله : ﴿وأسروه بضاعة﴾ يعود إلى يوسف .

أما الضمير المرفوع فيعود إلى السيارة ، وأسر من الإسرار الذى هو ضد الإعلان .

والبضاعة : عروض التجارة ومتاعها . وهذا اللفظ مأخوذ من البضع بمعنى القطع ، وأصله جملة من اللحم تبضع أى : تقطع . وهو حال من الضمير المنصوب فى ﴿ وأسروه ﴾ .

والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبره بضاعة سرية لهم ، وعزموا على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء .

ولعل يوسف - عليه السلام - قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الجب .

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا فى بيعه والانتفاع بثمنه .

ومن المفسرين من يرى أن الضمير المرفوع فى قوله ﴿ وأسروه ﴾ يعود على الوارد ورفاقه ، فيكون المعنى :

وأسر الوارد ومن معه أمر يوسف عن بقية أفراد القافلة ، مخافة أن يشاركوهم فى ثمنه إذا علموا خبره ، وزعموا أن أهل هذا المكان الذى به الجب دفعوه إليهم ليبيعوه لهم فى مصر على أنه بضاعة لهم .

ومنهم من يرى أن الضمير السابق يعود إلى إخوة يوسف .

قال الشوكانى ما ملخصه : وذلك أن يهوذا كان يأتى إلى يوسف كل يوم بالطعام . فأتاه يوم خروجه من الجب فلم يجده ، فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا إلى السيارة وقالوا لهم : إن الغلام الذى معكم عبد لنا قد أبق ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذه إخوته فيقتلوه »[1] .

وعلى هذا الرأى يكون معنى ﴿وأسروه بضاعة﴾ : أخفى إخوة يوسف كونه أخا لهم ،

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٣ .

واعتبروه عرضا من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء .

ويكون المراد بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ الشراء الحقيقى ، بمعنى أن السيارة اشتروا يوسف من إخوته بثمن بخس .

والحق أن الرأى الأول هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأنه بعيد عن التكلف الذى يرى واضحا فى القولين الثانى والثالث .

وقوله : ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أى : لا يخفى عليه شىء من إسرارهم . ومن عملهم السىء فى حق يوسف . حيث إنهم استرقوه وباعوه بثمن بخس ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم . كما جاء فى الحديث الشريف .

وقوله : - سبحانه - ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ بيان لما فعله السيارة بيوسف بعد أن أسروه بضاعة .

وقوله ﴿ شروه ﴾ هنا بمعنى باعوه .

والبخس : النقص ، يقال بخس فلان فلانا حقه ، إذا نقصه وعابه . وهو هنا بمعنى المبخوس .

و ﴿ دراهم ﴾ جمع درهم ، وهى بدل من ﴿ ثمن ﴾ .

و ﴿ معدودة ﴾ صفة لدراهم ، وهى كناية عن كونها قليلة ، لأن الشىء القليل يسهل عده ، بخلاف الشىء الكثير ، فإنه فى الغالب يوزن وزنا .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضا من عروض تجارتهم ، باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة ، ذكر بعضهم أنها لا تزيد على عشرين درهما .

وقوله : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ بيان لعدم حرصهم على بقائه معهم ، إذ أصل الزهد قلة الرغبة فى الشىء ، تقول زهدت فى هذا الشى ء ، إذا كنت كارها له غير مقبل عليه .

أى : وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين فى بقائه معهم ، الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وزهدهم فيه سببه أنهم التقطوه من الجب ، والملتقط للشىء متهاون به لا يبالى أن يبيعه بأى ثمن خوفا من أن يعرض له مستحق ينزعه منه ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٠٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ...﴾ بيان لبعض مظاهر رعاية الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - .

والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ولقبه القرآن بالعزيز كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق...﴾ .

و ﴿ من مصر ﴾ صفة لقوله ﴿ الذى اشتراه ﴾ .

وامرأته : المراد بها زوجته ، واسمها كما قيل زليخا أو راعيل .

ومثواه من المثوى وهو مكان الإقامة والاستقرار . يقال : ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أطال الإقامة به . ومنه قوله - تعالى - ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين ....﴾ أى مقيما معهم .

أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لامرأته : اجعلى محل إقامته كريما ، وأنزليه منزلا حسنا مرضيا .

وهذا كناية عن وصيته لها بإكرامه على أبلغ وجه ، لأن من أكرم المحل بتنظيفه وتهيئته تهيئة حسنة فقد أكرم صاحبه .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ أكرمى مثواه ﴾ أى : اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما : أى حسنا مرضيا بدليل قوله بعد ذلك ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ .

والمراد : تفقديه بالإحسان ، وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ، ساكنة فى كنفنا . ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد هل تطيب نفسك بثوائك عنده وهل يراعى حق نزولك به ؟ واللام فى ﴿ لامرأته ﴾ متعلق بقال ... »[1] .

وقوله : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ بيان لسبب أمره لها بإكرام مثواه .

أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ، أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ، وأمارات الأدب وحسن الخلق .

قالوا وهذه الجملة ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ توحى بأنهما لم يكن عندهما أولاد . والكاف فى قوله - سبحانه - ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾ فى محل نصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف والإشارة الى ما تقدم من إنجائه من إخوته ، وانتشاله من الجب ، ومحبة العزيز له ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٠ .

و « مكنا » من التمكين بمعنى التثبيت ، والمراد بالأرض : أرض مصر التى نزل فيها .

أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكنا ليوسف فى أرض مصر ، حتى صار أهلا للأمر والنهى فيها .

وقوله - سبحانه - ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ علة لمعلل محذوف ، فكأنه قيل : وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ، واستنارة العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكا سليما ، ويفسر الرؤى تفسيرا صحيحا صادقا .

وقوله : ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ تذييل قصد به بيان قدرة الله - تعالى - ونفاذ مشيئته .

فأمر الله هنا : هو ما قدره وأراده .

أى : والله - تعالى - متمم ما قدره وأراده، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا ينازعه منازع ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال .

والتعبير بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ احتراس لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله - تعالى - من فضله ما يجعلهم لا يندرجون فى الكثرة التى لا تعلم ، بل هو - سبحانه - يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون مالا يعلمه غيرهم .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر إنعامه على يوسف فقال : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾ .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية فى ذلك ، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع ، يقال : شد النهار إذا ارتفع .

ويرى بعضهم أنه مفرد جاء بصيغة الجمع ويرى آخرون أنه جمع لا واحد له من لفظه وقيل هو جمع شدة كأنعم ونعمة .

والمعنى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، وهى السن التى كان فيها - على ما قيل - ما بين الثلاثين والأربعين .

﴿ آتيناه ﴾ أى : أعطيناه بفضلنا وإحساننا .

﴿ حكما ﴾ أى : حكمة ، وهى الإصابة فى القول والعمل أو هى النبوة .

و ﴿ علما ﴾ أى فقها فى الدين . وفهما سليما لتفسير الرؤى ، وإدراكا واسعا لشئون الدين والدنيا .

وقوله : ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ أى : ومثل هذا الجزاء الحسن والعطاء الكريم ،

نعطى ونجازى الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به ، فكل من أحسن فى أقواله وأعماله أحسن الله - تعالى - جزاءه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، فى حياة يوسف - عليه السلام - وهى مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده ، وآتاه الله - تعالى - حكما وعلما ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى بأسلوبها البليغ ما فعلته معه امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد ... فتقول :

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ... ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف فى منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين ، تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .

والمراودة - كما يقول صاحب الكشاف - مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشىء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التحايل لمواقعته إياها[1] .

والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة ، للإشعار بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل . وكان منه - عليه السلام - الإباء والامتناع عما تريده خوفا من الله - تعالى ..

وقال - سبحانه - ﴿ التى هو فى بيتها ﴾ دون ذكر لاسمها ، سترا لها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن فى تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب فى التعبير .

والمراد ببيتها : بيت سكناها ، والإخبار عن المراودة بأنها كانت فى بيتها . أدعى لإظهار كمال نزاهته ه عليه السلام - فإن كونه فى بيتها يغرى بالاستجابة لها ، ومع ذلك فقد أعرض عنها ، ولم يطاوعها فى مرادها .

وعدى فعل المراودة بعن ، لتضمنه معنى المخادعة .

قال بعض العلماء : و« عن » هنا للمجاوزة ، أى : راودته مباعدة له عن نفسه ، أى : بأن يجعل نفسه لها ، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم ، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة ، قاله ابن عطيه ، أى : فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه فى نفسه »[2] .

وقوله ﴿ وغلّقت الأبواب ﴾ أى : أبواب بيت سكناها الذى تبيت فيه بابا فباباً ، قيل : كانت الأبواب سبعة .

والمراد أنها أغلقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه إغلاقا شديدا محكما ، كما يشعر بذلك التضعيف فى « غلّقت » زيادة فى حمله على الاستجابة لها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٥٠ للشيخ الفاضل بن عاشور .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : هيت لك ، أى : هأنذا مهيئة لك فأسرع فى الإقبال على ...

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت من المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة ...

و « هيت » اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهى كلمة حض وحث على الفعل ، واللام فى « لك » لزيادة بيان المقصود بالخطاب ، كما فى قولهم : سقيا لك وشكراً لك . وهى متعلقة بمحذوف فكأنما تقول : إرادتى كائنة لك .

قال الجمل ما ملخصه : « ورد فى هذه الكلمة قراءات : « هَيتِ » كليت ، و « هِيتَ » كفيل و « هَيتُ » كحيث ، و « هِئتُ » بكسر الهاء وضم التاء ، و « هِئتَ » بكسر الهاء وفتح التاء .

ثم قال : فالقراءات السبعية خمسة ، وهذه كلها لغات فى هذه الكلمة ، وهى فى كلها اسم فعل بمعنى هلم أى أقبل وتعال[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ بيان لما ردّ به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

و « معاذ » مصدر أضيف إلى لفظ الجلالة ، وهو منصوب بفعل محذوف أى : قال يوسف فى الرد عليها : أعوذ بالله معاذا مما تطلبينه منى ، وأعتصم به اعتصاما مما تحاولينه معى ، فإن ما تطلبينه وتلحين فى طلبه يتنافى مع الدين والمروءة والشرف .. ولا يفعله إلا من خبث منبته ، وساء طبعه ، وأظلم قلبه .

وقوله ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ تعليل لنفوره مما دعته إليه ، واستعاذ بالله منه .

والضمير فى « إنه » يصح أن يعود إلى الله - تعالى - فيكون لفظ ربى بمعنى خالقى . والتقدير : قال يوسف فى الرد عليها : معاذ الله أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمنى الله - تعالى - بما أكرمنى به من النجاة من الجب ، ومن تهيئة الأسباب التى جعلتنى أعيش معززا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد حبانى كل هذه النعم فكيف أرتكب ما يغضبه ؟ .

وجوز بعضهم عودة الضمير فى « إنه » إلى زوجها ، فيكون لفظ ربى بمعنى سيدى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٤٤ .

ومالكى ، والتقدير : معاذ الله أن أقابل من اشترانى بماله ، وأحسن منزلى ، وأمرك بإكرامى - بالخيانة له فى عرضه .

وفى هذه الجملة الكريمة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها ، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من مواقعتها ، لأنه يؤدى إلى غضب الله وغضب زوجها عليها .

وجملة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل آخر لصدها عما تريده منه .

والفلاح : الظفر وإدراك المأمول .

أى : إن كل من ارتكب ما نهى الله - تعالى - عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران وعدم الفلاح فى الدنيا والآخرة فكيف تريدين منى أن أكون كذلك ؟ .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعى الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها ، هيت لك : بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله - كما حكى القرآن عنه - ﴿ معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - فى تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة ...

ولكن نداء العقل ونداء الشهوة الجامحة لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا بعد ذلك صداما آخر بينهما فيقول : ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ... ﴾ .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى خلط المفسرون فيها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة .

وسنبين أولا الرأى الذى نختاره فى تفسيرها ، ثم نتبعه بعد ذلك بغيره فنقول : ألهمّ : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول هممت على فعل هذا الشىء ، إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال : بعض العلماء : الهم نوعان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه ، وهَمٌّ بمعنى خاطر وحديث نفس ، من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به صاحبه ، لأن خطور المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها مالم توجد فى الأعيان .

روى الشيخان وأهل السنن عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن الله

تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به ، أو تعمل به »[١] .

وقد أجمع العلماء على أن همَّ امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل المراودة وتغليق الأبواب ، وقولها « هيْت لك » .

كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية : من غير جزم وعزم ...

وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوّة ، كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه ، فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه هو : ما غرسه الله - تعالى - فى قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به .

أو هو - كما يقول ابن جرير - رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان همّ به ..

والمعنى : ولقد همت به ، أى : ولقد قصدت امرأة العزيز مواقعة يوسف - عليه السلام - قصداً جازما ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل فلم يستجب لها ...

﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أى : ومال إلى مطاوعتها بمقتضى طبيعته البشرية وبمقتضى توفر كل الدواعى لهذا الميل ...

ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية ، وخوفه لمقام ربه ، وعون الله - تعالى - له على مقاومة شهوته .... كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا الميل ، وصرفه عنه صرفا كليا ، وجعله يفر هاربا طالبا النجاة مما تريده منه تلك المرأة .

هذا هو الرأى الذى نختاره فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .

فمن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى صاحب الكشاف ، فقد قال ما ملخصه .

وقوله - تعالى - ﴿ ولقد همت به ﴾ معناه : ولقد همت بمخالطته ؛ « وهم بها » أى : وهم بمخالطتها « لولا أن رأى برهان ربه » جوابه محذوف تقديره ؛ لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف لأن قوله وهم بها يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت الله. معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٢٨ .

فإن قلت : كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية ؟ .

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه بأنه من عباده المخلصين »[1] .

ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأى الإمام الآلوسى ، فقد قال ما ملخصه :

قوله : « ولقد همت به » أى : بمخالطته .. والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزما جازما ، لا يلويها عنها صارف بعدما باشرت مباديها ...

والتأكيد - باللام وقد - لدفع ما يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه .

﴿ وهم بها ﴾ أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ... ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به ... « لولا أن رأى برهان ربه » أى محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا ، وسوء سبيله .

والمراد برؤيته له : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين ... »[2] .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بهمها به : الهم بضربه نتيجة عصيانه لأمرها .

وأن المراد بهمه بها : الدفاع عن نفسه برد الاعتداء ، ولكنه آثر الهرب .

وقد قرر هذا الرأى ودافع عنه وأنكر سواه صاحب المنار ، فقد قال ما ملخصه :

« ولقد همت به » أى : وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ... فخرجت بذلك عن طبع أنوثتها فى التمنع .. مما جعلها تحاول البطش به

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٩١ .

بعد أن أذل كرامتها ، وهو انتقام معهود من مثلها ، وممن دونها فى كل زمان ومكان ...

وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله ، وهو قوله - تعالى - ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه فى سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله - تعالى - ﴿ والله غالب على أمره ﴾ وهو إما النبوة ... وإما معجزتها .. وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا ، وهى مراقبته لله - تعالى - ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه »[1] .

وما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم منها بالبطش بيوسف ، وتفسير الهم منه برد الاعتداء الذى وقع عليه منها ... أقول : ما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم بذلك ، لا أرى دليلا عليه من الآية ، لا عن طريق الإشارة ، ولا عن طريق العبارة ...

ولعل صاحب المنار - رحمه الله - أراد بهذا التفسير أن يبعد يوسف - عليه السلام - عن أن يكون قدهم بها هم ميل بمقتضى الطبيعة البشرية ، ونحن لا نرى مقتضيا لهذا الإبعاد ، لأن خطور المناهى فى الأذهان ، لا مؤاخذة عليها ، مادامت لم يصاحبها عزم أو قصد - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل .

هذا وهناك أقوال أخرى لبعض المفسرين فى معنى الآية الكريمة ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ؛ لأنه لا دليل عليها لا من العقل ولا من النقل ولا من اللغة ... وإنما هى من الأوهام الإسرائيلية التى تتنافى كل التنافى مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف - عليه السلام .

قوله - سبحانه - ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له .

والكاف : نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله « لولا أن رأى برهان ربه » أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .

والصرف : نقل الشىء من مكان إلى مكان والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله عنه ، أى : أريناه مثل هذه الإراءة أو ثبتناه تثبيتا مثل هذا التثبيت لنعصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء - أى فى المنكر والفجور والمكروه - والفحشاء - أى كل ما فحش وقبح من الأفعال كالزنا ونحوه .

« إنه من عبادنا المخلصين » - بفتح اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لطاعتناوعصمناهم من كل ما يغضبنا .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٣٧٨ .

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو « المخلصين » - بكسر اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .

والجملة الكريمة على القراءتين تعليل لحكمة صرفه - عليه السلام - عن السوء والفحشاء .

وقوله - سبحانه - ﴿ واستبقا الباب ... ﴾ متصل بقوله - سبحانه - قبل ذلك ﴿ ولقد همت به ... ﴾ وقوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ... ﴾ اعتراض جىء به بين المتعاطفين تقريرا لنزاهته .

وقوله ﴿ واستبقا .. ﴾ من الاستباق وهو افتعال من السبق بمعنى أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب .

ووجه تسابقهما : أن يوسف - عليه السلام - أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التى طلبتها منه . وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وأفرد - سبحانه - الباب هنا ، وجمعه فيما تقدم ، لأن المراد به هنا الباب الخارجى ، الذى يخلص منه يوسف إلى خارج الدار ، وهو منصوب هنا على نزع الخافض أى : واستبقا إلى الباب .

وجملة « وقدت قميصه من دبر » حالية ، والقد : القطع والشق ، وأكثر استعماله فى الشق والقطع الذى يكون طولا ، وهو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جذبته من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله : ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أى : وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذى تسابقا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت ، فعبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعا فى التاريخ القديم .

وقال - سبحانه - ﴿ وألفيا سيدها ﴾ لأن ملك العزيز ليوسف - عليه السلام - لم يكن ملكا صحيحا ، فيوسف ليس رقيقا يباع ويشترى ، وإنما هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبيع السيارة له ، إنما كان على سبيل التخلص منه بعد أن التقطوه من الجب .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ حكاية لما قالته لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تسرع وراء يوسف .

أى قالت تلك المرأة لزوجها عندما فوجئت به لدى الباب : ليس من جزاء لمن أراد

بأهلك - تعنى نفسها - سوءا ، أى ما يسوءك ويؤلمك ، إلا أن يسجن ، عقوبة له ، أو أن يعذب عذابا أليما عن طريق الضرب أو الجلد ، لتجاوزه الحدود ، واعتدائه على أهلك .

وهذه الجملة الكريمة التى حكاها القرآن الكريم عنها ، تدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء والتحكم فى إرادة زوجها ...

ورحم الله الآلوسى فقد علق على قولها هذا الذى حكاه القرآن عنها بقوله ما ملخصه : « ولقد آتت - تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى - حيث شاهدها زوجها على تلك الحالة المريبة - بحيلة جمعت فيها غرضيها ، وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب فى قلبه ...

ولم تصرح بالاسم ، بل أتت بلفظ عام « من أراد بأهلك سوءا .. » تهويلا للأمر ، ومبالغة فى التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد بأهله سوءاً .

وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز ، إعظاما للخطب ...

ثم إن حبها الشديد ليوسف - عليه السلام - حملها على أن تبدأ بذكر السجن ، وتؤخر ذكر العذاب لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، لاسيما أن قولها : « إلا أن يسجن .. » قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين ... »[1] .

والحق أن هذه الجملة التى حكاها القرآن عنها ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر والدهاء - كما سبق أن أشرنا - ومن مظاهر ذلك ، محاولتها إيهام زوجها بأن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوؤه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لا يسعى زوجها فى التخلص منه ببيعه - مثلا - .

وفى الوقت نفسه إفهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لا بيد زوجها ، وأنها هى الآمرة الناهية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم .

وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يجد مفرا من الرد على هذا الاتهام الباطل ، فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال هى راودتنى عن نفسى ... ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٩٥ .

أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه : إنى ما أردت بها سوءا كما تزعم وإنما هى التى بالغت فى ترغيبى وإغرائى بارتكاب ما لا يليق معها ..

ثم قال - تعالى - : ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل ابن عم لها ..

قال صاحب المنار : « ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ، أنه كان صبيا في المهد ، ويؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - قال : « تكلم فى المهد أربعة وهم : صغار ابن ماشطة ابنة فرعون . وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم » .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : « عيسى ابن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا فى المهد » وهذا موقوف ، والمرفوع ضعيف ، وقد اختاره ابن جرير ، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا تضعيف ...»[1] .

وعلى أية حال فالذى يهمنا أن الله - تعالى - قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة ، من يدلى بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز .

وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .

وقد قال هذا الشاهد فى شهادته - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إن كان قميصه قد من قُبُل ﴾ أى : من أمام « فصدقت » فى أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنها دافعته من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها . « وهو من الكاذبين » فى قوله « هى راودتنى عن نفسى ».

﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أى من خلف ﴿ فكذبت ﴾ فى دعواها على أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ﴿ وهو من الصادقين ﴾ فى دعواه أنها راودته عن نفسه .

وسمى القرآن الكريم ذلك الحكم بينهما شهادة ، لأن قوله هذا يساعد على الوصول إلى الحق فى قضية التبس فيها الأمر على العزيز .

وقدم الشاهد فى شهادته الغرض الأول وهو - إن كان قميصه قد من قبل - لأنه إن صح

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٨٧ .

يقتضى صدقها ، وقد يكون هو حريصا على ذلك بمقتضى قرابته لها ، إلا أن الله - تعالى - أظهر ما هو الحق ، تكريما ليوسف - عليه السلام - أو يكون قد قدم ذلك باعتبارها سيدة ، ويوسف فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول رحمة بها .

وزيادة جملة « وهو من الكاذبين » بعد « فصدقت » وزيادة جملة « وهو من الصادقين » بعد « فكذبت » تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو الشأن فى إصدار الأحكام .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ... ﴾ بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد قطع من الخلف . وجه كلامه إلى زوجته معاتبا إياها بقوله : إن محاولتك اتهام يوسف بما هو برىء منه ، هو نوع من « كيدكن » ومكركن وحيلكن « إن كيدكن عظيم » فى بابه ، لأن كثيرا من الرجال لا يفطنون إلى مراميه .

وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجه له بهذا الأسلوب الناعم الهادىء ، بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها بل الجنس كله « إنه من كيدكن » .

ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له « يوسف أعرض عن هذا » أى : يايوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه . ولا تتحدث به خوفا من الفضيحة ، وحفاظا على كرامتى وكرامتها .

وقوله : ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتا تاما .

أى : واستغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك ، بإساءتك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهامك له بما هو برىء منه .

وجملة : « إنك كنت من الخاطئين » تعليل لطلب الاستغفار . أى توبى إلى الله مما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف جعلك من جملة القوم المتعمدين لارتكاب الذنوب ، وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المؤاخذة .

وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التى تثور لها الدماء فى العروق ، وتستلزم حسما وجزما فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادىء البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين يهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوما خفيفا يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة .. ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هى عليه من بقاء يوسف معها فى

بيتها ، بعد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعهما .

هذا ومن العبر والعظات والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة :

١ - أن اختلاط الرجال بالنساء . كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل أمر طبيعى ، وما بالذات لا يتغير .

ووجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد فى سن كانت هى فيه مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شابا جميلا .. أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر بعد إغراءات شتى له منها : « هيت لك » .

ولاشك أن من الأسباب الأساسية التى جعلتها تقول هذا القول العجيب وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرم الإسلام تحريما قاطعا الخلوة بالأجنبية ، سدا لباب الوقوع فى الفتن ، ومنعا من تهيئة الوسائل للوقوع فى الفاحشة .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ما رواه الشيخان عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار ، أفرأيت الحمو يارسول الله ؟ قال: الحمو الموت[1] » . والحمو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .

وسئلت امرأة انحرفت عن طريق العفاف ، لماذا كان منك ذلك فقالت : قرب الوساد ، وطول السواد[2] .

أى : حملنى على ذلك قربى ممن أحبه وكثرة محادثتى له !

٢ - أن هم الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول فى مرحلة التصميم والتنفيذ ، لا مؤاخذة فيه .

قال القرطبى ما ملخصه : « الهم الذى هم به يوسف ، من نوع ما يخطر فى النفس ، ولا يثبت فى الصدر ، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « قالت الملائكة ياربنا ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال : ارقبوه فإن

---

(١) من كتاب (رياض الصالحين) ص ٦٢١ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) الوساد معروف وهو ما يتوسد به الإنسان عند نومه - والسواد - بكسر السين مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث .
قالوا : وهذه الكلمة كانت لابنة الخص ، اعتذرت بها عن نفسها بعد أن فتنت فقيل لها لماذا هذا السلوك وأنت سيدة قومك ؟ فقالت هذه الكلمة التى ذهبت مثلا .. راجع تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٧٨ .

عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من أجلى » .

وفى الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به[1] » .

٣ - أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعيذ بالله من ذلك ، وأن يذكِّر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها .. كما قال يوسف - عليه السلام - ﴿ معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

٤ - أن يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المحنة مشهودا له بالبراءة ونقاء العرض ، من الله - تعالى - ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة ، يوسف - عليه السلام - وتلك المرأة وزوجها ، ورب العالمين .. والكل شهد ببراءة يوسف عن المعصية ، أما يوسف - عليه السلام - فقد قال « هى راودتنى عن نفسى » وقال : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » ..

وأما امرأة العزيز فقد قالت : « أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

وأما زوجها فقد قال : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .. » .

أما شهادة رب العالمين ببراءته ففى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

فقد شهد الله - تعالى - على طهارته فى هذه الآية أربع مرات ، أولها : لنصرف عنه السوء » وثانيها « الفحشاء » وثالثها « إنه من عبادنا » ورابعها « المخلصين »[2] .

٥ - أن موقف العزيز من امرأته كان موقفا ضعيفا متراخيا .. وهذا الموقف هو الذى جعل تلك المرأة المتحكمة فى زمام زوجها ، تقول بعد ذلك بكل تبجح وتكشف واستهتار : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين» .

٦ - أن القرآن الكريم صور تلك المحنة فى حياة يوسف وامرأة العزيز ، تصويرا واقعيا صادقا ، ولكن بأسلوب حكيم ، بعيد عما يخدش الحياء أو يجرح الشعور

قال بعض العلماء : « والذى خطر لى أن قوله - تعالى - : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف فى أول الأمر

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١١٦ .

واستعصم ، وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة ، ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة ، لأنه المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة وفى محيط الحياة البشرية المكتملة كذلك فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا..»[1] .

ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما قالته بعض النساء ، بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف - عليه السلام - بعد ان سمع ما سمع من تهديدهن وإغرائهن .. قال - تعالى - :

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

(١) من تفسير « فى ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب جـ ١٢ ص ١٩٨١ طبعة دار الشروق .

قوله - سبحانه - ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. ﴾ حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء ، أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور فى مجالسهن ، ولا يكتمنها خصوصا إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة .. كامرأة العزيز .

والنسوة : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومفرده حيث المعنى : امرأة .

والمراد بالمدينة : مدينة مصر التى كان يعيش فيها العزيز وزوجته والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لنسوة .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر - على سبيل النقد والتشهير والتعجب - إن امرأة العزيز ، صاحبة المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال فى انقيادها لهواها ، وفى خروجها عن طريق العفة .. أنها تراود فتاها عن نفسه ، أى : تطلب منه مواقعتها ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل .

ولم يبين لنا القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم ، لأنه لا يتعلق بذلك غرض نافع ، ولأن الذى يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء فى مدينة كبيرة كمصر وفى وصفها بأنها « امرأة العزيز » زيادة فى التشهير بها . فقد جرت العادة بين الناس ، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر انتشارا بينهم ، وأشد فى النقد والتجريح .

والتعبير بالمضارع فى قوله - سبحانه - ﴿ تراود ﴾ يشعر بأنها كانت مستمرة على ذلك ، دون أن يمنعها منه افتضاح أمرها ، وقول زوجها لها « واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

والمراد بفتاها يوسف - عليه السلام - ووصفْنَه بذلك لأنه كان فى خدمتها ، والمبالغة فى رميها بسوء السلوك ، حيث بلغ بها الحال فى احتقار نفسها ، أن تكون مراودة لشخص هو خادم لها ..

وجملة « قد شغفها حبا » بيان لحالها معه ، وهى فى محل نصب حال من فاعل تراود أو من مفعوله والمقصود بها تكرير لومها ، وتأكيد انقيادها لشهواتها .

وشغف مأخوذ من الشغاف - بكسر الشين - وهو غلاف القلب ، أو سويداؤه أو حجابه ، يقال : شغف الهوى قلب فلان شغفا ، أى بلغ شغافه .

والمراد أن حبها إياه قد شق شغاف قلبها . وتمكن منه تمكنا لامزيد عليه و « حبا » تمييز

محول عن الفاعل ، والأصل : شغفها حبها إياه .

وجملة ﴿ إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها ، والمراد بالضلال : مخالفة طريق الصواب .

أى : إنا لنرى هذه المرأة بعين بصيرتنا ، وصادق علمنا . فى خطأ عظيم واضح بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ، لأنها - وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير - تراود خادمها عن نفسه .

والتعبير «بإنا لنراها ..» للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا الضلال المبين الصادر عنها .

قال صاحب المنار : « وهن ما قلن هذا إنكاراً للمنكر ، وكرها للرذيلة ، ولا حبا فى المعروف ، ونصرا للفضيلة . وإنما قلنه مكرا وحيلة ، ليصل إليها قولهن فيحملها على دعوتهن ، وإراءتهن بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن ، فيعذرنها فيما عذلنها عليه فهو مكر لا رأى »[1] .

وهنا تحكى السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال - تعالى - :

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ أى : باغتيابهن لها . وسوء مقالتهن فيها ، وسمى ذلك مكرا لشبهه به فى الإخفاء والخداع .

أو قصدن بما قلنه - كما سبق أن أشرنا - إثارتها ، لكى تطلعهن على فتاها الذى راودته عن نفسه ، ليعرفن السر فى هذه المراودة ، وعلى هذا يكون المكر على حقيقته . ومثل هذا المكر ليس غريبا على النساء فى مثل هذه الأحوال .

وقوله : ﴿ أرسلت إليهن .. ﴾ الخ بيان لما فعلته معهن .

أى : أرسلت إلى النسوة اللاتى وصفنها بأنها فى ضلال مبين ، ودعتهن إلى الحضور إليها فى دارها لتناول الطعام .

﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ أى : وهيأت لهن فى مجلس طعامها ، ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق وما يشبه ذلك .

فالمتكأ : اسم مفعول من الاتكاء ، وهو الميل إلى أحد الجانبين فى الجلوس كما جرت بذلك

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٩١ .

عادة المترفين عند تناول الطعام ، وعند ما يريدون إطالة المكث مع انتصاب قليل فى النصف الأعلى من الجسم والاستراحة بعد الأكل .

أخرج ابن شيبة عن جابر عن النبى - ﷺ - أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله ، وأن يأكل متكئا[١] .

﴿ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾ أى : وأعطت كل واحدة من هؤلاء النسوة سكينا ليقطعن به ما يأكلن من لحم وفاكهة .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الحضارة المادية فى مصر فى ذلك الوقت كانت قد بلغت شأوا بعيدا ، وأن الترف فى القصور كان عظيما ، فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية»[٢] .

وهنا نجد المرأة الجريئة الماكرة ، تقول ليوسف - عليه السلام - كما حكى القرآن عنها : « اخرج عليهن » أى ابرز لهن ، وادخل عليهن ، وهن على تلك الحالة من الأكل والاتكاء وتقطيع ما يحتاج إلى تقطيع الطعام ..

وهى ترمى من وراء خروجه عليهن إلى إطلاعهن عليه حتى يعذرنها فى حبها له وقد كان لهذه المفاجأة من يوسف لهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، أثرها الشديد فى نفوسهن ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على كلام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير : قالت امرأة العزيز ليوسف اخرج عليهن ، فخرج عليهن وهن على تلك الحالة فلما رأينه أكبرنه ، أى : أعظمنه ، ودهشن لهيئته ، وجمال طلعته وحسن شمائله .

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أى : جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى فى أيديهن دون أن يشعرن بذلك ، لشدة دهشتهن المفاجئة بهيئة يوسف ..

﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشرا ﴾ وحاش فعل ماض ، واللام فى « لله » للتعليل ، والمراد بهذه الجملة الكريمة التعبير عن عجيب صنع الله فى خلقه أى : وقلن عندما فوجئن بخروج يوسف عليهن : ننزه الله - تعالى - تنزيها كبيرا عن صفات العجز ، ونتعجب تعجبا شديدا من قدرته - سبحانه - على خلق هذا الجمال البديع ، وما هذا الذى نراه أمامنا بشرا كسائر

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢٠٤ .

(٢) تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٢ ص ١٩٨٤ .

البشر ، لتفوقه فى الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين تمثل فى هذه الصورة البديعة التى تخلب الألباب .

ووصفوه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه ما هو مفرط فى الجمال والعفة بالملك وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشيطان .

وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها ، اللائى عذلنها فى حبها ليوسف ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفى ، وبدون استحياء أو تلميح : ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ﴾ .

والفاء هنا فصيحة ، والخطاب للنسوة اللائى قطعن أيديهن دهشا من جمال يوسف ، والإشارة إليه - عليه السلام - .

أى : قالت لهن على سبيل التشفى والتباهى والاعتذار عما صدر منها معه : إن كان الأمر كما قلتن ، فذلك هو الملك الكريم الذى لمتننى فى حبى له ، وقلتن ما قلتن فى شأنى لافتتانى به ، فالآن بعد رؤيتكن له ، وتقطيع أيديكن ذهولا لطلعته ، قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه ..

ثم جاهرت أمامهن بأنها أغرته بمواقعتها فلم يستجب فقالت :

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم.. ﴾ . أى : والله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه لى ، فأبى وامتنع امتناعا بليغا ، وتحفظ تحفظا شديدا .

والتعبير بقوله « فاستعصم » للمبالغة فى عصمته لنفسه من الزلل ، فالسين والتاء للمبالغة ، وهو من العصمة بمعنى المنع . يقال : عصمة الطعام أى : منعه من الجوع . وعصم القربة أى : شدها بالعصام ليمنع نزول الماء منها .

وفى الآية - كما يقول الآلوسى - دليل على أنه - عليه السلام - لم يصدر منه ما سوَّد به القصَّاص وجوه الطروس[1] - أى الأوراق .

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

أى : والله لقد راودته عن نفسه فاستعصم، والله لئن لم يفعل ما آمره به، - وأنا سيدته الآمرة الناهية لاغيرى - ليسجنن عقوبة له ، وليكونا من الصاغرين ، أى : من الأذلاء

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٢٠٩ .

المهانين المقهورين ، من الصغار . يقال : صغر فلان - كفرح - يصغر صغارا ، إذا ذل وهان .

قالوا : وأكدت السجن بالنون الثقيلة وبالقسم لتحققه فى نظرها ، وأكدت الصغار بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق فيه ، ولأنه من توابع السجن ولوازمه .

وفى هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر ..

ويترامى على مسامع يوسف - عليه السلام - هذا التهديد السافر .. فيلجأ إلى ربه مستجيرا به . ومحتميا بحماه ويقول : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه .. » .

أى : قال يوسف - عليه السلام - متضرعا إلى ربه - تعالى - يارب السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلى ، وآثر عندى مما يدعوننى إليه من ارتكاب الفواحش .

وقال أحب إلى مما يدعوننى إليه، ولم يقل مما تدعونى إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه ، وبعد أن سمعن ما قالته فى شأنه ربة الدار ..

قال الآلوسى : « وإسناد الدعوة إليهن ، لأنهن خوفنه من مخالفتها ، وزين له مطاوعتها .

فقد روى أنهن قلن له أطع مولاتك ، واقض حاجتها ، لتأمن عقوبتها .. وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لنصيحته ، فلما خلت به دعته إلى نفسها ..

وقوله : ﴿ وإن لا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ واعتراف منه - عليه السلام - بضعفه البشرى الذى لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء ، إذا لم يكن معه عون الله - تعالى - وعنايته ورعايته .

و﴿ أصب ﴾ من الصبوة وهى الميل إلى الهوى، يقال : صبا فلان يصبو صبوا وصبوة، إذا مال إلى شهوات نفسه واتبع طريق الشر ، ومنه ريح الصبا ، وهى التى تميل إليها النفوس لطيب نسيمها واعتدال هوائها .

والمعنى : وإلا تدفع عنى يا إلهى كيد هؤلاء النسوة ، ومحاولاتهن إيقاعى فى حبائلهن ، أمل إليهن . وأطاوعهن على ما يردنه منى ، وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم ، فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقوله - سبحانه - ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ بيان

لتقبل الله - تعالى - لدعائه بفضله ورحمته .

أى : فاستجاب الله - تعالى - ليوسف دعاءه وضراعته ، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى نفوسهن من الطمع فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم ينخدع بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن .

« إنه » سبحانه « هو السميع » لدعاء الداعين ، والمجيب لضراعة المخلصين « العليم » بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر .

وقال - سبحانه - ﴿ فاستجاب ﴾ بفاء التعقيب للإشارة إلى أنه - سبحانه - بفضله وكرمه ، قد أجاب دعاء عبده يوسف - عليه السلام - بدون تأخير أو إبطاء .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - سبحانه - ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ... ﴾ وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكماله ، تدعوه سيدته ، وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ويختار السجن خوفا من الله ، ورجاء فى ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله»[1] .

ثم ساقت لنا السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف - عليه السلام - السجن ، مع ثبوت براءته ، مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو فى السحن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما يدعو إليه ، وفسر لصاحبيه فى السجن رؤياهما تفسيرا صادقا صحيحا ..

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٣ . طبعة دار الشعب .

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي

ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف - عليه السلام - بعد أن ثبتت براءته .

وبدا هنا من البداء - بالفتح - وهو - كما يقول الإمام الرازى - عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه فى السابق .

والضمير فى « لهم » يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته ، كانشقاق قميصه من دبر ، وقول امرأة العزيز ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهى الكاذبة ... والحين : الزمن غير المحدد بمدة معينة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا وعاينوا البراهين المتعددة الدالة على صدق يوسف - عليه السلام - وطهارة عرضه .. بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم فى شأنه ، وأن يسجنوه فى المكان المعد لذلك ، إلى مدة غير معلومة من الزمان .

واللام فى قوله « ليسجننه » جواب لقسم محذوف على تقدير القول أى : ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين ، والله ليسجننه حتى حين .

ولاشك أن الأمر بسجن يوسف - عليه السلام - كان بتأثير من امرأة العزيز ، تنفيذا لتهديدها بعد أن صمم يوسف - عليه السلام - على عصيانها فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾[1] .

ولاشك - أيضا - أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها صاحب المنصب الكبير ، فهى تقوده حيث تريد كما يقود الرجل دابته .

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف فقال ما ملخصه : قوله ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات.... ﴾

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١٣٣ .

وهى الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعا لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، وطمعت فى أن يذلله السجن ويسخره لها[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من أحواله بعد أن دخل السجن فقال: ﴿ ودخل معه السجن فتيان... ﴾ .

والفتيان : تثنية فتى ، وهو من جاوز الحلم ودخل فى سن الشباب .

قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خبازا للملك وصاحب طعامه وكان الثانى : ساقيا للملك ، وصاحب شرابه .

وقد أدخلهما الملك السجن غضبا عليهما ، لأنهما اتهما بخيانته .

والجملة الكريمة عطف على كلام محذوف يفهم من السياق ، والتقدير بعد أن بدا للعزيز وحاشيته سجن يوسف . نفذا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه فى السجن فتيان من خدم الملك « قال أحدهما » وهو ساقى الملك ليوسف - عليه السلام - :

« إنى أرانى أعصر خمرا » أى : إنى رأيت فيما يرى النائم . أنى أعصر عنبا ليصير خمرا . سماه بما يؤول إليه .

« وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه » أى : وقال الثانى وهو خباز الملك ، إنى رأيت فى المنام أنى أحمل فوق رأسى سلالا بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسى .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ يعود إلى المرئى فى المنام أى : أخبرنا بتفسير ما رأيناه فى منامنا ، إذ نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك ، من السجناء الذين أنت واحد منهم .

وقبل أن يبدأ يوسف - عليه السلام ه فى تأويل رؤياهما ، أخذ يمهد لذلك بأن يعرفهما

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٩ . وقوله (وفتلها منه فى الذروة والغارب) مثل يضرب لمن يتلطف فى خداع غيره ، حتى يتمكن من إخضاعه له ، ومن انقياده لأمره والذروة - بالكسر والضم - أعلى الشىء والمراد به هنا أعلى سنام البعير ، والغارب المكان الذى العنق والسنام منه ، والمراد أن صاحب الجمل يخفى الخطام ويأخذ فى التحايل على الجمل حتى يتمكن منه فيضع فيه الخطام ويقوده به .

بنفسه ، وبعقيدته ، ويدعوهما إلى عبادة الله وحده ويقيم لهما الأدلة على ذلك ..

وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على نشرها بين الناس ، إنهم يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب لهم ..

وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - فقد بدأ فى رده عليهما بقوله : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .. ﴾ .

أى : قال يوسف لرفيقيه فى السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما : « لايأتيكما » أيها الرفيقان « طعام ترزقانه » فى سجنكما ، فى حال من الأحوال ، إلا وأخبرتكما بما هيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول ، فيستجيبا لدعوته لهما إلى وحدانية الله بعد ذلك .

وقوله « ذلكما مما علمنى ربى » نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والأخبار عن المغيبات ، كأخباركما عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما ..

ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس عن طريق الكهانة أو التنجيم كما يفعل غيرى .

وقوله : « مما علمنى ربى » فيه إشعار بأن ما أخبرهما به من مغيبات هو جزء من علوم كثيرة علمها إياه ربه - عز وجل - فضلا منه - سبحانه - وكرما..

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إنى تركت ملة قوم » أى دين قوم « لا يؤمنون بالله » أى لا يدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده الذى خلقهم ورزقهم ، وإنما يدينون بالعبودية لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر .

« وهم بالآخرة » وما فيها من ثواب وعقاب « هم كافرون » جاحدون لما يجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة الكريمة تعريض بما كان عليه العزيز وقومه ، من إشراك وكفر ، ولم يواجه الفتيان بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم ، لكى يزيد فى استمالتهما إليه ، وإقبالهما عليه ..

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة ، بدون إحراج أو تنفير .

ولما كان تركه لملة هؤلاء القوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين ، تراه يصرح بالملة التى اتبعها فيقول : ﴿ واتبعت ملة آبائى ﴾ الكرام المؤمنين بوحدانية الله وبالآخرة وما فيها من حساب وجزاء .

﴿ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ . وسماهم آباء جميعا ، لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب ، لكون ابراهيم هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليهم السلام - .

وفى هذه الجملة الكريمة ، بيان منه - عليه السلام - لرفيقيه فى السجن ، بأنه من سلسلة كريمة ، كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف ، وقوله ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ﴾ تنزه عن الشرك بأبلغ وجه .

أى : ما صح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شىء من الإشراك ، فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله - تعالى - عن ذلك .

و « من » فى قوله « من شىء » لتأكيد النفى وتعميمه . أى : ما كان لنا أهل هذا البيت الكريم أن نشرك بالله شيئا من الإشراك ، قليلا ذلك الشىء أو حقيرا .

وقوله ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس... ﴾ اعتراف منه - عليه السلام - برعاية الله - تعالى - له ولآبائه .

واسم الإشارة . يعود إلى الإيمان بالله - تعالى - المدلول عليه بنفى الشرك .

أى : ذلك الإخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله - سبحانه - علينا معاشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس ، الذين هداهم إلى الإيمان الحق .

وقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ إنصاف للقلة الشاكرة لله - تعالى - .

أى : ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله - تعالى - على نعمه الجزيلة وآلائه التى لا تحصى .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبملته وبآبائه . شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته ، وعلى فساد عقيدتهما فقال - كما حكى القرآن عنه : ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ .

أى : ياصاحبى ورفيقى فى السجن أخبرانى بربكما ، أعبادة عدد من الأرباب المتفرقة فى

ذواتها وصفاتها « خير » لكما « أم » عبادة الله - تعالى - « الواحد » فى ذاته وصفاته « القهار » لكل من غالبه أو نازعه ؟

وكرر نداءهما بالصحبة ليتحبب إليهما بهذه الصفة التى فيها إيناس للقلوب ، وليسترعى انتباههما إلى ما سيقوله لهما .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « وقوله : أأرباب متفرقون خير ... » هذا استفهام تقرير بعد تخيير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد ، وكان المصريون المخاطبون به ، يعبدون كغيرهم من الأمم أربابا متفرقين فى ذواتهم وفى صفاتهم وفى الأعمال التى يسندونها إليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه أأرباب متفرقون ، أى عديدون هذا شأنهم فى التفرق والانقسام « خير » لكما ولغيركما « أم الله الواحد القهار.. »[1] .

ولاشك أن الجواب الذى لا يختلف فيه عاقلان ، أن عبادة الله - تعالى - الواحد القهار ، هى العبادة الصحيحة التى توافق الفطرة السليمة والعقول القويمة .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة والأوهام الكاذبة فقال : « ما تعبدون من دونه » أى من دون الله - تعالى - المستحق للعبادة .

﴿ إلا أسماء ﴾ أى ألفاظا فارغة لا قيمة لها .

﴿ سميتموها ﴾ آلهة بزعمكم « أنتم وآباؤكم » أما هى فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست رازقة ، وزائلة وليست باقية ، وما كان كذلك لا يستحق أن يكون إلها .

ومفعول ﴿ سميتموها ﴾ الثانى محذوف . والتقدير سميتموها آلهة .

وقوله « وآباؤكم » لقطع عذرهم ، حتى لا يقولوا : إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فكأنه - تعالى - يقول لهم : إن آباءكم كانوا أشد منكم جهلا وضلالا ، فلا يصح لكم أن تقتدوا بهم .

والمراد بالسلطان فى قوله - تعالى - ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ الحجة والبرهان .

أى : ما أنزل الله - تعالى - بتسميتها أربابا - كما سميتموها بزعمكم - من برهان أو دليل يشعر بتسميتها بذلك ، وإنما أنتم الذين خلعتم عليها هذه الأسماء .

وقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم ..

---

(١) تفسير المنار جـ ١٧ ص ٣٠٧ .

أى : ما الحكم فى شأن العقائد والعبادات والمعاملات وفى صحتها أو عدم صحتها إلا لله - تعالى - وحده ، لأنه الخالق لكل شىء ، والعليم بكل شىء .

وقوله ﴿ أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ انتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته - سبحانه - إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .

أى : أمر - سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم ، وهو يحييهم ويميتهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أى : ذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، هو الدين القيم .

أى : الحق المستقيم الثابت ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه ، وأقام لهما الأدلة على أن عبادة الله - تعالى - وحده هى الدين الحق ودعاهما إلى الدخول فيه ..

بعد كل ذلك شرع فى تفسير رؤياهما ليزيدهما ثقة فى قوله ، فقال : ﴿ ياصاحبى السجن أما أحدكما ﴾ وهو ساقى الملك ، فيخرج من السجن بريئا ويسقى « ربه » أى : سيده الملك « خمرا » .

﴿ وأما الآخر ﴾ وهو خباز الملك وصاحب طعامه « فيصلب » أى : فيقتل ثم يصلب « فتأكل الطير من رأسه » بعد موته .

ولم يعين يوسف - عليه السلام - من هو الذى سيسقى ربه خمرا ، ومن هو الذى سيصلب ، وإنما اكتفى بقوله « أما أحدكما ... وأما الآخر » تلطفا معهما ، وتحرجا من مواجهة صاحب المصير السىء بمصيره، وإن كان فى تعبيره ما يشير الى مصير كل منهما بطريق غير مباشر .

ثم أكد لهما الأمر واثقا من صدق العلم الذى علمه الله إياه ، فقال : ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ .

والاستفتاء : مصدر استفتى إذا طلب الفتوى من غيره فى أمر خفى عليه فهمه أى : تم التفسير الصحيح لرؤييكما اللتين سألتمانى عن تأويلهما .

ثم ختم يوسف - عليه السلام - حديثه مع صاحبيه فى السجن ، بأن أوصى الذى سينجو منهما بوصية حكاها القرآن فى قوله : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما ، اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ .

أى : « وقال » يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد أنه سينجو منهما وهو ساقى الملك ، أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك ، اذكر حقيقة حالى عنده ، وأنى سجين مظلوم .

ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله له يوسف ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف - عليه السلام - فى السجن مظلوما بضع سنين .

والبضع - بالكسر - من ثلاث إلى تسع ، وهو مأخوذ من البضع - بالفتح - بمعنى القطع والشق . يقال : بضعت الشىء أى : قطعته .

وقد اختلفوا فى المدة التى قضاها يوسف فى السجن على أقوال من أشهرها أنه لبث فيه سبع سنين .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، ويكون المراد بربه أى : سيده ملك مصر .

وهناك من يرى أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى يوسف - عليه السلام - وأن المراد بالرب هنا : الخالق - عز وجل - ، وعليه يكون المعنى .

وقال يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد نجاته وهو ساقى الملك : اذكر مظلمتى عند سيدك الملك عندما تعود إليه . واذكر له إحسانى لتفسير الرؤى ..

وقوله ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أى : فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله وحده ، ولا يذكرها للساقى ليبلغها إلى الملك .

فكانت النتيجة أن لبث يوسف فى السجن بضع سنين بسبب هذا الاعتماد على المخلوق .

والذى يبدو لنا أن التفسير الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ... ﴾ يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، وأن المراد بربه أى سيده .

وقد علق الإمام الرازى على هذه الآية تعليقا يشعر بترجيحه للرأى الثانى فقال ما

ملخصه : « واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزا لعامة الخلق ، إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية ، وألا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب ..

ثم قال : والذى جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله ، صار ذلك سببا إلى البلاء وإلى المحنة .. وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه السابعة والخمسين من عمرى .

ثم قال : واعلم أن الحق هو قول من قال إن الضمير فى قوله : « فأنساه الشيطان ذكر ربه » راجع إلى يوسف .. والمعنى : أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وخالقه ..»[1] .

ونحن مع احترامنا لرأى الفخر الرازى ، إلا أننا مازلنا نرى أن عودة الضمير فى قوله « فأنساه » إلى الساقى الذى ظن يوسف أنه هو الناجى من العقوبة ، أولى لما سبق أن ذكرناه .

قال ابن كثير : وقوله ﴿ اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ... ﴾

أى :«قال يوسف اذكر قصتى عند ربك وهو الملك، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكايد الشيطان .. هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله : «فأنساه » .. عائد على الناجى كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد...»[2] .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المشوق الحكيم جانبا من حياة يوسف - عليه السلام - فى السجن فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن أراد الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - ، وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلا صحيحا سوى يوسف - عليه السلام - استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ

---

(١) تفسير الرازى جـ ١٨ ص ١٤٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٦ طبعة دار الشعب وراجع تفسير المنار جـ ٢ ، ص ٣١٣ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

فقوله - سبحانه -: ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ﴾ شروع فى حكاية الرؤيا التى رآها ملك مصر فى ذلك الوقت ..

قال ابن كثير : « هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله - تعالى - أنها كانت سببا لخروج يوسف - عليه السلام - من السجن معززا مكرما ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك...»[1] .

وقوله « عجاف » جمع عجفاء والعجف - بفتح العين والجيم - ذهاب السمن ، يقال : هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء ، إذا ظهر ضعفها وهزالها ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢١٧ .

أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته : إنى رأيت فيما يرى النائم « سبع بقرات » قد امتلأن شحما ولحما ﴿ يأكلهن سبع عجاف ﴾ أى : يأكل هذه البقرات السبع السمان ، سبع بقرات أخرى عجاف أى : مهازيل ضعاف .

ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم « سبع سنبلات خضر» قد امتلأت حبا ، ورأيت إلى جانبها سبع سنبلات « أخر يابسات » قد ذهبت نضارتها وخضرتها ، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها .

﴿ يأيها الملأ ﴾ أى : الأشراف والعلماء من قومى « أفتونى فى رؤياى » أى : فسروا لى رؤياى هذه وبينوا لى ما تدل عليه .

﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أى : إن كنتم تعرفون تفسيرها وتأويلها معرفة سليمة ، وتعلمون تعبيرها علما مستمرا .

و« تعبرون » من العبر ، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى وسمى المفسر للرؤيا عابرا ، لأنه يتأمل فيها وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .

قال بعض العلماء : والتعريف فى « الملك » للعهد ، أى ملك مصر ، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها « الهكسوس » وهم العمالقة الذين ملكوا مصر من ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٥٢٥ ق . م .

فالتعبير عنه بالملك هنا ، دون التعبير عنه بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن العلمى ..[(١)] .

وقال « إنى أرى » بصيغة المضارع مع أنه قد رأى بالفعل ، استحضارا لصورة الرؤيا حتى لكأنها ماثلة أمامه .

وقال « وأخر يابسات » بدون إعادة لفظ سبع كما فى البقرات ، للاكتفاء بدلالة المقابل فى البقرات عليه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل فى الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر ؟

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٨٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد فى البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ، ويكون قوله « وأخر يابسات » بمعنى : وسبعا أخر يابسات »[1] .

وفى نداء الملك لقومه قوله ﴿ يأيها الملأ أفتونى .. ﴾ تشريف لهم ، وحض على استعمال عقولهم وعلومهم فى تفسير هذه الرؤيا التى أزعجته .

واللام فى قوله « للرؤيا » لتقوية الفعل « تعبرون » حيث تأخر عن معموله .

ويبدو أن القوم فى ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى ، وكان لهذا التفسير مكانته الهامة فيهم ...

فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا رفيقيه فى السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك هنا ، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك ، فى زمن كثر فيه البارعون فى تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ حكاية لما رد به الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ما جمع فى حزمة واحدة من مختلف النبات وأعواد الشجر ، فصار خليطا غير متجانس .

والأحلام : جمع حلْم وحلُم - بإسكان اللام وضمها تبعا للحاء - وهو ما يراه النائم فى منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففى الحديث الصحيح : « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان »[2] .

أى : قال الملأ للملك : ما رأيته أيها الملك فى نومك ما هو إلا تخاليط أحلام ومنامات باطلة ، فلا تهتم بها .

فهم قد شبهوا مارآه بالأضغاث فى اختلاطها ، وعدم التجانس بين أطرافها .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

أى : إننا لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التعبير جـ ٩ ص ١٧ .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم ، بمعرفة تفسير رؤيا الملك ، ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجهل ، كما يشعر به قوله - تعالى - ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ فقد أتى بإن المفيدة للشك .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد فلماذا قالوا أضغاث أحلام فجمعوا ! ؟ .

قلت : هو كما تقول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمائم الخز ، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا وماله إلا عمامة فردة ، تزيدا فى الوصف ، فهؤلاء أيضا تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام - ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا سواها »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملأ من قوم الملك عن تأويل رؤياه فقال : ﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾ أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ثم خرج منه بريئا وهو ساقى الملك .

﴿ وادكر بعد أمة ﴾ : وتذكر بعد حين طويل من الزمان كيف فسر له يوسف رؤياه تفسيرا صادقا أيام أن كان معه فى السجن .

وأصل « ادكر » اذتكر بوزن افتعل ، مأخوذ من الذكر - بتشديد الذال وضمها - قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ، ثم قلبت الذال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال ، لأنها أخف من الذال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاولة من الزمان وكان هذا الساقى قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله « اذكرنى عند ربك » فلما قال الملك ما قاله بشأن رؤياه ، تذكر هذا الساقى حال يوسف .

قالوا : وكان ذلك بعد سنتين من خروجه من السجن .

وقوله ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أى : قال الساقى للملك وحاشيته : أنا أخبركم بتأويله: بتفسير رؤيا الملك التى خفى تفسيرها على الملأ من قومه . فأرسلون ، أى : فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها .

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه ، وهو يوسف - عليه السلام - لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف - عليه السلام - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٤ .

وقال ﴿ فأرسلون ﴾ ليشعرهم أن هذا التأويل ليس من عند نفسه ، وإنما هو من عند من سيرسلونه إليه وهو يوسف - عليه السلام .

وقوله ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ... ﴾ من بديع الإيجاز بالحذف فى القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون إلى من عنده العلم بذلك ، فأرسلوه فجاء إلى يوسف فى السجن فقال له : يا يوسف يأيها الصديق .

والصديق : هو الإنسان الذى صار الصدق دأبه وشيمته فى كل أحواله ، ووصفه بذلك لأنه جرب منه الصدق التام أيام أن كان معه فى السجن .

وقوله « أفتنا » أى فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتى عجز الناس عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى فى منامه « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » .

وقوله « لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » تعليل لطلب الفتوى ، وبيان لأهميتها بالنسبة له وليوسف - عليه السلام .

أى : فسر لنا هذه الرؤيا « لعلى أرجع إلى الناس » وهم الملك وأهل الحل والعقد فى مملكته ، « لعلهم يعلمون » تأويلها ، فينتفعون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

وهنا تجد يوسف - عليه السلام - لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا بل يؤولها تأويلا صادقا صحيحا ، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال ، فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ... ﴾ .

وتزرعون ههنا : خبر فى معنى الأمر ، بدليل قوله بعد ذلك « فذروه » ..

وعبر عن الأمر بالمضارع مبالغة فى التعبير عن استجابتهم لنصيحته ، فكأنهم قد امتثلوا أمره ، وهو يخبر عن هذا الامتثال .

و﴿ دأبا ﴾ مصدر دأب على الشىء إذا استمر عليه ولازمه يقال : دأب فلان على فعل هذا الشىء يدأب دأْبا ودأَبا إذا داوم عليه ، وهو حال من ضمير « تزرعون » أى قال يوسف للساقى : فارجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

﴿ فما حصدتم ﴾ من زرعكم فى كل سنة ، فذروه فى سنبله ، أى : فاتركوا الحب فى سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه : إلا قليلا مما تأكلون،

أى : اتركوا الحب فى سنبله فلا تخرجوه منها ، إلا شيئا قليلا منه فأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى مأكلكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا فى مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .

قال القرطبى : هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ولا خلاف ، فإن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله - تعالى - وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده ... »[1] .

وقوله ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك ﴾ أى : من بعد تلك السنين السبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة .

﴿ سبع شداد ﴾ أى : سبع سنين صعاب على الناس، لما فيهن من الجدب والقحط ، يأكلن ما قدمتم لهن ، أى : يأكل أهل تلك السنين الشداد ، كل ما ادخروه فى السنوات السبع المتقدمة من حبوب فى سنابلها .

وأسند الأكل إلى السنين على سبيل المجاز العقلى ، من إسناد الشىء إلى زمانه .

وقوله ﴿ إلا قليلا مما تحصنون ﴾ أى : أن تلك السنين المجدبة ستأكلون فيها ما ادخرتموه فى السنوات السابقة ، إلا شيئا قليلا منه يبقى محرزا ، لتنتفعوا به فى زراعتكم لأرضكم .

فقوله ﴿ تحصنون ﴾ من الإحصان بمعنى الإحراز والادخار ، يقال أحصن فلان الشىء ، إذا جعله فى الحصن ، وهو الموضع الحصين الذى لا يوصل إليه إلا بصعوبة .

وحاصل تفسير يوسف - عليه السلام - لتلك الرؤيا : أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر ، بالسنين السبع المخصبة . وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التى ستأتى فى أعقاب السنين المخصبة وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان ، بأكلهم ما جمع فى السنين المخصبة ، فى السنين المجدبة .

ولقد كان هذا التأويل لرؤيا الملك تأويلا صحيحا صادقا من يوسف - عليه السلام - بسببه أنقذ الله - تعالى - مصر من مجاعة سبع سنين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٠٣ .

وقوله ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ تبشير لهم بأن الخير سيأتيهم ، بعد تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله - تعالى - أن يعقب العسر باليسر .

ولفظ ﴿ يغاث ﴾ من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار التى يسوقها الله - تعالى - لهم بعد تلك السنوات الشداد التى قل فيها المطر .

يقال : غاث الله - تعالى - البلاد غيثا ، إذا ساق لها المطر بعد أن يئسوا من نزوله ، ويعصرون من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن يعصر ، لإخراج ما فيه من مائع سواء كان هذا المائع زيتاً أم ماء أم غيرهما .

أى : ثم يأتى من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم والكروب ونقص الأموال عن الناس ، بسبب إرسال الله - تعالى - المطر عليهم ، فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كالزيتون وما يشبهه .

وهذا كناية عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد ، وما قاله يوسف - عليه السلام - عن هذا العام الذى يأتى فى أعقاب السنوات السبع الشداد ، لا مقابل له فى رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة التبشير للملك والناس ، ولإفهامهم أن هذا العلم إنما بوحى من الله - تعالى - الذى يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة .

وإلى هنا نرى أن يوسف - عليه السلام - قد فسر رؤيا الملك تفسيرا سليما حكيما ، من نتائجه الخير للملك وقومه ...

فماذا فعل الملك مع يوسف - عليه السلام - بعد ذلك ؟

لقد قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته وما رد به يوسف - عليه السلام - على رسول الملك ، وما قالته النسوة وامرأة العزيز فى شأن يوسف وما طلبه - عليه السلام - من الملك ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه الخاص فيقول :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ

مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

فقوله - سبحانه - ﴿وقال الملك ائتونى به ...﴾ حكاية لما طلبه الملك فى ذلك الوقت من معاونيه فى شأن يوسف - عليه السلام - ، وفى الكلام حذف يفهم من المقام ، والتقدير : وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف فى تفسير الرؤيا أحضروا لى يوسف هذا لأراه وأسمع منه ، وأستفيد من علمه .

وهذا يدل - كما يقول الإمام الرازى - على فضيلة العلم ، فإنه - سبحانه - جعل ما علمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية ؟[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١٥١ .

قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم ﴾ بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك ... .

أى : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد لقاءه ، قال له يوسف بأناة وإباء : ارجع إلى ربك ، أى إلى سيدك الملك « فاسأله » قبل خروجى من السجن وذهابى إليه « ما بال النسوة اللائى قطعن أيديهن » أى : ما حالهن ، وما حقيقة أمرهن معى ، لأن الكشف عن حقيقة أمرهن معى يهمنى أن يكون واضحا فى الأذهان والعقول ، حتى يعرف الجميع أننى برئ ، وأننى نقى العرض طاهر الذيل .

والمراد بالسؤال فى قوله « ارجع إلى ربك فاسأله » الحث والتحريض على معرفة حقيقة أمر النسوة اللائى قطعن أيديهن .. .

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه لزيادة تهييجه على البحث والتقصى إذ من شأن الإنسان - خصوصا إذا كان - حاكما - أن يأنف من أن يسأل عن شىء مهم ، ثم لا يهتم بالإجابة عنه .

وقد آثر يوسف - عليه السلام - أن يكون هذا السؤال وهو فى السجن لتظهر الحقيقة خالصة ناصعة ، دون تدخل منه فى شأنها .

وجعل السؤال عن النسوة اللائى قطعن أيديهن دون امرأة العزيز ، وفاء لحق زوجها ، واحترازا من مكرها ، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه ، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشف ﴿ فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » .

واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن ، دون التعرض لكيدهن له ، سترا لهن ، وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوؤهن .

ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ إن ربى بكيدهن عليم ﴾ .

أى إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - هو الذى يتولى حسابهن على ذلك .

ولا شك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته ، يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته ... .

ولقد أجاد صاحب الكشاف فى تعليله لامتناع يوسف عن الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تثبت براءته فقال :

« إنما تأنى وتثبت يوسف فى إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قذف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده . ويجعلوه سلما إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد فى السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره .

وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم ، واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها »[1] .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث فى فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك - أى على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه - ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، ويرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله - تعالى - ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ... ﴾ أن رسول الله ﷺ - قال : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر » .

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ - : لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ؛ والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى .

ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم إلى الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر »[2] .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ حكاية لما فعله الملك بعد أن بلغه الرسول بما طلبه يوسف منه .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف ، استجاب الملك لما طلبه يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٧ ، وما ورد فى هذه الأحاديث إنما هو من باب التواضع من سيدنا رسول الله - ﷺ - وإلا فإنه - ﷺ - أقوى الرسل عزما ، وأرفعهم مقاما ، وأشدهم صبرا .

والخطب : مصدر خطب يخطب ، ويطلق - غالبا - على الأمر المهم الذى يجعل الناس يتحدثون فيه كثيراً ، وجمعه خطوب .

والمعنى : بعد أن جمع الملك النسوة قال لهن : ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه ؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الاستجابة لكنَّ .. ؟

قال صاحب الظلال ما ملخصه : « والخطب الأمر الجلل ... فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه ، فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر لهن جلل ..

ومن هذا نعلم شيئاً بما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير ، وما قالته النسوة ليوسف ، وما لمحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى بلغ حد المراودة .

ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموغل فى التاريخ ، فالجاهلية هى الجاهلية دائما ، وأنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذى يرتدى ثياب الأرستقراطية »[1] .

وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك ، لم يملكن الإنكار ، بل قلن بلسان واحد : ﴿ حاش لله ﴾ أى : معاذ الله .

﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ قط ، وإنما الذى علمناه منه هو الاستعصام عن كل سوء .

وهنا ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ ويبدو أنها كانت حاضرة ، معهن عند الملك .

﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى : الآن ظهر الحق وانكشف انكشافا تاما بعد أن كان خافيا والفعل حصحص أصله حص ، كما قيل ، كبكب فى كب ، وهو مأخوذ من الحص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حص شعره إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته ...

ثم أضافت إلى ذلك قولها « أنا راودته عن نفسه » أى : أنا التى طلبت منه ما طلبت « وإنه لمن الصادقين » فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » .

وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللائى قطعن أيديهن .

قال صاحب الكشاف : « ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن على

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ١٩٥٥ .

أنفسهن بأنه لم يتعلق بشىء مما قذفنه به لأنهن خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال »[1] - إذ الفضل ما شهدت به الأعداء - .

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ .

أى : ذلك الذى قلته واعترفت به على نفسى من أنى راودته عن نفسه ، إنما قلته ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته ، ولم أقل فيه شيئاً يسوؤه بعد أن فارقنى ، ولبث بعيدا عنى فى السجن بضع سنين ، وإنما أنا أقرر أمام الملك وحاشيته بأنه من الصادقين ...

وإنما قررت ذلك لأن الله - تعالى - لا يهدى كيد الخائنين ، أى : لا ينفذ كيدهم ولا يسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد حين من الزمان .

لذا فأنا التزمت الأمانة فى الحديث عنه ، وابتعدت عن الخيانة ، لأن الله - تعالى - لا يرضاها ولا يقبلها .

فأنت ترى أن هذه المرأة التى شهدت على نفسها شهادة لا تبالى بما يترتب عليها بشأنها ، قد عللت شهادتها هذه بعلتين :

إحداهما : كراهتها أن تخونه فى غيبته بعد أن فقد الدفاع عن نفسه وهو فى السجن ..

وثانيتهما : علمها بأن الله - تعالى - لا يهدى كيد الخائنين ولا يسدده ، وإنما يبطله ويزهقه ..

ثم أضافت إلى كل ذلك قولها : ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم ﴾ .

أى : ومع أنى أعترف بأنه من الصادقين ، وأعترف بأنى لم أخنه بالغيب ، إلا أنى مع كل ذلك لا أبرئ نفسى ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برىء منه ، فأنا التى قلت لزوجى فى حالة دهشتى وانفعالى الشديد ، ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ وما حملنى على هذا القول إلا هواى وشهواتى ، ونفسى ؛ إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، كنفس يوسف - عليه السلام -

وجملة ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ تعليل لما قبلها ، أى : إن ربى كثير الغفران وكثير الرحمة ، لمن يشاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٦ .

والذى يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز ، يراه زاخرا بالصراحة التى ليس بعدها صراحة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، رغم الإغراءات المصحوبة بالترغيب والترهيب ، ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان التى آمن بها يوسف فى قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا يختلف فى استعصامه بالله وفى سمو نفسه ، عن غيره من الناس الذين رأتهم .

هذا ، ويرى كثير من المفسرين أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ وأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... ﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ هو من كلام يوسف - عليه السلام - ، فيكون المعنى :

وذلك ليعلم « أى العزيز » أنى لم أخنه ، فى أهله ﴿ بالغيب ﴾ أى فى غيبته ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ من النساء والرجال ، بل يبطل هذا الكيد ويفضحه .

﴿ وما أبرئ نفسى ﴾ أى : ولا أنزهها عن السوء ، وهذا من باب التواضع منه - عليه السلام - ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أى : إن هذا الجنس من الأنفس البشرية ، شأنه الأمر بالسوء والميل إلى الشهوات .

﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء .

﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من خلقه .

والذى نراه أن الرأى الأول الذى سرنا عليه هو الجدير بالقبول ، لأنه هو المناسب لسياق الآيات من غير تكلف ، ولأنه لا يؤدى إلى تفكك الكلام وانقطاع بعضه عن بعض ، بخلاف الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - « وإنه لمن الصادقين » فإنه يؤدى إلى تفكك الكلام ، وعدم ارتباط بعضه ببعض ، فضلا عن أن وقائع التاريخ لا تؤيده ، لأن يوسف - عليه السلام - كان فى السجن عندما أحضر الملك النسوة وقال لهن : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ... » . وعندما قالت امرأة العزيز أمام الملك وأمامهن : « الآن حصحص الحق .. » إلى قوله - تعالى - ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ .

ومن المفسرين الذين أيدوا الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... » تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسى ، بأنى راودت هذا الشاب

فامتنع ، ﴿ وما أبرئ نفسى ... ﴾ تقول المرأة : ولست أبرئ نفسى ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء .

﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ أى : من عصمه الله - تعالى - ...

ثم قال : « وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام . لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف - عليه السلام - عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك »[1] .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف - عليه السلام - القسم الذى تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها من السجن ومرارته ...

ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب الثانى من حياته عليه السلام .

وهو جانب الرخاء والعز والتمكين فى حياته ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ... ﴾ .

وفى الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير : وبعد أن انكشفت للملك براءة يوسف - عليه السلام - انكشافا تاما ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز ، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به ، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه ..

بعد كل ذلك قال الملك لخاصته : ائتونى بيوسف هذا ، ليكون خالصا لنفسى ، وخاصا بى فى تصريف أمورى ، وكتمان أسرارى ، وتسيير دفة الحكم فى مملكتى .

والسين والتاء فى قوله « أستخلصه » للمبالغة فى الخلوص له ، فهما للطلب كما فى استجاب ، والاستخلاص طلب خلوص الشىء من شوائب الشركة .

فكأن الملك قد شبه يوسف - عليه السلام - بالشىء النفيس النادر ، الذى يجب أن يستأثر به الملك دون أن يشاركه فيه أحد سواه .

والفاء فى قوله « فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » معطوفة على محذوف يفهم من السياق .

والضمير المنصوب فى « كلّمه » يعود على الملك - على الراجح - .

والمراد باليوم : الزمان الذى حدث فيه التخاطب بين الملك ويوسف .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٠ .

و ﴿ مكين ﴾ صفة مشبهة من الفعل مكن - بضم الكاف - ، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة ، يقال : مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته ، ويقال : مكنت فلانا من هذا الشيء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدرة .

﴿ أمين ﴾ بزنة فعيل بمعنى مفعول ، أى : مأمون على ما نكلفك به ، ومحل ثقتنا .

والمعنى : وقال الملك لجنده ائتونى بيوسف هذا أستخلصه لنفسى فأتوه به إلى مجلسه .

فازداد حب الملك له وتقديره إياه وقال له : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمنك على كل شيء فى هذه المملكة ، وتلك المقالة من الملك ليوسف ، هى أولى بشائر عاقبة الصبر ؛ وعزة النفس ، وطهارة القلب ، والاستعصام بحبل الله المتين ...

وهنا طلب يوسف - عليه السلام - من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها ﴿ قال : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ والخزائن جمع خزانة - بكسر الخاء وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشيء ، والمراد بالأرض : أرض مصر .

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك - المتصرف الأول فى خزائن أرض مملكتك ، المشتملة على ما يحتاج إليه الناس من أموال وأطعمة ، لأنى شديد الحفظ لما فيها ، عليم بوجوه تصريفها فيما يفيد وينفع ...

فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ، وإنما طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة ، وتدبير شئونها ... لأنها مقبلة على سنوات عجاف ، تحتاج إلى خبرة يوسف وأمانته وكفاءته ، وعلمه ...

قال صاحب الكشاف : « وصف يوسف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى - وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله - لا لحب الملك والدنيا »[1] .

وقال القرطبى ما ملخصه : « ودلت الآية - أيضًا - على جواز أن يطلب الإنسان عملاً يكون له أهلاً .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٨ .

فإن قيل : فإن ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فى الأحاديث الصحيحة من نهيه عن طلب الإمارة ...

فالجواب : أولاً : أن يوسف - عليه السلام - إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ...

الثانى : أنه لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لأنى حسيب كريم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل إنى جميل مليح ... وإنما قال ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله - تعالى - ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ... ﴾[1] .

والخلاصة أن يوسف - عليه السلام - إنما قال ما قال للملك ، وطلب ما طلب منه ، لأنه علم أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه فى ذلك الوقت وفى تلك الظروف ، فهو يريد من ورائه خدمة الأمة لأجر منفعة شخصية لنفسه ...

وما قاله إنما هو من باب التحدث بنعمة الله - تعالى - الذى أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب العالية ، وليس من باب تزكية النفس المحظورة .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ... ﴾ بيان لسنة الله - تعالى - فى خلقه ، من كونه - سبحانه - لا يضيع أجر الصابرين المحسنين أى : ومثل هذا التمكين العظيم . مكنا ليوسف فى أرض مصر ، بعد أن مكث فى سجنها بضع سنين ، لا لذنب اقترفه ، وإنما لاستعصامه بأمر الله .

وقوله ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ تفصيل للتمكين الذى منحه الله - تعالى - ليوسف فى أرض مصر ، والتبوأ اتخاذ المكان للنزول به . يقال : بوأ فلان فلانا منزلاً . أى مكنه منه وأنزله به أى : ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا ليوسف فى أرض مصر ، حيث هيأنا له أن يتنقل فى أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل ، دون أن يمنعه مانع من الحلول فى أى مكان فيها .

فالجملة الكريمة كناية عن قدرته على التصرف والتنقل فى جميع أرض مصر ، كما يتصرف ويتنقل الرجل فى منزله الخاص .

وقوله : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ... ﴾ بيان لكمال قدرته ونفاذ إرادته - سبحانه -

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢١٦ .

أى : نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاءه من عبادنا بمقتضى حكمتنا ومشيئتنا .

﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه ، بل نوفيهم أجورهم على إحسانهم فى الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك .

﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ وأبقى ﴿ للذين آمنوا ﴾ بالله - تعالى - إيمانًا حقا ﴿ وكانوا يتقون ﴾ خالقهم - عز وجل - فى كل ما يأتون وما يذرون ، بأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضبه .

وهكذا كافأ الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثًا تكل معرفتها إلى فهم القارىء وفطنته ، فهى لم تحدثنا - مثلاً - عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدارته لخزائن أرض مصر ، اكتفاء بقوله ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ للدلالة على كفايته وأمانته .

كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس فى السنوات السبع العجاف ، وفى السنوات الخضر لأن هذا مقرر ومعروف فى دنيا الناس .

كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف ، بعد أن صار أمينًا على خزائن الأرض ، بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف ، إنزالاً للناس منازلهم ، إذ هو صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك ، وصاحب الأفكار الحكيمة التى أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد ، وصاحب الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإخلاص العبادة له ، بين قوم يشركون مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

لم تحدثنا السورة الكريمة عن كل ذلك ، فى أعقاب حديثها عن تمكين الله - تعالى - ليوسف فى الأرض ، وإنما انتقلت بنا بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته ، وعما دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم ...

قال تعالى :

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ

أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قال الفخر الرازى – رحمه الله – اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ، ووصل أيضًا إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب – عليه السلام – وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه : إن بمصر صالحًا يمير الناس – أى يعطيهم الطعام وما هم فى حاجة إليه فى معاشهم – فاذهبوا إليه بدراهمكم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة وبقى « بنيامين » مع أبيه ، ودخلوا على يوسف – عليه السلام – وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف مع إخوته ، وظهور صدق ما أخبره الله – تعالى – عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوه فى الجب ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾[1] .

وقد جاءوا إليه جميعًا – ما عدا « بنيامين » وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون فى أوقات الجدب والجوع .

وعبر عن معرفة يوسف لهم بالجملة الفعلية ، وعن جهلهم له بالجملة الإسمية للإشعار بأن معرفته لهم حصلت بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فعدم معرفتهم له كان أمرا ثابتًا متمكنًا منهم .

قال صاحب الكشاف : « لم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه ، واهتمامهم بشأنه ، ولبعد حاله التى بلغها من الملك والسلطان عن حاله التى فارقوه عليها طريحًا فى البئر ، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأن الملك مما يبدل الزى ، ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف ... »[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١٦٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٩ .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المجاعة التى حدثت فى السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد - كما سبق أن أشرنا - .

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد بفضل حسن تدبير يوسف - عليه السلام - وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس ، ومراقبته لشئون بيع الطعام ، وعدم الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده ، دون غيره من المسئولين فى مصر .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم .. ﴾ بيان لما فعله يوسف معهم بعد أن عرفهم دون أن يعرفوه .

وأصل الجهاز - بفتح الجيم وكسرها قليل - : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، يقال : جهزت المسافر ، أى هيأت له جهازه الذى يحتاج إليه فى سفره ، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها ، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه فى دفنه ...

والمراد : أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم ، أكرم وفادتهم . وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه ، وهيأ لهم ما هم فى حاجة إليه من الطعام وغيره ، ثم استدرجهم بعد ذلك فى الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم .

وذلك لأن قوله لهم ﴿ ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ يستلزم أن حديثًا متنوعًا نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف ، أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة ، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك .

ومن هنا قال المفسرون : إن قوله ﴿ ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ يقتضى كلامًا دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب ، ومما قالوه فى توضيح هذا الكلام : ما روى من أنهم بعد أن دخلوا عليه قال لهم : من أنتم وما شأنكم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام ، جئنا نمتار ، ولنا أب شيخ صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب ، فقال لهم : كم عددكم قالوا عشرة ، وقد كنا اثنى عشر ، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه ، هو باق لديه يتسلى به ، فقال لهم حينئذ : ائتونى بأخ لكم من أبيكم »[1] .

ويروى أنه قال لهم ذلك بعد أن طلبوا منه شيئًا زائدًا عن عددهم ، لأن لهم أخًا لم يحضر معهم ، فأعطاهم ما طلبوه ، واشترط عليهم إحضار أخيهم هذا معهم ، ليتأكد من صدقهم »[2] .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٣٧ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٣١ .

والمعنى : وبعد أن أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه ، وعرف منهم أن لهم أخًا من أبيهم قد تركوه فى منازلهم ولم يحضر معهم ، قال لهم : أنا أريدكم فى الزيارة القادمة لى ، أن تحضروه معكم لأراه ...

وقوله « من أبيكم » حال من قوله « أخ لكم » أى : أخ لكم حالة كونه من أبيكم ، وليس شقيقًا لكم ، فإن هذا هو الذى أريده ولا أريد غيره .

وهذا من باب المبالغة فى عدم الكشف لهم عن نفسه ، حتى لكأنه لا معرفة له بهم ولا به إلا من ذكرهم إياه له .

وقوله: ﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم فى ذلك حتى ينشطوا فى إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى منزلاً كريمًا ... وما دام أمرى معكم كذلك ، فلابد من أن تأتونى معكم بأخيكم من أبيكم فى المرة القادمة ، لكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .

والمراد بإيفاء الكيل : إتمامه بدون تطفيف أو تنقيص .

وعبر بصيغة الاستقبال « ألا ترون ... » مع كونه قد قال هذا القول بعد تجهيزه لهم . للدلالة على أن إيفاءه هذا عادة مستمرة له معهم كلما أتوه .

وجملة ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ حالية ، والمنزل : المضيف لغيره . أى : والحال أنى خير المضيفين لمن نزل فى ضيافتى ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ .

أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقائكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم فى لقائكم القادم معى ، فإن لم تأتونى به معكم عند عودتكم إلى ، فإنى لن أبيعكم شيئًا مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، وفضلاً عن ذلك فإنى أحذركم من أن تقربوا بلادى فضلاً عن دخولها .

هذا التحذير منه - عليه السلام - لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ حكاية لما رد به إخوة يوسف عليه .

أى قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيهم لأبيهم معهم : ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ أى : سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحايلة « وإنا لفاعلون » هذه المراودة باجتهاد لا كلل ولا ملل معه وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم - وهو « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف - ، ليس أمرًا سهلًا أو ميسورًا ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ .

والفتيان : جمع فتى والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته فى عمله .

والبضاعة فى الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التى تقتنى للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع .

والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذى أعطاه لهم يوسف - عليه السلام - .

والرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .

والمعنى : وقال يوسف - عليه السلام - لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمتعتهم ، فيجدون فيها الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه من طعام وغيره .

لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه .

وكأن يوسف - عليه السلام - أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه ومعهم « بنيامين » لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

وقوله ﴿لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ تعليل لأمره فتيانه بجعل البضاعة فى رحال إخوته . إذ أن معرفتهم بأن بضاعتهم قد ردت إليهم لا يتم إلا بعد انقلابهم - أى رجوعهم - إلى أهلهم ، وبعد تفريغها عندهم .

وقوله « لعلهم يرجعون » جواب للأمر . أى : اجعلوها كذلك ، لعلهم بعد اكتشافهم أنهم ما دفعوا لنا ثمن ما أخذوه ، يرجعون إلينا ليدفعوا لنا حقنا .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه

فعرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم بقوة أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم ... فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد حكت لنا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم فى اصطحاب « بنيامين » معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما حكت ما رد به أبوهم عليهم . قال - تعالى - :

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ

لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل ... ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم فور التقائهم به .

والمراد بالكيل : الطعام المكيل الذى هم فى حاجة إليه .

والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه فى المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قرينة على ذلك .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يدرك من السياق والتقدير : ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم ، بعد أن وعدوه بتنفيذ ما طلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل .

﴿ يا أبانا ﴾ لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة إذا لم نأخذ معنا أخانا « بنيامين » ليراه عند عودتنا إليه ؛ فقد قال لنا مهددًا عند مغادرتنا له : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ .

وأنت تعلم أننا لابد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجاتنا من الطعام وغيره ، فنرجوك أن توافقنا على اصطحاب « بنيامين » معنا « وإنا له لحافظون » حفظًا تامًا من أن يصيبه مكروه .

والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم ، كان بمجرد رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله ...

وكأنهم فعلوا ذلك ليشعروه بأن إرسال بنيامين معهم عند سفرهم إلى مصر ، أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيترتب عليه منع الطعام عنهم .

وقرأ حمزة والكسائى « فأرسل معنا أخانا يكتل »- بالياء - أى : فأرسله معنا ليأخذ نصيبه من الطعام المكال ، لأن عزيز مصر لا يعطى طعامًا لمن كان غائبًا .

وعلى كلا القراءتين فالفعل مجزوم فى جواب الطلب .

وقالوا له ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ بالجملة الإسمية ، لتأكيد حفظهم له : وأن ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتًا لا مناص منه .

ولكن يبدو أن قولهم هذا قد حرك كوامن الأحزان والآلام فى نفس يعقوب ، فهم الذين سبق أن قالوا له فى شأن يوسف - أيضًا - ﴿ أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

لذا نجده يرد عليهم فى استنكار وألم بقوله : ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ... ﴾ .

أى : قال يعقوب لأولاده بعد أن طلبوا منه بإلحاح إرسال أخيهم معهم ، وبعد أن تعهدوا بحفظه : أتريدون أن أأتمنكم على ابنى « بنيامين » ، كما أئتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكانت النتيجة التى تعرفونها جمعًا ، وهى فراق يوسف لى فراقًا لا يعلم مداه إلا الله – تعالى – ؟!! لا ، إننى لا أثق بوعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف .فالاستفهام فى قوله « هل آمنكم .. » للإنكار والنفى .

وقوله ﴿ فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين ﴾ تفريع على استنكاره لطلبهم إرسال « بنيامين » معهم ، وتصريح منه لهم بأن حفظ الله – تعالى – خير من حفظهم .

أى : إننى لا أثق بوعودكم لى بعد الذى حدث منكم بالنسبة ليوسف ، وإنما أثق بحفظ الله ورعايته « فالله » – تعالى – « خير حافظًا » لمن يشاء حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه لم يسلم ، كما لم يسلم أخوه يوسف من قبل حين ائتمنتكم عليه « وهو » – سبحانه – ﴿ أرحم الراحمين ﴾ لخلقه ، فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجعنى فى « بنيامين » ، كما فجعت فى شقيقه يوسف من قبل .

ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد إمكان إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وهذا – أى رد يعقوب عليهم – ميل منه – عليه السلام – إلى الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة ، وفيه أيضًا من التوكل على الله – تعالى – ما لا يخفى ، ولذا روى أن الله – تعالى – قال : « وعزتى وجلالى لأردهما عليك إذ توكلت على ... » وقرأ أكثر السبعة ﴿ فالله خير حفظا ... ﴾ وقرأ حمزة والكسائى وحفص « حافظا ... » وعلى القراءتين فهو منصوب على أنه تمييز ... »[1] .

ثم اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ويخرجوا ما بها من زاد حضروا به من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله :

﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ... ﴾ .

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز مصر . فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد رد إليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١١ .

دون أن يشعروا ، فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين :

﴿ يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ أى : يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله معنا عزيز مصر ؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد إلينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .

فما فى قوله ﴿ ما نبغى ﴾ استفهامية ، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر ، وهى مفعول نبغى ، ونبغى من البُغَاء - بضم الباء - وهو الطلب .

والمراد ببضاعتهم : الثمن الذى دفعوه للعزيز فى مقابل ما أخذوه منه من زاد .

وجملة ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ مستأنفة لتوضيح ما دل عليه الاستفهام من التعجب ، بسبب ما فعله معهم عزيز مصر من مروءة وسخاء .

فكأنهم قالوا لأبيهم : كيف لا نعجب وندهش ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندرى ومعها الأحمال التى اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شىء ؟

وقوله ﴿ ونمير أهلنا ﴾ معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » فننتفع بها فى معاشنا ، ونمير أهلنا ، أى : نجلب لهم الميرة - بكسر الميم وسكون الياء - وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر .

﴿ ونحفظ أخانا ﴾ عند سفره معنا من أى مكروه .

﴿ ونزداد ﴾ بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر .

﴿ كيل بعير ﴾ أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظرًا لوجود أخينا معنا .

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف - عليه السلام - كان يعطى من الطعام على عدد الرءوس ، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر أى : ذلك الطعام الذى أعطانا إياه عزيز مصر طعام يسير ، لا يكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتى بطعام آخر .

وفى هذه الجمل المتعددة التى حكاها القرآن عنهم ، تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب « بنيامين » معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر .

ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزيز مصر الذى رد لهم أثمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيهم وازدياد الأطعمة بسبب وجوده معهم .

ولكن يعقوب - عليه السلام - مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم يستجب لهم إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن فى قوله :

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ﴾ .

والموثق : العهد الموثق باليمين ، وجمعه مواثيق .

أى : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم « بنيامين » إلى مصر ، حتى تحلفوا لى بالله ، بأن تقولوا : والله لنأتينك به عند عودتنا ، ولن نتخلى عن ذلك ، « إلا أن يحاط بنا » أى : إلا أن نهلك جميعًا ، أو أن نغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .

يقولون : أحيط بفلان إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة العدو بالشخص ، واستعمل فى الهلاك ، لأن من أحاط به العدو يهلك غالبًا .

وسمى الحلف بالله - تعالى - موثقًا ، لأنه مما تؤكد به العهود وتقوى وقد أذن الله - تعالى - بذلك عند وجود ما يقتضى الحلف به - سبحانه - .

وقوله : « لتأتننى به » جواب لقسم محذوف والاستثناء فى قوله « إلا أن يحاط بكم » مفرغ من أعم الأحوال ، والتقدير : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله وتقولوا : والله لنأتينك به معنا عند عودتنا ، فى جميع الأحوال والظروف إلا فى حال هلاككم أو فى حال عجزكم التام عن مدافعة أمر حال بينكم وبين الإتيان به معكم .

وقوله ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيهم معهم عند عودتهم من مصر .

« قال » لهم على سبيل التأكيد والحض على وجوب الوفاء : الله - تعالى - على ما نقول أنا وأنتم وكيل ، أى : مطلع ورقيب ، وسيجازى الأوفياء خيرًا ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقون من عقاب .

قال ابن كثير : « وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بدًا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال ﴿ وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ﴾ .

أى : وقال يعقوب - الأب العطوف - لأبنائه وهو يودعهم : يابنى إذا وصلتم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلاً بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب .

قالوا : وكانت أبواب مصر فى ذلك الوقت أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسبابًا متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن هذه الأسباب ما ذكره الآلوسى فى قوله : نهاهم عن الدخول من باب واحد ، حذرًا من إصابة العين ء أى من الحسد ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة .. فكانوا مظنة لأن يعانوا - أى لأن يحسدوا - إذا ما دخلوا كوكبة واحدة ...

ثم قال : والعين حق ، كما صح عن رسول الله - ﷺ - وصح أيضًا بزيادة « ولو كان شىء يسبق القدر سبقته العين » ...

وقد ورد أيضًا : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »[1] .

وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ، فيترامى فى أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربما سجنوهم ، أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام - ...

وقوله ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شىء ﴾ اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره - تعالى - وأراده لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة .

أى : وإنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئًا قدره الله عليكم ، ولو كان هذا الشىء قليلاً .

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أى : ما الحكم فى كل شىء إلا لله - تعالى - وحده لا ينازعه فى ذلك منازع . ولا يدافعه مدافع .

« وعليه » وحده « توكلت » فى كل أمورى .

« وعليه » وحده « فليتوكل المتوكلون » أى المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها .

---

(١) تفسير الآلوسى - بتصرف وتلخيص - جـ ١٣ ص ١٥ .

إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ما هى إلا أمور عادية ، يوجد الله - تعالى - معها ما يريد إيجاده ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد . ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبًا مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشرعها ...

ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ﴾ .

والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، خوفًا عليهم من الحسد . ومعنى « قضاها » أظهرها ولم يستطع كتمانها يقال : قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوهم بالدخول منها ، « ما كان » هذا الدخول « يغنى عنهم » أى يدفع عنهم من قدر « الله من شىء » قدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجة أى رغبة خطرتْ فى نفسه « قضاها » أى : أظهرها ووصاهم بها ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم مع اعتقاده بأن كل شىء بقضاء الله وقدره .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ ثناء من الله - تعالى - على يعقوب بالعلم وحسن التدبير .

أى : وإن يعقوب - عليه السلام - لذو علم عظيم ، للشىء الذى علمناه إياه عن طريق وحينا ، فهو لا ينسى منه شيئًا إلا ما شاء الله .

وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى : لا يعلمون ما يعلمه يعقوب - عليه السلام - من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله - تعالى - أو : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأتى للأمور .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيهم معهم .. فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن سافر إخوة يوسف إلى مصر ، ومعهم « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف ، والتقوا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالانفعالات

والمفاجآت والمحاورات ... التى حكاها القرآن فى قوله - تعالى - :

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ... ﴾ شروع فى بيان ما دار بين يوسف - عليه السلام - وبين شقيقه « بنيامين » بعد أن حضر مع إخوته .

وقوله ﴿ آوى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم . يقال : آوى فلان فلانًا إذا ضمه إلى نفسه ، ويقال : تأوت الطير وتآوت ، إذا تضامت وتجمعت .

وقوله ﴿ فلا تبتئس ﴾ : افتعال من البؤس وهو الشدة والضر . يقال بَئِس - كسَمِع - فلان بؤسًا وبئوسًا ، إذا اشتد حزنه وهمه .

والمعنى : وحين دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له مطمئنًا ومواسيًا : إنى أنا أخوك الشقيق . فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ، فإن الله - تعالى - قد عوض صبرنا خيرًا ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه « بنيامين » وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وقال : « لا تبتئس » أى : لا تأسف على ما صنعوا

بى ، وأمره بكتمان هذا عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرمًا معظمًا[١] .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف - عليه السلام - مع إخوته ، لكى يبقى أخاه معه فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ... ﴾ والجهاز كما سبق أن بينا : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ..

والسقاية : إناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة ما يكون من معدن نفيس ولقد كان يوسف - عليه السلام - يكتال به فى ذلك الوقت نظرًا لقلة الطعام وندرته .

وهذه السقاية هى التى أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع أى :

وحين أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا الصواع فى متاع أخيه « بنيامين » دون أن يشعر بهم أحد ..

وقوله ﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهيئوا للسفر ، وأوشكوا على الرحيل .

والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به . والمراد بالعير هنا : أصحابها . والأصل فيها أنها اسم للإبل التى تحمل الطعام وقيل العير تطلق فى الأصل على قافلة الحمير ، ثم تجوز فيها فأطلقت على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة .

أى : ثم نادى مناد على إخوة يوسف - عليه السلام - وهم يتجهزون للسفر ، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله : يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل فى شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والذى يظهر أن ما فعله يوسف ، من جعله السقاية فى رحل أخيه . ومن اتهامه لإخوته بالسرقة .. إنما كان بوحى من الله - تعالى - لما علم - سبحانه - فى ذلك من الصلاح ، ولما أراد من امتحانهم بذلك .ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢ .

وتفقدون : من الفقد ، وهو غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه .

أى : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون ، قالوا لهم : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى اتهمتمونا بأننا سارقون ؟!!!

وهنا رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس : ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أى : صاعه الذى يشرب فيه ، ويكتال به للممتارين .

﴿ ولمن جاء به ﴾ أى بهذا الصاع ، أو دل على سارقه .

﴿ حمل بعير ﴾ من الطعام زيادة على حقه كمكافأة له .

﴿ وأنا به زعيم ﴾ أى : وأنا بهذا الحمل كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .

ويبدو أن القائل لهذا القول هو المؤذن السابق ، ولعله قد قال ذلك بتوجيه من يوسف - عليه السلام - .

وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردًا يدل على استنكارهم لهذه التهمة وعلى تأكدهم من براءتهم فيقولون : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف للمنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة : تالله ياقوم ، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم ، لكى نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق ، وما كنا فى يوم من الأيام ونحن فى أرضكم لنرتكب هذه الجريمة ، لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا فى حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام ، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك ، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم ، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا .

وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه بقولهم : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ .

أى : قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفيًا تامًا .

إذًا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم ، وكنتم كاذبين فى دعواكم أنكم ما كنتم سارقين .

فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق فى شريعتهم بقولهم : ﴿ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ .

والمراد بالجزاء : العقاب الذى يعاقب به السارق فى شريعتهم ، والضمير فى قوله « جزاؤه » يعود إلى السارق .

أى : قال إخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يوجد صواع الملك فى رحله ومتاعه أن يسترق لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .

قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله « جزاؤه » مبتدأ ، وقوله « من وجد فى رحله » خبر المبتدأ .

والتقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله - أى استرقاقه لمدة سنة - ، وتكون جملة « فهو جزاؤه » لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها . قال الزجاج وقوله « فهو جزاؤه » زيادة فى البيان . أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير »[1] .

وقالوا « جزاؤه من وجد فى رحله » ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقته ، للإشارة إلى كمال نزاهتهم ، وبراءة ساحتهم من السرقة ، حتى لكأن ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها فى هذا المقام .

وقوله : ﴿ كذلك نجزى الظالمين ﴾ مؤكد لما قبله ، أى مثل هذا الجزاء العادل ، وهو الاسترقاق لمدة سنة ، نجازى الظالمين الذين يعتدون على أموال غيرهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من المقام .

والتقدير : وبعد هذه المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف وبين الذين اتهموهم بالسرقة أخبر الإخوة بتفتيش أمتعتهم للبحث عن الصوّاع بداخلها .

« فبدأ » المؤذن بتفتيش أوعيتهم ، قبل أن يفتش وعاء « بنيامين » فلم يجد شيئًا بداخل أوعيتهم .

فلما وصل إلى وعاء « بنيامين » وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله ، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعًا .

ويبدو أن هذا الحوار من أوله كان بمشهد ومرأى من يوسف - عليه السلام - وكان أيضًا بتدبير وتوجيه منه للمؤذن ومن معه ، فهو الذى أمر المؤذن بأن ينادى « أيتها العير إنكم لسارقون » ، وهو الذى أشار عليه بأن يسألهم عن حكم السارق فى شريعتهم ، وهو الذى أمره بأن يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتش وعاء شقيقه « بنيامين » دفعا للتهمة ، ونفيا للشبهة ...

روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء « بنيامين » لتفتيشه قال يوسف - عليه السلام - : ما أظن هذا أخذ شيئًا ؟ فقالوا : والله لا تتركه حتى تنظر فى رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا »[2] .

---

(١) تفسير فتح القدير للامام الشوكانى جـ ٣ ص ٤٣ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢٨ .

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزى ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل « بنيامين » وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة .. يطوى القرآن كل ذلك ، ليترك للعقول أن تتصوره ...

ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله - تعالى - يوسف أن يفعل ما فعل من دس السقاية فى رحل أخيه ، ومن سؤال إخوته عن جزاء السارق فى شريعتهم فيقول ﴿ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ... ﴾ .

و « كدنا » من الكيد وأصله الاحتيال والمكر ، وهو صرف غيرك عما يريده بحيلة ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح ، ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والجميل .

والمراد به هنا : النوع المحمود ، واللام فى « ليوسف » للتعليل .

والمراد بدين الملك : شريعته التى يسير عليها فى الحكم بين الناس .

والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم .. وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه ، لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال فى شريعة يعقوب ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم فى حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك ، فهو - سبحانه - الذى ألهمه أن يدس السقاية فى رحل أخيه ، وهو - سبحانه - الذى ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق فى شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك فى رحله منهم .

والجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - على يوسف حيث ألهمه ما يوصله إلى مقصوده بأحكم أسلوب .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « كذلك كدنا ليوسف » أى : مثل ذلك الكيد العجيب وهو إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور ... دبرنا وصنفنا من أجل يوسف ما يحصل به غرضه ...

وقوله « ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » أى فى حكمه وقضائه والكلام استئناف وتعليل لذلك الكيد ، كأنه قيل : لماذا فعل ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده فى دين الملك فى أمر السارق إلا بذلك الكيد ، لأن جزاء السارق فى دينه أن يضاعف

عليه الغرم ... دون أن يسترق كما هو الحال فى شريعة يعقوب .

وقوله « إلا أن يشاء الله » أى : لم يكن يوسف ليتمكن من أخذ أخيه فى حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئته - تعالى - التى هى عبارة عن ذلك الكيد المذكور .. »[١] .

قالوا : وفى الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعًا ثابتًا »[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾ استئناف لبيان قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته وعطائه .

أى : نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب .. كما رفعنا درجات يوسف - عليه السلام - .

﴿ وفوق كل ذى علم ﴾ من أولئك المرفوعين « عليم » يزيد عنهم فى علمهم وفى مكانتهم عند الله - تعالى - فهو - سبحانه - العليم بأحوال عباده ، وبمنازلهم عنده ، وبأعلاهم درجة ومكانة .

وقال - سبحانه - « نرفع » بصيغة الاستقبال وللأشعار بأن ذلك سنة من سننه الإلهية التى لا تتخلف ولا تتبدل ، وأن عطاءه - سبحانه - لا يناله إلا الذين تشملهم إرادته ومشيئته كما تقتضيه حكمته .

وجاءت كلمة « درجات » بالتنكير ، للإشارة إلى عظمها وكثرتها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف فى أعقاب ثبوت تهمة السرقة على أخيه « بنيامين » فقال - تعالى - ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .... ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف - عليه السلام - بعد هذا الموقف المحرج لهم . إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك .

وقولهم هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنًا من نفوسهم .

وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى مرادهم بقولهم هذا ، ومن بين هذه الروايات ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - أنه قال فى الآية : سرق يوسف - عليه السلام - صنمًا لجده وكان هذا الصنم من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ، فعير إخوته بذلك »[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢٩ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٣ ص ٤٣ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٣٢ .

وقوله ﴿ فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ بيان لموقفه من مقالتهم ، والضمير فى « فأسرها » يعود إلى تلك المقالة التى قالوها .

أى : سمع يوسف - عليه السلام - ما قاله إخوته فى حقه وفى حق شقيقه فساءه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره مما قالوه وإنما رد عليهم بقوله « بل أنتم » أيها الإخوة « شر مكانا » أى : موضعًا ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برىء ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخدعتموه ، وقلتم له بعد أن ألقيتم أخاكم فى الجب ، لقد أكله الذئب .

« والله » - تعالى - «أعلم » منى ومنكم « بما تصفون » به غيركم من الأوصاف التى يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوا ليوسف على سبيل الرجاء والاستعطاف لكى يطلق لهم أخاهم حتى يعود معهم إلى أبيهم فقال : ﴿ قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : ﴿ يأيها العزيز ﴾ الذى أكرمنا وأحسن إلينا « إن » أخانا هذا الذى أخذته على سبيل الاسترقاق لمدة سنة ، قد ترك من خلفه فى بلادنا « أبا شيخًا كبيرًا » متقدمًا فى السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حبًا جمًا فإذا كان ولابد من أن تأخذ واحدا على سبيل الاسترقاق بسبب هذه السرقة « فخذ أحدنا مكانه » حتى لا نفجع أبانا فيه .

وإننا ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لأننا « نراك من المحسنين » إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا « بنيامين » ليسافر معنا .

ولكن هذا الرجاء والتلطف والاستعطاف منهم ليوسف ، لم ينفعهم شيئًا ، فقد رد عليهم فى حزم وحسم بقوله : ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... ﴾ و « معاذ » منصوب بفعل محذوف .

أى : قال يوسف لهم : نعوذ بالله - تعالى - معاذا ، من أن نأخذ فى جريمة السرقة إلا الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو « بنيامين » .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير فى هذا الحكم تبعًا لشريعتكم .

﴿إنا إذا لظالمون﴾ إذا أخذنا شخصًا آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده . والظلم تأباه

شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فاتركوا الجدال فى هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدال ، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين .

وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال إخوته فى العفو عن بنيامين أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلوهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه ..

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ... ﴾ .

وقوله « استيأسوا » يئسوا يأسًا تامًا فالسين والتاء للمبالغة .

و « خلصوا » من الخلوص بمعنى الانفراد .

و « نجيا » حال من فاعل خلصوا . وهو مصدر أطلق على المتناجين فى السر على سبيل المبالغة .

والفاء فى قوله ﴿ فلما استيأسوا منه ... ﴾ معطوفة على محذوف يفهم من الكلام .

والتقدير : لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخيهم بنيامين ، فلما يئسوا يأسًا تامًا من الوصول إلى مطلوبهم ، انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ولا يجد معهم « بنيامين » ..

هذه الجملة الكريمة وهى قوله - تعالى - ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ من أبلغ الجمل التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك الإمام الثعالبى فى كتاب « الإيجاز والإعجاز » فقد قال : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيجاز ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله - تعالى - فى إخوة يوسف ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس ، وتقليبهم الآراء ظهرًا لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة ، معانى القصة الطويلة »[1] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٧٨ .

وقوله : ﴿ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم .... ﴾ إلخ بيان لما قاله لهم أحدهم خلال تناجيهم مع بعضهم فى عزلة عن الناس .

ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض منهم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد به « روبيل » لأنه أسنهم ، وذكر بعضهم أنه « يهوذا » لأنه كبيرهم فى العقل ...

أى : وحين اختلى إخوة يوسف بعضهم مع بعض لينظروا فى أمرهم بعد أن احتجز عزيز مصر أخاهم بنيامين ، قال لهم كبيرهم :

« ألم تعلموا » وأنتم تريدون الرجوع إلى أبيكم وليس معكم « بنيامين » .

« أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله » عندما أرسله معكم ، بأن تحافظوا عليه ، وأن لا تعودوا إليه بدونه إلا أن يحاط بكم .

وألم تعلموا كذلك أنكم فى الماضى قد فرطتم وقصرتم فى شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم ألقيتم به فى الجب .

والاستفهام فى قوله : « ألم تعلموا ... » للتقرير . أى : لقد علمتم علما يقينا بعهد أبيكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمتم علما يقينا بخيانتكم لعهد أبيكم فى شأن يوسف ، فبأى وجه ستعودون إلى أبيكم وليس معكم أخوكم بنيامين ؟

قال الشوكانى : قوله : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ﴾ أى عهدا من الله - تعالى - بحفظ ابنه ورده إليه . ومعنى كونه من الله : أنه بإذنه .

وقوله ﴿ ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ﴾ معطوف على ما قبله . والتقدير : ألم تعلموا أن أباكم ... وتعلموا تفريطكم فى يوسف ، فقوله « ومن قبل » متعلق بتعلموا .

أى : تعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل . على أن ما مصدرية[1] .

وقوله ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى .. ﴾ حكاية للقرار الذى اتخذه كبيرهم بالنسبة لنفسه .

أى : قال كبير إخوة يوسف لهم : لقد علمتم ما سبق أن قلته لكم ، فانظروا فى أمركم ، أما أنا « فلن أبرح الأرض » أى : فلن أفارق أرض مصر « حتى يأذن لى أبى » بمفارقتها ، لأنه قد أخذ علينا العهد الذى تعلمونه بشأن أخى بنيامين . « أو يحكم الله لى » بالخروج منها

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٤٦ .

وبمفارقتها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق مع أبى « وهو » - سبحانه - « خير الحاكمين » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : « ارجعوا » يا إخوتى « إلى أبيكم » يعقوب « فقولوا » له برفق وتلطف . « يا أبانا إن ابنك » بنيامين « سرق » صواع الملك ، ووجد الصواع فى رحله وقولوا له أيضًا : إننا « ما شهدنا إلا بما علمنا » أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا ويقيننا بأنه سرق .

« وما كنا للغيب حافظين » أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك ، عندما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا .

وقولوا كذلك على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من قولنا هذا فاسأل « القرية التى كنا فيها » والمراد بالقرية أهلها .

أى : فأرسل من تريد إرساله إلى أهل القرية التى حصلت فيها حادثة السرقة فإنهم سيذكرون لك تفاصيلها .

قالوا : ومرادهم بالقرية مدينة مصر التى حدث فيها ما حدث ، وعبروا عنها بالقرية لأنهم يقصدون مكانا معينًا منها ، وهو الذى حصل فيه التفتيش لرحالهم ، والمراجعة بينهم وبين عزيز مصر ومعاونيه .

وقوله : ﴿ والعير التى أقبلنا فيها ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : اسأل أهل القرية التى كنا فيها ، واسأل « العير » أى : قوافل التجارة التى كنا فيها عند ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك « بنيامين ».

وقوله ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أى : وإنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به . فكن واثقًا من صدقنا .

وقد ختم كبيرهم كلامه بهذه الجملة ، زيادة فى تأكيد صدقهم ، لأن ماضيهم معه يبعث على الريبة والشك ، فهم الذين قالوا له قبل ذلك فى شأن يوسف : « أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » ثم ألقوا به فى الجب ، « وجاؤا أباهم عشاء يبكون ... » .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب .. ما دار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ومعهم شقيقه « بنيامين » .

* * *

فماذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن الحكيم - على عادته فى هذه السورة الكريمة - أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق لنا رده عليهم ، الذى يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله فى رحمة الله - تعالى - فيقول :

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

أى : « قال » يعقوب لبنيه ، الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيج أحزانه ....

قال لهم : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل ﴾ أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمرًا أنتم أردتموه ، فصبرى على ما قلتم صبر جميل ، أى لا جزع معه ، ولا شكوى إلا لله - تعالى - .

قال ابن كثير : « قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب « بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل » .

قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى ، اتهمهم ، وظن أن ما فعلوه

بنيامين يشبه ما فعلوه بيوسف فقال : « بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ... » .

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبا على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح قوله « بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ... » .

والخلاصة أن الذى حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول لهم ، المفيد لتشككه فى صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ما ضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه فى يوسف بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله فى رحمة الله ، وفى رجائه الذى لا يخيب فى أن يجمع شمله بأبنائه جميعًا فقال - عليه السلام - ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعًا إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

أى : عسى الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعًا - يوسف وبنيامين وروبيل الذى تخلف عنهم فى مصر - إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ، الحكيم فى كل ما يفعله ويقضى به .

وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ، وحسن صلته بالله - تعالى - وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه - سبحانه - .

وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، ما يراه غيره بحواسه وجوارحه .

ثم يصور - سبحانه - ما اعترى يعقوب من أحزانه على يوسف ، جددها فراق بنيامين له فقال - تعالى - ﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ .

وقوله « يا أسفا » من الأسف وهو أشد الحزن والتحسر على ما فات من أحداث . يقال : أسف فلان على كذا يأسف أسفا ، إذا حزن حزنًا شديدًا .

وألفه بدل من ياء المتكلم للتخفيف والأصل يا أسفى .

وكظيم بمعنى مكظوم ، وهو الممتلىء بالحزن ولكنه يخفيه من الناس ولا يبديه لهم .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ أى : المخفين له ، مأخوذ من كظم فلان السقاء : إذا سده على ما بداخله .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله له أبناؤه ، ورد عليهم .. انتابته الأحزان والهموم ، وتجددت فى قلبه الشجون .. فتركهم واعتزل مجلسهم وقال :

« يا أسفا على يوسف » أى : ياحزنى الشديد على يوسف أقبل فهذا أوان إقبالك .

﴿ وابيضت ﴾ عينا يعقوب من شدة الحزن على يوسف وأخيه حتى ضعف بصره ، حيث انقلب سواد عينيه بياضًا من كثرة البكاء .

﴿ فهو كظيم ﴾ أى : ممتلىء حزنا على فراق يوسف له ، إلا أنه كاتم لهذا الحزن لا يبوح به لغيره من الناس .

قالوا : وإنما تأسف على يوسف دون أخويه - بنيامين وروبيل - مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ... لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا والخطوب ولأن حبه ليوسف كان حبًا خاصًا لا يؤثر فيه مرور الأعوام ... ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها ، وتهيج أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى متمم ابن نويرة فى رثائه لأخيه مالك فقال :

لقد لامنى عند القبور على البكا	رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيته	لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى	فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف جاز لنبى الله يعقوب أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن .

ولقد بكى النبى - ﷺ - على ولده إبراهيم وقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد له ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب »[1] .

ثم يحكى القرآن ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من الهم والحزن فيقول : ﴿ قالوا تا لله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين ﴾ .

قال الشوكانى : قوله « تفتأ » أى : لا تفتأ ، فحذف حرف النفى لأمن اللبس . قال الكسائى : فتأت وفَتِئْتُ أفعل كذا : أى ما زلت أفعل كذا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢ .

وقال الفراء : إن « لا » مضمرة . أى لا تفتأ ... ومنه قول الشاعر :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى : « لا أبرح قاعدا ... »[1] .

و « حرضا » مصدر حرض . كتعب - والحرض : الإشراف على الهلاك من شدة الحزن أو المرض أو غيرهما .

والمعنى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه وهويتحسر على فراق يوسف له : تالله - يا أبانا - ما تزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف ، والحزن المضنى ، « حتى تكون حرضا » . أى : مشرفا على الموت لطول مرضك .

« أو تكون من الهالكين » المفارقين لهذه الدنيا .

وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير ما يشعرون به من ألم وأمل ... ﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

و « البث » ما ينزل بالإنسان من مصائب يعظم حزن صاحبها بسببها . حتى أنه لا يستطيع إخفاء هذا الحزن ، وأصله التفريق وإثارة الشىء ومنه قولهم : بثت الريح التراب إذا فرقته .

قالوا : والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزنًا ، وإذا لم يقدر على كتمه كان بثا ...

والمعنى : قال يعقوب لأولاده الذين لاموه على شدة حزنه على يوسف : إنما أشكو ، « بثى » أى : همى الذى انطوى عليه صدرى « إلى الله » - تعالى - وحده ، لا إلى غيره ، فهو العليم بحالى ، وهو القادر على تفريج كربى ، فاتركونى وشأنى مع ربى وخالقى . فإنى « أعلم من الله » أى : من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة « ما لا تعلمون » أنتم ، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يلطف بى ، وأن يجمع شملى بمن فارقنى من أولادى ، فإن حسن ظنى به - سبحانه - عظيم .

قال صاحب الظلال : « وفى هذه الكلمات - التى حكاها القرآن عن يعقوب - عليه السلام - ، يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ، كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٤٨ .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلاً عن عودته إلى أبيه ... إن هذا كله لا يؤثر شيئًا فى شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة ...

وهذه قيمة الإيمان بالله ...

إن هذه الكلمات « أعلم من الله ما لا تعلمون » تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات فى نفس العبد الصالح يعقوب ... والقلب الذى ذاق هذا المذاق ، لا تبلغ الشدائد منه – مهما – بلغت إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق ... »[1] .

ثم يمضى يعقوب – عليه السلام – فى رده على أولاده فيأمرهم أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه ، وأن لا يقنطوا من رحمة الله فيقول : ﴿ يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

والتحسس : هو طلب الشىء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث .

أى : قال يعقوب لأبنائه : يابنى « اذهبوا » إلى أرض مصر وإلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه « فتحسسوا » أمرهما . وتخبروا خبرهما ، وتعرفوا نبأهما بدون كلل أو ملل .

وفى التعبير بقوله « فتحسسوا » إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى « ولا تيأسوا من روح الله » أى : ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته ، وأصل معنى الروح التنفس . يقال : أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعير لحلول الفرج .

وكلمة « روح » – بفتح الراء – أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما تتنسمه الأرواح من رحمة الله .

وقوله ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ تعليل لحضهم على التحسس أى : لا تقصروا فى البحث عن يوسف وأخيه ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لعدم علمهم بالله – تعالى – وبصفاته وبعظيم قدرته ، وبواسع رحمته ...

أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون من فرج الله أبدًا ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب ...

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٣ ص ٢٠٢٦ .

واستجاب الأبناء لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا فى طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزيز مصر الذى احتجز أخاهم بنيامين ، وتحكى السورة الكريمة ما دار بينهم وبينه فتقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟

يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

وقوله - تعالى - ﴿ ولما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ... ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف له ، بعد أن امتثلوا أمر أبيهم ، فخرجوا إلى مصر للمرة الثالثة ، ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، وليشتروا من عزيزها ما هم فى حاجة إليه من طعام .

والبضاعة : هى القطعة من المال ، يقصد بها شراء شىء .

والمزجاة : هى القليلة الرديئة التى ينصرف عنها التجار إهمالاً لها .

قالوا : وكانت بضاعتهم دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا بوضيعة - أى : بأقل قيمة - وقيل غير ذلك .

وأصل الإزجاء : السوق والدفع قليلاً قليلاً ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ... ﴾ . أى : يرسله رويدا رويدا ...

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : وقال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف ، بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة « يأيها العزيز » أى : الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة فى الرزق ، « مسنا وأهلنا الضر » أى : أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجدب والهزل من شدة الجوع .

﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أى : وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار ، إهمالاً لها ، واحتقارا لشأنها .

وإنما قالوا له ذلك : استدرارًا لعطفه ، وتحريكًا لمروءته وسخائه ، قبل أن يخبروه بمطلبهم الذى حكاه القرآن فى قوله :

﴿ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ... ﴾ أى : هذا هو حالنا شرحناه لك ، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة ، ما دام أمرنا كذلك ، فأتم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئًا ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ﴿ إن الله يجزى المتصدقين ﴾ على غيرهم جزاء كريما حسنا

ويبدو أن يوسف - عليه السلام - قد تأثر بما أصابهم من ضر وضيق حال ، تأثرًا جعله لا يستطيع أن يخفى حقيقته عنهم أكثر من ذلك ، فبادرهم بقوله : ﴿ قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ .

أى : قال لهم يوسف - عليه السلام - على سبيل التعريض بهم ، والتذكير بأخطائهم : هل علمتم ما فعلتموه بيوسف وأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان .

قالوا : وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه حتى لكأنه يلتمس لهم العذر ، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان فى وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه ...

وقيل : نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل ، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم .

والأول أولى وأقرب إلى ما يدل عليه سياق الآيات بعد ذلك ، من عفوه عنهم ، وطلب المغفرة لهم .

وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سمات أخيهم يوسف ، فيقولون له فى دهشة وتعجب ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ ؟.

أى : أئنك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا ... والذى فارقناه وهو صغير فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئونها ؟..

فرد عليهم بقوله ﴿ قال أنا يوسف ﴾ الذى تتحدثون عنه . والذى فعلتم معه ما فعلتم ...

« وهذا أخى » بنيامين الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته عندى ، ولم أرسله معكم ...

« قد منَّ الله » - تعالى - « علينا » حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل أحوالنا من عسر إلى يسر ومن ضيق إلى فرج ...

ثم علل ذلك بما حكاه القرآن عنه فى قوله ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله - تعالى - ويصون نفسه عن كل ما لا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه - تعالى - يرحمه برحمته ، ويكرمه بكرمه ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وتلك سنته - سبحانه - التى لا تتخلف ...

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم الخزى والخجل ،

حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان عليهم ، فقالوا له فى استعطاف وتذلل : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ أى : نقسم بالله - تعالى - لقد اختارك الله - تعالى - لرسالته ، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة .

أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه فى حقك من جرائم ، ولذلك أعزك الله - تعالى - وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

فرد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

والتثريب : التعيير والتوبيخ والتأنيب . وأصله كما يقول الآلوسى : من الثرب ، وهو الشحم الرقيق فى الجوف وعلى الكرش ... فاستعير للتأنيب الذى يمزق الأعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال ، كما أنه بالتأنيب واللوم تظهر العيوب ، فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال .

أى : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو يا إخوتى : لا لوم ولا تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى من أخطاء وآثام وأرجو الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .

وقوله « لا تثريب » اسم لا النافية للجنس ، و « عليكم » متعلق بمحذوف خبر لا ، و « اليوم » متعلق بذلك الخبر المحذوف .

أى : لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم .

وليس التقييد باليوم لإفادة أن التقريع ثابت فى غيره ، بل المراد نفيه عنهم فى كل ما مضى من الزمان ، لأن الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه فى أول لقاء معه على أخطائه فلأن يترك ذلك بعد أول لقاء أولى .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن أبيه الذى ابيضت عيناه عليه من الحزن فقال :

﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ .

أى . اذهبوا يا إخوتى بقميصى هذا « فألقوه على وجه أبى » الذى طال حزنه بسبب فراقى له « يأت بصيرا » أى يرتد إليه كامل بصره ، بعد أن ضعف من شدة الحزن .

« وأتونى » معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعًا من رجال ونساء وأطفال .

وقول يوسف هذا إنما هو بوحى من الله - تعالى - فهو - سبحانه - الذى ألهمه أن إلقاء

قميصه على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملاً ، وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين الكريمين .

واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قميصه وعادوا إلى أوطانهم ويصور القرآن ما حدث فيقول : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ .

و « فصلت العير » أى خرجت من مكان إلى مكان آخر . يقال : فصل فلان من بلده كذا فصولاً ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .

و « تفندون » من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن .

والمعنى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ، وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب - عليه السلام - لمن كان جالسًا معه من أهله وأقاربه ، استمعوا إلى « إنى لأجد ريح يوسف » .

أى : رائحته التى تدل عليه ، وتشير إلى قرب لقائى به .

و « لولا » أن تنسبونى إلى الفند وضعف العقل لصدقتمونى فيما قلت ، أو لولا أن تنسبونى إلى ذلك لقلت لكم إنى أشعر أن لقائى بيوسف قد اقترب وقته وحان زمانه .

فجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه .

وقد أشم الله - تعالى - يعقوب - عليه السلام - ما عبق من القميص من رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزةظاهرة له - عليه الصلاة والسلام - .

وقال الإمام مالك - رحمه الله - أوصل الله - تعالى - ريح قميص يوسف ليعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه .

ولكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القول ، لم يشموا ما شمه ، ولم يجدوا ما وجده ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ .

قالوا له على سبيل التسلية : إنك يا يعقوب مازلت غارقًا فى خطئك القديم الذى لا تريد أن يفارقك . وهو حبك ليوسف وأملك فى لقائه والإكثار من ذكره .

وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف .. وحل أوان المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قميص يوسف إلى

يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فعاد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة أكرم الله - تعالى - بها نبيه يعقوب - عليه السلام - حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .

وهنا قال يعقوب لأبنائه ولمن أنكر عليه قوله ﴿ إنى لأجد ريح يوسف ﴾ ﴿ ألم أقل ﴾ قبل ذلك ﴿ إنى أعلم من الله ﴾ أى : من رحمته وفضله وإحسانه ﴿ ما لا تعلمون ﴾ أنتم .

وهنا قال الأبناء لأبيهم فى تذلل واستعطاف : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ .

أى : تضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حقك وفى حق أخوينا يوسف وبنيامين .

﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ فى حقك وفى حق أخوينا ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عمن اعترف له بالخطأ .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ أى : سوف أتضرع إلى ربى لكى يغفر لكم ذنوبكم .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو الغفور ﴾ أى الكثير المغفرة ﴿ الرحيم ﴾ أى : الكثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

وهكذا صورت لنا السورة الكريمة ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه فى هذا اللقاء المثير الحافل بالمفاجآت والبشارات .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت وبشارات أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فى نهاية القصة فيقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ... ﴾ معطوف على كلام محذوف والتقدير :

استجاب إخوة يوسف لقوله لهم : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا . وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ فأتوا بأهلهم أجمعين ، حيث رحلوا جميعًا من بلادهم إلى مصر ومعهم أبوهم ، فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقهما عناقًا حارًا .

وقال للجميع ﴿ ادخلوا ﴾ بلاد ﴿ مصر إن شاء الله آمنين ﴾ من الجوع والخوف .

وقد ذكر المفسرون هنا كلامًا يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعًا لاستقبالهم كما ذكروا أن المراد بأبويه : أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت وهو صغير .

إلا أن ابن كثير قال : « قال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، وأنه لم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها » ..

ثم قال : « وهذا الذى ذكره ابن جرير ، هو الذى يدل عليه السياق »[1] .

والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن فى ربوعها .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩١ .

قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليقيموا فى مصر ما بين الثمانين والتسعين .

والمراد بالعرش فى قوله ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ السرير الذى يجلس عليه .

أى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى يجلس عليه ، تكريمًا لهما ، وإعلاء من شأنهما .

﴿ وخروا له سجدًا ﴾ أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعى لأنه لا يكون إلا لله - تعالى - .

« وقال » يوسف متحدثًا بنعمة الله ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ... ﴾ .

أى : وقال يوسف لأبيه : هذا السجود الذى سجدتموه لى الآن ، هو تفسير رؤياى التى رأيتها فى صغرى . فقد جعل ربى هذه الرؤيا حقًا ، وأرانى تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة .

والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن فى مطلع هذه السورة فى قوله ﴿ يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

ثم قال يوسف لأبيه أيضًا : ﴿ وقد أحسن بى ﴾ ربى - عز وجل - ﴿ إذ أخرجنى من السجن ﴾ بعد أن مكثت بين جدرانه بضع سنين .

وعدى فعل الإحسان بالباء مع أن الأصل فيه أن يتعدى بإلى ، لتضمنه معنى اللطف ولم يذكر نعمة إخراجه من الجب ، حتى لا يجرح شعور إخوته الذين سبق أن قال لهم : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ .

وقوله ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ معطوف على ما قبله تعدادا لنعم الله - تعالى -

أى : وقد أحسن بى ربى حيث أخرجنى من السجن ، وأحسن بى أيضًا حيث يسر لكم أموركم ، وجمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية فى أرض كنعان بفلسطين .

وقوله ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ أى جمعنى بكم من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بى فى الجب .

وأصل ﴿ نزغ ﴾ من النزغ بمعنى النخس والدفع . يقال : نزغ الراكب دابته إذا نخسها ودفعها لتسرع فى سيرها .

وأسند النزغ إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن فى ذلك سترًا على إخوته وتأدبًا معهم .

وقوله ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقى ، لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده ، رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لا يعلمون .

إنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه علمًا تامًا ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

ثم ختم يوسف - عليه السلام - ثناءه على الله - تعالى - بهذا الدعاء الذى حكاه القرآن عنه فى قوله : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ﴾ أى : يارب قد أعطيتنى شيئًا عظيمًا من الملك والسلطان بفضلك وكرمك .

﴿ وعلمتنى ﴾ - أيضًا - شيئًا كثيرًا ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ أى : من تفسيرها وتعبيرها تعبيرًا صادقًا بتوفيقك وإحسانك .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى : خالقهما على غير مثال سابق ، وهو منصوب على النداء بحرف مقدر أى : يا فاطر السموات والأرض .

﴿ أنت وليى ﴾ وناصرى ومعينى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ .

﴿ توفنى ﴾ عندما يدركنى أجلى على الإسلام ، وأبقنى ﴿ مسلمًا ﴾ مدة حياتى .

﴿ وألحقنى ﴾ فى قبرى ويوم الحساب ﴿ بالصالحين ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وبهذا الدعاء الجامع الذى توجه به يوسف إلى ربه - تعالى - يختتم القرآن الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله لقاؤه عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب ..

وهذا هو شأن المصطفين الأخيار الذين نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا معهم ، ويلحقنا بهم ، ويوفقنا للسير على نهجهم ...

* * *

ثم يختتم الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وبما يدخل التسلية على قلب الرسول - ﷺ - وبما يفتح له باب الأمل فى النصر على أعدائه ... فيقول :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك .. ﴾ . يعود على ما ذكره الله - تعالى - فى هذه السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة ، وما قصصناه عليك فى غيرها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أى : من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علمًا تاما شاملًا إلا الله - تعالى - وحده .

ونحن ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبر والعظات .

وقوله : ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ مسوق للتدليل على أن هذا القصص من أنباء الغيب الموحاة إلى النبى - ﷺ - .

أى : ومما يشهد بأن هذا الذى قصصناه عليك فى هذه السورة من أنباء الغيب ، أنك - أيها الرسول الكريم - ما كنت حاضرا مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، ثم استقر رأيهم على إلقائه فى الجب ، وما كنت حاضرًا أيضًا وقت أن مكرت امرأة العزيز بيوسف ، وما كنت مشاهدًا لتلك الأحداث المتنوعة التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ، ولكنا أخبرناك بكل ذلك لتقرأه على الناس ، ولينتفعوا بما فيه من حكم وأحكام ، وعبر وعظات .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى خلال قصة نوح - عليه السلام - : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - فى خلال قصة موسى - عليه السلام - ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾[2] .

---

(١) سورة هود الآية ٤٩ .
(٢) سورة القصص الآية ٤٤ .

وقوله - تعالى - فى خلال حديثه عن مريم ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾[١] .

إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأن النبى - ﷺ - لم يكن معاصرا لمن جاء القرآن بقصصهم ، ولم يطلع على كتاب فيه خبرهم ، فلم يبق لعلمه - ﷺ - بذلك طريق إلا طريق الوحى .

ثم ساق - سبحانه - ما يبعث التسلية والتعزية فى قلب النبى - ﷺ - فقال : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

أى : لقد جئت - أيها الرسول - للناس بدين الفطرة ، الذى ترتاح له النفوس وتتقبله القلوب بسرور وانشراح . ولكن أكثر الناس قد استحوذ عليهم الشيطان ، فمسخ نفوسهم وقلوبهم ، فصاروا مع حرصك على إيمانهم ، ومع حرصك على دعوتهم إلى الحق على بصيرة ، لا يؤمنون بك ، ولا يستجيبون لدعوتك ، لاستيلاء المطامع والشهوات والأحقاد على نفوسهم .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - ﴿ وما أكثر الناس ... ﴾ إشعار بأن هناك قلة من الناس قد استجابت بدون تردد لدعوة النبى - ﷺ - ، فدخلت فى الدين الحق ، عن طواعية واختيار .

وقوله ﴿ ولو حرصت ﴾ جملة معترضة لبيان أنه مهما بالغ النبى - ﷺ - فى كشف الحق ، فإنهم سادرون فى ضلالهم وكفرهم ، إذ الحرص طلب الشىء باجتهاد .

قال الآلوسى ما ملخصه : « سألت قريش واليهود رسول الله - ﷺ - عن قصة يوسف ، فنزلت مشروحة شرحًا وافيًا ، فأمل النبى - ﷺ - أن يكون ذلك سببًا فى إسلامهم ، فلما لم يفعلوا حزن - ﷺ - فعزاه الله - تعالى - بذلك »[٢] .

وقوله ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ زيادة فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى إعلاء شأنه .

أى أنك - أيها الرسول الكريم - ما تسألهم على هذا القرآن الذى تتلوه عليهم لهدايتهم وسعادتهم من أجر ولو كان زهيدًا ضئيلاً . كما يفعل غيرك من الكهان والأحبار والرهبان ... وإنما تفعل ما تفعل ابتغاء رضا الله - تعالى - ونشر دينه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٦٥ .

وقوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : ما هذا القرآن الذى تقرؤه عليهم إلا تذكير وعظة وهداية للعالمين كافة لا يختص به قوم دون قوم ، ولا جنس دون جنس .

قالوا : وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها ، لأن التذكير العام لكل الناس ، يتنافى مع أخذ الأجرة من البعض دون البعض ، وإنما تتأتى الأجرة ، إذا كانت الدعوة خاصة وليست عامة .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين تطالعهم الدلائل والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ولكنهم فى عمى عنها فقال : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

و ﴿ كأين ﴾ كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم تنوسى معنى جزئيتها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير .

والمراد بالآية هنا : العبرة والعظمة الدالة على وحدانية الله وقدرته يمر بها هؤلاء المشركون فلا يلتفتون إليها ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، لأن بصائرهم قد انطمست بسبب استحواذ الأهواء والشهوات والعناد عليها .

قال ابن كثير ما ملخصه : يخبر - تعالى - فى هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير فى آيات الله ودلائل توحيده ، بما خلقه - سبحانه - فى السموات من كواكب زاهرات ، وسيارات وأفلاك ... وفى الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وحيوانات ونبات ... فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب غفلتهم وجهالتهم ، لا يؤمنون إيمانًا صحيحًا فقال - تعالى - ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

أى : وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله فى إقرارهم بوجوده ، وفى إعترافهم بأنه هو الخالق ، إلا وهم مشركون به فى عقيدتهم وفى عبادتهم وفى تصرفاتهم ، فإنهم مع اعترافهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتقربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهرًا أم خفيًا ، كبيرًا أم صغيرًا . وقد ساق ابن كثير هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، كلها تنهى عن الشرك أيًا كان لونه ، منها قوله ﷺ :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤١ طبعة دار الشعب .

عندما سئل أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » ومنها قوله ؛ : «إن الرقى والتمائم والتولة شرك » .

ومنها قوله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » .

ومنها قوله ﷺ : فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : يقول الله - تعالى - « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه »[1] .

فالآية الكريمة تنهى عن كل شرك ، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لله رب العالمين .

ثم هددهم - سبحانه - بحلول قارعة تدمرهم تدميرًا فقال - تعالى - : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

والغاشية ؛ كل ما يغطى الشيء ويستره ، والمراد بها : ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

والمعنى : أفأمن هؤلاء الضالون ، أن يأتيهم عذاب من الله - تعالى - يغشاهم ويغمرهم ويشمل كل أجزائهم . وأمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة دون أن يسبقها ما يدل عليها ، بحيث لا يشعرون بإتيانها إلا عند قيامها .

إن كانوا قد أمنوا كل ذلك ، فهم فى غمرة ساهون ، وفى الكفر والطغيان غارقون ، فإنه ﴿ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ : أن يسير فى طريقه الذى رسمه له ، وأن يدعو الناس إليه فقال : ﴿ قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ... ﴾ والبصيرة : المعرفة التى يتميز بها الحق من الباطل .

أى : قل -أيها الرسول الكريم - للناس هذه طريقى وسبيلى واحدة مستقيمة لا عوج فيها ولا شبهة ، وهى أنى أدعو إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ببصيرة مستنيرة ، وحجة واضحة ، وكذلك أتباعى يفعلون ذلك ... ولن نكفّ عن دعوتنا هذه مهما اعترضتنا العقبات .

واسم الإشارة ﴿ هذه ﴾ مبتدأ . و ﴿ سبيلى ﴾ خبر ، وجملة ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ... ﴾ حالية ، وقد جيء بها على سبيل التفسير للطريقة التى انتهجها الرسول - ﷺ - فى دعوته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣١ طبعة دار الشعب .

وقوله ﴿ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ تنزيه لله - تعالى - عن كل ما لا يليق به على أبلغ وجه .

أى : وأنزه الله - تعالى - تنزيهًا كاملاً عن الشرك والشركاء ، وما أنا من المشركين به فى عبادته أو طاعته فى أى وقت من الأوقات .

ثم بين - سبحانه - أن رسالته - ﷺ - ليست بدعا من بين الرسالات السماوية ، وإنما قد سبقه إلى ذلك رجال يشبهونه فى الدعوة إلى الله ، فقال - تعالى - ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى .... ﴾ .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ أوامرنا ونواهينا إلى الناس ، إلا رجالاً مثلك ، وهؤلاء الرجال اختصصناهم بوحينا ليبلغوه إلى من أرسلوا إليهم ، واصطفيناهم من بين أهل القرى والمدائن ، لكونهم أصفى عقولاً وأكثر حلما .

وإنما جعلنا الرسل من الرجال ولم نجعلهم من الملائكة أو من الجن أو من غيرهم ، لأن الجنس إلى جنسه أميل ، وأكثرهم تفهما وإدراكًا لما يلقى عليه من أبناء جنسه .

ثم نعى - سبحانه - على هؤلاء المشركين غفلتهم وجهالتهم فقال : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ... ﴾ .

أى : أوصلت الجهالة والغفلة بهؤلاء المشركين ، أنهم لم يتعظوا بما أصاب الجاحدين من قبلهم من عذاب دمرهم تدميرًا ، وهؤلاء الجاحدين الذين دمروا ما زالت آثار بعضهم باقية وظاهرة فى الأرض . وقومك - يا محمد - يمرون عليهم فى الصباح وفى المساء وهم فى طريقهم إلى بلاد الشام ، كقوم صالح وقوم لوط - عليهما السلام - .

فالجملة توبيخ شديد لأهل مكة على عدم اعتبارهم بسوء مصير من كان على شاكلتهم فى الشرك والجحود .

وقوله ﴿ ولدار الآخرة ﴾ وما فيها من نعيم دائم ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ أيها المشركون ما خاطبناكم به فيحملكم هذا التعقل والتدبر إلى الدخول فى الإيمان ، ونبذ الكفر والطغيان .

ثم حكى - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل فقال : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ... ﴾ .

وفى قوله ﴿ قد كذبوا ﴾ وردت قراءتان سبعيتان إحداهما بتشديد الذال والثانية بالتخفيف .

وعلى القراءتين فالغاية فى قوله - تعالى - ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ غاية لكلام محذوف دل عليه السياق .

والمعنى على القراءة التى بالتشديد . لقد أرسلنا رسلنا لهداية الناس ، فأعرض الكثيرون منهم عن دعوتهم ، ووقفوا منهم موقف المنكر والمعاند والمحارب لهدايتهم ، وضاق الرسل ذرعًا بموقف هؤلاء الجاحدين ، حتى إذا استيأس الرسل الكرام من إيمان هؤلاء الجاحدين ، وظنوا - أى الرسل - أن أقوامهم الجاحدين قد كذبوهم فى كل ما جاءوهم به لكثرة إعراضهم عنهم ، وإيذائهم لهم ... أى : حتى إذا ما وصل الرسل إلى هذا الحد من ضيقهم بأقوامهم الجاحدين جاءهم نصرنا الذى لا يتخلف .

والمعنى على القراءة الثانية التى هى بالتخفيف : حتى إذا يئس الرسل من إيمان أقوامهم يأسًا شديدًا ، وظن هؤلاء الأقوام أن الرسل قد كذبوا عليهم فيما جاءوهم به ، وفيما هددوهم به من عذاب إذا ما استمروا على كفرهم ..

حتى إذا ما وصل الأمر بالرسل وبالأقوام إلى هذا الحد ، جاء نصرنا الذى لا يتخلف إلى هؤلاء الرسل ، فضلاً منا وكرمًا ..

فالضمير فى قوله ﴿ كُذِّبوا ﴾ بالتشديد يعود على الرسل ، أما على قراءة التخفيف ﴿ كُذِبوا ﴾ فيعود إلى الأقوام الجاحدين .

ومنهم من جعل الضمير - أيضًا - على قراءة ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف يعود على الرسل ، فيكون المعنى : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وظنوا - أى الرسل - أن نفوسهم قد كذبت عليهم فى تحديد موعد انتصارهم على أعدائهم لأن البلاء قد طال . والنصر قد تأخر .. جاءهم - أى الرسل - نصرنا الذى لا يتخلف .

قال الشيخ القاسمى فى بيان هذا المعنى : قال الحكيم الترمذى : ووجهه - أى هذا القول السابق - أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر ، أن يتخلف النصر ، لا عن تهمة بوعد الله ، بل عن تهمة لنفوسهم أن تكون قد أحدثت حدثًا ينقض ذلك الشرط ، فكان النصر إذا طال انتظاره واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة »[1] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٦١٥ .

وهذا يدل على شدة محاسبة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لنفوسهم ، وحسن صلتهم بخالقهم - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - ﴿ فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ معطوف على ما قبله ، ومتفرع عليه .

أى : جاءهم نصرنا الذى وعدناهم به ، بأن أنزلنا العذاب على أعدائهم ، فنجَا من نشاء إنجاءه وهم المؤمنون بالرسل ، ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزوله بهم .

ثم ختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ أى : لقد كان فى قصص أولئك الأنبياء الكرام وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وأحكامِ ، وآداب وهدايات .

و ﴿ ما كان ﴾ هذا المقصوص فى كتاب الله - تعالى - ﴿ حديثًا يفترى ﴾ أى يختلق .

﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديق الذى بين يديه ﴾ من الكتب السابقة عليه ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، فهو المهيمن على هذه الكتب ، والمؤيد لما فيها من أخبار صحيحة ، والمبين لما وقع فيها من تحريف وتغيير ، والحاكم عليها بالنسخ أو بالتقرير .

﴿ وتفصيل كل شىء ﴾ أى : وكان فى هذا الكتاب - أيضًا - تفصيل وتوضيح كل شىء من الشرائع المجملة التى تحتاج إلى ذلك .

﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أى : وكان هداية تامة ، ورحمة شاملة ، لقوم يؤمنون به ، ويعملون بما فيه من أمر ونهى ، وينتفعون بما اشتمل عليه من وجوه العبر والعظات .

وبعد : فهذا تفسير لسورة يوسف - عليه السلام - تلك السورة الزاخرة بالحكم والأحكام ، وبالآداب والأخلاق ، وبالمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وبغضها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها . وعطائها ومنعها وسرها وعلانيتها ، ورضاها وغضبها ، وحزنها وسرورها ..

أسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بهدى كتابه ، وأن يجعله شفيعًا لنا يوم نلقاه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

تفسير

سُورَةُ الرَّعْدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة « الرعد » توخيت فيه أن أبرز ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات تامة ، وأحكام حكيمة ، وتراكيب بليغة ...

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده وشفيعًا لنا يوم نلقاه ، إنه - سبحانه - أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

المؤلف

الدكتور محمد سيد طنطاوى



تمهيد بين يدى سورة الرعد

نريد بهذا التمهيد - كما سبق أن ذكرنا فى تفسير السورة السابقة - إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن سورة الرعد ، قبل أن نبدأ فى تفسيرها آية فآية فنقول - وبالله التوفيق :

١ - سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها اثنتا عشرة سورة ، هى سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

٢ - وسميت بهذا الاسم منذ العهد النبوى ، ولم يعرف لها اسم سوى هذا الاسم ، ولعل سبب تسميتها بذلك ، ورود ذكر الرعد فيها ، فى قوله - تعالى - ﴿ يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ... ﴾[1] .

٣ - وعدد آياتها ثلاث وأربعون آية فى المصحف الكوفى ، وأربع وأربعون آية فى المدنى ، وخمس وأربعون فى البصرى ، وسبع وأربعون فى الشامى[2] .

٤ - والذى يقرأ أقوال المفسرين فى بيان زمان نزولها ، يراها أقوالاً ينقصها الضبط والتحقيق .

فهناك روايات صرحت بأنها مكية ، وأخرى صرحت بأنها مدنية ، وثالثة بأنها مكية إلا آيات منها فمدنية ، ورابعة بأنها مدنية إلا آيات منها فمكية ...

قال الآلوسى : « جاء من طريق مجاهد عن ابن عباس وعلى بن أبى طلحة أنها مكية » .

وروى ذلك عن سعيد بن جبير - أيضًا - .

قال سعيد بن منصور فى سننه ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر قال : سألت ابن جبير عن قوله - تعالى - ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ هل هو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية .

---

(١) الآية رقم ١٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٧٦ طبعة منير الدمشقى .

وأخرج مجاهد عن ابن الزبير ، وابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس ، ومن طريق ابن جريج وعثمان بن عطاء عنه أنها مدنية .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنها مدنية إلا قوله - تعالى - ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة .. الآية ﴾ فإنها مكية .

وروى أن من أولها إلى آخر قوله - تعالى - ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ... ﴾ . نزل بالمدينة ، أما باقيها فنزل فى مكة ..[1] .

هذه بعض الروايات فى زمان نزولها ، وهى - كما ترى - التعارض فيها واضح .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن السورة الكريمة يبدو بوضوح فيها طابع القرآن المكى ، سواء أكان ذلك فى موضوعاتها ، أم فى أسلوبها ، أم فى غير ذلك من مقاصدها وتوجيهاتها .

وأن نزولها - على الراجح - كان فى الفترة التى أعقبت موت أبى طالب ، والسيدة خديجة - رضى الله عنها .

وهى الفترة التى لقى فيها الرسول - ﷺ - ما لقى من أذى المشركين وعنتهم ، وطغيانهم ..

والذى جعلنا نرجح أن نزولها كان فى هذه الفترة ، ما اشتملت عليه السورة الكريمة ، من أدلة متنوعة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ومن تسلية له - ﷺ - عما أصابه من قومه - كما سنرى ذلك عند تفسيرنا لآياتها ، كذلك مما جعلنا نرجح أن نزولها كان فى هذه الفترة ، قول السيوطى فى كتابه الإتقان : « ونزلت بمكة سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ... »[2] .

وقد رجحنا عند تفسيرنا لسورة يونس ، وهود ، ويوسف - عليهم السلام - أن هذه السور قد نزلت فى تلك الفترة من حياة النبى - ﷺ - ونرجح هنا أن نزول سورة الرعد كان فى تلك الفترة - أيضًا - لمناسبة موضوعاتها لأحداث هذه الفترة .

٥ - عرض إجمالى لسورة الرعد :

(ا) لقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم ، وبالإشارة إلى إعجازه ، ثم ساقت ألوانًا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته وعظيم حكمته ...

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٧٥ .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٢ طبعة مصطفى الحلبى .

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .. ﴾ .

(ب) ثم حكت السورة بعد ذلك جانبًا من أقوال المشركين فى شأن البعث ، وردت عليهم بما يكبتهم فقال - تعالى - ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ، أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ... ﴾ .

(جـ) ثم بينت السورة الكريمة ما يدل على كمال علمه - تعالى - وعلى عظم سلطانه ، وعلى حكمته فى قضائه وقدره فقال - تعالى - : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ... ﴾ .

(د) ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يسأل المشركين سؤال تهكم وتوبيخ عمن خلق السموات والأرض فقال - تعالى - : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ .

(هـ) ضربت السورة الكريمة مثلين للحق والباطل . وعقدت مقارنة بين مصير أتباع الحق ، ومصير أتباع الباطل فقال - تعالى - : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .. ﴾ .

(و) ثم حكت السورة الكريمة بعض المطالب المتعنتة التى طلبها المشركون من النبى - ﷺ - وردت عليهم بما يمحق باطلهم ، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم فقال - تعالى - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .. ﴾ .

(ز) ثم حكت السورة الكريمة لونًا آخر من غلوهم فى كفرهم ، ومن مقترحاتهم الفاسدة ، حيث طلبوا من النبى - ﷺ - أن يسير لهم بالقرآن جبال مكة ليتفسحوا فى أرضها ، ويفجر لهم فيها الأنهار والعيون ليزرعوها ، ويحيى لهم الموتى ليخبروهم بصدقه ... فقال - تعالى - : ﴿ ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به

الموتى بل لله الأمر جميعًا ، أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ... ﴾ .

(ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وبالثناء على القرآن الكريم ، وبتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من أعدائه وبالشهادة له بالرسالة ، وبتهديد المشركين بالعذاب الأليم ، فقال - تعالى - ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ ...

﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق * ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب * ﴾ ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ، قل كفى بالله شهيدًا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

٦ - ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت بالحديث عن موضوعات من أبرزها ما يأتى :

(ا) إقامة الأدلة المتنوعة على كمال قدرة الله - تعالى - وعظيم حكمته . تارة عن طريق التأمل فى هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد ، وأرض صالحة للاستقرار عليها ، وشمس وقمر وكواكب مسخرة لمنافع الناس ، وجبال لتثبيت الأرض ، وأنهار لسقى الزرع ...

﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وتارة عن طريق علمه المحيط بكل شىء ، فهو العليم بما تنقصه الأرحام وما تزداده فى الخلقة وفى المدة وفى غير ذلك ، وهو العليم بأحوال عباده سواء أكانوا ظاهرين بالنهار أم مستخفين بالليل .

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار ... ﴾ .

وتارة عن طريق الظواهر الكونية التى يرسلها - سبحانه - لعباده خوفًا وطمعًا ، ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السحاب الثقال * ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ... ﴾ .

وتارة عن طريق العطاء والمنع لمن يشاء من عباده : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ... ﴾ .

وتارة عن طريق المصائب والقوارع التى ينزلها - سبحانه - بالكافرين ﴿ ولا يزال الذين

كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبًا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

(ب) إثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، والرد على المشركين فيما طلبوه من النبى - ﷺ - من مطالب متعنتة ، ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - :

﴿ تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ .

﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ .

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب ﴾ .

(جـ) تثبيت فؤاد النبى - ﷺ - وتسليته عما لحقه من أذى ، وذلك لأن السورة الكريمة - كما سبق أن أشرنا - مكية ، وأنها - على الراجح - قد نزلت فى فترة اشتد فيها إعراض المشركين عن دعوة الحق وتكذيبهم لها ، وتطاولهم على صاحبها - ﷺ - ومطالبتهم له بالخوارق التى لا يؤيدها عقل سليم .

فنزلت السورة الكريمة لتثبت الرسول - ﷺ - وأتباعه ، ولتمزق أباطيل المشركين عن طريق حشود من الأدلة على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعًا، يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ، ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيدًا

بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ هذه بعض الموضوعات التي نرى السورة الكريمة قد اهتمت بتفصيل الحديث عنها .

وهناك موضوعات أخرى يراها كل من تأمل آياتها بفكر سليم ، وعقل قويم ، وروح صافية ...

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا فهم كتابه ، والعمل بما فيه من آداب وأحكام ، وهدايات ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٤)

لقد افتتحت سورة الرعد ببعض الحروف المقطعة ، وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء فى هذه الحروف فى سور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون من كلامكم ، ومنظومًا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها كلماتكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا سورة واحدة من مثله ..

ومع كل هذا التساهل معهم فى التحدى ، فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

و ﴿ تلك ﴾ اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويدخل فيها آيات السورة التى معنا .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذى أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

وقوله ﴿ والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم ، ورد على المشركين الذين زعموا أنه أساطير الأولين .

أى : تلك الآيات التى نقرؤها عليك - يامحمد - فى هذه السورة هى آيات الكتاب الكريم ، وما أنزله الله - تعالى - عليك فى هذا الكتاب ، هو الحق الخالص الذى لا يلتبس به باطل ، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ من ربك ﴾ مزيد من التلطف فى الخطاب معه - ﷺ - فكأنه - سبحانه - يقول له : إن ما نزل عليك من قرآن هو من عند ربك الذى تعهدك بالرعاية والتربية حتى بلغت درجة الكمال .

واسم الموصول ﴿ الذى ﴾ مبتدأ ، والجملة بعده صلة ، والحق هو الخبر ...

وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراك لبيان موقف أكثر الناس من هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : لقد أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن بالحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم ...

وفى هذا الاستدراك ، مدح لتلك القلة المؤمنة من الناس ، وهم أولئك الذن فتحوا قلوبهم للحق منذ أن وصل إليهم ، فآمنوا به ، واعتصموا بحبله ، ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم وعلى رأس هذه القلة التى آمنت بالحق منذ أن بلغها : أبو بكر الصديق وغيره من السابقين إلى الإسلام .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة المتنوعة ه عن طريق المشاهدة - على كمال قدرته ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له فقال - تعالى - ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ .

والعمد : جمع عماد ، وهو ما تقام عليه القبة أو البيت .

وجملة ﴿ ترونها ﴾ فى محل نصب حال من السموات .

أى : الله - سبحانه - هو الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى ضخامتها ، بغير مستند يسندها ، وبغير أعمدة تعتمد عليها ، وأنتم ترون ذلك بأعينكم بجلاء ووضوح .

والمراد بقوله ﴿ رفع ﴾ أى خلقها مرتفعة منذ البداية ، وليس المراد أنه - سبحانه - رفعها بعد أن كانت منخفضة .

ولا شك أن خلق السموات على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقًا قادرًا حكيمًا ، هو المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ معطوف على ما قبله ، وهو دليل آخر على قدرة الله - تعالى - عن طريق الغائب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك بعد أن أقام الأدلة على ذلك عن طريق الحاضر المشاهد .

الاستواء فى اللغة يطلق على معان منها الاستقرار كما فى قوله - تعالى - ﴿ واستوت على الجودى ﴾ أى : استقرت ، وبمعنى الاستيلاء والقهر .

وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم - كما يقول الراغب - .

وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين آية ، كما ذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات من القرآن الكريم .

والمعنى : ثم استوى على العرش استواء يليق بذاته - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين .

قال الإمام مالك - رحمه الله - : « الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده فقال : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ . والتسخير : التذليل والخضوع .

أى : أن من مظاهر فضله أنه - سبحانه - سخر ذلك وأخضع لقدرته الشمس والقمر ، بأن جعلهما طائعين لما أراده منهما من السير فى منازل معينة ، ولأجل معين محدد لا يتجاوزانه ولا يتعديانه . بل يقفان عند نهاية المدة التى حددها - سبحانه - لوقوفهما وأفولهما .

قال - تعالى - ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ . وتدبير الأمر : تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها .

والآيات : جمع آية . والمراد بها هنا : ما يشمل الآيات القرآنية ، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته - سبحانه - .

أى : أنه - سبحانه - يقضى ويقدر ويتصرف فى أمر خلقه على أكمل الوجوه وأنه - سبحانه - ينزل آياته القرآنية واضحة مفصلة ، ويسوق الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته بطرق متعددة ، وبوجوه متنوعة .

وقد فعل - سبحانه - ما فعل - من رفعه السماء بلا عمد ، ومن تسخيره للشمس والقمر ، ومن تدبيره لأمور خلقه ، ومن تفصيله للآيات لعلكم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق ، توقنون بلقائه ، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة ، لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم ، لكى يحاسبكم على أعمالكم .

وقال - سبحانه - ﴿ يدبر ﴾ و ﴿ يفصل ﴾ بصيغة المضارع . وقال قبل ذلك ﴿ رفع السموات ﴾ و ﴿ سخر الشمس والقمر ﴾ بصيغة الماضى . لأن التدبير للأمور ، والتفصيل للآيات ، يتجددان بتجدد تعلق قدرته - سبحانه - بالمقدورات .

وأما رفع السماوات ، وتسخير الشمس والقمر ، فهى أمور قد تمت واستقرت دفعة واحدة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فى عالم السماوات ، أتبعه بذكر بعض هذه المظاهر فى عالم الأرض فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ والمد : البسط والسعة . ومنه ظل مديد أى متسع .

---

(١) سورة يس الآية ٤٠ .

والرواسي : الجبال مأخوذ من الرسو ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة ، يقال : رسا الشيء يرسو رسْوا ورسُوًّا ، إذا ثبت واستقر ، وأرسيت الوتد فى الأرض إذا أثبته فيها .

ولفظ رواسي : صفة لموصوف محذوف . وهو من الصفات التى تغنى عن ذكر موصوفها .

والأنهار : جمع نهر ، وهو مجرى الماء الفائض ، ويطلق على الماء السائل على الأرض .

والمراد بالثمرات : ما يشملها هى وأشجارها ، وإنما ذكرت الثمرات وحدها ، لأنها هى موضع المنة والعبرة .

والمراد بالزوجين : الذكر والأنثى ، وقيل المراد بهما الصنفان فى اللون أو فى الطعم أو فى القدر وما أشبه ذلك .

والمعنى : وهو - سبحانه - الذى بسط الأرض طولاً وعرضًا إلى المدى الذى لا يدركه البصر ، ليتيسر الاستقرار عليها .

ولا تنافى بين مدها وبسطها . وبين كونها كروية ، لأن مدها وبسطها على حسب رؤية العين ، وكرويتها حسب الحقيقة .

وجعل فى هذه الأرض جبالاً ثوابت راسخات ، لتمسكها من الاضطراب ، وجعل فيها - أيضًا - أنهارًا ، لينتفع الناس والحيوان وغيرهما بمياه هذه الأنهار .

وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكرا وأنثى .

قال صاحب الكشاف : « أى خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت .

وقيل : أراد بالزوجين : الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأوصاف المختلفة »[1] .

وقال صاحب الظلال : « وهذه الجملة تتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريبًا ، وهى أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التى كان مظنونًا أنه ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة فى زهرة ، أو متفرقة فى العود ... »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٩ . طبعة دار المعرفة - بيروت .

(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٠٤٦ طبعة دار الشروق .

وقوله ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .

ولفظ ﴿ يغشى ﴾ من التغشية بمعنى التغطية والستر .

والمعنى : أن من مظاهر قدرته - سبحانه - أنه يجعل الليل غاشيا للنهار مغطيًا له فيذهب بنوره وضيائه . فيصير الكون مظلمًا بعد أن كان مضيئًا . ويجعل النهار غاشيًا لليل ، فيصير الكون مضيئًا بعد أن كان مظلمًا ، وفى ذلك من منافع الناس ما فيه ، إذ بذلك يجمع الناس بين العمل والراحة ، وبين السعى والسكون .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى فعله الله - تعالى - من بسط الأرض طولاً وعرضًا ومن تثبيتها بالرواسى ، ومن شقها بالأنهار ... لآيات باهرة ، ودلائل ظاهرة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، لقوم يحسنون التفكر ، ويطيلون التأمل فى ملكوت السموات والأرض .

ثم ساق - سبحانه - مظاهر أخرى لقدرته فقال - تعالى - : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ .

والقطع : جمع قطعة - بكسر القاف - وهى الجزء من الشىء ، تشبيها لها ، بما يقتطع من الشىء .

ومتجاورات . أى : متلاقيات ومتقاربات .

وليس هذا الوصف مقصودًا لذاته ، بل المقصود أنها مع تجاورها وتقاربها مختلفة فى أوصافها مما يشهد بقدرة الله - تعالى - العظيمة .

ولذا قال ابن كثير ما ملخصه : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ أى : أراض يجاور بعضها بعضًا ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئًا ، وهذه تربتها حمراء ، وتلك تربتها سوداء ... وهذه محجرة وتلك سهلة ... والكل متجاورات ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ولا رب سواه[1] .

وقال - سبحانه - ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ بإعادة اسم الأرض الظاهر ، ولم يقل وفيها قطع متجاورات كما قال : ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ فى الآية السابقة ، وذلك ليكون كلامًا مستقلا ، وليتجدد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة . وقوله ﴿ وجنات من أعناب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٥٣ طبعة دار الشعب .

وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ... ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .

والجنات : جمع جنة ، والمراد بها البستان ذو الشجر المتكاثف ، الملتف الأغصان الذى يظلل ما تحته ويستره .

والأعناب : جمع عنب وهو شجر الكرم .

والمراد بالزرع : أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطعومها وصفاتها وقوله ﴿ صنوان ﴾ صفة لنخيل ، وهو جمع صنو .

والصنو : الفرع الذى يجمعه مع غيره أصل واحد ، فإذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد ، فكل واحدة منهن يطلق عليها اسم صنو .

ويطلق على الاثنتين صنوان - بكسر النون - ويطلق على الجمع صنوان - بضم النون - .

والصنو : بمعنى المثل ومنه قيل لعم الرجل : صنو أبيه ، أى : مثله ، فأطلق على كل غصن صنو لمماثلته للآخر فى التفرع من أصل واحد « والأكل » اسم لما يؤكل من الثمار والحب .

والمعنى : أن من مظاهر قدرة الله - أيضا - ومن الأدلة على وحدانيته - سبحانه - أنه جعل فى الأرض بقاعا كثيرة متجاورة ومع ذلك فهى مختلفة فى أوصافها وفى طبيعتها .. وفيها أيضًا بساتين كثيرة من أعناب ومن كل نوع من أنواع الحبوب .

وفيها كذلك نخيل يجمعها أصل واحد فهى صنوان ، ونخيل أخرى لا يجمعها أصل واحد فهى غير صنوان .

والكل من الأعناب والزرع والنخيل وغيرها ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ لا اختلاف فى ذاته سواء أكان السقى من ماء الأمطار أم من ماء الأنهار ومع وجود أسباب التشابه ، فإننا لعظيم قدرتنا وإحساننا ﴿ نفضل بعضها على بعض ﴾ آخر منها ﴿ فى الأكل ﴾ أى : فى اختلاف الطعوم .

قال الإمام الرازى : « قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ كلها بالرفع عطفا على قوله ﴿ وجنات ﴾ وقرأ الباقون بالجر عطفًا على الأعناب ... »[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٧٠ طبعة عبد الرحمن محمد .

وخص - سبحانه - النخيل بوصفه بصنوان ، لأن العبرة به أقوى ، إذ المشاهدة له أكثر من غيره .

ووجه زيادة ﴿ غير صنوان ﴾ تجديد العبرة باختلاف الأحوال ، واقتصر - سبحانه - فى التفاضل على الأكل ، لأنه أعظم المنافع .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ تذييل قصد به الحض على التعقل والتدبر .

أى : إن فى ذلك الذى فصل الله - تعالى - أحواله من اختلاف أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وأوراقها ... مع أنها تسقى بماء واحد . وتنبت فى أرض متجاورة ، إن فى ذلك كله لدلائل باهرة ، على قدرة الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة ، لقوم يستعملون عقولهم فى التفكير السليم ، والتأمل النافع .

أما الذين يستعملون عقولهم فيما لا ينفع ، فإنهم يمرون بالعبر والعظات وهم عنها معرضون .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ساق فى هذه الآيات أدلة متعددة ومتنوعة من العالم العلوى والسفلى ، وكلها تدل على عظيم قدرته ، وجليل حكمته .

وهذه الأدلة منها :

١ - خلقه السموات مرتفعة بغير عمد .

٢ - تسخيره الشمس والقمر لمنافع الناس .

٣ - خلقه الأرض بتلك الصورة الصالحة للاستقرار عليها .

٤ - خلقه الجبال فيها لتثبيتها .

٥ - خلقه الأنهار فيها لمنفعة الإنسان والحيوان والنبات .

٦ - خلقه زوجين اثنين من كل نوع من أنواع الثمار .

٧ - معاقبته بين الليل والنهار .

٨ - خلقه بقاعا فى الأرض متجاورة مع اختلافها فى الطبيعة والخواص .

٩ - خلقه أنواعًا من الزروع المختلفة فى ثمارها وأشكالها .

١٠ - خلقه النخيل صنوانًا وغير صنوان ، وجميعها تسقى بماء واحد .

ومع كل ذلك فضل - سبحانه - بعضها على بعض فى الأكل .

وهذه الأدلة يشاهدها الناس بأبصارهم ، ويحسونها بحواسهم ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله فى خلقه ، ساق - سبحانه - بعض أقوال المشركين الفاسدة ، ورد عليها بما يدحضها فقال - تعالى - :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ أى : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين . فأعجب منه تكذيبهم بالبعث - لأن من شاهد ما عدد - سبحانه - من الآيات الدالة على قدرته . أيقن بأن من قدر على إنشائها ، كانت الإعادة أهون شىء عليه وأيسره ، والله - تعالى - لا يتعجب ، ولا يجوز عليه التعجب ، لأنه - أى التعجب - تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وذلك فى حقه - تعالى - محال ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون »[1] .

وجوز بعضهم أن يكون الخطاب لكل من يصلح له ، أى : وإن تعجب أيها العاقل لشىء بعد أن شاهدت من مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ما شاهدت فازدد تعجبا ممن ينكر بعد كل هذا قدرته - سبحانه - على إحياء الموتى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٨٤ طبعة دار الكتب .

قال الجمل : وقوله ﴿ فعجب قولهم ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم وقولهم مبتدأ مؤخر ، ولابد من حذف صفة لتتم الفائدة ، أى : فعجب أى عجب قولهم . أو فعجب غريب قولهم . والثانى أنه مبتدأ ، وسوغ الابتداء ما ذكرته من الوصف المقدر ، ولا يضر حينئذ كون خبره معرفة[١] .

والتنكير فى قوله ﴿ فعجب ﴾ للتهويل والتعظيم .

وجملة ﴿ أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد ﴾ فى محل نصب مقول القول .

أى : وإن تعجب من شىء - أيها الرسول الكريم - فاعجب من قول أولئك المشركين : أئذا صرنا ترابا وعظاما نخرة بعد موتنا أئنا بعد ذلك لنعاد إلى الحياة مرة أخرى من جديد .

والاستفهام للإنكار ، لاستبعادهم الشديد إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لمحاسبتهم على أعمالهم ، كما حكى القرآن عنهم قولهم فى آية أخرى : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد ﴾[٢] .

وكرر همزة الاستفهام فى ﴿ أئذا ، وأئنا .. ﴾ لتأكيد هذا الإنكار .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جزاءهم على هذا القول الباطل فقال - تعالى - ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ... ﴾ .

أى : أولئك المنكرون لقدرة الله - تعالى - على البعث، هم الذين كفروا بربهم ﴿وأولئك الأغلال فى أعناقهم ﴾ والأغلال : جمع غل . وهو قيد من حديد تشد به اليد إلى العنق ، وهو أشد أنواع القيود .

أى : وأولئك هم الذين توضع الأغلال والقيود فى أيديهم وأعناقهم يوم القيامة ، عندما يساقون إلى النار بذلة وقهر ، بسبب إنكارهم لقدرة الله على إعادتهم إلى الحياة ، وبسبب جحودهم لنعم خالقهم ورازقهم .

قال - تعالى - : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[٣] .

وقيل إن الجملة الكريمة تمثيل لحالهم فى الدنيا ، حيث شبه - سبحانه - امتناعهم عن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٩١ طبعة عيسى الحلبى .
(٢) سورة ق الآية ٣ .
(٣) سورة غافر الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

الإيمان ، وعدم التفاتهم إلى الحق ، بحال قوم فى أعناقهم قيود لا يستطيعون معها التفاتا أو تحركًا .

والأول أولى لأن حمل الكلام على الحقيقة واجب ، ما دام لا يوجد مانع يمنع منه ، وهنا لا مانع ، بل صريح القرآن يشهد له .

وقوله : ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أى : وأولئك الموصوفون بما ذكر ، هم أصحاب النار التى لا ينفكون عنها . ولا يخرجون منها .

وكرر - سبحانه - اسم الإشارة ، للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعده من عقوبات .

وجاء به للبعيد ، للإشارة إلى بعد منزلتهم فى الجحود والضلال .

ثم حكى - سبحانه - لونًا آخر من طغيانهم واستهزائهم برسولهم - ﷺ - فقال : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ، وقد خلت من قبلهم المثلات ... ﴾ .

والمراد بالسيئة : الحالة السيئة كالعقوبات والمصائب التى تسوء من تنزل به .

والمراد بالحسنة : الحالة الحسنة كالعافية والسلامة .

والمثلات : جمع مثلة - بفتح الميم وضم الثاء كسمرة ، وهى العقوبة الشديدة الفاضحة التى تنزل بالإنسان فتجعله مثالاً لغيره فى الزجر والردع .

والاستعجال : طلب حصول الشىء قبل حلول وقته .

أى أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال فى الطغيان ، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول - ﷺ - بعقاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم ، سخروا منه ، وتهكموا به وقالوا له على سبيل الاستهزاء : ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنت من الصادقين .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماءِ أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[2] .

والجملة الكريمة تحكى لونًا عجيبًا من ألوان توغلهم فى الجحود والضلال ، حيث طلبوا من الرسول - ﷺ - تعجيل العقوبة التى توعدهم بها ، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية .

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

وجملة ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ فى موضع الحال ، لزيادة التعجب من جهلهم وطغيانهم ، لأن آثار الأقوام المهلكين بسبب كفرهم ما زالت ماثلة أمام أبصارهم ، وهم يمرون عليها فى أسفارهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يعتبروا بها .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ بيان لرحمة الله - تعالى - بعباده ، ولشدة عقابه للمصرين على الكفر منهم أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو مغفرة عظيمة للناس مع ظلمهم لأنفسهم ، حيث أطاعوها فى ارتكاب الذنوب والمعاصى .

ومن مظاهر هذه المغفرة أنه - سبحانه - لم يعاجلهم بالعقوبة . بل صبر عليهم ، وأمهلهم ، لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه ، ويقلعون عن ذنوبهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ... ﴾[1] .

وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لشديد العقاب للمصرين على كفرهم وضلالهم ومعاصيهم .

وقدم - سبحانه - مغفرته على عقوبته ، فى مقابل تعجل هؤلاء الكافرين للعذاب ، ليظهر الفارق الضخم بين الخير الذى يريده - سبحانه - لهم ، وبين الشر الذى يريدونه لأنفسهم بسبب انطماس بصائرهم ...

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله - سبحانه - ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ .

أى : إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار .

ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجاء والخوف . كما قال - تعالى - ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ .

وقال - تعالى - ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ .

وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ... ﴾ قال رسول الله - ﷺ - « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدًا العيش . ولولا

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٥ .

وعيده وعقابه لاتكل كل أحد »[١] .

ثم حكي - سبحانه - لونًا آخر من رذائلهم ، وهو عدم اعتدادهم بالقرآن الكريم ، الذى هو أعظم الآيات والمعجزات فقال - تعالى - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ... ﴾ .

و ﴿ لولا ﴾ هنا حرف تحضيض بمعنى هلا .

ومرادهم بالآية : معجزة كونية كالتى جاء بها موسى من إلقائه العصى فإذا هى حية تسعى ، أو كالتى جاء بها عيسى من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله ، أو كما يقترحون هم من جعل جبل الصفا ذهبًا ...

لأن القرآن - فى زعمهم - ليس كافيًا لكونه معجزة دالة على صدقه - ﷺ - .

أى : ويقول هؤلاء الكافرون الذين عموا وصموا عن الحق واستعجلوا العذاب . هلا أنزل على محمد - ﷺ - آية أخرى غير القرآن الكريم تدل على صدقه .

ولقد حكى القرآن مطالبهم المتعنتة فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ... ﴾[٢] .

وقد رد الله - تعالى - عليهم ببيان وظيفة النبى - ﷺ - فقال ﴿ إنما أنت منذر ... ﴾ .

أى : أن وظيفتك - أيها الرسول الكريم - هى إنذار هؤلاء الجاحدين بسوء المصير ، إذا ما لجوا فى طغيانهم ، وأصروا على كفرهم وعنادهم وليس من وظيفتك الإتيان بالخوارق التى طلبوها منك .

وإنما قصر - سبحانه - هنا وظيفة النبى - ﷺ - على الإنذار ، لأنه هو المناسب لأحوال المشركين الذين أنكروا كون القرآن معجزة .

وقوله ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أى : ولكل قوم نبى يهديهم إلى الحق والرشاد بالوسيلة التى يراها مناسبة لأحوالهم ، وأنا - أيها الرسول الكريم - قد جئتهم بهذا القرآن الهادى للتى هى أقوم . والذى هو خير وسيلة لإرشاد الناس إلى ما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

قال الشيخ القاسمى : « أو المعنى : ولكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم . هو

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٥ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ وما بعدها .

الله - تعالى - فما عليك إلا إنذارهم لا هدايتهم كما قال - تعالى - : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ... ﴾ .

أو المعنى : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أى : قائد يهديهم إلى الرشد ، وهو الكتاب المنزل عليهم ، الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم .

يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى ، وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال فى مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله وحده ... »[1] .

* * *

ثم صور - سبحانه - سعة علمه تصويرًا عميقًا ، تقشعر منه الجلود ، وترتجف له المشاعر ، وساق سنة من سننه التى لا تتغير ولا تتبدل ، فقال - تعالى - :

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٦٤٨ .

﴿ وتغيض ﴾ من الغيض بمعنى النقص . يقال : غاض الماء إذا نقص .

و ﴿ ما ﴾ موصولة والعائد محذوف . أى : الله وحده هو الذى يعلم ما تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة أو مضغة ومن ذكر أو أنثى ... وهو وحده - سبحانه - الذى يعلم ما يكون فى داخل الأرحام من نقص فى الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص فى مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص فى العدد أو زيادة فيه ...

قال ابن كثير : « قوله : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ ، قال البخارى : حدثنا إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن ، حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : أن رسول الله - ﷺ - قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ﴾ .

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ يعنى السقط ﴿ وما تزداد ﴾ .

يقول : مازادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص . فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله - تعالى - وكل ذلك بعلمه - سبحانه -[1] .

وقوله : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ أى : وكل شىء عنده - سبحانه - بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كما قال - تعالى - ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[2] . وكما قال - تعالى - ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾[3] . فهو - سبحانه - يعلم كمية كل شىء وكيفيته وزمانه ومكانه وسائر أحواله .

وقوله ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ تأكيد لعموم علمه - سبحانه - ودقته .

والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو : مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .

والشهادة : مصدر شهد يشهد ، وهى هنا بمعنى الاشياء المشهودة .

والمتعال : المستعلى على كل شىء فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله - سبحانه - .

أى : أنه - سبحانه - هو وحده الذى يعلم أحوال الأشياء الغائبة عن الحواس كما يعلم

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٥٧ طبعة دار الشعب .
(٢) سورة القمر الآية ٤٩ .
(٣) سورة الحجر الآية ٢١ .

أحوال المشاهدة منها، وهو العظيم الشأن، المستعلى على كل شىء.

وقوله - سبحانه - ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ تأكيد آخر لشمول - علمه - - سبحانه - لأحوال عباده.

وسواء: اسم مصدر بمعنى الاستواء، والمراد به هنا اسم الفاعل. أى: مستو.

قال الجمل: «وفيه وجهان: أحدهما أنه خبر مقدم، ومن أسر ومن جهر هو المبتدأ، وإنما لم يثن الخبر لأنه فى الأصل مصدر، وهو هنا بمعنى مستو.

والثانى أنه مبتدأ، وجاز الابتداء به لوصفه بقوله ﴿ منكم ﴾[1].

﴿ وسارب بالنهار ﴾ أى: ظاهر بالنهار. يقال: سرب فى الأرض يسرب سربا وسروبا. أى: ذهب فى سربه - بسكون الراء وكسر السين وفتحها - أى طريقه.

والمعنى: أنه - تعالى - مستوٍ فى علمه من أسر منكم القول، ومن جهر به بأن أعلنه لغيره.

ومستو فى علمه - أيضا - من هو مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل، ومن هو ذاهب فى سربه وطريقه بالنهار بحيث يبصره غيره.

وذكر - سبحانه - الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء، وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهورا.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رعايته لعباده فقال - تعالى - ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .. ﴾.

والضمير فى ﴿ له ﴾ يعود إلى ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل ﴾ باعتبار تأويله بالمذكور.

و« معقبات » صفة لموصوف محذوف أى: ملائكة معقبات.

قال الشوكانى: « والمعقبات المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه. وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين. قال الزجاج: المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض، وإنما قال « معقبات » مع كون الملائكة ذكورا؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة، ثم جمع معقبة على معقبات.

قال الجوهرى: والتعقب العود بعد البدء قال الله - تعالى - ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾[2].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٩٤.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٦٩.

يقال : عقب الفرس فى عدوه ، أى : جرى بعد جريه . وعقبه تعقيبا . أى : جاء عقبه .

و « من » فى قوله ﴿ من أمر الله ﴾ بمعنى باء السببية .

والمعنى : لكل واحد من هؤلاء المذكورين ممن يسرون القول أو يجهرون به ، ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته ، ولكتابة أقواله وأعماله ، وهذا التعقيب والحفظ ، إنما هو بسبب أمر الله - تعالى - لهم بذلك .

قال ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم - سبحانه - وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ . فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .

وفى الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم » . أى : فاستحيوا منهم وأكرموهم بالتستر وغيره .

وقال عكرمة عن ابن عباس « يحفظونه من أمر الله ، قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه » [1] .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أنه - سبحانه - لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية وخير بضده ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة إلى معصية ؛ ومن جميل إلى قبيح ، ومن صلاح إلى فساد .

وإذا أراد - سبحانه - بقوم سوءا من عذاب أو هلاك أو ما يشبههما بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، فلا راد لقضائه ، ولا دافع لعذابه .

وما لهم من دونه - سبحانه - من وال أى من ناصر ينصرهم منه - سبحانه - ويرفع عنهم عقابه ، ويلى أمورهم ويلتجئون إليه عند الشدائد .

فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله فى شئون عباده ، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصى وجحود النعمة ، فإنه - سبحانه - لا يعصم الناس من عذابه عاصم . ولا يدفعه دافع .

قال الإمام ابن كثير : « قال ابن أبى حاتم : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٥٩ .

قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحولون منها إلى معصية الله ، إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون .

ثم قال : إن مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

وعن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة فقال : كنت إذا سكت عن رسول الله - ﷺ - ابتدأنى ، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه - عز وجل - قال : « قال الرب : وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتى ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى ، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى »[1] .

ثم لفت - سبحانه - أنظار عباده إلى أنواع متعددة من الظواهر الكونية الدالة على قدرته ووحدانيته ، وبين أن هذه الظواهر قد تكون نعما ، وقد تكون نقما ، وأنها وغيرها تسبح بحمد الله ، وتخضع لسلطانه فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾

(١) تفسير ابن كثير المجلد ٤ ص ٣٦٢ طبعة دار الشعب .

والبرق : ما يراه الرائى من نور لامع يظهر من خلال السحاب ، وخوفا وطمعا : حالان من الكاف فى يريكم ، أو هما فى محل المفعول لأجله .

والمعنى : هو الله - تعالى - وحده الذى يريكم بقدرته البرق ، فيترتب على ذلك أن بعضكم يخاف ما ينجم عنه من صواعق . أو سيل مدمر ، وبعضكم يطمع فى الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر النافع ، والغيث المدرار .

فمن مظاهر حكمة الله - تعالى - فى خلقه ، أنه جعل البرق علامة إنذار وتبشير معا ، لأنه بالإنذار والتبشير تعود النفوس إلى الحق ، وتفىء إلى الرشد .

وجملة « وينشىء السحاب الثقال » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - وإنشاء السحاب : تكوينه من العدم .

والسحاب : الغيم المنسحب فى الهواء ، وهو اسم جنس واحده سحابة ، فلذلك وصف بالجمع وهو « الثقال » جمع ثقيلة .

أى : وهو - سبحانه - الذى ينشىء السحاب المثقل بالماء ، فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته .

قال - تعالى - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته . حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته . والرعد : اسم للصوت الهائل الذى يسمع إثر تفجير شحنة كهربية فى طبقات الجو .

وعطف - سبحانه - الرعد على البرق والسحاب ، لأنه مقارن لهما فى كثير من الأحوال . والتسبيح : مشتق من السبح وهو المرور السريع فى الماء أو فى الهواء وسمى الذاكر لله - تعالى - مسبحا ، لأنه مسرع فى تنزيه سبحانه عن كل نقص .

وتسبيح الرعد - وهو هذا الصوت الهائل - بحمد الله ، يجب أن نؤمن به ، ونفوض كيفيته إلى الله - تعالى - لأنه من الغيب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه - وقد بين لنا - سبحانه - فى كتابه أن كل شىء يسبح بحمده فقال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٧ .

ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ [١] .

وقد فصل القول فى معنى هذه الجملة الكريمة الإمام الآلوسى فقال - رحمه الله - ما ملخصه :

وقوله : « ويسبح الرعد » قيل هو اسم للصوت المعلوم ، والكلام على حذف مضاف أى : ويسبح سامعو الرعد بحمده - سبحانه - رجاء للمطر .

ثم قال : والذى اختاره أكثر المحدثين كون الإسناد حقيقيا بناء على أن الرعد اسم للملك الذى يسوق السحاب ، فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وآخرون عن ابن عباس أن اليهود سألوا رسول الله - ﷺ - فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ فقال : « ملك من ملائكة الله - تعالى - موكّل بالسحاب ، بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله - تعالى - قالوا . فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال صوته - قالوا : صدقت » .

ثم قال : واستشكل بأنه لو كان علما للملك لما ساغ تنكيره ، وقد نكر فى سورة البقرة فى قوله - تعالى - ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ .

وأجيب بأن له إطلاقين : ثانيهما إطلاقه على نفس الصوت ، والتنكير على هذا الإطلاق ... » [٢] .

والذى نراه أن تسبيح الرعد بحمد الله يجب الإيمان به ، سواء أكان الرعد اسما لذلك الصوت المخصوص ؛ أم اسما لملك من الملائكة ، أما كيفية هذا التسبيح فمردها إلى الله .

قال الإمام الشوكانى : « ويسبح الرعد بحمده » أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله . أى : متلبسا بحمده ، وليس هذا بمستبعد ، ولا ما نع من أن ينطقه الله بذلك .

وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له . وعناية به » [٣] .

وقال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان .. عن سالم عن أبيه قال : كان

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٠٦ - طبعة منير الدمشقى .

(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٧٢ .

رسول الله - ﷺ - إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولاتهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق .. عن أبى هريرة : أن رسول الله - ﷺ - كان إذا سمع صوت الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » [١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ نوع رابع من الأدلة الدالة على وحدانية الله وقدرته . أى ويسبح الرعد بحمد الله ، ويسبح الملائكة - أيضا - بحمد الله ، خوفا منه - تعالى - وإجلالا لمقامه وذاته .

و ﴿ من ﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ من خيفته ﴾ للتعليل ، أى : يسبحون لأجل الخوف منه . وقوله ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ نوع خامس من الظواهر الكونية الدالة على كمال قدرته - سبحانه - .

والصواعق جمع صاعقة ، وهى - كما يقول ابن جرير - كل أمر هائل رآه الرائى أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ... » [٢] .

والمراد بها هنا : النار النازلة من السماء .

أى ويرسل - سبحانه - الصواعق المهلكة فيصيب بها من يشاء إصابته من خلقه .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى رجل من طواغيت العرب ، بعث النبى - ﷺ - نفرا يدعونه إلى الإسلام ، فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد ما هو ، أمن فضة أم من حديد ؟ .

فبينا النفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة فأهلكت الكافر وهم جلوس .

فرجعوا إلى النبى - ﷺ - فاستقبلهم بعض الصحابة فقالوا لهم : احترق صاحبكم ؟ فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى - ﷺ - ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ [٣] .

وضمير الجماعة فى قوله ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ يعود إلى أولئك

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٦٣ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٩٢٦ .

الكافرين الذين سبق أن ساق القرآن بعض أقوالهم الباطلة ، والتى منها قولهم : ﴿ أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ﴾ .

والمجادلة : المخاصمة والمراجعة بالقول .

والمراد بمجادلتهم فى الله : تكذيبهم للنبى - ﷺ - فيما أمرهم به من وجوب إخلاص عبادتهم لله - تعالى - وإيمانهم بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

والمحال : الكيد والمكر ، والتدبير والقوة ، والعقاب .. يقال : محل فلان بفلان - بتثليث الحاء - محلا ومحالا ، إذا كاده وعرضه للهلاك .

قال القرطبى : قال ابن الأعرابى : المحال المكر وهو من الله - تعالى - التدبير بالحق أو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر .

وقال الأزهرى : المحال : أى القوة والشدة .

وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه »[1] .

أى : أن هؤلاء الكافرين يجادلونك - أيها الرسول فى ذات الله وفى صفاته ، وفى وحدانيته ، وفى شأن البعث ، وينكرون ما جئتهم به من بينات والحال أن الله - تعالى - شديد المماحلة والمكايدة والمعاقبة لأعدائه .

قال - تعالى - : ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - أن دعوته هى الدعوة الحق ، وما عداها فهو باطل ضائع فقال : ﴿ له دعوة الحق ﴾ أى : له وحده - سبحانه - الدعوة الحق المطابقة للواقع ، لأنه هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وهو الحقيق بالعبادة والالتجاء .

فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ، وفى هذه الإضافة إيذان بملابستها للحق ، واختصاصها به ، وأنها بمعزل عن الباطل .

ومعنى كونها له : أنه - سبحانه - شرعها وأمر بها .

قال الشوكانى : قوله : « له دعوة الحق » إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة . أى : الدعوة الملابسة للحق ، المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٩٩ .
(٢) سورة النمل الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

وقيل : الحق هو الله - تعالى - والمعنى : أنه لله - تعالى - دعوة المدعو الحق وهو الذى يسمع فيجيب .

وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص والمعنى : لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له العبادة .

وقيل : دعوة الحق ، دعاؤه - سبحانه - عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه سواه ، كما قال - تعالى - ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ .

وقيل : الدعوة الحق ، أى العبادة الحق فإن عبادة الله هى الحق والصدق »[1] .

ثم بين - سبحانه - حال - من يعبد غيره فقال : ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ .

والمراد بالموصول « والذين » الأصنام التى يعبدها المشركون من دون الله .

والضمير فى يدعون ، للمشركين ، ورابط الصلة ضمير نصب محذوف أى : يدعونهم .

والمعنى : لله - تعالى - العبادة الحق ، والتضرع الحق النافع ، أما الأصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون من غير الله . فإنها لا تجيبهم إلى شىء يطلبونه منها ، إلا كإجابة الماء لشخص بسط كفيه إليه من بعيد ، طالبا منه أن يبلغ فمه وما الماء ببالغ فم هذا الشخص الأحمق ، لأن الماء لا يحس ولا يسمع نداء من يناديه .

والمقصود من الجملة الكريمة نفى استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيا قاطعا ، حيث شبه - سبحانه - حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم فى حاجة إليه ، بحال إنسان عطشان ولكنه غبى أحمق لأنه يمد يده إلى الماء طالبا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه . فلا يصل إليه شىء من الماء لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه .

ففى هذه الجملة الكريمة تصوير بليغ لخيبة وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء لغير الله - تعالى - .

وأجرى - سبحانه - على الأصنام ضمير العقلاء فى قوله ﴿ لا يستجيبون ﴾ مجاراة للاستعمال الشائع عند المشركين ، لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء .

ونكر شيئا فى قوله ﴿ لايستجيبون لهم بشىء ﴾ للتحقير . والمراد أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة حتى ولو كانت شيئا تافها .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٧٣ .

والاستثناء فى قوله ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء .. ﴾ من أعم الأحوال .

أى : لا تستجيب الأصنام لمن طلب منها شيئا ، إلا استجابة كاستجابة الماء للملهوف بسط كفيه إليه يطلب منه أن يدخل فمه ، والماء لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب طلبه ولو مكث على ذلك طوال حياته .

والضمير « هو » فى قوله « وما هو ببالغه » للماء ، والهاء فى « ببالغه » للفم : أى : وما الماء ببالغ فم هذا الباسط لكفيه .

وقيل الضمير « هو » للباسط ، والهاء للماء ، أى : وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه .

قال القرطبى : « وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الذى يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثانى : أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه وفساد توهمه . قاله ابن عباس .

الثالث : انه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه ، فلا يجد فى كفه شيئا منه [١] .

وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه ، بالقبض على الماء كما قال الشاعر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء ، خانته فروج الأصابع [٢]

وقوله - سبحانه - ﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى : وما عبادة الكافرين للأصنام ، والتجاؤهم إليها فى طلب الحاجات ، إلا فى ضياع وخسران لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الكون كله خاضع له - عز وجل - فقال : ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ .

والمراد بالسجود له - سبحانه - : الانقياد والخضوع لعظمته .

وظلالهم : جمع ظل وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

والغدو : جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٣٠١ .
(٢) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٧٣ .

والآصال : جمع أصيل وهو ما بين العصر وغروب الشمس .

والمعنى : ولله - تعالى - وحده يخضع وينقاد جميع من فى السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وغيرهم .

وقوله « طوعا وكرها » منصوبان على الحال من « من » ، أى : أن جميعهم يسجدون لله ، وينقادون لعظمته ، حال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والانقياد ، وحال كونهم كارهين وغير راضين به ، لأنهم لا يستطيعون الخروج على حكمه لا فى الإيجاد ولا فى الإعدام ولا فى الصحة ولا فى المرض ، ولا فى الغنى ولا فى الفقر .. فهم خاضعون لأمره شاءوا أم أبوا .

ويستوى فى هذا الخضوع المؤمن والكافر ، إلا أن المؤمن خاضع عن طواعية بذاته وبظاهره وبباطنه لله - تعالى - .

أما الكافر فهو خاضع لله - تعالى - بذاته ، ومتمرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره ، والضمير فى قوله - سبحانه - ﴿ وظلالهم ﴾ يعود على ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ .

أى : لله - تعالى - يخضع من فى السموات والأرض طوعاوكرها ويخضع له - أيضا - بالغدو والآصال ظلال من له ظل منهم ، لأن هذه الظلال لا زمة لأصحابها والكل تحت قهره ومشيئته فى الامتداد والتقلص والحركة والسكون .

قال - تعالى - ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ أفغيرَ دين الله يبغون ، وله أسلم مَنْ فى السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرجَعون ﴾ [٢] .

ثم وجه - سبحانه - عن طريق نبيه - ﷺ - أسئلة تهكمية إلى هؤلاء المشركين المجادلين فى ذات الله - تعالى - وفى صفاته ، وساق لهم أمثلة للحق وللباطل ، وبين لهم حسن عاقبة المستجيبين لدعوة الحق ، وسوء عاقبة المعرضين عنها فقال - تعالى - :

---

(١) سورة النحل الآية ٤٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

قال الفخر الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما بين أن كل من فى السموات والأرض ساجد له ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله ﴾ .

ولما كان هذا الجواب جوابا يقر به المسئول ويعترف به ولا ينكره ، أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على أنهم لا ينكرونه البتة .. »[1] .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، من رب هذه الأجرام العظيمة العلوية والسفلية ؟

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٣١ طبعة عبد الرحمن محمد .

فإذا ما أبوا الرد عليك عنادا وصلفا ، فجابههم بالحقيقة التى لايستطيعون إنكارها ، وهى أن الله وحده هو رب هذه الأجرام ، لأنه هو خالقها وموجدها على غير مثال سابق .

وقوله - سبحانه - ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ﴾ أمر ثالث منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - لإفحامهم وتبكيتهم .

فالهمزة للاستفهام التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة .

والمعنى : أعلمتم حق العلم أن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، فتركتم عبادته - سبحانه - واتخذتم من دونه « أولياء » أى نصراء عاجزين ، لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن أن يملكوا لغيرهم - نفعا يجلبونه لها ، ولا ضرا يدفعون عنها .

وجملة « لايملكون » صفة لأولياء ، والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر فى تلك الصفة ، فإنهم إن أحسنوا التفكير فى هؤلاء الأولياء ، أيقنوا أنهم أحقر من أن يلتفت إليهم ، فضلا عن أن يطلبوا منهم شيئا .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الرابعة أن يبرهن لهم على بطلان معتقداتهم عن طريق ماهو مشاهد بالحواس فقال : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ﴾ .

أى : قل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم : كما أنه لا يستوى فى عرف كل عاقل الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، فكذلك لا يستوى الكفر والإيمان ، فإن الكفر انطماس فى البصيرة ، وظلمات فى القلب ، أما الإيمان فهو نور فى القلب وإشراق فى النفس .

فالمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن ، كما أن المراد بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان .

وعبر القرآن الكريم فى جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفى جانب النور بصيغة الإفراد ، لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور . وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته .

أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة العقول التى كان من نتائجها تعدد أنواع الكفر والضلال ، كما هو الحال فى شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين انحرفوا عن طريق الحق .

ثم انتقل - سبحانه - إلى التهكم بهم عن طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم ، وإهمالا لشأنهم فقال - تعالى - : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم .. ﴾ .

وأم هنا بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار .

أى : إنهم ما اتخذوا لله - تعالى - شركاء يخلقون مثل خلق الله - تعالى - حتى نقول إن ماخلقوه تشابه مع خلقه - تعالى - فنلتمس لهم شيئا من العذر ، ولكنهم اتخذوا معه - سبحانه آلهة أخرى « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ... » .

فالجملة الكريمة تنعى عليهم جهلهم . حيث عبدوا من دون الله مخلوقا مثلهم ، وتنفى أى عذر يعتذرون به يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

وقوله : « كخلقه » فى معنى المفعول المطلق . أى : خلقوا خلقا شبيها بما خلقه الله - تعالى - . وجملة « فتشابه » معطوفة على جملة « خلقوا » .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - للمرة الخامسة بأن يقذفهم بالحق الذى يدفع باطلهم فقال - تعالى - ﴿ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - : الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد الأحد الفرد الصمد ، القهار لكل ما سواه ، والغالب لكل من غالبه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلين للحق هما الماء الصافى والجوهر النقى اللذان ينتفع بهما ، ومثلين للباطل هما زبد الماء وزبد الجوهر اللذان لا نفع فيهما فقال - تعالى - ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ .

والأودية : جمع واد وهو الموضع المتسع الممتد من الأرض الذى يسيل فيه الماء بكثرة .

والسيل : الماء الجارى فى تلك الأودية .

والزبد : هو الغثاء الذى يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه أو ما يعلو القدر عند الغليان ويسمى بالرغوة والوضر والخبث لعدم فائدته ، ورابيا : من الربو بمعنى العلو والارتفاع .

والمعنى : أنزل الله - تعالى - من السماء ماء كثيرا ، ومطرا مدرارا ، فسالت أودية بقدرها ، أى : فسالت المياه فى الأودية بسبب هذا الإنزال ، بمقدارها الذى حدده الله - تعالى - واقتضته حكمته فى نفع الناس .

أو بمقدارها قلة وكثرة ، بحسب صغر الأودية وكبرها ، واتساعها وضيقها « فاحتمل السيل زبدا رابيا » أى فحمل الماء السائل فى الأودية بكثرة وقوة ، غثاء عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا

عليه ، لا نفع فيه ولا فائدة منه .

وإلى هنا يكون قد انتهى المثل الأول ، حيث شبه - سبحانه - الحق وأهله فى الثبات والنفع بالماء الصافى الذى ينزل من السماء فتمتلىء به الأودية ويبقى محل انتفاع الناس به إلى الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - .

وشبه الباطل وشيعته فى الاضمحلال وعدم النفع ، بزبد السيل المنتفخ المرتفع فوق سطح الماء ، فإنه مهما علا وارتفع فإنه سرعان ما يضمحل ويفنى وينسلخ عن المنفعة والفائدة .

ثم ابتدأ - سبحانه - فى ضرب المثل الثانى فقال : ﴿ ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ .

و « من » فى قوله « ومما يوقدون » لا بتداء الغاية ، وما موصولة ، ويوقدون من الإيقاد وهو جعل الحطب وما يشبهه فى النار ليزيد اشتعالها .

والجملة فى محل رفع خبر مقدم ، وقوله « زبد » مبتدأ مؤخر .

والحلية : ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما .

والمتاع : ما يتمتع به فى حياته من الأوانى والآلات المتخذة من الحديد والرصاص وأشباههما .

والضمير فى قوله «مثله » يعود إلى الزبد فى قوله - تعالى - ﴿ زبدارابيا ﴾ .

وقد قرأ حمزة والكسائى وحفص « يوقدون » وقرأ الباقون توقدون بالتاء .

والضمير للناس ، وأضمر مع عدم سبق ذكره لظهوره .

والمعنى : وشبيه بالمثل السابق فى خروج الزبد والخبث وطرحه بعيدا عن الأشياء النافعة ، ما توقدون عليه النار من المعادن والجواهر ، لكى تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلى والأمتعة المتنوعة ، فإنكم فى مثل هذه الحالة ، تبقون على النقى النافع منها ، وتطرحون الزبد والخبث الذى يلفظه الكير ، والذى هو مثل زبد السيل فى عدم النفع .

فقد شبه - سبحانه - فى هذا المثل الثانى الحق وأهله فى البقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية ، وشبه الباطل وحزبه فى الفناء وعدم النفع بخبث الحديد الذى يطرحه كير الحداد ،ويهمله الناس .

ثم بين - سبحانه - المقصود من ضرب هذه الأمثال فقال : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ .

أى : مثل ذلك البيان البديع ، يضرب الله الأمثلة للحق وللباطل إذا اجتمعا بأن يبين بأنه

لاثبات للباطل - مهما علا وانتفخ - مع وجود الحق ، كما أنه لاثبات للزبد مع الماء الصافى ، ولا مع المعادن النقية .

والكلام على حذف مضاف والتقدير : يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل .

وسر الحذف : الإنباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به ، حتى لكأن المثل المضروب هو عين الحق وعين الباطل .

ثم شرع - سبحانه - فى تقسيم المثل فقال : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ .

أى : فأما الزبد الذى لفظه السيل والحديد فيذهب « جفاء » مرميا به ، مطروحا بعيدا ، لأنه لا نفع فيه .

يقال : جفأ الماء بالزبد ، إذا قذفه ورمى به ، وجفأت الريح الغيم ، إذا مزقته وفرقته ، والجفاء بمعنى الغثاء .

وأما ما ينفع الناس من الماء الصافى ، والمعدن النقى الخالى من الخبث « فيمكث فى الأرض » أى فيبقى فيها لينتفع الناس به .

وبدأ - سبحانه - بالزبد فى البيان فقال ﴿ فأما الزبد فيذهب ﴾ مع أنه متأخر فى الكلام السابق لأن الزبد هو الظاهر المنظور أولا لأعين الناس ، أما الجوهر فهو مستتر خلفه لأنه هو الباقى النافع .

أو لأنه جرت العادة فى التقسيم أن يبدأ بالمتأخر كما فى قوله - تعالى - ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ [1] .

وقوله ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ تفخيم لشأن هذا التمثيل الذى اشتملت عليه الآية الكريمة .

أى : مثل ذلك البيان البديع الذى اشتملت عليه الآية الكريمة يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، فيحملهم هذا التفكير على الإيمان الحق ، وحسن التمييز بين الخير والشر ، والمعروف والمنكر ، والحق والباطل .

قال الإمام الشوكانى : « هذان مثلان ضربهما الله - تعالى - فى هذه الآية للحق وللباطل

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٦ .

يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال وعلاه ، فإن الله - تعالى - سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله .

كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام ، فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث فى الأرض ، وكذلك الصافى من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .

وقال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا بها .

ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك عاقبة أهل الحق ، وعاقبة أهل الباطل فقال - تعالى - : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به .. ﴾ .

أى : للمؤمنين الصادقين ، الذين أطاعوا ربهم فى كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة .

فالحسنى يصح أن تكون صفة لموصوف محذوف ، ويصح أن تكون مبتدأ مؤخراً ، وخبره « للذين استجابوا لربهم » .

« والذين لم يستجيبوا له » -سبحانه- ولم ينقادوا لأمره أو نهيه وهم الكفار «لو أن لهم ما فى الأرض جميعا » من أصناف الأموال ، ولهم أيضا « مثله معه لافتدوا به » أى لهان عليهم - مع نفاسته وكثرته - أن يقدموه فداء لأنفسهم من عذاب يوم القيامة .

فالضمير فى قوله « ومثله معه » يعود إلى ما فى الأرض جميعا من أصناف الأموال وفى ذلك ما فيه من تهويل ما سيلقونه من عذاب أليم جزاء كفرهم وجحودهم .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : « أولئك لهم سوء الحساب » أى : أولئك الذين لم يستجيبوا لربهم لهم الحساب السيئ الذى لا رحمة معه ، ولا تساهل فيه .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٨٥ .

« ومأواهم جهنم » ، أى : ومرجعهم الذى يرجعون إليه جهنم . « وبئس المهاد » أى : وبئس المستقر الذى يستقرون فيه .

والمخصوص بالذم محذوف أى : مهادهم أو جهنم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأحكمها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبينت حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا يستوى الأعمى والبصير ، ومدح أولى الألباب بما هم أهله من مدح ، وذم أضدادهم بما يستحقون من ذم ، فقال - تعالى - :

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

قال الإمام الرازى : « قوله - تعالى - ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ... ﴾ إشارة إلى المثل المتقدم ذكره - فى قوله - تعالى - ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ ... وهو أن العالم بالشىء كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما كالآخر ، لأن الأعمى إذا أخذ يمشى من غير قائد ، فربما يقع فى المهالك .. أما البصير فإنه يكون آمنا من الهلاك والإهلاك »[1] .

والمراد بالأعمى هنا : الكافر الذى انطمست بصيرته ، فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل .

والاستفهام للانكار والاستبعاد .

المعنى : أفمن يعلم أن ما أنزل إليك - أيها الرسول الكريم - من وحى هو الحق الذى يهدى للتى هى أقوم ، كمن هو أعمى القلب : مطموس البصيرة ؟؟

فالآية الكريمة تنفى بأبلغ أسلوب ، مساواة الذين علموا الحق فاتبعوه ، بمن جهلوه وأعرضوا عنه ، وصموا آذانهم عن سماعه .

وقوله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ مدح لأصحاب العقول السليمة ، الذين ذكروا بالحق فتذكروه ، وآمنوا به ، وتعليل لإعراض الكافرين عنه ، ببيان أن سبب إعراضهم ، أنهم ليسوا أهلا للتذكر ، لأن التذكر إنما هو من شأن أولى الألباب .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شىء .

أى : إنما يتذكر وينتفع بالتذكير ، أصحاب العقول السليمة وهم المؤمنون الصادقون .

ثم مدح - سبحانه - أصحاب هذه العقول السليمة ، بجملة من الخصال الكريمة فقال : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ .

وعهد الله : فرائضه وأوامره ونواهيه . والوفاء بها : يتأتى باتباع ما أمر به - سبحانه - وباجتناب ما نهى عنه .

وينقضون : من النقض ، بمعنى الفسخ والحل لما كان مركبا أو موصولا .

والميثاق : العهد الموثق باليمين ، للتقوية والتأكيد .

أى : إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين من صفاتهم أنهم يوقنون بعهد الله - تعالى - ، بأن يؤدوا كل ما كلفهم بأدائه ، ويجتنبوا كل ما أمرهم باجتنابه ولا ينقضون شيئا من العهود

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٣٩ .

والمواثيق التى التزموا بها . وصدر - سبحانه - صفات أولى الألباب ، بصفة الوفاء بعهد الله ، وعدم النقض للمواثيق ، لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان ، وصدق العزيمة ، وصفاء النفس .

وأضاف - سبحانه - العهد إلى ذاته ، للتشريف وللتحريض على الوفاء به .

وجملة « ولا ينقضون الميثاق » تعميم بعد تخصيص ، لتشمل عهودهم مع الله - تعالى - ومع غيره من عباده .

ثم بين - سبحانه - صفات أخرى لهم فقال : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾.

أى : أن من صفات أولى الألباب - أيضا - أنهم يصلون كل ما أمر الله - تعالى - بوصله كصلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، وإعانة المحتاج ، والإحسان إلى الجار .

وقوله « ويخشون ربهم » خشية تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيه .

« ويخافون سوء الحساب » أى : ويخافون أهوال يوم القيامة ، وما فيه من حساب دقيق ، فيحملهم ذلك على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام ، والخشية والخوف قيل : بمعنى .

وفرق الراغب بينهما فقال : الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم .

وقال بعضهم : الخشية أشد الخوف ، لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ، أى : يابسة .

ثم قال الآلوسى : والحق أن مثل هذه الفروق أغلبى لا كلى .. » [1] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى الصفات السابقة لأولى الألباب صفات أخرى حميدة فقال : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ أى : أن من صفاتهم أنهم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، وصبروا على المصائب وآلامها ، صبرا غايته رضا ربهم وخالقهم ، لارضا أحد سواء .

أى : أن صبرهم فى كل مجال يحمد فيه الصبر لم يكن من أجل الرياء أو المباهاة أو المجاملة أو غير ذلك ، وإنما كان صبرهم من أجل رضا الله - تعالى - وطلب ثوابه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٢٩ .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « والذين صبروا » فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والأموال ومشاق التكليف « ابتغاء وجه ربهم » لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل . ولا لئلا يعاب بالجزع ، ولئلا يشمت به الأعداء ، كقوله :

وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتزعزع

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ، ولا مرد فيه للفائت .

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها مابه كان حسنا عند الله - تعالى - وإلا لم يستحق به ثوابا ؛ وكان فعلا كلا فعل »[1] .

« وأقاموا الصلاة » أى : أدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والأذكار ، بخشوع وإخلاص . « وأنفقوا » بسخاء وطيب نفس «مما رزقناهم » أى : مما أعطيناهم من عطائنا الواسع العميم . « سراً وعلانية » أى : ينفقون مما رزقناهم سرا . حيث يحسن السر ، كإعطاء من لم يتعود الأخذ من غيره ، وينفقون « علانية » حيث تحسن العلانية ، كأن ينفقوا بسخاء فى مجال التنافس فى الخير ، ليقتدى بهم غيرهم « ويدرءون بالحسنة السيئة » ، والدرء : الدفع والطرد . يقال : درأه درءاً ، إذا دفعه .

أى : أن من صفات أولى الألباب - أيضاً - أنهم يدفعون بالعمل الصالح العمل السىء ، كما فى قوله - ﷺ - « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو أنهم يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه ، أو بالعفو عنه ، متى كان هذا الإحسان أو العفو لا يؤدى إلى مفسدة .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : « وفى الآية إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة ، عندما يكون فى هذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ، فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلى .

ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا فى المعاملة الشخصية بين المتماثلين فأما فى دين الله فلا .

إن المستعلى الغاشم لا يجدى معه إلا الدفع الصارم ، والمفسدون فى الأرض لا يجدى معهم إلا الأخذ الحاسم ، والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٧ - بتصرف قليل .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٣ ص ٢٠٥٨ للأستاذ سيد قطب .

وجملة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ بيان الجزاء الحسن ، الذى أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأخيار .

والعقبى : مصدر كالعاقبة ، وهى الشىء الذى يقع عقب شىء آخر .

والمراد بالدار : الدنيا . وعقباها الجنة . وقيل المراد بالدار : الدار الآخرة . وعقباها الجنة للطائعين ، والنار للعاصين .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، لهم العاقبة الحسنة وهى الجنة . والجملة الكريمة خبر عن « الذين يوفون بعهد الله .... » وما عطف عليها .

وقوله - سبحانه - ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ تفصيل للمنزلة العالية التى أعدها - سبحانه - لهم .

أى : أولئك الذين قدموا ما قدموا فى دنياهم من العمل الصالح ، لهم جنات دائمة باقية ، يدخلونها هم ﴿ ومن صلح ﴾ أى : ومن كان صالحا لدخولها ﴿ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ .

أى ؛ من أصولهم وفروعهم وأزواجهم على سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسيرتهم .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ومن صلح من آبائهم .... ﴾ دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول الجنة ، إلا إذا كانت أعمالهم صالحة ، أما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم وحدها لا تنفعهم فى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتنانا من الله وإحسانا ، كما قال - تعالى - ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء ، كل امرىء بما كسب رهين ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم .. ﴾ زيادة فى تكريمهم ، وحكاية لما تحييهم به الملائكة .

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٩ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٣ ، طبعة دار الشعب - القاهرة .

أى : والملائكة يدخلون على هؤلاء الأوفياء الصابرين .. من كل باب من أبواب منازلهم فى الجنة ، قائلين لهم : « سلام عليكم » أى : أمان دائم عليكم ﴿ بما صبرتم ﴾ أى : بسبب صبركم على كل ما يرضى الله - تعالى - .

﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ أى : فنعم العاقبة عاقبة دنياكم ، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة المقام عليه ، أى : الجنة .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ يدخلون عليهم من كل باب ﴾ إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم ، وإلى كثرة أبواب بيوتهم ، تكريما وتشريفا وتأنيسا لهم .

وجملة ﴿ سلام عليكم ﴾ مقول لقول محذوف ، وهو حال من فاعل يدخلون وهم الملائكة . وهى بشارة لهم بدوام السلامة .

وفى قوله ﴿ بما صبرتم ﴾ إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكاليف ، وعلى الأذى ، وعلى كل ما يحمد فيه الصبر ، كان على رأس الأسباب التى أوصلتهم إلى تلك المنازل العالية .

هذا ومن الاحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا ، ما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم : قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟

قال : إنهم كانوا عبادا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور . وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، فلا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾[1] .

وبعد أن ذكر - سبحانه - صفات هؤلاء الأوفياء ، وما أعد لهم من ثواب جزيل ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الناقضين لعهودهم ، القاطعين لما أمر الله بوصله . المفسدين فى الأرض فقال - تعالى - : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ .

ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

وقوله : ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ زيادة فى تشنيع النقض . أى : ينقضون عهد الله تعالى ولا يوفون به . من بعد أن أكدوا التزامهم به وقبولهم له .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٣ .

وقوله : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ أى : ويقطعون كل ما أوجب الله - تعالى - وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول - ﷺ - بالاتباع والموالاة ، ووصل المؤمنين بالمعاونة ، والمحبة ، ووصل أولى الارحام بالمودة والتعاطف ، فالجملة الكريمة بيان لحال هؤلاء الأشقياء بأنهم كانوا على الضد من أولئك الأوفياء الأخيار الذين كانوا يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

وقوله : ﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ بيان لصفة ثالثة من صفاتهم القبيحة .

أى : أنهم كانوا يفسدون فى الأرض عن طريق حربهم لدعوة الحق ، واعتدائهم على المؤمنين ، وغير ذلك من الأمور التى كانوا يقترفونها مع أن الله - تعالى - قد حرمها ونهى عنها .

وقوله - تعالى - : ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ إخبار عن العذاب الشديد الذى سيلقونه فى آخرتهم . أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿ لهم ﴾ من الله - تعالى - « اللعنة » والطرد من رحمته .

﴿ ولهم ﴾ فوق ذلك ، الدار السيئة وهى جهنم التى ليس فيها إلا مايسوء الصائر إليها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الغنى والفقر بيده ، وأن العطاء والمنع بأمره فقال - تعالى - : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. ﴾ . وبسط الرزق كناية عن سعته ووفرته وكثرته . ومعنى : «يقدر » يضيق ويقلل .

قال الإمام الشوكانى : « لما ذكر - سبحانه - عاقبة المشركين بقوله ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيرا منهم قد وفر الله له فى الرزق وبسط له فيه . فأجاب - سبحانه - عن ذلك : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا ، ويقتره على من كن مؤمنا ابتلاء وامتحانا ، ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة .. »[1] .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه ، وهو وحده - أيضا - الذى يضيقه على من يشاء منهم لحكم هو يعلمها ، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان ، فقد يوسع على الكافر استدراجا له ، وقد يضيق على المؤمن امتحانا له ، أو زيادة فى أجره .

---

(١) تفسير (فتح القدير) للإمام الشوكانى جـ ٣ ص ٨٠ .

والضمير فى قوله : ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ يعود إلى مشركى مكة ، وإلى كل من كان على شاكلتهم فى الكفر والطغيان . والمراد بالفرح هنا : الأشر والبطر وجحود النعم .

أى : وفرح هؤلاء الكافرون بربهم ، الناقضون لعهودهم ، بما أوتوا من بسطة فى الرزق فى دنياهم ، فرح بطر وأشر ونسيان للآخرة لا فرح سرور بنعم الله ، وشكر له - سبحانه - عليها ، وتذكر للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ..

وقوله - سبحانه - ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾ بيان لقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة .

والمتاع : ما يتمتع به الانسان فى دنياه من مال وغيره لمدة محددة ثم ينقضى .

أى : إن هؤلاء الفرحين بنعم الله عليهم فى الدنيا ، فرح بطر وأشر وجحود ، لن يتمتعوا بها طويلا ، لأن نعيم الدنيا ليس إلا شيئا قليلا بالنسبة لنعيم الآخرة .

وتنكير « متاع » للتقليل ، كقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[1] .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة ﴾ أى : كائنة فى جنب نعيم الآخرة ، فالجار والمجرور فى موضع الحال ، و « فى » هذه معناها المقايسة وهى كثيرة فى الكلام ، كما يقال : ذنوب العبد فى رحمة الله - تعالى - كقطرة فى بحر ، وهى الداخلة بين مفضول سابق ، وفاضل لاحق ..

والمراد بقوله : ﴿ إلا متاع ﴾ أى : إلا شيئا يسيرا يتمتع به كزاد الراعى .

والمعنى : أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة ، والحال أن مافرحوا به فى جنب ماأعرضوا عنه قليل النفع ، سريع النفاد .

أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله - ﷺ - على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا يارسول الله : لو اتخذنا لك ؟ فقال - ﷺ - : « مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل بشجرة ثم راح وتركها ... »[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت صفات المؤمنين وحسن عاقبتهم ، وصفات الكافرين وسوء مصيرهم كما وضحت أن الأرزاق بيد الله - تعالى - يعطيها بسعة لمن يشاء من عباده ، ويعطيها بقلة لغيرهم ..

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٣١ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المطالب المتعنتة التى طلبها الكافرون من النبى - ﷺ - ، ورد عليها بما يبطلها ، ومدح المؤمنين لاطمئنان قلوبهم إلى سلامة دينهم من كل نقص ، وأيأسهم من إيمان أعدائهم لاستيلاء العناد والجحود على قلوبهم ، فقال - تعالى - :

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ حكاية لما طلبه مشركو مكة من رسول الله - ﷺ - على سبيل التعنت والطغيان . ومرادهم بالآية : آية كونية كإحياء الموتى ، وإزاحة الجبال من أماكنها ، و « لولا » هنا : حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : ويقول الكافرون على سبيل العناد والجحود ، هلا أنزل على هذا الرسول آية كونية تدل على صدقه ، كأن يحيى لنا موتانا ، أو أن يحول لنا جبل الصفا ذهبا ..

وكأنهم يرون أن القرآن الذى نزل عليه - ﷺ - لا يكفى - فى زعمهم - أن يكون آية ومعجزة شاهدة على صدقه .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بقوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ﴾ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التعجيب من أحوالهم ومن شدة ضلالهم : إن الله - تعالى - يضل عن طريق الحق من يريد إضلاله ، لاستحباب هذا الضال العمى على الهدى ، ويهدى إلى صراطه المستقيم ، من أناب إليه - سبحانه - ورجع إلى الحق الذى جاء به رسوله - ﷺ - بقلب سليم . وعقل متفتح لمعرفة الصواب والرشاد .

فالجملة الكريمة تعجيب من أقوالهم الباطلة ، ومن غفلتهم عن الآيات الباهرة التى أعطاها الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وعلى رأسها القرآن الكريم الذى هو آية الآيات ، وحض لهم على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد .

والإنابة : الرجوع إلى الشىء بعد تردد ، فقد جرت عادة كثير من النفوس البشرية أن يعرض عليها الحق فتتردد فى قبوله فى أول الأمر ، ثم تعود إلى قبوله واعتناقه بعد قيام الدلائل على صحته وسلامته من الفساد .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف طابق قولهم ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ قوله ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ... ﴾ ؟

قلت : هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات االباهرة والمتكاثرة التى أوتيها رسول الله - ﷺ - لم يؤتها نبى قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية . فإذا جحدوها ولم يهتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعًا للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم ، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة فى الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ ويهدى إليه من ﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿ أناب ﴾ أقبل إلى الحق وحقيقته دخل فى نوبة الخير »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٩ .

ثم رسم القرآن صورة مشرقة للقلوب المؤمنة ، وللجزاء الحسن الذى أعده الله لها فقال - تعالى - ﴿ الذين آمنوا ﴾ حق الإيمان ، ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أى : تستقر قلوبهم وتسكن ، بسبب تدبرهم لكلامه المعجز وهو القرآن الكريم وما فيه من هدايات .

وإطلاق الذكر على القرآن الكريم ورد فى آيات منها قوله - تعالى - ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾[1] وقوله - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أى : ألا بذكره وحده دون غيره من شهوات الحياة تسكن القلوب أنسًا به ، ومحبة له .

ويصح أن يراد بذكر الله هنا ما يشمل القرآن الكريم ، ويشمل ذكر الخالق - عز وجل - باللسان ، فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته - سبحانه - كما يصح أن يراد به خشيته - سبحانه - ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه .

إلا أن الأظهر هنا أن يراد به القرآن الكريم ، لأنه الأنسب للرد على المشركين الذين لم يكتفوا به كمعجزة دالة على صدقه - ﷺ - وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه .

واختير الفعل المضارع فى قوله - سبحانه - ﴿ تطمئن ﴾ مرتين فى آية واحدة ، للإشارة إلى تجدد الاطمئنان واستمراره ، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

وافتتحت جملة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ بأداة الاستفتاح المفيدة للتنبيه ، للاهتمام بمضمونها ، وللإغراء بالإكثار من ذكره - عز وجل - ، ولإثارة الكافرين إلى الاتسام بسمة المؤمنين لتطمئن قلوبهم .

ولا تنافى بين قوله - تعالى - هنا ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبين قوله فى سورة الأنفال ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ... ﴾ أى : خافت .

لأن وجلهم إنما هو عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب . أو وجلت من هيبته وخشيته - سبحانه - وهو لا ينافى اطمئنان الاعتماد والرجاء .

وقوله - تعالى - ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ بيان للثواب الجزيل الذى أعده - سبحانه - للمؤمنين الصادقين .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٠ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

وطوبى : مصدر كبشرى وزلفى من الطيب ، وأصله طُيْبَى ، فقلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة ، كما قلبت فى موقن وموسر وهو من اليقين واليسر .

وقيل : طوبى ، اسم شجرة فى الجنة .

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال ابن عباس : أى فرح وقرة عين لهم .

وقال الضحاك : أى غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعى : أى خير لهم .

وقال قتادة : طوبى : كلمة عربية . يقول الرجل لغيره : طوبى لك أى : أصبت خيرًا .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس « طوبى لهم » قال : هى أرض الجنة بالحبشية .

وقال سعيد بن مشجوج « طوبى » اسم الجنة بالهندية .

وروى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : « طوبى » : شجرة فى الجنة،كل شجر الجنة منها ...

وهكذا روى عن ابن عباس وأبى هريرة وغير واحد من السلف ، أن طوبى شجرة فى الجنة ، فى كل دار فى الجنة غصن منها »[1] .

والمآب : المرجع والمنقلب من الأوب وهو الرجوع . يقال : آب يئوب أوبا وإيابا ومآبا إذا رجع .

والمعنى : الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات لهم فى آخرتهم ، عيش طيب . وخير كامل ، ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم وخالقهم .

ثم بين - سبحانه - أن إرسال محمد - ﷺ - إلى الناس ليس بدعا ، فقد سبقه رسل كثيرون إلى أقوامهم فقال - تعالى - : ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ .

فالكاف فى قوله ﴿ كذلك ﴾ للتشبيه حيث شبه - سبحانه - إرساله - ﷺ - إلى الناس ، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم .

واسم الإشارة يعود إلى الإرسال المأخوذ من فعل « أرسلناك » .

والمراد بالأمة هنا : أمة الدعوة التى أرسل إليها الرسول - ﷺ - فآمن من آمن من أفرادها ، وكفر من كفر .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٦ طبعة دار الشعب .

أى : كما أرسلنا رسلا سابقين إلى أقوامهم ، أرسلناك يا محمد إلى قومك الذين قد سبقهم أقوام ورسل كثيرون لكى تقرأ على مسامعهم هذا القرآن العظيم الذى أوحيناه إليك من لدنا ، ولتبين لهم ما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات ، كما بين الرسل الذين سبقوك لأقوامهم ما أمرهم الله - تعالى - ببيانه .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ قد خلت من قبلها أمم ﴾ تعريض بمشركى مكة ، وأنهم إذا ما استمروا فى طغيانهم ، فسيصيبهم ما أصاب الأمم الخالية .

وقوله ﴿ لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ المقصود منه تفخيم شأن القرآن الكريم ، وأنه هو المعجزة الكبرى للرسول - ﷺ - وأن وظيفة الرسول - ﷺ - قراءته عليهم قراءة تدبر واستجابة لما يدعوهم إليه .

وأن قول المشركين ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ إنما هو قول يدل على عنادهم وغبائهم وجحودهم للحق بعد أن تبين .

وجملة ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ حالية .

أى : أرسلناك أيها الرسول الكريم إلى هؤلاء الضالين ، لتتلو عليهم ما ينقذهم من الضلال ، ولكنهم عموا وصموا عن سماعه ، والحال أنهم يكفرون بالرحمن أى العظيم الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شىء .

وأوثر اختيار اسم الرحمن من بين أسمائه - تعالى - للإشارة إلى أن إرساله - ﷺ - مبعثه الرحمة كما قال - تعالى - : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1] .

وللرد عليهم فى إنكارهم أن يكون الله - تعالى - رحمانا ، فقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾[2] .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنهم لم يرضوا بكتابة هذا الاسم الكريم فى صلح الحديبية ، فعندما قال - ﷺ - لعلىٍّ : اكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قال أحد زعمائهم . ما ندرى ما الرحمن الرحيم ..

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما يبطل كفرهم فقال : ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : الرحمن الذى تتجافون النطق باسمه الكريم هو وحده

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

ربى وخالقى ، لا إلـه مستحق للعبادة سواه ، عليه لا على أحد سواه توكلت فى جميع أمورى ، وإليه لا إلى غيره مرجعى وتوبتى وإنابتى .

فهذه الجملة الكريمة اشتملت على أبلغ رد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون الإله - جل وعلا - رحمانا ، وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة .

ثم أشار - سبحانه - إلى عظمة هذا القرآن الذى أوحاه إلى نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى ...﴾ .

والمراد بالقرآن هنا : معناه اللغوى ، أى الكلام المقروء .

وجواب لو محذوف لدلالة المقام عليه .

والمعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السماوية ، ﴿ سيرت به الجبال ﴾ أى : تحركت من أماكنها ، ﴿ أو قطعت به الأرض ﴾ أى شققت وصارت قطعا ، ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ بأن يعودوا إلى الحياة بعد قراءته عليهم .

ولو أن كتابا مقروءا كان من وظيفته أن يفعل ذلك لكان هذا القرآن ، لكونه الغاية القصوى فى الهداية والتذكير ، والنهاية العظمى فى الترغيب والترهيب .

وعلى هذا المعنى يكون الغرض من الآية الكريمة بيان عظم شأن القرآن الكريم ، وإبطال رأى الكافرين الذين طلبوا من الرسول - ﷺ - آية كونية سواه .

ويصح أن يكون المعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السماوية نزل عليك يا محمد فسيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، لما آمن هؤلاء المعاندون .

قال - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ...﴾[1] .

وعلى هذا المعنى يكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان غلوهم فى العناد والطغيان ، وتماديهم فى الكفر والضلال ، وأن سبب عدم إيمانهم ليس مرده إلى عدم ظهور الدلائل الدالة على صدقه - ﷺ - وإنما سببه الحسد والعناد والمكابرة .

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق التى طلبوها منه - ﷺ - ما ذكره الإمام ابن كثير من أن المشركين قالوا للنبى - ﷺ - : يا محمد ، لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ بل لله الأمر جميعا﴾ إضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن الأمور كلها بيد الله ، وأن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شىء .

أى : إن الله - تعالى - لا يعجزه أن يأتى بالمقترحات التى اقترحوها ، ولكن إرادته - سبحانه - لم تتعلق بما اقترحوه ، لعلمه - سبحانه - بعتوهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات .

وقوله - سبحانه : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾ تيئيس للمؤمنين من استجابة أولئك الجاحدين للحق ، إلا أن يشاء الله لهم الهداية ، والاستفهام للإنكار . وأصل اليأس : قطع الطمع فى الشىء والقنوط من حصوله .

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان :

أحدهما يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقى وهو قطع الطمع فى الشىء ، وعليه يكون المعنى : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش ، ويعلموا أن الله - تعالى - لو يشاء هداية الناس جميعا لاهتدوا ، ولكنه لم يشأ ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب .

وعلى هذا الاتجاه سار الإمام ابن كثير فقد قال -رحمه الله - : وقوله - تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ﴾ فإنه ليس هناك حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة[٢] .

ويؤيد هذا الاتجاه ما ذكره السيوطى فى تفسيره من أن بعض الصحابة قالوا للرسول - ﷺ - يارسول الله ، اطلب لهم - أى للمشركين - ما اقترحوه عسى أن يؤمنوا .

أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الفعل ييأس بمعنى يعلم ، وعليه يكون المعنى : أفلم يعلم المؤمنون أنه - سبحانه - لو شاء هداية الناس جميعا لآمنوا .

وهذا الاتجاه صدر به الآلوسى تفسيره فقال ما ملخصه :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٥ .

ومعنى قوله - سبحانه - : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أفلم يعلموا . وهى كما قال القاسم بن معن لغة هوازن . وقال الكلبى هى لغة حى من النخع ، وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحى :

أقول لهم بالشعب إذ يـأسروننى ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

وقول رباح بن عدى :

ألم ييـأس الأقوام أنى أنـا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

والظاهر أن استعمال اليأس فى ذلك حقيقة .

وقيل مجاز لأنه متضمن للعلم فان الآيس عن الشىء عالم بأنه لا يكون ..

والفاء للعطف على مقدر . أى : أغفلوا عن كون الأمر جميعه لله - تعالى - فلم يعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ...[1] .

ثم حذر - سبحانه - الكافرين من التمادى فى كفرهم ، وبشر المؤمنين بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

والقارعة : من القرع ، وهو ضرب الشىء بشىء آخر بقوة وجمعها قوارع .

والمراد بها : الرزية والمصيبة والكارثة .

أى : ولا يزال الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم تصيبهم بسبب ما صنعوه من الكفر والضلال «قارعة » أى مصيبة تفجؤهم وتزعجهم أو تحل تلك المصيبة فى مكان قريب من دارهم ، فيتطاير شرها إليهم ، حتى يأتى وعد الله بهلاكهم وهزيمتهم ونصر المؤمنين عليهم ، إن الله - تعالى - لا يخلف الميعاد ، أى : موعوده لرسله ولعباده المؤمنين .

وأبهم - سبحانه - ما يصيب الكافرين من قوارع ، لتهويله وبيان شدته .

والتعبير بقوله ﴿ ولايزال ﴾ يشير إلى أن ما أصابهم من قوارع كان موجودا قبل نزول هذه الآية ، واستمرت إصابته لهم بعد نزولها ، لأن الفعل ﴿ لايزال ﴾ يدل على الإخبار باستمرار شىء واقع .

ولعل هذه الآية الكريمة كان نزولها فى خلال سنى الجدب التى حلت بقريش والتى أشار

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٤١ .

إليها القرآن بقوله : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ...﴾[1] .

وعبر - سبحانه - عما أصابهم من بلاء بالقارعة ، للمبالغة فى شدته وقوته . حتى إنه ليقرع قلوبهم فجأة فيبهتهم ويزعجهم ، ولذلك سميت القيامة بالقارعة ، لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

وقال - سبحانه - : ﴿ أو تحل قريبا من دارهم ﴾ لبيان أنهم بين أمرين أحلاهما مُرّ لأن القارعة إما أن تصيبهم بما يكرهونه ويتألمون له ، وإما أن تنزل قريبا منهم فتفزعهم ، وتقلق أمنهم ، وهم مستمرون على ذلك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

ولقد قضى الله - تعالى - أمره ، بهزيمتهم فى بدر وفى غيرها . وأتم نصره على المؤمنين بفتح مكة . وبدخول الناس فى دين الله أفواجا .

ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى بطلان الشرك ، وفى بيان ما أعده للكافرين من عقاب ، وما أعده للمتقين من ثواب فقال تعالى :

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

(١) سورة الدخان الآية ١٠ ، ١١ .

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ... ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب تعنت المشركين معه . ومطالبتهم له بالمطالب السخيفة التى لا صلة لها بدعوته ، كطلبهم منه تسيير الجبال وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى .

والاستهزاء : المبالغة فى السخرية والتهكم من المستهزأ به . والإملاء : الإمهال والترك لمدة من الزمان .

والتنكير فى قوله ﴿ برسل ﴾ للتكثير ، فقد استهزأ قوم نوح به ، وكانوا كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه .

واستهزأ قوم شعيب به وقالوا له : ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[١] .

واستهزأ قوم هود به وقالوا له : ﴿ إنا لنراك فى سفاهة ..... ﴾[٢] واستهزأ فرعون بموسى فقال : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾[٣] .

والمعنى : ولقد استهزأ الطغاة والجاحدون برسل كثيرين من قبلك - أيها الرسول الكريم - ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أى : فأمهلتهم وتركتهم مدة من الزمان فى أمن ودعة .

﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذ عزيز مقتدر ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ فانظر كيف كان عقابى إياهم ، لقد كان عقابا رادعا دمرهم تدميرا .

فالاستفهام للتعجيب مما حل بهم ، والتهويل من شدته وفظاعته وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٤] .

قال ابن كثير : وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « وإن الله ليملى للظالم حتى

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٨٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٥٢ .

(٤) سورة الحج الآية ٤٨ .

إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ - ﷺ - ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾[١] .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة الساطعة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له - تعالى - فقال : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ...﴾ .

والمراد بالقيام هنا : الحفظ والهيمنة على جميع شئون الخلق والاستفهام للإنكار ، والخبر محذوف والتقدير : ﴿ أفمن هو قائم ﴾ أى : رقيب ومهيمن ﴿ على كل نفس ﴾ كائنة ما كانت ، عالم بما تعمله من خير أو شر فمجازيها به كمن ليس كذلك ؟

وحذف الخبر هنا وهو قولنا - كمن ليس كذلك - لدلالة السياق عليه ، كما فى قوله - تعالى -: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ أى : كمن قسا قلبه .

وحسن حذف الخبر هنا لأنه مقابل للمبتدأ الذى هو ﴿من﴾ ولأن قوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا لله شركاء﴾ يدل عليه .

والمقصود من الآية الكريمة إنكار المماثلة بين الخالق العظيم ، العليم بأحوال النفوس ... وبين تلك الأصنام التى أشركوها مع الله - تعالى - فى العبادة والتى هى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك لنفسها - فضلا عن غيرها - نفعا ولا ضرا .

وجملة ﴿ وجعلوا لله شركاء﴾ حالية ، والتقدير :

أفمن هذه صفاته ، وهو الله - تعالى - كمن ليس كذلك ، والحال أن هؤلاء الأغبياء قد جعلوا له شركاء فى العبادة وغيرها .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، زيادة توبيخهم ، وتسفيه أفكارهم وعقولهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ قل سموهم ﴾ تبكيت لهم إثر تبكيت .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - سموهم شركاء إن شئتم ، فإن هذه التسمية لا وجود لها فى الحقيقة والواقع ، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا ، لأن الله - تعالى - واحد لا شريك له .

وهذه التسمية إنما هى من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطان ، كما قال تعالى : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٣ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٣ .

فالأمر فى قوله ﴿ سموهم ﴾ مستعمل فى الإباحة المصحوبة بالتهديد ، للإشارة إلى عدم الاكتراث بهم وبآلهتهم التى سموها شركاء . وهذا كما يقول العاقل للأحمق الذى لا يحسن الكلام : قل ما شئت فإن كلامك لا وزن له ، ولا خير فيه .

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية : « واعلم أنه - تعالى - لما قرر هذه الحجة - وهى أن القائم على كل نفس ليس كمن لا يملك شيئا - زاد فى الحجاج فقال : ﴿ قل سموهم ﴾ وإنما يقال ذلك فى الأمر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم فعند ذلك يقال : سمه إن شئت .

يعنى : إنه أخس من أن يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسما فافعل .

فكأنه - تعالى - قال : سموهم بالآلهة ، والمعنى : سواء أسميتموهم بهذا الاسم أم لم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها »[1] ..

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ، أم بظاهر من القول ﴾ للإنكار والتوبيخ .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا الاسم : قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتخبرون الله بشركاء لا وجود لهم فى الأرض ، لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

أم أنكم سميتموهم شركاء بظاهر من القول أى : بظن من القول لا حقيقة له فى الواقع ونفس الأمر .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ﴿ أم تنبئونه ﴾ أى : بل أتخبرون الله - تعالى - ﴿ بما لا يعلم فى الأرض ﴾ أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم - سبحانه - والمراد : نفيها بنفى لازمها على طريق الكناية ، لأنه - سبحانه - إذا كان لا يعلمها - وهو الذى لا يعزب عن علمه شىء - فهى لا حقيقة لها أصلا .

وتخصيص الأرض بالذكر ، لأن المشركين زعموا أنه - سبحانه - له شركاء فيها .

وقوله ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أى : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير معنى متحقق فى نفس الأمر ، كتسمية الزنجى كافورا .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٥٦ .

وروى عن الضحاك وقتادة ، أن الظاهر من القول : الباطل منه ، كما فى قول القائل :

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يابن ربطة ظاهر

أى : باطل زائد .... [١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ إضراب عن حجاجهم ، وإهمال لشأنهم ، و« زين » من التزيين وهو تصيير الشىء زينا أى : حسنا .

والمكر : صرف الغير عما يريده بحيلة . والمراد به هنا : كفرهم ومسالكهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين .

والمعنى : دع عنك أيها الرسول الكريم - مجادلتهم ، لأنه لا فائدة من ورائها ، فإن هؤلاء الكافرين قد زين لهم الشيطان ورؤساؤهم فى الفكر مكرهم وكيدهم للإسلام وأتباعه ، وصدوهم عن السبيل الحق ، وعن الصراط المستقيم ، ومن يضلله الله - تعالى - بأن يخلق فيه الضلال لسوء استعداده ، فما له من هاد يهديه ويرشده إلى ما فيه نجاته .

هذا ، وقد اشتملت هذه الآية على ألوان من الحجج الساطعة التى تثبت وجوب إخلاص العبادة لله ، وتبطل الشركة والشركاء أشار إليها بعض المفسرين فقال :

قال الطيبى : فى هذه الآية الكريمة احتجاج بليغ مبنى على فنون من علم البيان :

أولها : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ كمن ليس كذلك ، احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما .

ثانيها : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر ، للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد فى أسمائه .

ثالثها : ﴿ قل سموهم ﴾ أى عينوا أسماءهم فقولوا فلان وفلان ، فهو إنكار لوجودها على وجه برهانى ..

رابعها : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم ﴾ احتجاج من باب نفى الشىء أعنى العلم بنفى لازمه وهو المعلوم وهو كناية .

خامسها : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ احتجاج من باب الاستدراج لبعثهم على التفكر .

أى : أتقولون بأفواهكم من غير روية ، وأنتم ألباء ، فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٠٤ .

سادسها : التدرج فى كل من الإضرابات على ألطف وجه ، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها ، كان الاحتجاج المذكور مناديا على نفسه بالإعجاز وأنه ليس كلام البشر»[١] .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير هؤلاء الكافرين فقال : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ﴾ أى : لهم عذاب شديد فى الحياة الدنيا ، ينزله الله - تعالى - بهم تارة عن طريق القوارع والمصائب التى يرسلها عليهم ، وتارة عن طريق الهزائم التى يوقعها بهم المؤمنون ، هذا فى الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿ وما لهم من الله ﴾ - تعالى - ومن عذاب الآخرة ﴿ من واق ﴾ أى : من حائل يحول بينهم وبين عذابه - سبحانه - .

ثم أعقب ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها .... ﴾ .

والمراد بالمثل هنا : الصفة العجيبة . أى : صفة الجنة التى وعد الله إياها من اتقاه وصان نفسه عن كل مالا يرضيه ، أنها تجرى من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار ، وأنها أكلها دائم ، أى : ما يؤكل فيها لا انقطاع لأنواعه « وظلها » كذلك دائم .

قال بعضهم : وجملة ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ خبر عن « مثل » باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه ، فهى من أحوال المضاف لشدة الملابسة بين المتضايفين ، كما يقال : صفة زيد أسمر . وجملة « أكلها دائم » خبر ثان[٢] .

واسم الإشارة فى قوله : « تلك عقبى الذين اتقوا » يعود على الجنة التى أعدها الله - تعالى - للمتقين .

أى : تلك الجنة المنعوتة بما ذكر هى مآل المتقين الذين استقاموا على الطريق الحق ، وهى منتهى أمرهم .

أما مآل الكافرين ومنتهى أمرهم فهى النار ، وبئس القرار .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث فى صفة الجنة فقال : وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف ، وفيه : قالوا يارسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت - أى توقفت وأحجمت ؟ فقال :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٠٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٥٥ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

« إنى رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .

وروى الطبرانى عن ثوبان قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى » .[1]

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت من التوجيهات ما فيه التسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وما فيه أوضح الدلائل والبراهين وأبلغها عن وحدانية الله - تعالى - ووجوب إفراده بالعبادة ، وما فيه البشارة للمؤمنين ، والتهديد للكافرين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم ، وبأمر الرسول - ﷺ - أن يعلن منهجه بصراحة وثبات ، دون التفات إلى أهواء معارضيه ، وبالرد على الشبهات التى أثارها أعداؤه حوله وحول دعوته ، وبتهديد هؤلاء الأعداء وبسوء العاقبة إذا ما استمروا فى طغيانهم فقال - تعالى - :

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٦ .

ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ ثناء منه - سبحانه - على الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه .

والمراد بالكتاب هنا : التوراة والإنجيل .

والمعنى : والذين أعطيناهم التوراة والانجيل ، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك - أيها الرسول الكريم - ، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين .

هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن ، لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك ، يزيدهم إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم .

وقيل : المراد بالكتاب القرآن الكريم ، وبالموصول أتباع النبى - ﷺ - من المسلمين .

فيكون المعنى : والذين آتيناهم الكتاب - وهو القرآن - فآمنوا بك وصدقوك يفرحون بكل ما ينزل عليك منه ، لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة سيقت بعد الحديث عن عاقبة الذين اتقوا وهم المؤمنون الصادقون ، وعاقبة الكافرين . ولأن فرح المؤمنين بنزول القرآن أمر مسلم به فلا يحتاج إلى الحديث عنه .

ومن المفسرين الذين اقتصروا فى تفسيرهم للآية على الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال : يقول الله - تعالى - : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أى : من القرآن ، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه - ﷺ - والبشارة

به ، كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾[١] .

وقوله : ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ بيان لمن بقى على كفره من أهل الكتاب وغيرهم . والأحزاب : جمع حزب ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا من أجل غاية معينة أى : ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل إليك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم .. ولم يذكر القرآن هذا البعض الذى ينكرونه ، إهمالا لشأنهم ، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب ﴾ أمر منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يصدع بما يأمره دون تردد أو وجل .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لكل من خالفك فيما تدعو إليه « إنما أمرت أن أعبد الله » وحده « ولا أشرك به » بوجه من الوجوه إليه وحده « أدعو » الناس لكى يخلصوا له العبادة والطاعة « وإليه مآب » أى وإليه وحده إيابى ومرجعى لا إلى أحد غيره .

فالآية تضمنت المدح لمن عرف الحق ففرح بوجوده . والذم لمن أنكـره جحوداً وعنادا ، والأمر للنبى - ﷺ - بالسير فى طريقه بدون خشية من أحد .

ثم ساق -سبحانه- بعد ذلك بعض الفضائل التى امتاز بها القرآن الكريم فقال - تعالى - : ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا .... ﴾ .

والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من ﴿ أنزلناه ﴾ وضمير الغائب فى أنزلناه يعود الى ﴿ماأنزل اليك﴾ فى قوله فى الآية السابقة ﴿يفرحون بما أنزل اليك...﴾

وقوله ﴿ حكما عربيا ﴾ حالان من ضمير الغائب .

والمعنى : ومثل ذلك الإنزال البديع الجامع لألوان الهداية والإعجاز ، أنزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿ حكما ﴾ أى : حاكما بين الناس ﴿ عربيا ﴾ أى : بلسان عربى مبين هو لسانك ولسان قومك .

ومنهم من يرى أن اسم الإشارة يعود إلى الكتب السماوية السابقة ، فيكون المعنى :

وكما أنزلنا الكتب السماوية على بعض رسلنا بلغاتهم وبلغات أقوامهم أنزلنا عليك القرآن حاكما بين الناس بلغتك وبلغة قومك ، وهى اللغة العربية ليسهل عليهم فهمه وحفظه .

وعلى كلا القولين فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٧ .

الكريم : فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته ، وهو المعبر عنها بكونه « حكما » .

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه ، وهى المعبر عنها بكونه « عربيا » .

أى : نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات وأغناها وأجملها .

ثم فى كونه « عربيا » امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء ، حيث إنه نزل بلغتهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه ، فهو الكتاب الذى فيه شرفهم وعزهم ، قال - تعالى - : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ أى : فيه بقاء شرفكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾[١] .

وقال - تعالى - : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾[٢] .

وفى ذلك تعريض بغباء مشركى العرب ، حيث لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة ، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان .

ثم ساق - سبحانه - تحذيرا للأمة كلها فى شخص نبيها - ﷺ - من اتباع أهواء كل كافر أو فاسق : فقال - تعالى - : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولى ولا واق ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ولئن ﴾ موطئة للقسم لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد لمتبع أهواء الكافرين .

والأهواء : جمع هوى ، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق ، ومطالبهم المتعنتة ، والمراد بما جاءه من العلم : ما بلغه وعلمه من الدين عن طريق الوحى الصادق .

والولى : الناصر والمعين والقريب والحليف . والواقى : المدافع عن غيره .

والمعنى : « ولئن اتبعت » - يامحمد - على سبيل الفرض والتقدير أهواء هؤلاء الكافرين فيما يطلبونه منك ، «من بعد ما جاءك من العلم » اليقينى بأن الإسلام هو الدين الحق ، «مالك من الله » أى من عقابه «من ولى » يلى أمرك وينصرك « ولا واق » يقيك من حسابه . وسيق هذا التحذير فى صورة الخطاب للرسول - ﷺ - للتأكيد من مضمونه .

فكأنه - سبحانه يقول : لو اتبع أهواءهم - على سبيل الفرض - أكرم الناس عندى لعاقبته ، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى الفضل والمنزلة ، وشبيه بهذه الآية قوله

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

- تعالى - : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾[١] .

ثم بين - سبحانه - أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول - ﷺ - ليس إلا من قبيل التعنت والجحود ، لأن الرسل جميعا كانوا من البشر ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية... ﴾ .

أى : « ولقد أرسلنا رسلا » كثيرين « من قبلك » يا محمد « وجعلنا لهم » أى لهؤلاء الرسل « أزواجا » يسكنون إليهن « وذرية » أى : وأولادا تقرُّ بهم أعينهم .

قال الشوكانى : « وفى هذا رد على من كان ينكر على رسول الله - ﷺ - تزوجه بالنساء .

أى : هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه»[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ... ﴾ رد على ما طلبوه منه - ﷺ - من معجزات .

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى لمن أرسل إليهم بمعجزة كائنة ما كانت إلا بإذن الله وإرادته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات .

وقوله - سبحانه - ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون حصول المقترحات التى طلبوها منه - ﷺ - .

أى : لكل وقت من الأوقات « كتاب » أى : حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه مشيئته - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهرا من مظاهر شمول قدرته ، وسعة علمه ، وعظيم حكمته فقال : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

وقوله : ﴿ يمحو ﴾ من المحو وهو إذهاب أثر الشىء بعد وجوده .

وقوله : ﴿ ويثبت ﴾ من الإثبات وهو جعل الشىء ثابتا قارا فى مكان ما .

وأم الكتاب : أصل الكتاب والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه - سبحانه - المحيط بكل شىء .

قال الفخر الرازى: «والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أمًّا له ومنه أمّ

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٢) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٨٨ .

الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهى أُمٌّ لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب »[1] .

والمعنى : يمحو الله - تعالى - ما يشاء محوه ، ويثبت ما يريد إثباته من الخير أو الشر ومن السعادة أو الشقاوة ، ومن الصحة أو المرض ، ومن الغنى أو الفقر ، ومن غير ذلك مما يتعلق بأحوال خلقه .

وعنده - سبحانه - الأصل الجامع لكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون .

قال - تعالى - : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ... ﴾[2] .

وقال - تعالى - : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾[3] .

وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلام طويل ، لخصه الإمام الشوكانى تلخيصا حسنا فقال :

قوله - سبحانه - : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر .. ويبدل هذا بهذا ، ويجعل هذا مكان هذا . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم .

وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقيل « يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ، ويثبت مالا يشاء فلا ينسخه .. والأول أولى كما تفيده « ما » فى قوله « ما يشاء » من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله « لكل أجل كتاب » ومع قوله « وعنده أم الكتاب » أى أصله وهو اللوح المحفوظ .

فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته .

وهذا لاينافى ما ثبت عنه - ﷺ - من قوله « جفَّ القلم » ، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه - سبحانه - .

وقيل : إن أم الكتاب هو علم الله - تعالى - : بما خلق وبما هو خالق[4] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٦٦ .
(٢) سورة الحديد الآية ٢٢ .
(٣) سورة الحج الآية ٧٠ .
(٤) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٨٨ .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ حض له - ﷺ - على المضى فى دعوته بدون تسويف أو تأجيل .

و« ما » فى قوله « وإما نرينك » مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، والأصل : وإن نرك ، والإراءة هنا بصرية ، والكاف مفعول أول ، وبعض الذى نعدهم : مفعول ثان ، وجواب الشرط ، محذوف .

والمعنى : وإما نرينك - يامحمد - بعض الذى توعدنا به أعداءك من العذاب الدنيوى ، فذاك شفاء لصدرك وصدور أتباعك .

وقوله « أونتوفينك » شرط آخر لعطفه على الشرط السابق ، وجوابه - أيضا - محذوف والتقدير : أو نتوفينك قبل ذلك فلا تهتم ، واترك الأمر لنا .

وقوله : ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ تعليل لهذا الجواب المحذوف ، أى : سواء أرأيت عذابهم أم لم تره ، فإنما عليك فقط تبليغ ما أمرناك بتبليغه للناس .

﴿ وعلينا ﴾ وحدنا ﴿ الحساب ﴾ أى : محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم السيئة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ للإشارة إلى أن ما يصيبهم من عذاب دنيوى هو بعض العذاب المعد لهم ، أما البعض الآخر وهو عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .

ولقد صدق الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - فأراه قبل أن يفارق هذه الدنيا ، جانبا من العذاب الذى أنزله بأعدائه ، فسلط على مشركى مكة الجدب والقحط الذى جعلهم يأكلون العظام والميتة والجلود .

كما سلط عليهم المؤمنين فهزموهم فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرهما . ثم وبخ - سبحانه - المشركين لعدم تفكرهم وتدبرهم واتعاظهم بآثار من قبلهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ... ﴾ .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والخطاب لمشركى مكة ومن كان على شاكلتهم فى الكفر والضلال .

والمراد بالارض هنا : أرض الكفرة والظالمين .

والأطراف جمع طرف وهو جانب الشىء .

والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون عن التفكير والاعتبار ، ولم يروا كيف ان قدرة الله القاهرة ، قد أتت على الأمم القوية الغنية - حين كفرت بنعمه - سبحانه - ، فصيرت قوتها ضعفا وغناها فقرا ، وعزها ذلا ، وأمنها خوفا .. وحصرتها فى رقعة ضيقة من الأرض ، بعد أن

كانت تملك الأراضى الفسيحة ، والأماكن المترامية الأطراف .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين ، وإنذار للكافرين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾[1] .

قال الآلوسى ما ملخصه : «وروى عن ابن عباس أن المراد بانتقاص الأرض : موت أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها . وعليه يكون المراد بالأرض جنسها وبالأطراف الأشراف والعلماء ، وشاهده قول الفرزدق :

واسأل بنا وبكم ، إذا وردت منى أطراف كل قبيلة ، من يتبع ؟

يريد أشراف كل قبيلة .

وتقرير الآية عليه : أو لم يروا أنا نحدث فى الدنيا من الاختلافات خرابا بعد عمارة ، وموتا بعد حياة ، وذلا بعد عز .. فما الذى يؤمنهم أن يقلب الله - تعالى - الأمر عليهم فيجعلهم أذلة بعد أن كانوا أعزة ...

ثم قال : وهو كما ترى :

والأول - وهو أن يكون المراد بالارض : أرض الكفر ، وبالأطراف الجوانب - أوفق بالمقام ، ولا يخفى ما فى التعبير بالاتيان المؤذن بعظيم الاستيلاء من الفخامة ، وجملة « ننقصها » فى موضع الحال من فاعل نأتى .. »[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ بيان لعلو شأن حكمه - تعالى - ونفاذ أمره .

والمعقب : هو الذى يتعقب فعل غيره أو قوله فيبطله أو يصححه .

أى : والله - تعالى - يحكم ما يشاء أن يحكم به فى خلقه ، لاراد لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم - سبحانه - بعزة الإسلام ، وعلو شأنه وشأن اتباعه على سائر الأمم والأديان ...

وقوله ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ أى : وهو - سبحانه - سريع المحاسبة والمجازاة ، لأنه لايحتاج إلى مايحتاج إليه غيره من الإحصاء والعد ، إذ هو - سبحانه - محيط بكل شىء ، فلا تستبطئ . عقابهم - أيها الرسول الكريم - فإن ما وعدناك به واقع لا محالة .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٥٥ .

ثم زاد - سبحانه - فى تسلية رسوله - ﷺ - وفى تثبيت فؤاده فقال : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا .. ﴾ .

والمكر : صرف الغير عما يريده بحيلة ، أو إيصال المكروه للممكور به خفية ، والمراد بمكر الذين من قبلهم : إضمارهم السوء لرسلهم .

والمراد بمكر الله - تعالى - هنا : علمه - سبحانه - بما بيتوه ، وإحباطه لمكرهم ، وإنجاؤه لرسله - عليهم الصلاة والسلام - .

أى : وقد مكر الكفار الذين سبقوا قومك - يامحمد - برسلهم وحاولوا إيقاع المكروه بهم ، ولكن ربك - سبحانه - نصر رسله لأنه - عز وجل - له المكر جميعا ، ولا اعتداد بمكر غيره لأنه معلوم له .

وقال الجمل ما ملخصه : « وقوله ﴿ فلله المكر جميعا ﴾ تعليل لمحذوف تقديره فلا عبرة بمكرهم ، ولا تأثير له ، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله ﴿ فلله المكر جميعا ﴾ أى : لاتأثير لمكرهم أصلا لأنه معلوم لله - تعالى - وتحت قدرته ..

وأثبت لهم المكر باعتبار الكسب ، ونفاه عنهم باعتبار الخلق .[1]

وجملة « يعلم ما تكسب كل نفس » بمنزلة التعليل لجملة « فلله المكر جميعا » .

أى : هو - سبحانه - له المكر جميعا ، لأنه لا تخفى عليه خافية من أحوال كل نفس ، وسيجازيها بما تستحقه من خير أو شر .

وقوله : ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ تهديد للكافرين بالحق الذى جاءهم به رسول الله - ﷺ - .

أى : وسيعلم الكافرون عندما ينزل بهم العذاب ، لمن تكون العاقبة الحميدة أهى لهم - كما يزعمون - أم للمؤمنين ؟ لاشك أنها للمؤمنين .

فالجملة الكريمة تحذير للكافرين من التمادى فى كفرهم ، وتبشير للمؤمنين بأن العاقبة لهم .

وفى قراءة سبعية « وسيعلم الكافر » . فيكون المراد به جنس الكافر .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالشهادة للرسول - ﷺ - بأنه صادق فى رسالته فقال : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا ﴾ .

أى : لست مرسلا من عند الله - تعالى - ، وقد حكى - سبحانه - قولهم الباطل هذا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥١٢ .

بصيغة الفعل المضارع ، للإشارة إلى تكرار هذا القول منهم ، ولاستحضار أحوالهم العجيبة الدالة على إصرارهم على العناد والجحود .

وقوله ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم .

والباء الداخلة على اسم الجلالة الذى هو فاعل ﴿ كفى ﴾ فى المعنى ، مزيدة للتأكيد ، وقوله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ معطوف على اسم الجلالة ، والمراد بالموصول وبالكتاب الجنس .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - تكفى شهادة الله بينى وبينكم ، فهو يعلم صدق دعوتى ، ويعلم كذبكم ، ويعلم ذلك - أيضا - كل من كان على علم بالكتب السماوية السابقة فإنها قد بشرت برسالتى ، وجاءت أوصافى فيها ...

وممن شهد لى بالنبوة ورقة بن نوفل ، فأنتم تعلمون أنه قال لى عندما أخبرته بما حدث لى فى غار حراء : « هذا هو الناموس - أى الوحى - الذى أنزله الله على موسى » ..

وقيل المراد بمن عنده علم الكتاب : المسلمون . وبالكتاب : القرآن ، والأول أرجح لشموله لكل من كان عنده علم بالكتب السماوية السابقة ، إذ هذا الشمول أكثر دلالة على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

وبعد : فهذه هى سورة الرعد . وهذا تفسير وسيط لآياتها ...

نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور محمد سيد طنطاوى

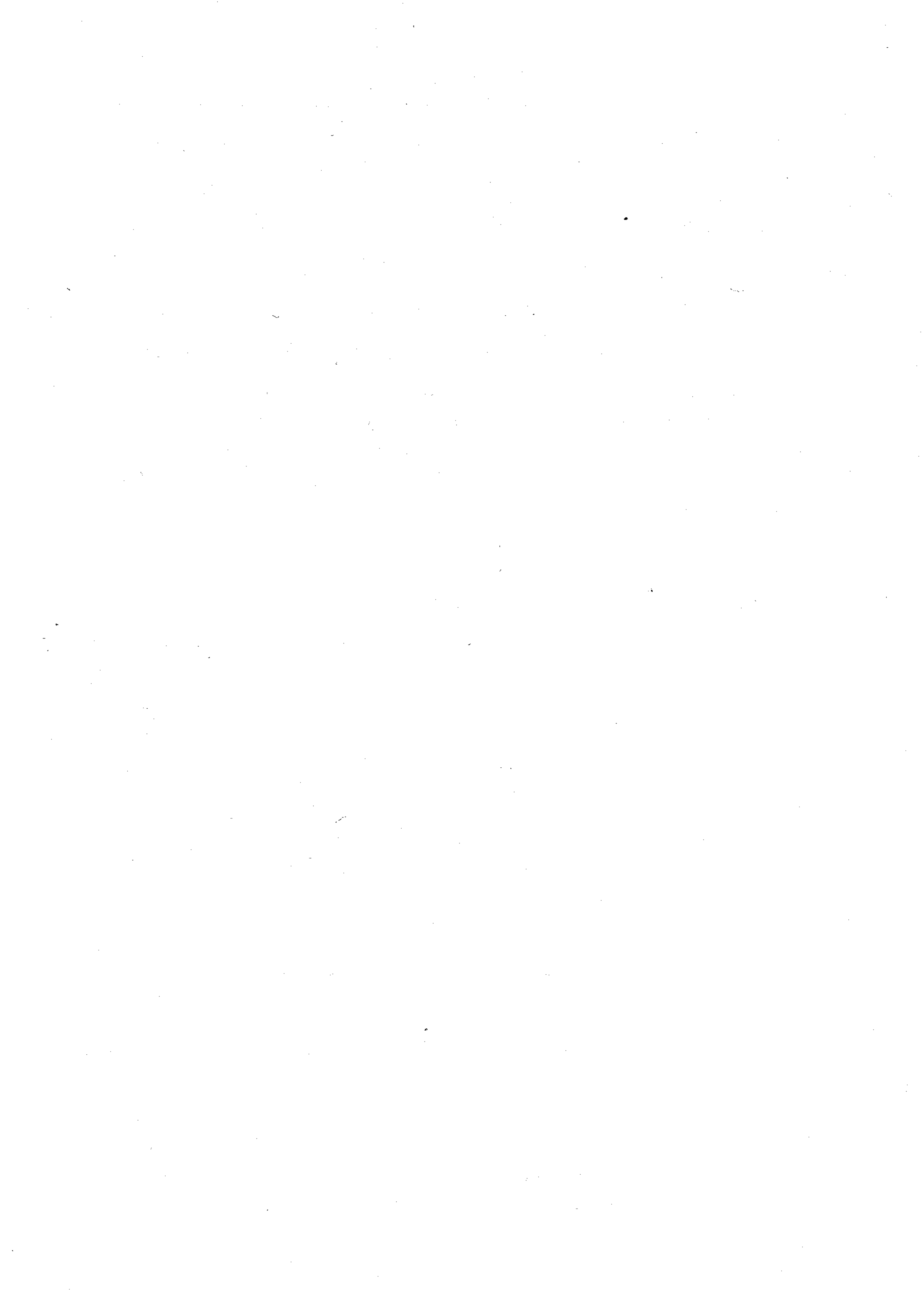
المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

الموافق ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م



تفسير

سُورَةِ إبْرَاهِيمَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة ابراهيم - عليه السلام - ، توخيت فيه أن يكون تفسيرا تحليليا ، خاليا من الآراء السقيمة ، والأقوال الضعيفة . والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، نافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة : ٢٨ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م



تعريف بسورة إبراهيم - عليه السلام -

١ - سورة إبراهيم - عليه السلام - هى السورة الرابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فقد كان بعد سورة نوح - عليه السلام - .

وقد ذكر السيوطى قبلها سبعين سورة من السور المكية[1] .

٢ - وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية فى المصحف الكوفى ، وإحدى وخمسون فى البصرى ، وأربع وخمسون فى المدنى ، وخمس وخمسون فى الشامى .

٣ - وسميت بهذا الاسم ، لاشتمالها على الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، ولا يعرف لها اسم آخر سوى هذا الاسم .

٤ - وجمهور العلماء على أنها مكية ، وليس فيها آية أو آيات غير مكيه .

وقال الآلوسى : « أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة . والظاهر أنهما أرادا أنها كلها كذلك ، وهو الذى عليه الجمهور .

وأخرج النحاس فى ناسخه عن الحبر أنها مكية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة وهما قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ فإنهما نزلتا فى قتلى بدر من المشركين ..[2] .

وسنرى عند تفسيرنا لهاتين الآيتين ، أنه لم يقم دليل يعتمد عليه على أنهما مدنيتان . وأن السورة كلها مكية كما قال جمهور العلماء .

٥ - هذا ، وبمطالعتنا لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل نراها فى مطلعها تحدثنا عن وظيفة القرآن الكريم ، وعن جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن سوء عاقبة الكافرين ، وعن الحكمة فى إرسال كل رسول بلسان قومه قال - تعالى - : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ ..

---

(١) راجع الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦١ طبعة منير الدمشقى .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم نراها بعد ذلك تحدثنا عن طرف من رسالة موسى - عليه السلام - مع قومه ، وعن أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وعن نماذج من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ..﴾ .

ثم تضرب السورة الكريمة بعد ذلك مثلا لأعمال الكافرين ، وتصور أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وتحكى ما يقوله الشيطان لهم فى ذلك اليوم .. فتقول :

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ ..

﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا ﴾ ..

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ .

ثم تسوق السورة مثلا آخر لكلمتى الإيمان والكفر فتقول : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ﴾ ..

ثم يحكى ألوانا متعددة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ونعمه على عباده فتقول : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار...﴾ .

ثم تسوق بعد ذلك تلك الدعوات الصالحات الجامعات لأنواع الخير ، التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فتقول :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ...﴾ .

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

ثم يختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بآيات فيها ما فيها من أنواع العذاب الذى أعده للظالمين ، وفيها ما فيها من ألوان التحذير من السير فى طريق الكافرين والجاحدين فيقول :

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ...﴾ .

﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

٦ - ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراهاقد اهتمت بأمور من أبرزها مايلى :

(أ) تذكير الناس بنعم خالقهم عليهم ، وتحريضهم على شكر هذه النعم وتحذيرهم من جحودها وكفرها ..

ومن الآيات التى وردت فى هذه السورة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

(ب) تسلية الرسول - ﷺ - عما لقيه من مشركى قريش ، تارة عن طريق ما لقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم ، وتارة عن طريق بيان أن العاقبة للمتقين .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ... ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ... ﴾ .

(جـ) اشتمال السورة الكريمة على أساليب متعددة للترغيب فى الإيمان ، وللتحذير من الكفر ، تارة عن طريق ضرب الأمثال ، وتارة عن طريق بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وتارة عن طريق حكاية ما سيقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، وما سيقوله الضعفاء للذين استكبروا وما سيقوله الظالمون يوم يرون العذاب ..

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ...﴾ .

هذه بعض الموضوعات التى اهتمت السورة بإبرازها وبتركيز الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى عنيت السورة بتفصيل الحديث عنها ، ويراها المتدبر لآياتها ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾

سورة إبراهيم - عليه السلام - من السور القرآنية التى افتتحت بحرف من الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - : ﴿ الر ﴾ .

وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء فى هذه الحروف عند تفسيرنا لسور : آل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله . هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن عجزتم فهاتوا سورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1] .

وقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم ، وبيان للغرض السامى الذى أنزله الله - تعالى - من أجله .

والظلمات : جمع ظلمة ، والمراد بها : الكفر والضلال ، والمراد بالنور : الإيمان والهداية .

والباء فى ﴿ بإذن ربهم ﴾ للسببية ، والجار والمجرور متعلق بقوله ﴿ لتخرج ﴾ .

والصراط : الجادة والطريق ، من سرط الشىء إذا ابتلعه ، وسمى الطريق بذلك ، لأنه يبتلع المارين فيه ، وأبدلت سينه صادا على لغة قريش .

والمعنى : هذا كتاب جليل الشأن ، عظيم القدر ، أنزلناه إليك يا محمد ، لكى تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والعلم والهداية ، وهذا الإخراج إنما هو بإذن ربهم ومشيئته وإرادته وأمره .

وقوله ﴿ إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله ﴿ إلى النور ﴾ .

أى لتخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى طريق الله ﴿ العزيز ﴾ أى : الذى يَغلب ولا يُغلب ﴿ الحميد ﴾ أى : المحمود بكل لسان .

وأسند - سبحانه - الإخراج إلى النبى - ﷺ - باعتباره المبلغ لهذا الكتاب المشتمل على الهداية التى تنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهالة إلى الهداية وشبه الكفر بالظلمات - كما يقول الإمام الرازى - ، لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية ، وشبه الإيمان بالنور ، لأنه نهاية ما ينجلى به طريق هدايته»[2] .

وفى جمع « الظلمات » وإفراد « النور » إشارة إلى أن للكفر طرقا كثيرة ، وأما الإيمان

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٧٢ .

فطريق واحد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بإذن ربهم ﴾ احتراس لبيان أن نقل الناس من حال إلى حال إنما هو بإرادة الله - تعالى - ومشيئته ، وأن الرسول ما هو إلا مبلغ فقط ، أما الهداية فمن الله وحده .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ...﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض مِلكا ومُلكا وخلقا لا يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع .

ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجر على أنه بدل أو عطف بيان من العزيز الحميد .

وقرأه نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض .

وجملة « وويل للكافرين من عذاب شديد » تهديد ووعيد لمن كفر بالحق وأعرض عنه .

ولفظ « ويل » مصدر لا يعرف له فعل من لفظه مثل « ويح » وجاء مرفوعا للدلالة على الثبات والدوام ، ومعناه الهلاك أو الفضيحة أو الحسرة ، أى : الله - تعالى - هو الذى له ما فى السموات ومافى الأرض ، وويل للكافرين بما أنزلناه إليك - أيها الرسول الكريم - من عذاب شديد سينزل بهم ، فيجعلهم يستغيثون دون أن يجدوا من يغيثهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الكافرين بجملة من الصفات الذميمة ، التى أردتهم وأهلكتهم فقال - تعالى - : ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ....﴾ .

ويستحبون : بمعنى يحبون ، فالسين والتاء للتأكيد ، أى : يختارون ويؤثرون ولذا عداه بعلى . أى : يختارون شهوات الحياة الدنيا . ويؤثرون لذائذها و متعها على الدار الآخرة وما فيها من نعيم وخيرات ..

و« ويصدون » من الصد ، وهو صرف الغير عن الشىء ومنعه منه يقال : صد فلان فلانا عن فعل الشىء ، إذا منعه من فعله .

وسبيل الله : طريقه الموصلة إليه وهو ملة الإسلام .

ويبغون من البغاء - بضم الباء - بمعنى الطلب . يقال : بغيت لفلان كذا ، إذا طلبته له ، وبغيت الشىء أبغيه بغاء وبغى وبغية إذا طلبته .

والعوج - بكسر العين وفتحها - مصدر عوج - كتعب . إلا أن بعضهم يرى أن مكسور العين يكون فيما ليس بمرئى كالآراء والأقوال والعقائد ، وأن مفتوحها يكون فى المرئيات كالأجساد والمحسوسات .

أى : أن هؤلاء الكافرين يؤثرون شهوات الدنيا على الآخرة ونعيمها ، ولا يكتفون بذلك بل يضعون العراقيل فى طريق دعوة الحق حتى يبتعد الناس عنها ، ويطلبون لها العوج والميل تبعا لزيغ نفوسهم ، مع أنها أقوم طريق ، وأعدل سبيل . والضمير المنصوب فى قوله « يبغونها » يعود إلى سبيل الله . أى يبغون لها العوج ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير ، كما فى قوله ﴿ وإذا كالوهم ... ﴾ أى : كالوا لهم .

وقوله ﴿ عوجا ﴾ مفعول به ليبغون .

وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى « يبغونها» ، وهو الهاء هو المفعول ، وجعل « عوجا » حال من سبيل الله أى : ويريدونها أن تكون فى حال اعوجاج واضطراب . وقوله : ﴿ أولئك فى ضلال بعيد ﴾ بيان الحكم العادل الذى أصدره - سبحانه - عليهم .

أى : أولئك الموصوفون بما ذكر فى ضلال بعيد عن الحق .

والإشارة بأولئك الدالة على البعد ، للتنبيه على أنهم أحرياء بما وصفوا به بسبب تلبسهم بأقبح الخصال ، وأبشع الرذائل .

وعبر بفى الظرفية للدلالة على تمكن الضلال منهم ، وأنه محيط بهم كما يحيط الظرف بالمظروف .

قال الآلوسى : وفى الآية من المبالغة فى ضلالهم ما لا يخفى ، حيث أسند فيها الى المصدر ما هو لصاحبه مجازا كجد جده ...

ويجوز أن يقال : إنه أسند فيها ما للشخص إلى سبب اتصافه بما وصف به ، بناء على أن البعد فى الحقيقة صفة له باعتبار بعد مكانه عن مقصده ، وسبب بعده ضلاله ، لأنه لو لم يضل لم يبعد عنه ، فيكون كقولك : قتل فلانا عصيانه ، والإسناد مجازى وفيه المبالغة المذكورة أيضا .[1] .

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من مننه على عباده فقال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...﴾ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى أول السورة ﴿ كتاب

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٥.

أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ....﴾ كان هذا إنعاما على الرسول ، من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاما على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر ...

ثم ذكر فى هذه الآية ما يجرى مجرى تكميل النعمة والإحسان فى الوجهين :

أما بالنسبة إلى الرسول ، فلأن بعثته كانت إلى الناس عامة ..

وأما بالنسبة لعامة الخلق ، فلأنه - سبحانه - ما بعث رسولا إلى قوم إلا بلسانهم...»[١]

والباء فى قوله « بلسان » للملابسة ، والمراد باللسان : اللغة التى يتخاطب بها الرسول مع قومه ..

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسولا من الرسل إلى قوم من الأقوام ، إلا وكانت لغته كلغتهم ، لكى يتيسر لهم أن يفهموا عندما يريد أن يبلغهم إياه من الأوامر والنواهى ..

قال ابن كثير : « هذا من لطفه - تعالى - بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم كما قال الإمام أحمد .

حدثنا وكيع ، عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد : عن أبى ذر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لم يبعث الله - عز وجل - نبيا إلا بلغة قومه »[٢] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت: لم يبعث رسول الله - ﷺ- إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث الى الناس جميعا ، وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة . وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة - أيضا - قلت : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد . فكان أول الألسنة لسان قوم الرسول - ﷺ - لأنهم أقرب إليه .

فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم ، مع مافى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٧٩ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٩٧ .

التنازع والاختلاف ...»[1] وقال الشوكانى : ما ملخصه : « وقد قيل فى هذه الآية إشكال ، لأن النبى - ﷺ - أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ...

وأجيب : بأنه - ﷺ - وإن كان مرسلا إلى الثقلين ، لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه ، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم .

ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم ، وبينه الرسول لكل قوم بلسانهم ، لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها مالا يعرفه غيرها .

وربما كان ذلك - أيضا - مفضيا إلى التحريف والتصحيف ، بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون »[2] .

وجملة « فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » مستأنفة .

أى : فيضل الله من يشاء إضلاله ، أى يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه . ويهدى من يشاء هدايته ، لاراد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه .

« وهو » سبحانه « العزيز » الذى لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : وتفريع قوله « فيضل الله من يشاء ... الخ » على مجموع جملة « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، ولذلك جاء فعل « يضل » مرفوعا غير منصوب ، إذ ليس عطفا على فعل «ليبين » لأن الإضلال لا يكون معلولا للتبين ولكنه مفرع على الإرسال المعلل بالتبيين .

والمعنى : أن الإرسال بلسان قومه لعلة التبيين . وقد يحصل أثر التبيين بمعرفة الاهتداء ، وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبين لهم »[3] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت وظيفة القرآن الكريم ، ووظيفة الرسول - ﷺ - كما توعدت الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وغيهم ، كما وضحت بعض مظاهر قدرة الله - تعالى - ولطفه بعباده ، وفضله عليهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن رسالة موسى - عليه السلام - كانت أيضا لإخراج

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٦ .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٤ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور.

قومه من الظلمات إلى النور ، ولتذكيرهم بنعم خالقهم عليهم ، وبغناه عنهم ، فقال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما بين أنه أرسل محمدا - ﷺ - إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الإرسال وفى تلك البعثة ، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم ، وكيفية معاملة أقوامهم معهم . تصبيرا له - ﷺ - على أذى قومه ، وبدأ - سبحانه - بقصة موسى فقال : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ...﴾[1] .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، ابن يصهر ، ابن ماهيث ... وينتهى نسبه إلى لاوى بن يعقوب عليه السلام .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٣ .

وكانت ولادة موسى - عليه السلام - فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

والمراد بالآيات فى قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ الآيات التسع التى أيده الله تعالى بها قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ﴾[١] .

وهى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجدب - أى فى بواديهم ، والنقص من الثمرات - أى فى مزارعهم .

قال - تعالى - : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[٢] .

وقال - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾[٣] .

وقال - تعالى - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾[٤] .

ومنهم من يرى أنه يصح أن يراد بالآيات هنا آيات التوراة التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أى : ملتبسا بها . وهى كما أخرج ابن جرير وغيره ، عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير ، الآيات التسع التى أجراها الله على يده - عليه السلام - وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة »[٥] .

ويبدو لنا أنه لا مانع من حمل الآيات هنا على ما يشمل الآيات التسع ، وآيات التوراة ، فالكل كان لتأييد موسى - عليه السلام - فى دعوته .

و« أن » فى قوله ﴿ أن أخرج قومك ﴾ تفسيرية بمعنى أى : لأن فى الإرسال معنى القول دون حروفه .

والمراد بقومه : من أرسل لهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وهم : بنو إسرائيل وفرعون وأتباعه .

وقيل : المراد بقومه : بنو إسرائيل خاصة ، ولا نرى وجها لهذا التخصيص ، لأن رسالة

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠١ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .
(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٣ .
(٥) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٦٨ .

موسى - عليه السلام - كانت لهم ولفرعون وقومه .

والمعنى : وكما أرسلناك يامحمد لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا من قبلك أخاك موسى إلى قومه لكى يخرجهم - أيضا- من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . فالغاية التى من أجلها أرسلت - أيها الرسول الكريم - هى الغاية التى من أجلها أرسل كل نبى قبلك ، وهى دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وخص - سبحانه - موسى بالذكر من بين سائر الرسل . لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة الاسلامية .

وأكد - سبحانه - الاخبار عن إرسال موسى بلام القسم وحرف التحقيق قد ، لتنزيل المنكرين لرسالة النبى - ﷺ - منزلة من ينكر رسالة موسى - عليه السلام - وقوله - تعالى - : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ معطوف على قوله ﴿ أن أخرج قومك ﴾ .

والتذكير : إزالة نسيان الشيء ، وعدى بالباء لتضمينه معنى الإنذار والوعظ : أى ذكرهم تذكير عظة بأيام الله .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بأيام الله : نعمه وآلاؤه .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى : بأياديه ونعمه عليهم ، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى »[1] .

ومنهم من يرى أن المراد بها ، نقمه وبأساؤه .

قال صاحب الكشاف : قوله : « وذكرهم بأيام الله » أى : وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كما وقع على قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها ، كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، وهو الظاهر »[2] .

ومنهم من يرى أن المراد بها ما يشمل أيام النعمة ، وأيام النقمة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أما قوله « وذكرهم بأيام الله » فاعلم أنه - تعالى - أمر موسى فى هذا المقام بشيئين ، أحدهما : أن يخرجهم من الظلمات إلى النور . والثانى : أن يذكرهم بأيام الله .

ويعبر عن الأيام بالوقائع العظيمة التى وقعت فيها .. ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٨ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٧ .

فالمعنى : عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد ، أن يذكرهم بنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل .. والترهيب والوعيد . أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ، ممن كذب الرسل من الأمم السالفة ...

ثم قال : واعلم أن أيام الله فى حق موسى - عليه السلام - منها ما كان أيام المحنة والبلاء ، وهى الأيام التى كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ، ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى عليهم ..»[1] .

وقال الآلوسى : « قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى : بنعمائه وبلائه ، كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - واختاره الطبرى ، لأنه الأنسب بالمقام والأوفق بما سيأتى من الكلام »[2] .

وما ذهب إليه الإمامان الرازى والألوسى ، هو الذى تسكن إليه النفس ، لأن الأيام كلها وإن كانت لله ، إلا أن المراد بها هنا أيام معينة ، وهى التى برزت فيها السراء أو الضراء بروزا ظاهرا ، كانت له آثاره على الناس الذين عاشوا فى تلك الأيام .

وبنو إسرائيل - على سبيل المثال - مرت عليهم فى تاريخهم الطويل ، أيام غمروا فيها بالنعم ، وأيام أصيبوا فيها بالنقم .

فالمعنى : ذكر ياموسى قومك بنعم الله لمن آمن وشكر ، وبنقمه على من جحد وكفر ، لعل هذا التذكير يجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتبعونك فيما تدعوهم إليه .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ يعود على التذكير بأيام الله .

والصبار : الكثير الصبر على البلاء ، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع فعلا أو تركا . يقال : صبره عن كذا يصبره إذا حبسه .

والشكور : الكثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ، والشكر : عرفان الإحسان ونشره والتحدث به ، وأصله من شكرت الناقة - كفرح - إذا امتلأ ضرعها باللبن ، ومنه أشكر الضرع إذا امتلأ باللبن .

أى : إن فى ذلك التذكير بنعم الله ونقمه ، لآيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٨ .

الله - تعالى - وقدرته وعلمه ، وحكمته ، لكل إنسان كثير الصبر على البلاء ، وكثير الشكر على النعماء .

وتخصيص الآيات بالصبار والشكور لأنهما هما المنتفعان بها وبما تدل عليه من دلائل على وحدانية الله وقدرته ، لا لأنها خافية على غيرهما ، فإن الدلائل على ذلك واضحة لجميع الناس .

وجمع - سبحانه - بينهما ، للإشارة إلى أن المؤمن الصادق لا يخلو حاله عن هذين الأمرين ففى الحديث الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»[1] .

وقدم - سبحانه - صفة الصبر على صفة الشكر ، لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر ، أو لأن الصبر من قبيل الترك ، والتخلية مقدمة على التحلية .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - قد امتثل أمر ربه فقال : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم... ﴾

و«إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

والمراد بقوله : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ : تنبهوا بعقولكم وقلوبكم لتلك المنن التى امتن الله بها عليكم ، وقوموا بحقوقها ، وأكثروا من الحديث عنها بألسنتكم. فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها .

« آل فرعون » حاشيته وخاصته من قومه . وفرعون : لقب لملك مصر فى ذلك الوقت ، كما يقال لملك الروم قيصر ..

ويسومونكم من السوم وهو مطلق الذهاب أو الذهاب فى ابتغاء الشىء ، يقال : سامت الإبل فهى سائمة . أى : ذهبت فى المرعى ، وسام السلعة : إذا طلبها وابتغاها .

وسامه خسفا ، إذا أذله واحتقره وكلفه فوق طاقته .

و﴿ سوء العذاب ﴾ أشده . والسوء - بالضم - كل ما يدخل الحزن والغم على نفس الإنسان . وهو فى الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال السوأى .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٨ .

وقوله ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ من الاستحياء بمعنى الاستبقاء ، يقال : استحيا فلان فلانا أى : استبقاه وأصله طلب له الحياة والبقاء .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - أو أيها المخاطب وقت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل الإرشاد والتوجيه إلى الخير : يا قوم ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ أى : داوموا على شكر الله ، فقد أسبغ عليكم نعما كثيرة من أبرزها أنه - سبحانه - أنجاكم من آل فرعون الذين كانوا يصبون عليكم أشد العذاب وأفظعه ، وكانوا يذبحون أبناءكم الصغار ، ويستبقون نساءكم ..

وجعل - سبحانه - النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونا فى إذاقتهم سوء العذاب .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى اسرائيل ، لأن هذا الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتداء عليهن ، واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن بعد فقد الذكور بقاء ذليل ، وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ أى : ويبقونهن فى الحياة مع الذل . ولذلك عد من جملة البلاء ، أو لأن إبقاءهن دون البنين رزية فى ذاته كما قيل :

ومن أعظم الرزء فيما أرى ... بقاء البنات وموت البنينا[1]

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء هنا : الأطفال الصغار ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث إن فرعون وآله ، كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت أم موسى بإلقائه فى البحر وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾ لأن المقصود هنا تعداد المحن التى حلت ببنى اسرائيل ، فكان المراد بجملة ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ نوعا منه ، وكان المراد بجملة ﴿ ويذبحون أبناءكم ﴾ نوعا آخر منه ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى ، وإنما هى تمثل نوعا آخر من العذاب الذى حل ببنى إسرائيل .

بخلاف قوله - تعالى - فى سورة البقرة ﴿ يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٠ .

بدون واو العطف . لأن الجملة الثانية بيان وتفسير للجملة الأولى . فيكون المراد من سوء العذاب فى سورة البقرة تذبيح الأبناء واستحياء النساء .

واسم الاشارة فى قوله : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ يعود إلى المذكور من النعم والنقم ، والبلاء : الامتحان والاختبار ، ويكون فى الخير والشر . قال - تعالى - ﴿ ونبلوكم بالخير والشر فتنة ﴾ .

أى : وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه امتحان عظيم لكم من ربكم بالسراء لتشكروا وبالضراء لتصبروا ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الشقاء والهوان .

ثم حكى - سبحانه - أن موسى - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى سنة من سنن الله التى لا تتخلف فقال : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتكم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ ..

وقوله : « تأذن » بمعنى آذن أى أعلم ، يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه ، إلا أن صيغة التفعل تفيد المبالغة فى الإعلام ، فيكون معنى «تأذن » : أعلم إعلاما واضحا بليغا لا التباس معه ولا شبهة .

واللام فى قوله : ﴿ لئن شكرتم ﴾ موطئة للقسم . وحقيقة الشكر : الاعتراف بنعم الله - تعالى - واستعمالها فى مواضعها التى أرشدت الشريعة إليها .

وقوله : « لأزيدنكم » ساد مسد جوابى القسم والشرط .

والمراد بالكفر فى قوله : «ولئن كفرتم » كفر النعمة وجحودها ، وعدم نسبتها إلى واهبها الحقيقى وهو الله - تعالى - كما قال قارون ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ وعدم استعمالها فيما خلقت له ، إلى غير ذلك من وجوه الانحراف بها عن الحق .

وجملة : ﴿ إن عذابى لشديد ﴾ دليل على الجواب المحذوف لقوله ﴿ ولئن كفرتم ﴾ إذ التقدير : ولئن كفرتم لأعذبنكم ، إن عذابى لشديد .

قال الجمل : « وإنما حذف هنا وصرح به فى جانب الوعد ، لأن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد »[1] .

والمعنى : واذكر أيها المخاطب وقت أن قال موسى لقومه : يا قوم إن ربكم قد أعلمكم إعلاما واضحا بليغا مؤكداً بأنكم إن شكرتموه على نعمه ، زادكم من عطائه وخيره ومننه ، وإن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥١٥ .

جحدتم نعمه وغمطتموها واستعملتموها فى غير ما يرضيه ، محقها من بين أيديكم ، فإنه - سبحانه - عذابه شديد ، وعقابه أليم .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الموجبة للشكر ، والمحذرة من الجحود فقال :

وقد جاء فى الحديث الشريف : «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال : أتى النبى - ﷺ - سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها - أو وحش بها أى : رماها - قال : وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال السائل : سبحان الله !! تمرة من رسول الله - ﷺ - فقال للجارية : إذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها[1] .

ثم بين - سبحانه - أن موسى قد أخبر قومه أن ضرر كفرهم إنما يعود عليهم ، لأن الله - تعالى - غنى عن العالمين فقال - تعالى - : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا ، فإن الله لغنى حميد ﴾ .

أى : وقال موسى - عليه السلام - لقومه : إن تجحدوا نعم الله أنتم ومن فى الأرض جميعا من الخلائق ، فلن تضروا الله شيئا ، وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعمه ، والمنحرف عن طريقه ، فإن الله - تعالى - لغنى عن شكركم وشكرهم ، مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعا وكرها .

ويبدو من سياق الآية الكريمة أن موسى - عليه السلام - إنما قال لقومه ذلك ، بعد أن شاهد منهم علامات الإصرار على الكفر والفساد ، وترجح لديه أنهم قوم لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب ، ولمس منهم أنهم يمنون عليه أو على الله - تعالى - بطاعاتهم فأراد بهذا القول أن يزجرهم عن الإدلال بإيمانهم ، والمن بطاعتهم .

فالغرض الذى سيقت له الآية إنما هو بيان أن منفعة الطاعة والشكر والإيمان إنما تعود على الطائعين الشاكرين المؤمنين ، وأن مضرة الجحود والكفران إنما تعود على الجاحدين الكافرين . أما الله - تعالى - فلن تنفعه طاعة المطيع ، ولن تضره معصية العاصى .

ففى الحديث القدسى الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى ، عن رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : « ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٩ .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » .[1]

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد زخرت بالتوجيهات القرآنية الحكيمة ، التى ساقها الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - وهو يعظ قومه ، ويذكرهم بأيام الله ، وبسننه فى خلقه ، وبغناه عنهم ..

ثم حكى - سبحانه - جانبا من أحوال بعض الرسل مع أقوامهم ، ومن المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم فقال - تعالى - :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا

---

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم .

عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ... ﴾ .
يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام موسى - عليه السلام - فيكون المعنى :
أن موسى - عليه السلام - بعد أن ذكر قومه بأيام الله - تعالى - ، وبنعمه عليهم ، وبسننه - سبحانه - فى خلقه ..

بعد كل ذلك شرع فى تذكيرهم وتخويفهم عن طريق ما حل بالمكذبين من قبلهم ، فقال لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم .. ﴾ .

ومنهم من يرى أن الآية الكريمة كلام مستأنف ، والخطاب فيه لأمة الرسول - ﷺ - فيكون المعنى : أن الله - تعالى - بعد أن بين للناس أنه قد أنزل كتابه على رسوله - ﷺ - لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وبين - سبحانه - أن له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهدد الكافرين بالعذاب الشديد ، وحكى ما قاله موسى لقومه ..

بعد كل ذلك وجه - سبحانه - الخطاب إلى مشركى مكة وإلى كل من كان على شاكلتهم فقال : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ... ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : « يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه ، والمقصود منه أنه - عليه السلام - كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم .

ويجوز أن يكون مخاطبة من الله - تعالى - على لسان موسى لقومه ، يذكرهم أمر القرون الأولى . والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ، وهذا المقصود حاصل على

التقديرين ، إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول - ﷺ -[١] .

ومع أننا نؤيد الإمام الرازى فى أن المقصود إنما حصول العبرة بأحوال المتقدمين إلا أننا نميل مع الأكثرين إلى الرأى الثانى ، لأن قوم الرسول - ﷺ - هم المقصودون قصدا أوليا بالخطاب القرآنى ، ولأن الإمام ابن كثير - رحمه الله - يرى أنه لم يرد ذكر فى التوراة لقوم عاد وثمود ، فقد قال :

قال ابن جرير : « هذا من تمام قول موسى لقومه ... وفيما قال ابن جرير نظر والظاهر أنه خبر مستأنف من الله - تعالى - لهذه الأمة ، فإنه قد قيل إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ، فلاشك حينئذ أن تكون هاتان القصتان فى التوراة[٢] .

والاستفهام فى قوله ﴿ ألم يأتكم ...﴾ للتقرير لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ، فقوم نوح بلغتهم أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذى كان مشهورا بينهم ، وقوم عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم من العرب ، ومساكنهم فى بلادهم ، وهم يمرون على ديار قوم صالح فى أسفارهم إلى بلاد الشام للتجارة . والمراد بالذين من بعدهم : أولئك الأقوام الذين جاءوا من بعد قوم نوح وعاد وثمود ، كقوم إبراهيم وقم لوط وغيرهم .

وقوله : ﴿ لايعلمهم إلا الله ﴾ أى : لا يعلم عدد الأقوام الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد وثمود ولا يعلم ذواتهم وأحوالهم إلا الله تعالى .

وقوله ﴿ والذين من بعدهم ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ خبره ، والجملة اعتراض بين المفسر - بفتح السين - وهو ﴿ نبأ الذين من قبلهم ﴾ وتفسيره وهو ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ .

والمعنى : لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ، كما علمتم ما حل بالمكذبين من بعدهم كقوم لوط وقوم شعيب ، وكغيرهم ممن لا يعلم أحوالهم وعددهم إلا الله - تعالى - وما دام الأمر كذلك فاعتبروا واتعظوا واتبعوا هذا الرسول الكريم الذى جاء لسعادتكم ، لكى تنجوا من العذاب الأليم الذى حل بالظالمين من قبلكم .

وجملة ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ مستأنفة فى جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ما قصة هؤلاء الأقوام وما خبرهم ؟

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٨ طبعة دار الكتب العلمية - طهران .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٠ .

فكان الجواب : جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات ، وبالمعجزات الظاهرات ، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ... ﴾ .

بيان لموقف الأقوام المكذبين من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم .

والضمائر فى «ردوا» و«أيديهم » و« أفواههم » تعود على الأقوام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات . وهذه الجملة الكريمة ذكر المفسرون فى معناها وجوها متعددة أوصلها بعضهم إلى عشرة أقوال :

منها : أن الكفار وضعوا أناملهم فى أفواههم فعضوها غيظا وبغضا مما جاء به الرسل ، وقالوا لهم بغضب وضجر : إنا كفرنا بما أرسلتم به وبما جئتمونا به من معجزات ، فاغربوا عن وجوهنا ، واتركونا وشأننا .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا الوجه الإمام ابن جرير ، فقد قال : « وقوله : ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ... ﴾ اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك ، فعضوا على أصابعهم تغيظا عليهم فى دعائهم إياهم إلى مادعوهم إليه .. روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال الأخرى : وأشبه هذه الأقوال عندى بالصواب فى تأويل هذه الآية ، القول الذى ذكرناه عن عبدالله بن مسعود أنهم ردوا أيديهم فى أفواههم ، فعضوا عليها غيظا على الرسل ، كما وصف الله عز وجل به إخوانهم من المنافقين فقال : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ فهذا هو الكلام المعروف ، والمعنى المفهوم من رد الأيدى إلى الأفواه[1] .

ومنها : أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواههم إشارة منهم إلى أنفسهم وإلى ما يصدر عنها ، وقالوا للرسل على سبيل التحدى والتكذيب . « إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى : لا جواب لكم عندنا سوى ما قلناه لكم بألسنتنا هذه .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا القول الإمام الآلوسى ، فقد صدر الأقوال التى ذكرها به ، فقال ما ملخصه : قوله ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ أى: أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به ، وقالوا لهم ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى : على زعمكم ، وهى البينات التى

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٧ .

أظهروها حجة على صحة رسالتهم ، ومرادهم بالكفر بها : الكفر بدلالتها على صحة رسالتهم ..

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال : والذى يطابق المقام ، وتشهد له البلاغة : هو الوجه الأول ، ونص غير واحد على أنه الوجه القوى ، لأنهم حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، حيث جمعوا فى الإنكارين : الفعل والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيها على أنهم لم يتمهلوا ، بل عقدوا دعوتهم بالتكذيب ...»[1] .

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبا .

وقد رجح هذا الوجه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقال : « وهذا التركيب لا أعهد مثله فى كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن : ومعنى ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ .

يحتمل عدة وجوه أنهاها فى الكشاف إلى سبعة ، وفى بعضها بعد ، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل أفواههم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل[2] .

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، لم يردوا عليهم ، بل تركوهم إهمالا لشأنهم .

وقد رجح الشوكانى هذا الاتجاه فقال ما ملخصه : « وقال أبو عبيدة – ونعم ما قال – هو ضرب مثل . أى : لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول الرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد رد يده فى فيه . و هكذا قال الأخفش ، واعترض على ذلك القتيبى فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول : رد يده فى فيه ، إذا ترك ما أمر به وإنما المعنى عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ..

فإن صح ما ذكره أبو عبيدة والأخفش فتفسير الآية به أقرب ...»[3] .

وهذه الأقوال جميعها وإن كانت تتفق فى أن الآية الكريمة ، قد أخبرت بأبلغ عبارة عما قابل به الأقوام المكذبون رسلهم من سوء أدب ..

إلا أننا نميل إلى ما ذهب إليه الإمام ابن جرير ، لأنه أظهر الأقوال فى معناها ، وقد استشهد له بعضهم بأشعار العرب ، ومنها قول الشاعر :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٩٦ .

(٣) راجع تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٩٧ ففيه ما يقرب من عشرة أقوال فى معنى الآية .

ترون فى فيه غش الحسو د حتى يعض على الأكفا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ معطوف على قوله ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة ، فمعنى مريب : موقع فى الريبة أى : فى القلق والاضطراب .

أى : قال المكذبون لرسلهم إنا كفرنا بما جئتم به من المعجزات والبينات .

وإنا لفى شك كبير موقع فى الريبة مما تدعوننا إليه من الإيمان بوحدانية الله ، وبإخلاص العبادة له ..

قال الجمل ما ملخصه : «فإن قيل : إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل .

ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون فى صحة قولهم فكيف ذلك ؟

فالجواب : كأنهم قالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل فإن لم نكن كذلك ، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم .

أو يقال : المراد بقولهم « إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى بالمعجزات والبينات ، وبقولهم : ﴿ وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ وهو الإيمان والتوحيد .

أو يقال : إنهم كانوا فرقتين إحداهما جزمت بالكفر ، والأخرى شكت ...»[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الرسل على المكذبين من أقوامهم فقال : ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك ، فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. ﴾ .

والاستفهام فى قوله ﴿ أفى الله شك ﴾ للتوبيخ والإنكار ، ومحل الانكار هو وقوع الشك فى وجود الله - تعالى - وفى وحدانيته .

وقوله ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ من الفطر بمعنى الخلق والإبداع من غير سبق مثال وأصله : الشق وفصل شىء عن شىء ، ومنه فطر ناب البعير أى : طلع و ظهر ، واستعمل فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٣٤٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥١٦ .

الإيجاد والإبداع والخلق لاقتضائه التركيب الذى سبيله الشق والتأليف ، أو لما فيه من الإخراج من العدم إلى الوجود .

والمعنى : قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة : أفى وجود الله - تعالى - وفى وجوب إخلاص العبادة له شك ، مع أنه - سبحانه - هو ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومبدعهما ومبدع ما فيهما على أحكم نظام ، وعلى غير مثال سابق .. وهو - سبحانه - فضلا منه وكرما « يدعوكم » إلى الإيمان بما جئناكم به من لدنه « ليغفر لكم » بسبب هذا الإيمان « من ذنوبكم ويؤخركم » فى هذه الدنيا « إلى أجل مسمى » أى : إلى وقت معلوم عنده تنتهى بانتهائه أعماركم ، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بعذاب الاستئصال « رحمة بكم » وأملا فى هدايتكم .

فأنت ترى أن الرسل الكرام قد أنكروا على أقوامهم أن يصل بهم انطماس البصيرة إلى الدرجة التى تجعلهم ينكرون وجود الله مع أن الفطر شاهدة بوجوده ، وينكرون وحدانيته مع أنه وحده الخالق لكل شىء ، ويشركون معه فى العبادة آلهة أخرى ، مع أن هذه الآلهة لاتضر ولاتنفع .

وجملة ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ جىء بها كدليل على نفى الشك فى وجوده - سبحانه - وفى وجوب إخلاص العبادة له ، لأن وجودهما على هذا النسق البديع يدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقا قادرا حكيما ، لاستحالة صدور تلك المخلوقات من غير فاعل مختار .

وجملة « يدعوكم ... » حال من اسم الجلالة ، واللام فى قوله « ليغفر لكم من ذنوبكم » متعلقة بالدعاء .

أى : يدعوكم إلى الإيمان بنا لكى يغفر لكم .

قال الشوكانى ما ملخصه : « ومن » فى قوله « من ذنوبكم » قال أبو عبيدة : إنها زائدة ، ووجه ذلك قوله - تعالى - فى موضع آخر : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ وقال سيبويه : هى للتبعيض ، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع ، وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران الذنوب لأمة محمد - ﷺ - غفران جميعها لغيرهم ..

وقيل هى للبدل ، أى : لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ...[1] .

وقال الجمل : « ويحتمل أن يضمن « ويغفر » معنى يخلص أى : يخلصكم من ذنوبكم ،

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٩٨ .

ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب ، وهو أولى من دعوى زيادتها »[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾ حكاية لرد آخر من الردود السيئة التى قابل بها المكذبون رسلهم .

أى : قال الظالمون لرسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة والمأكل والمشرب ، تريدون بما جئتمونا به أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة الآلهة التى ورثنا عبادتها عن آبائنا .. فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أى بحجة ظاهرة تدل على صدقكم وتتسلط هذه الحجة بقوتها على نفوسنا وتجذبها إلى اليقين ، من السلاطة وهى التمكن من القهر .

وكأن هؤلاء الظالمين بقولهم هذا ، يرون أن الرسل لا يصح أن يكونوا من البشر ، وإنما يكونون من الملائكة .

وكأن ما أتاهم به الرسل من حجج باهرة تدل على صدقهم ، ليس كافيا فى زعم هؤلاء المكذبين للإيمان بهم ، بل عليهم أن يأتوهم بحجج محسوسة أخرى ، وهكذا الجحود العقلى ، والانطماس النفسى يحمل أصحابه على قلب الحقائق ، وإيثار طريق الضلالة على طريق الهداية .

وهنا يحكى القرآن أن الرسل - عليهم السلام - قد قابلوا هذا السفه من أقوالهم بالمنطق الحكيم ، وبالأسلوب المهذب فيقول : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده .. ﴾ .

أى : قال الرسل لمكذبيهم على سبيل الإرشاد والتنبيه : نحن نوافقكم كل الموافقة على أننا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن هذه المماثلة بيننا وبينكم فى البشرية ، لا تمنع من أن يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده ، بأن يمنحه النبوة أو غيرها من نعمه التى لا تحصى .

فأنت ترى أن الرسل - عليهم السلام - قد سلموا للمكذبين دعواهم المماثلة فى البشرية ، فى أول الأمر ، ثم بعد ذلك بينوا لهم جهلهم وسوء تفكيرهم ، بأن أفهموهم بطريق الاستدراك ، أن المشاركة فى الجنس لا تمنع التفاضل ، فالبشر كلهم عباد الله ، ولكنه - سبحانه - يمن على بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم ..

فالمقصود بالاستدراك دفع ما توهمه المكذبون ، من كون المماثلة فى البشرية تمنع اختصاص بعض البشر بالنبوة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ صـ ٥١٧ .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ قالت لهم رسلهم ﴾ مجاراة لأول مقالتهم ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ كما تقولون ، وهذا كالقول بالموجب ، لأن فيه إطماعا فى الموافقة ، ثم كروا على قولهم بالإبطال فقالوا : ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ .

أى : إنما اختصنا الله - تعالى - بالرسالة بفضل منه وامتنان ، والبشرية غير مانعة لمشيئته - جل وعلا - . وفيه دليل على أن الرسالة عطائية ، وأن ترجيح بعض الجائز على بعض بمشيئته - تعالى - ولا يخفى ما فى العدول عن « ولكن الله مَنَّ علينا » ، إلى مافى النظم الجليل منهم - عليهم السلام -[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ﴾ حكاية لرد الرسل على قول المكذبين لهم ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ .

أى : وقال الرسل للمكذبين من أقوامهم - أيضا - : وما صح وما استقام لنا نحن الرسل أن نأتيكم - أيها الضالون - بحجة من الحجج ، أو بخارق من الخوارق التى تقترحونها علينا ، إلا بإذن الله وإرادته وأمره لنا بالإتيان بما اقترحتم ، فنحن عباده ولا نتصرف إلا بإذنه .

ثم أكد الرسل تمسكهم بالمضى فى دعوتهم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

والتوكل على الله معناه : الاعتماد عليه ، وتفويض الأمور إليه ، مع مباشرة الأسباب التى أمر - سبحانه - بمباشرتها .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليتوكل المؤمنون ، الصادقون ، دون أن يعبأوا بعنادكم ولجاجكم ، ونحن الرسل على رأس هؤلاء المؤمنين الصادقين .

فالجملة الكريمة أمر من الرسل لمن آمن من قومهم بالتوكل على الله وحده ، وقد قصدوا بهذا الأمر أنفسهم قصدا أوليا ، بدليل قولهم بعد ذلك - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾ .

أى : وما عذرنا إن تركنا التوكل على الله - تعالى - والحال أنه - عز وجل - قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، فقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ، وهى طريق إخلاص العبادة له والاعتماد عليه وحده فى كل شئوننا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٧ .

فالجملة الكريمة تدل على اطمئنانهم إلى سلامة مواقفهم فى تفويض أمورهم إلى الله ، وإلى رعاية الله - تعالى - حيث هداهم إلى طريق النجاة والسعادة .

ثم أضافوا إلى ذلك تيئيس أعدائهم من التأثر بأذاهم ، فقالوا ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ .

أى : والله لنصبرن صبرا جميلا فى حاضرنا ومستقبلنا - كما صبرنا فى ماضينا - على إيذائكم لنا . والذى من مظاهره : عصيانكم لأقوالنا ، ونفوركم من نصحنا ، واستهزاؤكم بنا ، ومحاربتكم لنا ..

ثم ختموا أقوالهم بتأكيد تصميمهم على الثبات فى و جه الباطل فقالوا ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليثبت المتوكلون على توكلهم . وليفوضوا أمورهم إلى خالقهم ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو الذى لا يعجزه شىء .

وتقديم الجار والمجرور فى الجملة الكريمة وفيما يشبهها مؤذن بالحصر ، وأن هؤلاء الرسل الكرام لا يرجون نصرا من غير الله - تعالى - .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة ، قد حكت لنا بأسلوب مؤثر حكيم ، جانبا من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين مكذبيهم ، وبينت لنا كيف دافع الرسل عن عقيدتهم ، وكيف ردوا على الأقوال السيئة ، والأفعال القبيحة ، التى واجههم بها المكذبون ، وكيف أعلنوا فى قوة وعزم وإصرار ثباتهم فى وجوه أعدائهم ، ومقابلتهم الأذى بالصبر الذى لا جزع معه ، مهما صنع الأعداء فى طريقهم من عقبات ، ومهما أثاروا من أباطيل وشبهات ..

ثم حكت السورة بعد ذلك جانبا آخر من تلك المحاورات التى دارت بين الرسل وبين أعدائهم ، وجانبا مما وعد الله به رسله - عليهم السلام - وجانبا من العذاب الذى أعده للظالمين فقال - تعالى - :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودن فى ملتنا ... ﴾ حكاية لما هدد به رءوس الكفر رسلهم ، بعد أن أفحمهم الرسل بالحجة البالغة ، وبالمنطق الحكيم .

واللام فى « لنخرجنكم » هى الموطئة للقسم . و«أو» للتخيير بين الأمرين .

أى : وقال الذين عتوا فى الكفر - على سبيل التهديد - لرسلهم ، الذين جاءوا لهدايتهم ، والله لنخرجنكم - أيها الرسل - من أرضنا ، أو لتعودن فى ديننا وملتنا .

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الأنبياء - عليهم السلام - أنهم قد اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه ، والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة وقالوا للأنبياء ولنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا » .

والمعنى : ليكونن أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا .

والسبب فيه أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين . وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين ، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة[1] .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ أو لتعودن فى ملتنا ﴾ يفيد بظاهره أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها ، فإن العود معناه : الرجوع إلى الشىء بعد مفارقته . وهذا محال ، فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر ، فضلاً عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بإجابات منها :

أن الخطاب وإن كان فى الظاهر مع الرسل ، إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون ، الذين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٩٩ .

كانوا قبل الإيمان بالرسل على دين أقوامهم ، فكأنهم يقولون لهؤلاء الأتباع : لقد كنتم على ملتنا ثم تركتموها ، فإما أن تعودوا إليها وإما أن تخرجوا من ديارنا ، إلا أن رءوس الكفر وجهوا الخطاب إلى الرسل من باب التغليب .

ومنها : أن العود هنا بمعنى الصيرورة ، إذ كثيرًا ما يرد « عاد » بمعنى صار ، فيعمل عمل كان ، ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل يستدعى الانتقال من حال سابقة إلى حال جديدة مستأنفة ، فيكون المعنى : لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرن كفارًا مثلنا .

ومنها : أن هذا القول من الكفار جار على توهمهم وظنهم ، أن الرسل كانت قبل دعوى النبوة على ملتهم ، لسكوتهم قبل البعثة عن الإنكار عليهم ، فلهذا التوهم قالوا ما قالوا ، وهم كاذبون فيما قالوه .

وشبيه بهذه الآية قول قوم شعيب - عليه السلام - له ﴿ لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ... ﴾[1] .

وقول قوم لوط له ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم .. ﴾ بشارة عظيمة من الله - تعالى - لرسله ، ووعد لهم بالنصر على أعدائهم ..

أى : فأوحى الله - تعالى - إلى الرسل - بعد أن قال لهم الكافرون - ما قالوا - : أبشروا أيها الرسل ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ الذين هددوكم بالإخراج من الديار ، أو بالعودة إلى ملتهم ، ﴿ ولنسكننكم ﴾ - أيها الرسل - ﴿ الأرض ﴾ أى أرضهم ﴿ من بعدهم ﴾ أى من بعد إهلاكهم واستئصال شأفتهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وأوحى هنا يحتمل أن يكون بمعنى فعل الإيحاء فلا مفعول له » .

وقوله ﴿ لنهلكن ﴾ على إضمار القول ، أى : قائلاً لنهلكن ، ويحتمل أن يكون جاريًا مجرى القول لكونه ضربًا منه ، وقوله ﴿ لنهلكن ﴾ مفعوله ..

وخص - سبحانه - الظالمين من الذين كفروا ، لأنه من الجائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا تلك المقالة أناس معينون ، فالتوعد لإهلاك من خلص للظلم »[3] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨٨ .
(٢) سورة النمل الآية ٥٦ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٣ صـ ١٧٩ .

وأكد - سبحانه - إهلاك الظالمين وإسكان الرسل أرضهم ، بلام القسم ونون التوكيد .. زيادة فى إدخال السرور على نفوس الرسل ، وفى تثبيت قلوبهم على الحق ، وردًا على أولئك الظالمين الذين أقسموا بأن يخرجوا الرسل من ديارهم ، أو يعودوا إلى ملتهم .

قال صاحب الكشاف : « والمراد بالأرض فى قوله ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ ..

وعن النبى - ﷺ - : « من آذى جاره ورثه الله داره » .

ثم قال : ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة ، كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا منها ويؤذينى فيه ، فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يومًا إلى أبناء خالى يترددون فيها ، ويدخلون فى دورها ويخرجون ويأمرون وينهون ، فذكرت قول رسول الله - ﷺ - وحدثتهم به ، وسجدنا شكرًا لله »[1] .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ يعود إلى ما قضى الله به من إهلاك الظالمين ، وتمكين الرسل وأتباعهم من أرضهم .

أى : ذلك الذى قضيت به كائن لمن خاف قيامى عليه ، ومراقبتى له ، ومكان وقوفه بين يدى للحساب ، وخاف وعيدى بالعذاب لمن عصانى .

قال الجمل : « ومقامى فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مقحم - وهو بعيد إذ الأسماء لا تقحم ، أى ذلك لمن خافنى - الثانى : أنه مصدر مضاف للفاعل .

قال الفراء : مقامى مصدر مضاف لفاعله : أى قيامى عليه بالحفظ . الثالث : أنه اسم مكان ، قال الزجاج : مكان وقوفه بين يدى للحساب »[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ واستفتحوا ﴾ من الاستفتاح بمعنى الاستنصار ، أى : طلب النصر من الله - تعالى - على الأعداء . والسين والتاء للطلب .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا .. ﴾ .

أو يكون ﴿ واستفتحوا ﴾ من الفتاحة بمعنى الحكم والقضاء ، أى : واستحكموا الله

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٣٧١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥١٨ .

- تعالى - وطلبوا منه القضاء والحكم ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على ﴿ فأوحى إليهم ربهم ﴾ ، والضمير يعود إلى الرسل .

والمعنى : والتمس الرسل من خالقهم - عز وجل - أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم وبين هؤلاء المكذبين .

قالوا : ومما يؤيد ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وابن محيصن ﴿ واستفتحوا ﴾ - بكسر التاء - أمرًا للرسل .

ومنهم من يرى أن الضمير يعود للفريقين : الرسل ومكذبيهم . أى : أن كل فريق دعا الله أن ينصره على الفريق الآخر .

وقوله ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ بيان لنتيجة الاستفتاح . والجبار : الإنسان المتكبر المغرور المتعالى على غيره ، المدعى لمنزلة أو لشىء ليس من حقه .

والعنيد : مأخوذ من العند - بفتح النون - بمعنى الميل . يقال : عند فلان عن الطريق - كنصر وضرب وكرم - عنودا ، إذا مال عنها . وعند فلان عن الحق ، إذا خالفه .

والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : واستفتحوا فنصر الله - تعالى - رسله على أعدائهم ، وخاب وخسر ، كل متكبر متجبر معاند للحق .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ أى : متجبر فى نفسه معاند للحق ، كما قال - تعالى - ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب * الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾[1] .

وفى الحديث : « يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادى الخلائق فتقول : إنى وكلت بكل جبار عنيد .. »[2] .

وقال - سبحانه - ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ ولم يقل وخاب الذين كفروا كما هو مقتضى الظاهر من السياق ، للتنبيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة معاندين للحق ، وأن كل من كان كذلك فلابد من أن تكون عاقبته الخيبة والخسران .

وقوله ﴿ من ورائه جهنم ﴾ صفة لجبار عنيد .

---

(١) سورة ق الآيات من ٢٤ - ٢٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٣ .

والمراد بقوله : ﴿ من ورائه ﴾ أى : من أمامه ، أو من بعد هلاكه .

أى : من أمام خيبة هذا الجبار العنيد جهنم ، تنتظر ليحل بها ، بسبب كفره وظلمه .

قال صاحب أضواء البيان : قوله ﴿ من ورائه جهنم ... ﴾ الوراء هنا بمعنى الأمام كما هو ظاهر ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ أى : وكان أمامهم ملك .. ومنه قول الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى وقـومى تميم والفـلاة ورائيـا

أى : والفلاة أماميا .

وقال بعضهم : قوله ﴿ من ورائه ﴾ أى من بعد هلاكه ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أتـرك لنفسـك ريبـة وليس وراء الله للمـرء مـذهب

أى : وليس بعد الله للمرء مذهب ، والأول هو الظاهر وهو الحق[1] .

وعلى أية حال فإن الجملة الكريمة تدل على أن جهنم تنتظر هذا الجبار العنيد ، وتترصد له ، وتتبعه حيث كان ، بحيث لا يستطيع الفرار منها ، أو الهرب عنها .

وجملة « ويسقى من ماء صديد » معطوفة على مقدر ، أى : من ورائه جهنم يلقى فيها مذءومًا مدحورًا ، ويسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة ، هو الصديد ، أى ما يسيل من أجساد أهل النار من دم مختلط بقيح ، واشتقاقه من الصد ، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته . وهو بدل أو عطف بيان من ماء .

وقوله ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه .. ﴾ بيان لحالة هذا الجبار العنيد عند تعاطيه الصديد .

والتجرع : تكلف الجرع وهو بلع الماء ، وفعله - كسمع ومنع - .

ويسيغه : من السوغ وهو انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول . يقال : ساغ الشراب سوغا وسواغا ، إذا كان سهل المدخل .

أى : يتكلف بلع هذا الصديد مرة بعد أخرى لمرارته وقبحه ، ولا يقارب أن يسيغه فضلًا عن الإساغة . بل يغص به فيشربه بعد عناء ومشقة جرعة عقب جرعة » .

وقوله ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ معطوف على قوله ﴿ يتجرعه ﴾ لبيان حالة أخرى من أحوال شقائه وعذابه .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ١٠٦ للشيخ محمد أمين الشنقيطى .

أى : وتأتيه الأسباب المؤدية للموت والهلاك من كل جهة من الجهات ، ومن كل موضع من مواضع بدنه ، وما هو بميت فيستريح من هذا الشقاء والعذاب ، ومن وراء كل ذلك عذاب غليظ أى : شاق شديد لا يقل فى ألمه عما هو فيه من نكال .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد صورت لنا سوء عاقبة المكذبين للحق تصويرًا مؤثرًا ، تهتز له النفس ، وتوجل منه القلوب .

ثم ضرب - سبحانه - مثلًا لأعمال الكافرين فى حبوطها وذهابها يوم القيامة ، وساق الأدلة الدالة على قدرته القاهرة ، وصور أحوال الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وحكى ما يقوله الضعفاء للمستكبرين وما يقوله الشيطان لأتباعه فى هذا اليوم العصيب ، وما أعده الله للمؤمنين الصادقين فى هذا اليوم فقال - تعالى - :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ

(١) سورة فاطر الآية ٣٦ .
(٢) سورة الأعلى الآيات ١١ - ١٣ .

مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه – تعالى – لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية المتقدمة ، بين فى هذه الآية وهى قوله – تعالى – ﴿ مثل الذين كفروا بربهم .. ﴾ . أن أعمالهم بأسرها ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشىء منها . وعند هذا يظهر كمال خسرانهم ، لأنهم لا يجدون فى القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه فى الدنيا وجدوه ضائعًا باطلاً »[1] .

والمثل : النظير والشبيه . ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه بمورده ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة ، أو الحال ، أو القصة إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة .

والمراد بأعمال الذين كفروا فى الآية الكريمة : ما كانوا يقومون به فى الدنيا من أعمال حسنة

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٠٤ .

كإطعام الطعام ، ومساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيف ، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة .

والرماد : ما يتبقى من الشيء بعد احتراق أصله ، كالمتبقى من الخشب أو الحطب بعد احتراقهما .

والعاصف : من العصف وهو اشتداد الريح ، وقوة هبوبها .

قال الجمل : « وقوله : ﴿ مثل الذين كفروا ... ﴾ فيه أوجه للإعراب : أحدها وهو مذهب سيبويه : أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله ﴿ أعمالهم كرماد .. ﴾ مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مثلهم ..؟ فقيل : كيت وكيت .

والثانى : أن يكون « مثل » مبتدأ و « أعمالهم » مبتدأ ثان ، و« كرماد » خبر المبتدأ الثانى ، والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول .... »[1] .

والمعنى : حال أعمال الذين كفروا فى حبوطها وذهابها وعدم انتفاعهم بشىء منها فى الآخرة ، كحال الرماد المكدس الذى أتت عليه الرياح العاصفة ، فمحقته وبددته ، ومزقته تمزيقًا لا يرجى معه اجتماع .

فالآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون فى الدنيا من أعمال البر والخير .

ووجه الشبه : الضياع والتفرق وعدم الانتفاع فى كل ، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا ، فكذلك أعمال الكافرين فى الآخرة تصير هباء منثورًا ، لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص العبادة لله - تعالى - .

ووصف - سبحانه - اليوم بأنه عاصف - مع أن العصف شدة الريح - للمبالغة فى وصف زمانها - وهو اليوم - بذلك ، كما يقال : يوم حار ويوم بارد ، مع أن الحر والبرد فيهما وليس منهما .

وقوله - سبحانه - ﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شىء ﴾ بيان للمقصود من التشبيه ، وهو أن هؤلاء الكافرين ، لا يقدرون يوم القيامة ، على الانتفاع بشىء مما فعلوه فى الدنيا من أفعال البر والخير ، لأن كفرهم أحبطها فذهب سدى دون أن يستفيدوا منها ثوابًا ، أو تخفف عنهم عذابا .

قال الآلوسى : « وفى الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : يا رسول

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٠ .

الله . إن ابن جدعان فى الجاهلية كان يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ؛ لأنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين »[١] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « هذا مثل ضربه الله - تعالى - لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها وهم أحوج ما كانوا إليها ...

كما قال - تعالى - ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[٢] .

وكما قال - تعالى - ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾[٣].

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ يعود إلى ما دل عليه التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .

أى : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم بشىء منها ، هو الضلال البعيد .

أى : البالغ أقصى نهايته ، والذى ينتهى بصاحبه إلى الهلاك والعذاب المهين .

ووصف - سبحانه - الضلال بالبعد ، لأنه يؤدى إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، بعض مظاهر قدرته التى لا يعجزها شىء فقال - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾[٤] .

والخطاب فى قوله ﴿ ألم تر .. ﴾ لكل من يصلح له بدون تعيين . والاستفهام للتقرير .

والرؤية مستعملة فى العلم الناشىء عن النظر والتفكير والتأمل فى ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ ألم تر ... ﴾ هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن لا يكون كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشىء بحال من رآه فى أنه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٨٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١١٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١١٦ .

لا ينبغى أن يخفى عليه ، وأنه ينبغى أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه ، كما يجرى مع من رأى ، قصدًا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب ... »[١] .

والمعنى ؛ ألم تعلم - أيهاالعاقل - أن الله - تعالى - ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ . أى : خلقهما بالحكمة البالغة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى تقتضيه إرادته ، وهو - سبحانه - ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أى - يهلككم أيها الناس ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ سواكم ، لأن القادر على خلق السموات والأرض وما فيهما من أجرام عظيمة ، يكون على خلق غيرهما أقدر ، كما قال - تعالى - ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .. ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم - أيها الناس - ويأت بمخلوقين آخرين غيركم ، وما ذلك الإذهاب بكم ، والإتيان بغيركم بمتعذر على الله ، أو بمتعاص عليه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ، ولا يحول دون نفاذ قدرته حائل .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[٤] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾[٥] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين الضعفاء والمستكبرين ، بين الأتباع والمتبوعين ... فقال - تعالى - : ﴿ وبرزوا لله جميعًا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ... ﴾ .

وقوله ﴿ وبرزوا ﴾ من البروز بمعنى الظهور ، مأخوذ من البراز وهو الفضاء الواسع ، الذى يظهر فيه الناس بدون استتار . أى : وخرج الكافرون جميعًا من قبورهم يوم القيامة ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٠ .
(٢) سورة غافر الآية ٥٧ .
(٣) سورة فاطر الآيات من ١٥ - ١٧ .
(٤) سورة محمد الآية ٣٨ .
(٥) سورة النساء الآية ١٣٣ .

وظهروا ظهورًا لا خفاء معه ، لكى يحاسبهم - سبحانه - على أعمالهم فى الدنيا .

وقال - سبحانه - ﴿ وبرزوا ﴾ بلفظ الفعل الماضى مع أن الحديث عن يوم القيامة ، للتنبيه على تحقق وقوع هذا الخروج ، وأنه كائن لا محالة .

وعبر - سبحانه - بهذا التعبير ، مع أنهم لا يخفون عليه سواء أبرزوا أم لم يبرزوا ، لأنهم كانوا فى الدنيا يستترون عن العيون عند اجتراحهم السيئات ويظنون أن ذلك يخفى على الله - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - ما سيقوله الضعفاء للمستكبرين فى هذا الموقف العصيب فقال :

﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم العوام والأتباع الذين فقدوا نعمة التفكير ، ونعمة حرية الإرادة ، فهانوا وذلوا ..

قال هؤلاء الضعفاء ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم السادة المتبوعون الذين كانوا يقودون أتباعهم إلى طريق الغى والضلال .

﴿ إنا كنا لكم ﴾ - أيها السادة - ﴿ تبعا ﴾ جمع تابع كخادم وخدم .

أى : إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لأمركم ، فى تكذيب الرسل ، وفى كل ما تريدونه منا .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ﴾ للتقريع والتفجع .

ومغنون من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة .

قال الشوكانى : « يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع »[1] .

أى : فهل أنتم - أيها المستكبرون - دافعون عنا شيئا من عذاب الله النازل بنا ، حتى ولو كان هذا الشىء المدفوع قليلا ؟ إن كان فى إمكانكم ذلك فاظهروه لنا ، فقد كنتم فى الدنيا سادتنا وكبراءنا ، وكنتم تزعمون أنكم أصحاب الحظوة يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين « من » فى « من عذاب الله » وبينه فى « من شىء » ؟

قلت : الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشىء

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٣ .

الذى هو عذاب الله ؟ ويجوز أن يكون للتبعيض معا بمعنى : هل انتم مغنون عنا بعض شىء ، هو بعض عذاب الله ؟ أى : بعض بعض عذاب الله »[١] .

ثم حكى - سبحانه - رد المستكبرين على المستضعفين فقال : ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم .. ﴾ .

أى : قال المستكبرون - بضيق وتحسر - فى ردهم على المستضعفين : لو هدانا الله - تعالى - إلى الإيمان الموصل إلى النجاة من هذا العذاب الأليم « لهديناكم » إليه ، ولكن ضللنا عنه وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولو كنا نستطيع النفع لنفعنا أنفسنا .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ .

والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذهوله .

يقال : جزع فلان يجزع جزعا وجزوعا ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرا .

والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشىء يحيص حيصا ومحيصا ، إذا عدل عنه على جهة الهرب والفرار .

أى : مستو عندنا الجزع مما نحن فيه من عذاب ، أو الصبر على ذلك ، وليس لنا من مهرب أو منجى من هذا المصير الأليم .

فالآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة ، وهى أقوال يبدو فيها طابع الذلة والمهانة كما هو شأنهم فى الدنيا ، كما تحكى رد المستكبرين عليهم ، وهو رد يبدو فيه التبرم والتفجع والتأنيب من طرف خفى لهؤلاء الضعفاء ، والتسليم بالواقع الأليم الذى لامحيص لهم عنه .

قال الإمام ابن كثير : « قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله - تعالى - ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر ، فصبروا صبرا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك . فعند ذلك قالوا : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾[٢] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٨ .

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ، إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم .. ﴾ والمراد بالشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - .

قال الفخر الرازى : « وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان مفرد فيتناول الواحد ، وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه أولى . ولاسيما وقد قال رسول الله - ﷺ - : « إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم ، يقول الكافر : قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، ما هو إلا إبليس ، فهو الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول ..»[1] .

والمراد بقوله - سبحانه - ﴿ لما قضى الأمر ﴾ أى : حين تم الحساب ، وعرف أهل الجنة ثوابهم ، وعرف أهل النار مصيرهم ، كل فريق فى المكان الذى أعده الله تعالى له . والمقصود من حكاية ما يقوله الشيطان للكافرين فى هذا اليوم . تحذير المؤمنين من وسوسته وإغوائه ، حتى ينجوا من العذاب الذى سيحل بأتباعه يوم القيامة .

والمراد بالحق فى قوله ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ : الصدق والوفاء بما وعدكم به على ألسنة رسله .

والمراد بالإخلاف فى قوله ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الكذب والغدر وعدم الوفاء بما مناهم به ، من أمانى باطلة .

قال - تعالى - : ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾[2] . وإضافة الوعد إلى الحق من إضافة الموصوف إلى الصفة أى إن الله - تعالى - وعدكم الوعد الحق الذى لا نقض له ، وهو أن الجزاء حق، والبعث حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ووعدتكم وعدا باطلا بأنه لا بعث ولا حساب .. فأخلفتكم ماوعدتكم به ، وظهر كذبى فيما قلته لكم . ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ ..

والسلطان : اسم مصدر بمعنى التسلط والقهر والغلبة .

أى : وما كان لى فيما وعدتكم به من تسلط عليكم ، أو إجبار لكم ، لكنى دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه من باطل وغواية ، فانقدتم لدعوتى واستجبتم لوسوستى عن طواعية واختيار .

فالاستثناء فى قوله « إلا أن دعوتكم » استثناء منقطع ، لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله ، وبعضهم يرى أن الاستثناء متصل .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١١٠ .
(٢) سورة النساء الآية ١٢٠ .

قال الجمل : « وفى هذا الاستثناء وجهان : أظهرهما : أنه استثناء منقطع ، لأن دعاءه ليس من جنس السلطان وهو الحجة البينة، والثانى : أنه متصل لأن القدرة على حمل الانسان على الشيء تارة تكون بالقهر ، وتارة تكون بتقوية الداعية فى قلبه بإلقاء الوساوس إليه . فهو نوع من التسلط »(١) .

وقوله ﴿ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ زيادة فى تأنيبهم وفى حسراتهم على انقيادهم له .

أي : فلا تلومونى بسبب وعودى إياكم . ولوموا أنفسكم ، لأنكم تقبلتم هذه الوعود الكاذبة بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى جاءكم من عند ربكم ، ومالك أمركم .

ثم ينفض يده منهم ، ويخلى بينهم وبين مصيرهم السيء فيقول : ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى﴾ . أى : ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من عذاب - أيضا - فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات ..

قال القرطبى ما ملخصه : « والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة ، والمصرخ هو المغيث لغيره .. قال أمية بن أبى الصلت :

ولا تجزعا إنى لكم غير مصرخ   وليس لكم عندى غناء ولا نصر

ويقال : صرخ فلان أى استغاث يصرخ صرخا وصراخا وصرخة ..

ومنه : استصرخنى فلان فأصرخته ، أى استغاث بى فأغثته ..»(٢) .

وجملة « إنى كفرت بما أشركتمون من قبل.. » مستأنفة ، لإظهار المزيد من التنصل والتبرى من كل علاقة بينه وبينهم .

و« ما » فى قوله « بما أشركتمون » الظاهر أنها مصدرية ..

قال الآلوسى ما ملخصه : « وأراد بقوله ﴿ إنى كفرت ﴾ أى : إنى كفرت اليوم « بما أشركتمون من قبل » .

أى : من قبل هذا اليوم ، يعنى فى الدنيا و« ما » مصدرية و« من قبل » متعلق بأشركتمون .

والمعنى : إنى كفرت بإشراككم إياى لله - تعالى - فى الطاعة ، لأنهم كانوا يطيعون

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص ٥٢٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٣٥٧ .

الشيطان فيما يزينه لهم من عبادة غير الله - تعالى - ، ومن أفعال الشر ..

ومراد اللعين : أنه إن كان إشراككم لى مع الله - تعالى - ، هو الذى أطمعكم فى نصرتى لكم .. فإنى متبرئ من هذا الشرك ، فلم يبق بينى وبينكم علاقة .. فالكلام محمول على إنشاء التبرى منهم يوم القيامة ..

ثم قال : وجوز غير واحد أن تكون « ما » موصولة بمعنى من ، والعائد محذوف ، و« من قبل » متعلق بكفرت . أى : إنى كفرت من قبل - حين أبيت السجود لآدم - بالذى أشركتمونيه . أى : جعلتمونى شريكا له فى الطاعة وهو الله - عز وجل - ..

والكلام على هذا إقرار من اللعين بقدم كفره ، وبسبق خطيئته فلا يمكنه أن يقدم لهم عونا أو نصرا ...[1] .

وجملة « إن الظالمين لهم عذاب أليم » فى موقع التعليل لما تقدم ، والظاهر أنها ابتداء كلام من جهته - تعالى - : لبيان سوء عاقبة الظالمين .

ويجوز أن تكون من تتمة كلام إبليس - الذى حكاه القرآن عنه - ، ويكون الغرض منها قطع أطماعهم فى الإغاثة أو النصر ، وتنبيه المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى عداوة الشيطان لهم وتحذيرهم من اتباع خطواته .

قال الشيخ الشوكانى - رحمه الله - ما ملخصه : « لقد قام الشيطان للكافرين فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ، ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولا : أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله - تعالى - وأنه أخلفهم ما وعدهم به ..

ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل ، لعدم الحجة التى لابد للعاقل منها فى قبول قول غيره .

ثم أوضح لهم ثالثا : بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أيسر شىء مما يتمسك به العقلاء .

ثم نعى عليهم رابعا : ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له ، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .

ثم أوضح لهم خامسا : بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة .. بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٨٩ .

ثم صرح لهم سادسا : بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، وهو إشراكه مع الله - تعالى - فتضاعفت عليهم الحسرات ، وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جملة « إن الظالمين لهم عذاب أليم » من تتمة كلامه - كما ذهب إليه البعض - فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فيكون قد أثبت لهم الظلم ، وذكر لهم جزاءه »[١] .

وبعد هذا الحديث عن سوء عاقبة الكافرين .. بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين من ثواب جزيل ، وأجر عظيم فقال - تعالى - :

﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ﴾ .

أى : وأدخل الله - تعالى - فى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة ، أدخلهم - سبحانه - جنات تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار ، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا لاموت معه ولاتعب .

وجاء التعبير بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وتعجيل البشارة ، وقوله ، ﴿ بإذن ربهم ﴾ أى : بإرادته - سبحانه - وتوفيقه وهدايته لهم .

وقوله ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ أى : تحيتهم فى الجنة سلام لهم من خالقهم - عز وجل - ومن الملائكة ، ومن بعضهم لبعض .

كما قال - تعالى - : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[٢] .

وكما قال - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم .. ﴾[٣] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ ويُلَقَّون فيها تحية وسلاما ﴾[٤] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت بأبلغ أسلوب بوار أعمال الذين كفروا ، وسوء أحوالهم يوم القيامة ، كما بينت حسن عاقبة المؤمنين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٠٤ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .
(٣) سورة الرعد الآية ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) سورة الفرقان الآية ٧٥ .

وبعد أن بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، أتبع ذلك بضرب مثل لهما زيادة فى التوضيح والتقرير فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

والخطاب فى قوله ﴿ ألم تر ... ﴾ للرسول - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب ، والاستفهام للتقرير ، والرؤية مستعملة فى العلم الناشىء عن التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر .... ﴾ هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن ليس كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى ذلك ، بأن شبه من لم ير الشىء بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب »[1] .

والمثل : يطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه لمورده .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٠ .

وقوله ﴿ مثلا ﴾ انتصب على أنه مفعول به لضرب ، وقوله ﴿ كلمة ﴾ بدل منه أو عطف بيان .

والمراد بالكلمة الطيبة : كلمة الإسلام ، وما يترتب عليها من عمل صالح ، وقول طيب .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والمراد بالشجرة الطيبة - المشبه بها - النخلة عند الأكثرين وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد ..

وأخرج عبدالرزاق والترمذى وغيرهما عن شعيب بن الحجاب قال : كنا عند أنس ، فأتينا بطيق عليه رطب ، فقال أنس لأبى العالية : كل يا أبا العالية ، فإن هذا من الشجرة التى ذكرها الله - تعالى - فى كتابه ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... ﴾ .

وأخرج الترمذى -أيضا - والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس قال : أتى رسول الله - ﷺ - بقناع من بسر - أى بطبق من تمر لم ينضج بعد فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة .. قال : هى النخلة» .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند .

وأخرج ابن جرير وابن ابى حاتم أنها شجرة فى الجنة ، وقيل كل شجرة مثمرة كالنخلة ، وكشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك ثم قال :

وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل ما فيه على التمثيل لا ينبغى العدول عنه »[1] .

وكأن الإمام الآلوسى بهذا القول يريد أن يرجح أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة ، لتصريح الآثار بذلك .

وقد رجح ابن جرير - أيضا - أن المراد بها النخلة فقال ما ملخصه : « واختلفوا فى المراد بالشجرة الطيبة ، فقال بعضهم : هى النخلة .. وقال آخرون : هى شجرة فى الجنة ..

وأولى القولين بالصواب فى ذلك قول من قال هى النخلة ، لصحة الخبر عن رسول الله - ﷺ - فى ذلك ..»[2] .

والمعنى : ألم تر - أيها المخاطب - كيف اختار الله - تعالى - مثلا ، ووضعه فى موضعه اللائق به ، والمناسب له ، وهذا المثل لكلمتى الإيمان والكفر ، حيث شبه - سبحانه -

---

(١) تفسر الآلوسى جـ ١٣ ص ١٩١ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٣٧ .

الكلمة الطيبة وهى كلمة الإسلام ، بالشجرة الطيبة ، أى النافعة فى جميع أحوالها ، وهى النخلة .

ثم وصف - سبحانه - هذه الشجرة بصفات حسنة فقال : ﴿ أصلها ثابت ﴾ .

أى : ضارب بعروقه فى باطن الأرض فصارت بذلك راسخة الأركان ثابتة البنيان .

﴿ وفرعها ﴾ أى : أعلاها وما امتد منها من أغصان ، مشتق من الافتراع بمعنى الاعتلاء ﴿ فى السماء ﴾ أى : فى جهة السماء من حيث العلو والارتفاع ، وهذا مما يزيد الشجرة جمالا وحسن منظر .

والمراد بالأكل فى قوله - تعالى - ﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. ﴾ المأكول ، وهو الثمر الناتج عنها .

والمراد بالحين : الوقت الذى حدده الله - تعالى - للانتفاع بثمارها من غير تعيين بزمن معين من صباح أو مساء ..

قال الشوكانى ما ملخصه : « قوله ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ كل وقت ﴿بإذن ربها﴾ بإرادته ومشيئته » .

وقيل : المراد بكونها تؤتى أكلها كل حين : أى كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين .

وقيل : كل غدوة وعشية ، وقيل : كل شهر ..

وهذه الأقوال متقاربة . لأن الحين عند جمهور أهل اللغة بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره[1] .

وبهذا نرى أن الله - تعالى - قد وصف هذه الشجرة بأربع صفات ، أولها : أنها طيبة ، وثانيها : أن أصلها ثابت ، وثالثها : أن فرعها فى السماء ، ورابعها : أنها تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها .

وهذه الأوصاف تدل على فخامة شأنها ، وجمال منظرها ، وطيب ثمرها ، ودوام نفعها كما تدل على أن المشبه وهو الكلمة الطيبة ، مطابق فى هذه الأوصاف للمشبه به وهو الشجرة الطيبة .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ بيان للحكمة التى

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٠٦ .

من أجلها سيقت الأمثال ، وهى التذكر والتفكير والاعتبار . أى : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس رجاء أن يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا ما أمرهم - سبحانه - بتذكره إذ ضرب الأمثال تقريب للبعيد ، وتقرير للقريب ، وتصوير للمعانى المعقولة بالصور المحسوسة .

وبعد أن بين - سبحانه - مثال كلمة الإيمان ، أتبعه بمثال كلمة الكفر فقال : ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ وهى كلمة الكفر .

﴿ كشجرة خبيثة ﴾ أى قبيحة لا نفع فيها ، ولا خير يرجى منها .

﴿ اجتثت من فوق الأرض ﴾ أى : اقتلعت جثتها وهيئتها من فوق الأرض ، لقرب عروقها وجذورها من سطحها .

يقال : اجتثثت الشىء اجتثاثا ، إذا اقتلعته واستأصلته ، وهو افتعال من لفظ الجثة وهى ذات الشىء .

وقوله : ﴿ ما لها من قرار ﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن اجتثاث الشىء بسهولة ، سببه عدم وجود أصل له .

أى : ليس لها استقرار وثبات على الأرض ، وكذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شىء .

والمراد بهذه الشجرة الخبيثة : شجرة الحنظل فعن أنس بن مالك أن النبى - ﷺ - قال : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هى الحنظلة...»[1] .

وقيل : شجرة الثوم ، وقيل : شجرة الشوك ... وقيل كل شجر لا يطيب له ثمر ، وفى رواية عن ابن عباس أنها شجرة لم تخلق على الارض ..

وقال : ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها .

وقوله سبحانه - : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ بيان لفضل الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين ، ولحسن عاقبتهم ..

والمراد بالحياة الدنيا : مدة حياتهم فى هذه الدنيا .

والمراد بالآخرة : ما يشمل سؤالهم فى القبر وسؤالهم فى مواقف القيامة .

والمعنى : يثبت الله - تعالى - الذين آمنوا بالقول الثابت أى : الصادق الذى لاشك فيه ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤١٣ .

فى الحياة الدنيا ، بأن يجعلهم متمسكين بالحق ، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب .

ويثبتهم أيضاً بعد مماتهم ، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم فى القبر وعند سؤالهم فى مواقف يوم القيامة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله - تعالى - ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ أى : الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة .. « فى الحياة الدنيا » أى يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم ، فلا يزالون عند الفتنة .. « وفى الآخرة » أى بعد الموت وذلك فى القبر الذى هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفى مواقف القيامة ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم هناك ، ولا تدهشهم الأهوال .. » [١] .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث التى وردت فى سؤال القبر ، منها قوله : قال البخارى : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرنى علقمة بن مرثد قال : سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله - ﷺ - قال : « المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » [٢] .

وقوله : ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ بيان لسوء عاقبة أصحاب المثل الثانى وهم الكافرون .

أى : ويخلق فيهم الضلال عن الحق بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان .

﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ فعله ، عن تثبيت من يريد تثبيته ، وإضلال من يريد إضلاله ، حسبما تقتضيه إرادته وحكمته ، لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الجاحدين الذين قابلوا نعم الله بالكنود والجحود ، وأمر المؤمنين بأداء ما كلفهم به - سبحانه - من عبادات وقربات ، وساق لهم ألوانا من الآلاء التى تفضل بها على عباده ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٩٤ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ من ص ٤١٣ إلى ص ٤٢٦ طبعة دار الشعب .

۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا .. ﴾ الخطاب فيه للنبى - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب .

والاستفهام للتعجيب من أحوالهم الذميمة .

وبدلوا من التبديل بمعنى التغيير والتحويل ، والمراد به : وضع الشىء فى غير وضعه ومقابلة نعم الله بالجحود وعدم الشكر .

ونعمة الله التى بدلوها ، تشمل كفرهم بالرسول - ﷺ - الذى أرسله الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما تشمل إكرام الله لهم - أى أهل مكة - بأن جعلهم فى

حرم آمن ، وجعلهم سدنة بيته .. ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم ، بل أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « قوله : ﴿ بدلوا نعمة الله ﴾ لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا .

وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد - ﷺ - فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم ، أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، وكذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر ، قد ذهبت النعمة عنهم ، وبقى الكفر طوقا فى أعناقهم .. » [١] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « قال البخارى قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا .. ﴾ حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، سمع ابن عباس قال : هم كفار أهل مكة .

ثم قال ابن كثير : وهذا هو الصحيح . وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله - تعالى - بعث محمدا - ﷺ - رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ؛ فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار .. » [٢] .

وما ذهب إليه صاحب الكشاف وابن كثير - رحمهما الله - هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأن مشركى مكة ومن سار على شاكلتهم تنطبق عليهم هذه الآية الكريمة .

وقد أورد بعض المفسرين هنا روايات فى أن المراد بهؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، بنو أمية وبنو مخزوم .. ولكن هذه الروايات بعيدة عن الصواب ، ولاسند لها من النقل الصحيح » [٣] .

وقوله ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ معطوف على « بدلوا » لبيان رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة والمراد بقومهم : أتباعهم وشركاؤهم فى الكفر والعناد حتى ماتوا على ذلك .

والبوار : الهلاك والخسران ، ويطلق أيضا على الكساد . يقال : بار المتاع بوارا ، إذا كسد ، إذ الكاسد فى حكم الهالك .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٦ .
(٣) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٤٦ .

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - إلى حال هؤلاء المشركين ، الذين قابلوا نعم الله عليهم بالكفر والجحود ، وكانوا سببا فى إنزال قومهم دار الهلاك والخسران .

وقوله - سبحانه - ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ بيان لدار بوارهم وهلاكهم أى : جهنم يصلون حرها وسعيرها ، وبئس القرار قرارهم فيها .

فقوله « جهنم » عطف بيان لدار البوار ، وقوله « يصلونها » فى محل نصب حال من « جهنم » يقال : صلى فلان النار - من باب تعب - إذا ذاق حرها ، وتقول : صليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته .

والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس القرار هى أى : جهنم .

وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار .

ثم بين - سبحانه - لونا ثالثا من ألوان أعمالهم القبيحة ، وعقائدهم الباطلة فقال ﴿ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله .. ﴾ .

والأنداد : جمع ند وهو مثل الشىء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه .

وأصله من ند البعير يند - بكسر النون - ندا - بالفتح - إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .

وقوله « ليضلوا » قرأ الجمهور - بضم الياء - من أضل غيره إذا جعله ضالا .

أى : أن هؤلاء الخاسرين لم يكتفوا بمقابلة نعمة الله بالجحود ، وإحلال قومهم دار البوار ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم جعلوا لله - تعالى - أمثالا ونظراء ، ليصرفوا غيرهم عن الطريق الحق ، والصراط المستقيم ، الذى هو إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ليضلوا » - بفتح الياء - أى : ليستمروا فى ضلالهم ، فإنهم حين جعلهم الأنداد لله - تعالى - كانوا ضالين ، وجهلوا ذلك فاستمروا فى ضلالهم توهما منهم أنهم على صواب .

قال صاحب الكشاف : قرىء « ليضلوا » بفتح الياء وضمها . فإن قلت : الضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد فما معنى اللام ؟

قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام فى قولك ، جئتك لتكرمنى نتيجة المجىء ، دخلته اللام ، وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٨ .

وقوله - سبحانه - ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ أمر منه - عز وجل - لنبيه - ﷺ - بأن يهددهم بهذا المصير الأليم .

والتمتع بالشيء : الانتفاع به مع التلذذ والميل إليه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الخاسرين ، تمتعوا بما شئتم التمتع به من شهوات ولذائذ ، فإن مصيركم إلى النار لا محالة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله « قل تمتعوا » بما أنتم فيه من الشهوات ، وبما زينته لكم أنفسكم من كفران للنعم « فإن مصيركم إلى النار » أى : مرجعكم إليها ليس إلا .

ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه لا يقلعون عنه . جعل - سبحانه - الأمر بمباشرته مكان النهى عن قربانه ، إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار .

فجعله « فإن مصيركم إلى النار » تعليل للأمر بالتمتع ،وفيه من التهديد مالا يقادر قدره .

ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دل عليه السياق كأنه قيل : قل تمتعوا فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار .

والأول أولى والنظم القرآنى عليه أدل ، وذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان : اصنع ماشئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[3] .

وقوله - تعالى - ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[4] .

وبعد هذا الأمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بتهديد الكافرين ، وجه - سبحانه - أمرا آخر له - ﷺ - طلب منه فيه ، مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار فى التزود من العمل الصالح فقال - تعالى - : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٠٩ .
(٢) سورة الزمر الآية ٨ .
(٣) سورة لقمان الآية ٢٤ .
(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ .

قال الجمل : « قوله « قل لعبادى ... إلخ » مفعول قل محذوف يدل عليه جوابه ، أى : قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا - وقوله: يقيموا وينفقوا مجزومان فى جواب الأمر ، أى : إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا .. يقيموا وينفقوا .

ويجوز أن يكون قوله « يقيموا وينفقوا » مجزومين بلام الأمر المقدرة .

أى : ليقيموا الصلاة ولينفقوا ... » [1] .

والمراد بإقامة الصلاة : المواظبة على أدائها فى أوقاتها المحددة لها ، مع استيفائها لأركانها وسننها وآدابها وخشوعها ، ومع إخلاص النية عند أدائها لله - تعالى - .

والمراد بالإنفاق : ما يشمل جميع وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة .

والمراد بقوله « سرا وعلانية » ما يتناول عموم الأحوال فى الحرص على بذل المال فى وجوهه المشروعة .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المخلصين ، الذين آمنوا إيمانا حقا ، قل لهم : ليستزيدوا من المواظبة على أداء الصلاة ، وعلى الإنفاق مما رزقناهم فى جميع الأحوال ، بأن يجعلوا نفقتهم فى السر إذا كانت آداب الدين وتعاليمه تقتضى ذلك ، وأن يجعلوها فى العلن إذا كانت المنفعة فى ذلك .

والإضافة فى قوله « لعبادى » للتشريف والتكريم لهؤلاء العباد المخلصين .

ولم تعطف هذه الآية الكريمة على ما قبلها وهو قوله ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ للإيذان بتباين حال الفريقين ، واختلاف شأنهما .

ومفعول « ينفقوا » محذوف والتقدير ينفقوا شيئا مما رزقناهم .

وعبر - سبحانه - بمن المفيدة للتبعيض فى قوله ﴿ مما رزقناهم ﴾ للاشعار بأنهم قوم عقلاء يبتعدون فى إنفاقهم عن الإسراف والتبذير ، عملا بقوله - تعالى - : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ [2] .

وهذا التعبير - أيضا - يشعر بأن هذا المال الذى بين أيدى عباده - سبحانه - ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر ، بأن ينفقوا جزءا منها فى وجوه الخير .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٥ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٦٧ .

وقوله ﴿ سرا وعلانية ﴾ منصوبان على الحال أى : مسرين ومعلنين ، أو على المصدر أى : إنفاق سر وإنفاق علانية .

وقدم - سبحانه - إنفاق السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى الأمرين فى معظم الأحوال لبعده عن خواطر الرياء ، ولأنه استر للمتصدق عليه .

وقوله - سبحانه - ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ مؤكد لمضمون ما قبله من الأمر بإقامة الصلاة وبالإنفاق فى وجوه الخير بدون تردد أو إبطاء .

ولفظ « خلال » مصدر خاللت بمعنى صاحبت وصادقت ، أو جمع خليل بمعنى صديق ، أو جمع خلة بمعنى الصداقة كقلة وقلال .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - بأن من الواجب عليهم أن يكثروا ويداوموا على إقامة الصلاة وعلى الإنفاق مما رزقهم - سبحانه - ، من قبل أن يفاجئهم يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لا تقبل فيه المعاوضات ، ولا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه ، وإنما الذى يقبل وينفع فى هذا اليوم هو العمل الصالح الذى قدمه المسلم فى دنياه .

فالجملة الكريمة تفيد حضا آخر على إقام الصلاة وعلى الإنفاق عن طريق التذكير للناس بهذا اليوم الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات .

كما تفيد أن المواظبة على أداء هاتين الشعيرتين ، من أعظم القربات التى يتقرب بها المسلم إلى خالقه - سبحانه - والتى تكون سببا فى رفع الدرجات يوم القيامة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ [1] .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه التى تستوجب شكره وطاعته وإخلاص العبادة له والتى تدل على كمال قدرته وعلمه ووحدانيته فقال - تعالى - ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض .. ﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى أوجد السموات والأرض وما فيهما من أجرام علوية وسفلية بدون مثال سابق .

وافتتحت الآية الكريمة بلفظ الجلالة ، لما فى ذلك من تربية المهابة ، ومن لفت أنظار

(١) سورة البقرة آية ٢٥٤ .

المشركين إلى ما هم فيه من ضلال حتى يقلعوا عنه .

وجاء الخبر بصيغة الموصول ، لأن الصلة معلومة الثبوت له - سبحانه - والمشركون لا ينازعون فى ذلك ، كما قال - تعالى - ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . ﴾ .

وقوله ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم .. ﴾ بيان للون آخر من ألوان نعمه على خلقه .

والمراد بالسماء هنا : السحاب ، أو جهة العلو .

أى : وأنزل - سبحانه - من المزن أو السحاب « ماء » كثيرا هو المطر ، « فأخرج به » أى بذلك الماء « من الثمرات » المتعددة الأنواع والأصناف « رزقا لكم » تنتفعون به ، وتتمتعون بجمال منظره وطيب مطعمه .

ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من نعمه فقال : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ﴾ .

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتطويع والقدرة على التصرف فى الشىء والانتفاع به .

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل لفظه فى الواحد والجمع ، والظاهر أن المراد به هنا الجمع لقوله - سبحانه - « لتجرى » بتاء التأنيث .

أى : « وسخر لكم » - سبحانه - السفن الضخمة العظيمة ، بأن ألهمكم صنعها ، وأقدركم على استعمالها « لتجرى فى البحر » إلى حيث تريدون « بأمره » وإذنه ومشيئته ، لا بإذنكم ومشيئتكم ، إذ لو شاء - سبحانه - لقلبها بكم .

« وسخر لكم الأنهار » بأن جعلها معدة لانتفاعكم ، إذ منها تشربون ، ومنها تسقون دوابكم وزروعكم ، وعليها تسيرون بسفنكم إلى حيث تريدون .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ أى : دائمين فى إصلاح ما يصلحان من الأبدان والنبات وغيرهما أو دائمين فى مدارهما المقدر لهما بدون اضطراب أو اختلال . ولا يفتران عن ذلك ما دامت الدنيا .

وأصل الدأب : الدوام والعادة المستمرة على حالة واحدة . يقال : دأب فلان على كذا يدأب دأبا ، إذا داوم عليه وجد فيه .

و « وسخر لكم الليل والنهار » بأن جعلهما متعاقبين ، يأتى أحدهما فى أعقاب الآخر ، فتنتفعون بكل منهما بما يصلح أحوالكم .

فالليل تنتفعون به فى راحتكم ومنامكم .. والنهار تنتفعون به فى معاشكم وطلب رزقكم قال - تعالى - ﴿ وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه .. ﴾ .

أى : وأعطاكم - فضلا عما تقدم من النعم - بعضا من جميع ما سألتموه إياه من نعم ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته التى لا تعلمونها كما قال - تعالى - ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير ﴾ [1] .

قال الجمل ما ملخصه « قوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أى : كل نوع أو كل صنف سألتموه أى : شأنكم أن تسألوه لاحتياجكم إليه ، وإن لم تسألوه بالفعل .

وفى « من » قولان : أحدهما أنها زائدة فى المفعول الثانى ، أى : آتاكم كل ما سألتموه .

والثانى أن تكون تبعيضية أى : وآتاكم بعض جميع ما سألتموه وعلى هذا فالمفعول محذوف تقديره : وآتاكم شيئا من كل ما سألتموه ، وهو رأى سيبويه .. » [2] .

وجملة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » مؤكدة لمضمون ما قبلها .

أى : وإن تحاولوا عد نعم الله عليكم ، وتحاولوا تحديد هذا العدد ، لن تستطيعوا ذلك لكثرة هذه النعم ، وخفاء بعضه عليكم .

والإحصاء : ضبط العدد وتحديده ، مأخوذ من الحصا وهو صغار الحجارة لأن العرب كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للخطأ .

قال ابن كثير : « يخبر - سبحانه - عن عجز العباد من تعداد نعمه فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب - رحمه الله - : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من يحصيها العباد ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « لك الحمد غير مكفى - أى لم يكفه غيره بل هو - سبحانه - يكفى غيره - ولا مودع - أى متروك حمده - ،

---

(١) سورة الشورى آية ٢٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٦ .

ولا مستغنى عنه ربنا - أى هو الذى يحتاج إليه الخلق .. » [١] .

والمراد بالإنسان فى قوله ﴿ إن الإنسان لظلومٌ كفار ﴾ نوع معين منه وهو الكافر كما فى قوله - تعالى - ﴿ ويقول الإنسان أئذا ماتُّ لسوف أخرج حيا ﴾ .

أى : إن الإنسان الكافر لشديد الظلم لنفسه بعبادته لغير الله - تعالى - ، ولشديد الجحود والكفران لنعمه - عز وجل .

ويرى بعضهم أن المراد بالإنسان هنا الجنس .

قال الشوكانى : قوله - سبحانه - : ﴿ إن الإنسان لظلوم ﴾ أى لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان . وقال الزجاج : إن الإنسان هنا اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ﴾ « كفار » أى : شديد كفران نعم الله عليه ، جاحد لها ، غير شاكر لله عليها كما ينبغى ويجب عليه » [٢] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ابتدأت ببيان سوء عاقبة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وثنت بأمر النبى - ﷺ - بأن يحض المؤمنين الصادقين على الاستزادة من إقامة الصلاة ومن الانفاق فى سبيل الله .

ثم ساقت عشر نعم تدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ، وهذه النعم هى خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج الثمرات به ، وتسخير الفلك فى البحار ، وتسخير الأنهار ، وتسخير الشمس والقمر دائبين ، وتسخير الليل والنهار .

ثم ختمت ببيان أنه - سبحانه - قد أعطى الناس - فضلا عن كل ذلك - جميع مايحتاجون إليه فى مصالحهم على حسب حكمته ومشيئته ولكن الناس - إلا من عصم الله - لا يقابلون نعمه - سبحانه - بما تستحقه من شكر ، لشدة ظلمهم وكثرة جحودهم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وهى دعوات تدل على شكره لخالقه ، وحسن صلته به ، ورجائه فى فضله .. فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣٠ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١١٠ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

هذه بعض الدعوات التى ابتهل بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وقد تقبلها الله - تعالى - منه قبولا حسنا .

وفى هذه الدعوات تنبيه لمشركى مكة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، والذين جحدوا نعم الله عليهم ، بأن من الواجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يستجيبوا لدعوة الحق ، وأن يقتدوا بإبراهيم - عليه السلام - فى إيمانه وشكره لخالقه - سبحانه - .

و « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لفعل محذوف .

و « رب » منادى بحرف نداء محذوف أى : يارب .

والمراد بالبلد : مكة المكرمة شرفها الله - تعالى - .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال إبراهيم مناديا ربه : يارب اجعل هذا البلد ذا أمن وسلام واستقرار .

وقدم إبراهيم - عليه السلام - فى دعائه نعمة الأمن على غيرها - لأنها أعظم أنواع النعم ، ولأنها إذا فقدها الإنسان ، اضطرب فكره ، وصعب عليه أن يتفرغ لأمور الدين أو الدنيا بنفس مطمئنة ، وبقلب خال من المنغصات والمزعجات .

قال الإمام الرازى : « سئل بعض العلماء : الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقال الأمن أفضل ، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ولا يمنعها هذا الكسر من الإقبال على الرعى والأكل والشرب .

ولو أنها ربطت - وهى سليمة - فى موضع ، وربط بالقرب منها ذئب ، فإنها تمسك عن الأكل والشرب ، وقد تستمر على ذلك إلى أن تموت .

وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف ، أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد » [1] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « يذكر الله - تعالى - فى هذا المقام - محتجا على مشركى مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - بأن مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله - تعالى - وحده ، وأن إبراهيم قد تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم .. ﴾ وقال - تعالى - ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .. ﴾ » [2] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين قوله - تعالى - فى سورة البقرة ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا ... ﴾ [3] .

وبين قوله هنا ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا .. ﴾ ؟ .

---

(١) تفسر الفخر الرازى جـ ١١ ص ١٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣١ .

(٣) الآية ١٢٦ .

قلت : قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون ، وسأل فى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا .. »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ حكاية لدعوة أخرى من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى خالقه - سبحانه - .

وقوله « واجنبنى » بمعنى وأبعدنى مأخوذ من قولك جنبت فلانا عن كذا ، إذا أبعدته عنه ، وجعلته فى جانب آخر ، وفعله جنب من باب نصر .

والمراد ببنيه : أولاده من صلبه ، أوهم من تناسل معهم .

والأصنام جمع صنم ، وهو التمثال الذى كان مشركو العرب يصنعونه من الحجر ونحوه لكى يعبدوه من دون الله .

والمعنى : أسألك ياربى أن تجعل مكة بلدا آمنا ، كما أسألك أن تعصمنى وتعصم ذريتى من بعدى من عبادة الأصنام ، وأن تجعل عبادتنا خالصة لوجهك الكريم .

وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى ، أنه قد أجابه فى بعض ذريته دون بعض .

ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾[2] .

وقوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس .. ﴾ تعليل لسؤال إبراهيم ربه أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام .

أى : يارب لقد تضرعت إليك بأن تعصمنى وبنىّ عن عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق ، وعن الهداية إلى الصراط المستقيم .

وأسند الإضلال إليها مع أنها جمادات لا تعقل ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس ، فكأنها أضلتهم، فنسبة الإضلال إليها مجازية من باب نسبة الشىء إلى سببه ، كما يقال : فلان فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فتن وضل بسببها .

وقوله - سبحانه - ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ بيان لموقفه - عليه السلام - من المهتدين والضالين .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٢) سورة الصافات الآيات ١٠٩ - ١١٣ .

أي : فمن تبعني من الناس فى دينى وعقيدتى ، فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ، فإنى أفوض أمره إليك ، فأنت - سبحانك - لاتسأل عما تفعل وغيرك يسأل .

فالجملة الكريمة تدل على الأدب السامى ، والخلق العالى ، الذى كان يتحلى به إبراهيم - عليه السلام - فى مخاطبته لربه - عز وجل - حيث فوض الأمور إليه دون أن يقطع فيها برأى ، كما تدل على رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع فى العذاب الأليم .

وشبيه بهذه الآية ما حكاه - سبحانه - عن عيسى - عليه السلام - فى قوله : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [1] .

هذا ، ولا نرى وجها لما ذهب إليه بعض المفسرين ، من أن قول إبراهيم - عليه السلام - « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » كان قبل أن يعلم بأن الله لا يغفر الشرك ، أو أن المراد بالمعصية هنا مادون الشرك ، أو أن المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك .. » [2] .

نقول : لا نرى وجها لكل ذلك ، لأن الجملة الكريمة ليس المقصود بها الدعاء بالمغفرة لمن عصى ، وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله - تعالى - إن شاء غفر لهم ورحمهم ، وإن شاء عذبهم .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الأدعية التى تضرع بها إبراهيم إليه - تعالى - فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة .. ﴾ .

و « من » فى قوله « من ذريتى » للتبعيض .

والوادى : هو المكان المنخفض بين مرتفعات ، والمقصود به وادى مكة المكرمة .

والمعنى : ياربنا إنى أسكنت بعض ذريتى وهو ابنى إسماعيل ومن سيولد له ، بواد غير ذى زرع قريبا من بيتك المحرم ، أى : الذى حرمت التعرض له بسوء توقيرا وتعظيما ، والذى جعلته مثابة للناس وأمنا ، وفضلته على غيره من الأماكن .

وقوله ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ بيان للباعث الذى دفعه لإسكان بعض ذريته فى هذا المكان الطيب .

---

(١) سورة المائدة اية ١١٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢١١ .

أى : يا ربنا إنى أسكنتهم ، هذا المكان ليتفرغوا لإقامة الصلاة فى جوار بيتك ، وليعمروه بذكرك وطاعتك .

فاللام فى قوله « ليقيموا » للتعليل وهى متعلقة بأسكنت .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لمزيد فضلها ، ولكمال العناية بشأنها .

قال القرطبى : « تضمنت هذه الآية ان الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ، لأن معنى « ربنا ليقيموا الصلاة » أى : أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه .

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى - ﷺ - ؟

فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول - ﷺ - بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله - ﷺ - : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » .

وقد روى عن ابن عمر عن النبى - ﷺ - حديث ابن الزبير »[1] .

وقوله ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ دعاء جامع لمطالب الدين والدنيا ، لأن الناس يذهبون إلى البيت الحرام للتقرب إلى الله - تعالى - ، وليتبادلوا المنافع عن طريق التجارة وغيرها مع السكان المجاورين لهذا البيت المعمور .

والأفئدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب والنفوس .

والمراد بالناس فى قوله « من الناس » المؤمنون منهم ، لأنهم هم الذين يذهبون إلى البيت الحرام ، ليشهدوا منافع لهم ، وليتقربوا إليه - سبحانه - بحج بيته .

وتهوى إليهم : أى تسرع إليهم ، يقال : هوى - بفتح الواو - يهوى - بكسرها - إذا أسرع فى السير ، ومنه قولهم : هوت الناقة تهوى هويا ، إذا عدت عدوا شديدا .

والأصل فيه أن يتعدى باللام ، وعدى هنا بإلى لتضمنه معنى تميل وتسرع .

أى : ياربنا إنى تركت بعض ذريتى فى جوار بيتك ، فأسألك يا إلهى أن تجعل نفوس الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليه ، وارزق من تركتهم وديعة فى جوار بيتك من

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٧١ .

الثمرات المختلفة ما يغنيهم لعلهم بهذا العطاء الجزيل يزدادون شكرا لك ، ومسارعة فى طاعتك وعبادتك .

وقال - سبحانه - ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ولم يقل فاجعل الناس تهوى إليهم ، للإشارة إلى أن سعى الناس إليهم يكون عن شوق ومحبة حتى لكأن المسرع إلى هذا الجوار الطيب هو القلب والروح وليس الجسد وحده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « وقد أجاب الله - تعالى - دعوة إبراهيم - عليه السلام - فجعل البيت الحرام حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه ، ثم فضله فى وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفى أى بلد من الشرق والغرب ، ترى الأعجوبة التى يريكها الله بواد غير ذى زرع - وهى اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، وليس ذلك من آياته عجيب ، متعنا الله بسكنى حرمه ، ووفقنا لشكر نعمه وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم ، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم »[1] .

هذا ، وقد ساق الإمام الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية قصة إسكان إبراهيم لبعض ذريته فى هذا المكان فقال ما ملخصه : « وهذا الإسكان إنما كان بعد أن حدث ما حدث بين إبراهيم وبين زوجه سارة ، وذلك أن هاجر أم إسماعيل كانت أمة من القبط لسارة فوهبتها - لإبراهيم عليه السلام - فتزوجها فولدت له إسماعيل . فدبت الغيرة فى قلب سارة ولم تصبر على بقائها معها فأخرج إبراهيم - عليه السلام - هاجر وابنها إلى أرض مكة ، فوضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى منطلقا فتبعته هاجر ، فقالت له : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس .

قالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم - عليه السلام - حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت - وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية - ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع .. ﴾ الآية .

ثم إنها جعلت ترضع ابنها وتشرب مما فى السقاء حتى إذا نفد ما فى السقاء ، عطشت

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٨١ .

وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلبط - أى يتلوى ويتمرغ - من شدة العطش ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا . فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ، ولذلك سعى الناس بينهما سبعا .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا صوتا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتغرف منه فى سقائها وهو يفور ، فشربت وأرضعت ولدها ، وقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله - تعالى - يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله - تعالى - لن يضيع أهله .

ثم إنه مرت بها رُفقة من جرهم ، فرأوا طائراً عائفا - أى يتردد على الماء ولا يمضى - فقالوا : لا طير إلا على الماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء ، فأتاهم فقصدوه وأم إسماعيل عنده ، فقالوا : أشركينا فى مائك نشركك فى ألباننا ، ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل - عليه السلام - زوجوه امرأة منهم »[1] .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ .

أى : ياربنا إنك وحدك العليم بما تخفيه نفوسنا من أسرار ؛ وما تعلنه وتظهره من أقوال ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء ، فأنت يا إلهى لا يخفى عليك شىء من الأشياء ، سواء أكان هذا الشىء فى الأرض أم فى السماء أم فى غيرهما .

وإنما ذكر السماء والأرض لأنهما المشاهدتان للناس ، وإلا فعلمه - سبحانه - محيط بكل مافى هذا الكون .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - فى مقام شكره لله على نعمه فقال - تعالى - : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢١٢ وراجع صحيح البخارى تجد فيه حديثا طويلا فى هذا الموضوع .

والحمد هو الثناء باللسان على من صدرت منه النعمة ، وأل فيه للاستغراق أى : جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء والحمد فهو صادر عنه - سبحانه - إذ هو الخالق لكل شيء .

وعلى فى قوله « على الكبر » للاستعلاء المجازى وهى بمعنى مع . أى : وهب لى مع الكبر الذى لا تحصل معه فى الغالب ولادة .

وإسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم ، وقد رزقه الله به من زوجه هاجر كما سبق أن أشرنا - ، أما إسحاق فكان أصغر من إسماعيل ، وقد رزقه الله به من زوجه ساره .

قال الفخر الرازى : « اعلم أن القرآن يدل على أنه - تعالى - إنما أعطى إبراهيم - عليه السلام - هذين الولدين على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن . وإنما يرجع فيه إلى الروايات فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة ، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة واثنتى عشرة سنة .

وإنما ذكر قوله « على الكبر لأن المنة بهبة الولد فى هذا السن أعظم ، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة فى وقت اليأس من أعظم النعم ، ولأن الولادة فى هذه السن المتقدمة كانت آية لإبراهيم »[1] .

وجملة « إن ربى لسميع الدعاء » تعليل لجملة « وهب لى على الكبر » أى : وهب لى على الكبر هذين الولدين ، لأنه - سبحانه - سمع دعائى وتقبله ، وأجاب طلبى دون أن يخيبنى .

فالسميع هنا مستعمل على سبيل المجاز فى إجابة المطلوب ، ومنه قول القائل : سمع الملك كلام فلان ، إذا اعتد به وقبله وعمل بمقتضاه . وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول . أى : إن ربى يسمع دعائى ويجيبه .

ثم ختم إبراهيم - عليه السلام - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إلى ربه ، بما حكاه الله عنه فى قوله : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

أى : يارب اجعلنى من عبادك الذين يؤدون الصلاة فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ، واجعل من ذريتى من يقتدى بى فى ذلك ، كما أسألك يارب أن تتقبل دعائى ولا تخيبنى فى مطلوب أسألك إياه .

كما أسألك - يا إلهى - أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالدى وللمؤمنين ، يوم يقوم الناس

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٣٨ .

للحساب ، فتجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وإنما طلب إبراهيم لوالديه المغفرة ، قبل أن يتبين له أن والده عدو لله . فلما تبين له ذلك تبرأ منه . قال - تعالى - ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾[1] .

أما أمه فقال بعضهم : إنها كانت مؤمنة ، وقال آخرون : لعلها توفيت قبل نبوته .

وبعد أن حكى - سبحانه - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه ، والتى تضمنت أمهات الفضائل ، كسلامة القلب ، وطهارة النفس ، ورقة العاطفة ، وحسن المراقبة ، وحب الخير لغيره .

بعد كل ذلك حكى - سبحانه - أحوال الظالمين يوم القيامة ، وأقوالهم فى ذلك اليوم الشديد ، ورده - تعالى - عليهم ، والأسباب التى أدت إلى خسرانهم .. فقال - تعالى - :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ

(١) سورة التوبة الآية ١١٤ .

مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قال الإمام القرطبى : « قوله - تعالى - ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ... ﴾ هذا تسلية للنبى - ﷺ - بعد أن عجبه من أفعال المشركين ، ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى : اصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم . وتعزية للمظلوم »[(١)] .

والخطاب فى « ولا تحسبن » ، يجوز أن يكون للنبى - ﷺ - لقصد زيادة تثبيته على الحق ، ودوامه على ذلك ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح للخطاب .

والغفلة : سهو يعترى الإنسان بسبب قلة تيقظه وانتباهه ، ولاشك أن ذلك محال فى حق الله - تعالى - ، لذا وجب حمل المعنى على أن المراد بالغفلة هنا : ترك عقاب المجرمين .

والمراد بالظالمين : كل من انحرفوا عن طريق الحق ، واتبعوا طريق الباطل ، ويدخل فيهم دخولا أوليا مشركو مكة ، الذين أبوا الدخول فى الإسلام الذى جاءهم به النبى - ﷺ - .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٧٦ .

وقوله ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ استئناف وقع تعليلا للنهى السابق .

وقوله « تشخص » من الشخوص بمعنى رفع البصر بدون تحرك يقال شخص بصر فلان - من باب خضع - فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف من شدة الخوف والفزع .

والمعنى : ولا تحسبن - أيها الرسول الكريم - أن الله تعالى - تارك عقاب هؤلاء الظالمين ، الذين كذبوك فى دعوتك ، كلا لن يترك الله - تعالى - عقابهم ، وإنما يؤخره ليوم هائل شديد ، هو يوم القيامة الذى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، فلا تطرف أجفانهم من هول ما يرونه .

ثم بين - سبحانه - بعض أحوال هؤلاء الظالمين فى هذا اليوم العظيم فقال - تعالى - : ﴿ مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء ﴾ .

والإهطاع السير السريع . يقال : أهطع فلان فى مشيه فهو يهطع إهطاعا إذا أسرع فى سيره بذلة واضطراب .

و « مقنعى رؤوسهم » أى رافعيها ، يقال : أهطع فلان رأسه ، إذا نصبه ورفعه دون أن يلتفت يمينا أو شمالا . وقيل ، إقناع الرءوس طأطأتها وانتكاسها .

الأفئدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين يخرجون من قبورهم فى هذا اليوم مسرعين إلى الداعى بذلة واستكانة ، كإسراع الأسير الخائف ، رافعى رءوسهم إلى السماء مع إدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء .

« لا يرتد إليهم طرفهم » أى : لا تتحرك أجفان عيونهم ، بل تبقى مفتوحة بدون حراك لهول ما يشاهدونه فى هذا اليوم العصيب .

« وأفئدتهم هواء » أى : وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم ، بحيث لا تعى شيئا من شدة الفزع والدهشة ، ومنه قولهم فى شأن الأحمق والجبان قلبهما هواء ، أى لا رأى فيه ولا قوه .

وأفرد هواء وإن كان خبرا عن جمع لأنه فى معنى فارغة أو خالية .

قال - تعالى - ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا .. ﴾ أى خاليا من كل شىء إلا من التفكير فى شأن مصير ابنها موسى - عليه السلام - .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الظالمين فى هاتين الآيتين بجملة من الصفات الدالة على فزعهم وحيرتهم .

وصفهم أولا بشخوص الأبصار ، ووصفهم ثانيا بالإسراع إلى الداعى فى ذلة وانكسار ،

ووصفهم ثالثا برفع رءوسهم فى حيرة واضطراب ، ووصفهم رابعا : بانفتاح عيونهم دون أن تطرف من شدة الوجل ، ووصفهم خامسا بخلو قلوبهم من إدراك أى شىء بسبب ما اعتراهم من دهشة ورعب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ من باب التشبيه البليغ الذى حذفت فيه الأداة ، والتقدير : وقلوبهم كالهواء فى الخلو من الإدراك من شدة الهول .

ثم أمر الله تعالى - رسوله - ﷺ - أن يحذر الناس من أهوال هذا اليوم ، وأن يقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم فقال - تعالى - ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل .. ﴾ .

والإنذار : التخويف من ارتكاب شىء تسوء عاقبته .

والمراد بالناس : جميعهم ، وقيل المراد بهم الكفار . ويبدو أن الأول أرجح لأن الإنذار يكون للمؤمن كما يكون للكافر ، إلا أن المؤمن يستجيب للنصح فينجو من العقاب ، والكافر لا يستجيب فيحل عليه العذاب .

والمعنى : وخوف - أيها الرسول الكريم - الناس من أهوال يوم القيامة ، ومرهم بأن يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، من قبل أن يحل عذابه بالظالمين منهم فيقولون : ياربنا أعدنا إلى الحياة مرة أخرى ، وأخر أعمارنا وحسابنا إلى وقت قريب ، حتى نستطيع فيه أن نستجيب لدعوتك التى تأمرنا بإخلاص العبادة لك ، وأن نتبع رسلك فى كل ما أمرونا به ونتدارك مافرطنا فيه من أعمال الدنيا .

قال الجمل : « وقوله : « يوم يأتيهم العذاب ... » مفعول ثان لأنذر على حذف المضاف ، أى : أنذرهم أهواله وعظائمه ، فهو مفعول به لا مفعول فيه ، إذ لا إنذار فى ذلك اليوم ، وإنما الإنذار يقع فى الدنيا .. » [1] .

وإنما اقتصر - سبحانه - على ذكر إتيان العذاب فى هذا اليوم . مع كون الثواب يحصل فيه - أيضا - لأن المقام مقام تهديد وزجر ، فكان من المناسب ذكر أهواله وشدائده .

وجمع لفظ الرسل فقال : « نجب دعوتك ونتبع الرسل » للإشارة إلى أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وأصولها ، وهى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٣٢ .

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات كثيرة ومنها قوله - تعالى - ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ [1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » [2] .

وجملة « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال » مقول لقول محذوف .

والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد به هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين عندما يقولون ياربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل .

يقال لهم من قبل الله والملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيت : أو لم تكونوا - أيها الظالمون - تقسمون بالأيمان المغلظة فى الدنيا ، بأنكم بعد موتكم ستبقون فى قبوركم إلى أن تبلى أجسادكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

قال - تعالى - ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ [3] .

فالجملة الكريمة تحكى رفض مطالبهم بأبلغ أسلوب ، حتى يزدادوا حزنا على حزنهم ، وحسرة على حسرتهم .

وجملة « مالكم من زوال » جواب القسم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ... ﴾ معطوف على « أقسمتم .. » .

والمراد بالسكنى : الحلول فى أماكن الظالمين لوقت يكفى للاتعاظ والاعتبار وكفار قريش كانوا يمرون بديار قوم ثمود فى رحلتهم إلى الشام ، وكانوا يحطون رحالهم هناك ، كما كانوا يمرون على ديار قوم عاد فى رحلتهم إلى اليمن .

والمعنى : لقد أقسمتم - أيها الضالون - بأنكم مالكم من انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وحللتم فى مساكن القوم الظالمين .

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) سورة السجدة آية ١٢ .

(٣) سورة النحل آية ٣٨ .

« وتبين لكم » عن طريق المشاهدة وتواتر الأخبار .

« كيف فعلنا بهم » من الإهلاك والتدمير بسبب كفرهم وفسوقهم .

« وضربنا لكم الأمثال » بما فعلوه وبما فعلناه بهم ، عن طريق كتابنا ، وعلى لسان رسولنا محمد - ﷺ - .

وكان من الواجب عليكم بعد كل ذلك أن تعتبروا وتتعظوا وتثوبوا إلى رشدكم ، وتدخلوا فى الإسلام ، ولكنكم كنتم قوما فاسقين ، سائرين على نهج هؤلاء المهلكين فى الكفر والفجور ، فاليوم ذوقوا العذاب بسبب جحودكم للحق فى الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « أى : قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم . قال - تعالى - ﴿ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من ألوان عراقتهم فى الكفر والجحود فقال : ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ﴾ .

والمكر : تبييت فعل السوء بالغير وإضماره ، مع إظهار ما يخالف ذلك . وانتصب « مكرهم » الأول على أنه مفعول مطلق لمكروا ، لبيان النوع ، والإضافة فيه من إضافة المصدر لفاعله .

أى : أن هؤلاء الظالمين جاءتهم العبر فلم يعتبروا ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا بالرسول - ﷺ - مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، والذى كان من مظاهره محاولتهم قتل الرسول - ﷺ - .

وقوله ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أى : وفى علم الله - تعالى - الذى لا يغيب عنه شىء مكرهم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقونه من عذاب مهين .

وقوله - تعالى - ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ قرأ الجمهور « لتزول » - بكسر اللام على أنها لام الجحود والفعل منصوب بعدها . بأن مضمرة وجوبا ، و « إن » فى قوله ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ نافية بمعنى ما .

والمعنى : ولقد مكر هؤلاء الكافرون مكرهم الشديد الذى اشتهروا به ، وفى علم الله - تعالى - مكرهم ، وما كان مكرهم - مهما عظم واشتد - لتنتقل منه الجبال من أماكنها ، لأنه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٣٤ .

لم يتجاوز مكر أمثالهم ممن دمرناهم تدميرا .

وعلى هذه القراءة يكون المقصود بهذه الجملة الكريمة ، الاستخفاف بهم وبمكرهم ، وبيان أن ما يضمرونه من سوء ليس خافيا على الله - تعالى - ولن يزلزل المؤمنين فى عقيدتهم ، لأن إيمانهم كالجبال الرواسى فى ثباته ورسوخه .

وقرأ « الكسائى » « لتزول » - بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع الفعل بعدها - و « إن » مخففة من الثقيلة .

فيكون المعنى : وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم ، وإن مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها ، لو كان لها أن تزول أو تنقلع .

وعلى هذه القراءة يكون المراد بهذه الجملة الكريمة التعظيم والتهويل من شأن مكرهم ، وأنه أمر شنيع أو شديد فى بابه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض . وتخر الجبال هدًّا .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله .. ﴾ تفريع على ما تقدم من قوله - تعالى - ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون .. ﴾ وتأكيد لتسلية الرسول - ﷺ - ولتثبيت يقينه .

وقوله « مخلف » اسم فاعل من الإخلاف ، بمعنى عدم الوفاء بالوعد وهو مفعول ثان لتحسب والمراد بالوعد هنا : ما وعد الله - تعالى - به أنبياءه ورسله من نصره إياهم ، ومن جعل العاقبة لهم .

قال - تعالى - ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا . ويوم يقوم الأشهاد ﴾[2] .

وقال - تعالى - ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[3] .

والمعنى : لقد وعدناك - أيها الرسول الكريم - بعذاب الظالمين ، وأخبرناك بجانب من العذاب الذى سيحل بهم يوم القيامة ، وما دام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك ، وثق بأن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدك به من نصر على أعدائك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثانى

---

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٠ .
(٢) سورة غافر الآية ٥١ .
(٣) سورة المجادلة الآية ٢١ .

لمخلف - وهو : وعده - على المفعول الأول - وهو رسله - ؟

قلت : قدم الوعد ليعلم أنه - سبحانه - لا يخلف الوعد أصلا ، كقوله - تعالى - ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

ثم قال « رسله » ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه مع رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه .. »[١] .

ويرى صاحب الانتصاف أن تقدم المفعول الثانى هنا ، إنما هو للإيذان بالعناية به ، لأن الآية فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله - تعالى - به على ألسنة رسله ، فكان المهم فى هذه الحال تقديم ذكر الوعيد على غيره[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ تعليل للنهى عن الحسبان المذكور .

والعزيز : الغالب على كل شىء .

أى : إن الله - تعالى - غالب على كل شىء ، وذو انتقام شديد من أعدائه لأنهم تحت قدرته ، ومادام الأمر كذلك فإخلاف الوعد منتف فى حقه - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العلامات التى تدل على قرب قيام الساعة فقال - تعالى - : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ .

والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

وقوله « تبدل » من التبديل بمعنى التغيير ، وهذا التغيير والتبديل لهما قد يكون فى ذواتها كما فى قوله - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب .. ﴾[٣] .

وقد يكون فى صفاتها كقولك « بدلت الحلقة خاتما » وقد يكون فيهما معا وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال : « وقال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله - ﷺ - عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض .. ﴾ قالت : قلت : اين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط .

وفى رواية أنه - ﷺ - قال لها : « لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد من أمتى ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٤ .

(٢) حاشية الانتصاف على الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٦ .

ذاك أن الناس - يومئذ يكونون - على جسر جهنم »[1] .

والمعنى : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر يوم يتغير هذا العالم المعهود بعالم آخر جديد ، يأتى به الله - تعالى - على حسب إرادته ومشيئته ويوم يخرج الخلائق جميعا من قبورهم ليستوفوا جزاءهم ، وليجازوا على أعمالهم . من الله - تعالى - الواحد الأحد ، الذى قهر كل شىء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

وختمت الآية الكريمة بهذين الوصفين لله - تعالى - للرد على المشركين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يشركونها معه فى العبادة ، ويتوهمون أن هذه الآلهة سوف تدافع عنهم يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيحل بالمجرمين يوم القيامة من عذاب عنيف مهين يناسب إجرامهم وكفرهم فقال : ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ .

وقوله « مقرنين » جمع مقرن ، وهو من جمع مع غيره فى قرن ووثاق واحد يربطان به .

والأصفاد : جمع صفد - بفتح الفاء - وهو القيد الذى يوضع فى الرجل ، أو الغل - بضم الغين - الذى تضم به اليد والرجل إلى العنق .

والسرابيل : جمع سربال وهو القميص .

والقطران : مادة حارة نتنة شديدة الاشتعال تصلى بها جلود الإبل الجربى ، ليزول الجرب منها . أى : وترى - أيها العاقل - المجرمين فى هذا اليوم العسير عليهم « مقرنين فى الأصفاد » أى : قد قرن بعضهم مع بعض ، وضم كل قرين إلى من يشبهه فى الكفر وفى الفسوق وفى العصيان ، وقد قيدوا جميعا بالأصفاد والقيود والأغلال .

قال - تعالى - ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم .. ﴾[2] .

أى : وأمثالهم من العصاة ، فعابد الصنم يكون مع عابد الصنم ، وشارب الخمر مع شارب الخمر . ويصح أن يكون اقترانهم مع الشياطين كما قال - تعالى - ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾[3] .

هذا عن مشهد المجرمين وهم مقرنون فى الأصفاد ، وهو مشهد مهين مذل ولكنه ليس كافيا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣٧ .
(٢) سورة الصافات الآية ٢٢ .
(٣) سورة مريم الآية ٦٨ .

فى عقابهم ، بل يضاف إليه أن ملابسهم من قطران ، ليجتمع لهم لذعته ، وقبح لونه ، ونتن ريحه ، وسرعة اشتعاله ، وفوق كل ذلك فإن وجوههم تعلوها وتحيط بها النار التى تستعر بأجسادهم المسربلة بالقطران .

وخص - سبحانه الوجوه بغشيان النار لها ، لكونها أعز موضع فى البدن وأشرفه .

وقوله - سبحانه - ﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت .. ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : فعل ما فعل - سبحانه - من إثابة المؤمنين ، ومعاقبة المجرمين ، ليجازى كل نفس بما تستحقه من خير أو شر ، دون أن يظلم ربك أحدا .

وقوله ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أى : إنه - سبحانه - سريع المحاسبة لعباده ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، بل جميع الخلق بالنسبة لقدرته كالنفس الواحدة .

قال - تعالى - ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة .. ﴾ [1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

واسم الإشارة « هذا » يعود إلى ما أنزله الله - تعالى - من قرآن فى هذه السورة وفى غيرها . و « بلاغ » مصدر بمعنى التبليغ .

والإنذار : التخويف من سوء عاقبة ارتكاب الشرور والآثام .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شىء ، والمراد بها العقول .

أى : هذا القرآن الكريم الذى أنزلناه عليك يا محمد ، فيه التبليغ الكافى لهداية الناس ، وفيه ما يخوفهم من سوء عاقبة الكفر والفسوق والعصيان ، وفيه ما يجعلهم يعلمون عن طريق توجيهاته وهداياته ودلائله ، أن الله - تعالى - واحد لا شريك له ، وفيه ما يجعل أصحاب العقول السليمة يتعظون ويعتبرون ، فيترتب على ذلك سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وخص - سبحانه - بالتذكر أولى الألباب ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداية القرآن الكريم ، أما غيرهم فهم كالأنعام بل هم أضل .

وقد رتب - سبحانه - فى هذه الآية الكريمة ، وسائل الدعوة إلى الحق ترتيبا عقليا حكيما ، فبدأ بالصفة العامة وهى التبليغ ، ثم ثنى بما يعقب ذلك من إنذار وتخويف ، ثم ثلث بما ينشأ عنهما من العلم بوحدانية الله - تعالى - ، ثم ختم الثناء على أصحاب العقول السليمة

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٨ .

الذين ينتفعون بما يسمعون وبما يبصرون .

قال الإمام الرازى : « هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ، ولا منقبة له ، إلا بسبب عقله ، لأنه - تعالى - بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل ، لتذكير أولى الألباب ... » [1] .

وبعد : فهذه سورة إبراهيم - عليه السلام - وهذا تفسير لها .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وشفيعا لنا يوم نلقاه - تعالى - .

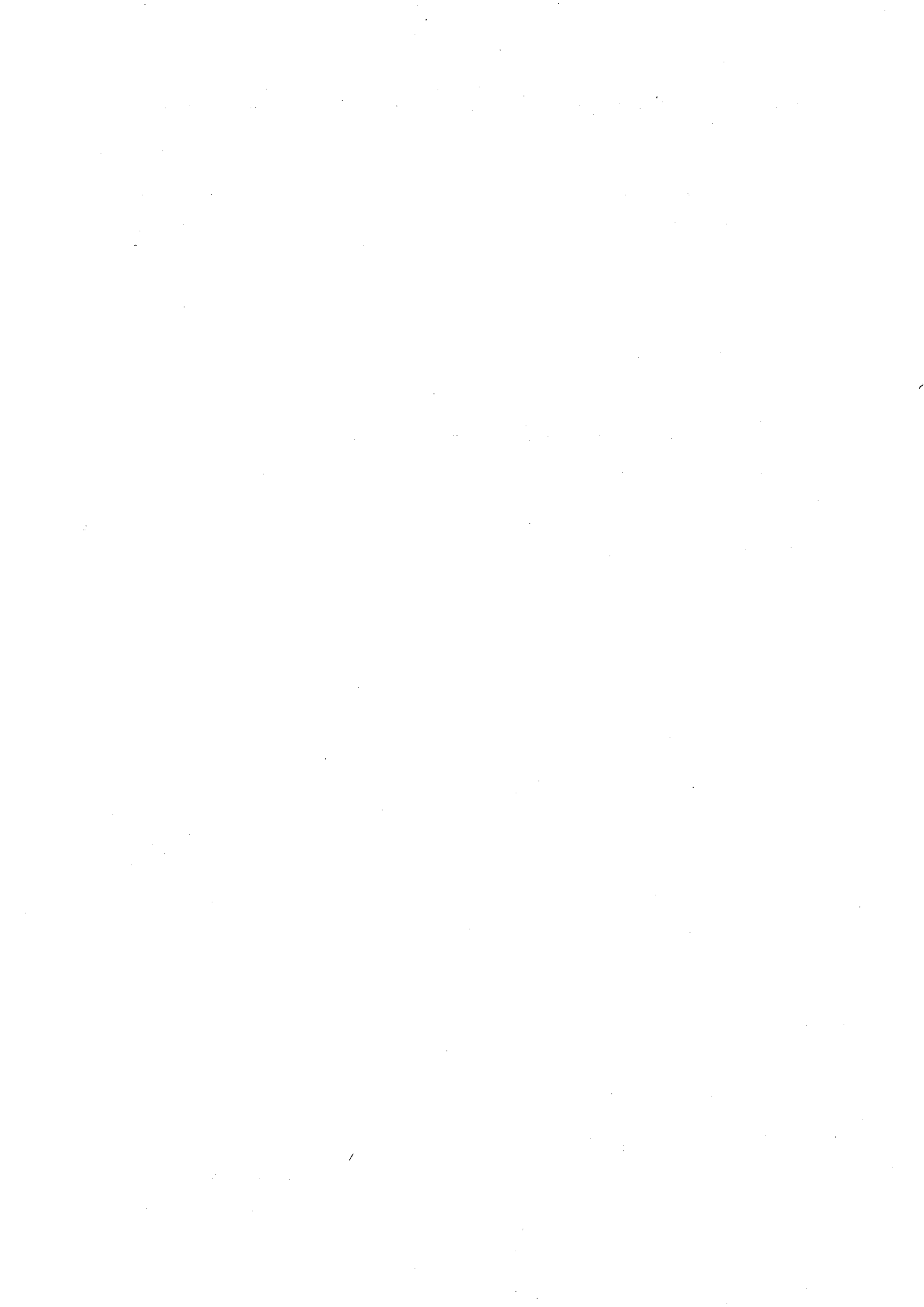
كما أسأله - عز وجل - أن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم ، ونافعة لعباده والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة مساء الجمعة ٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٢ هـ ٢٩ من يناير سنة ١٩٨٢ م .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٥٠ .



فهرس إجمالى لتفسير سورة يونس - عليه السلام -

فهرس إجمالى لتفسير سورة هود - عليه السلام -

فهرس إجمالى لتفسير « سورة يوسف »

فهرس إجمالى لتفسير سورة الرعد

فهرس إجمالى لتفسير سورة إبراهيم